وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

البلاغة والتطبيق

تأليف

الدكتور احمد مطلوب

الدكتور حسن البصير

طبعة ثانية

١٩٩٩

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

البلاغة والتطبيق

تأليف

الدكتور أحمد مطلوب　　　الدكتور كامل حسن البصير

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة لدى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

١٩٩٩م　　　١٤٢٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

البلاغة من علوم اللغة العربية، وقد كانت السبيل المفضي إلى فهم كتاب الله وكلام العرب، ولذلك أولى القدماء هذا الفن عناية كبيرة ووضعوا فيه دراسات كثيرة اتسمت بالاصالة والمنهج السديد، ولولا جنوح الحياة الادبية في القرون المتأخرة إلى التقليد لظلت البلاغة نابضة بالحياة ترفد الاديب بكل بديع، ولبقيت معلماً من معالم التطور والتجدد، ولكن ما أصاب الادب من ذبول أورثها جموداً تمثّل في شروح التلخيص وبعض ما عرف من كتبها في تلك العهود.

وقد قامت محاولات جادّة في هذا العصر لاعادة الحياة إلى البلاغة وربطها بالادب الحديث، ولكن تلك المحاولات لم تثمر كثيراً لانها لم تكمل ما بدأه السابقون وانما انصرفت إلى وضع المناهج من غير أن تمسّ الموضوعات أو تحاول بحثها من جديد، ولعل من اسباب ذلك ان بعض أصحاب تلك المحاولات لم يتعمقوا درسها، وكان المرحوم أمين الخولي أقدرهم على النهوض بالبلاغة لولا وقوفه عند منهج فن القول.

وطالبُ اللغة العربية في الكلية لا يحتاج إلى رسم المناهج قدر حاجته إلى الاصول التي تنير سبيله وتبصره بمواقع الكلام، وأول ما ينبغي أن يعرفه الأسس العامة التي تقوم عليها البلاغة كما استقرت في علومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع، ومن هنا كان منهج الدراسة بكليات الآداب في جامعات القطر العراقي، يقوم على معالجة هذه العلوم الثلاثة إلى جانب المهاد التاريخي الذي يكشف عن نشأة البلاغة وتطورها ليكون الطالب على بينة من أمر هذا الفن الذي نشأ ملاحظات عامة ثم استوى علماً ذا قواعد وأصول، وهذا الكتاب أربعة أبواب :

الأول : النشأة والتطور، وقد شمل مقدمة في تاريخ البلاغة العربية وتطورها، ودراسة المؤثرات فيها كالقرآن الكريم وكتب التفسير واللغة والنحو والادب والفلسفة، وما نتج عن ذلك من اتجاهين تمثلا في المدرسة الكلامية والمدرسة

الادبية، واحتوى هذا الباب دراسة تاريخية لمصطلحي الفصاحة والبلاغة وتطورهما خلال القرون.

الثاني : علم المعاني، وقد ضمّ البحث في تعريفه ودراسة أهم موضوعاته كالخبر والانشاء والتقديم والتأخير والفصل والوصل والقصر والايجاز والاطناب والمساواة.

الثالث : علم البيان، وقد شمل تعريفه ودراسة التشبيه والحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتعريض.

الرابع : علم البديع، وقد تضمن نشأته وأهم المحسنات اللفظية والمعنوية. وتوزعت هذه الأبواب على ثلاثة فصول دراسية ليكون للطلبة متسع ينصرفون فيه إلى استيعاب الاصول وتذوق النصوص ومعرفة مافيها من فنون.

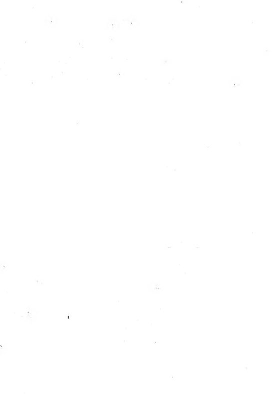
كتبت البابين : الأول والثاني ، وحرر زميلي الدكتور كامل البصير البابين : الثالث والرابع، وكان الالتزام واضحا بالمنهج التحليلي واعتماد النصوص البليغة ووضع التطبيقات والتمرينات في نهاية كل باب ليكون ذلك عونا للطلبة على فهم الاصول وتذوق النصوص: ولم يثقل الكتاب بالتمرينات الكثيرة وانما كان الاكتفاء بما يقرّب الصورة ويخدم الهدف لينطلق الطلبة بعد ذلك إلى رحاب أوسع بعد أن يتزودوا بالمعرفة ويألفوا أساليب العرب ويتذوقوا فن القول.

لقد أخذت أبواب هذا الكتاب من القديم أصولها، لان المنهج المقرر يلزم ذلك ، ولانّ نقل القديم فهما أوّل خطوات التجديد، وهذا ما تسعى اليه الدراسة الا مية ، حتى اذا ما ثقف الطلبة هذا القديم ووجدوا في نفوسهم القدرة على العطاء ساروا في طريق البناء وفي قلوبهم نور من التراث وفي نفوسهم قبس من الجديد.

وبعد فهذا كتاب فيه من القديم أصوله ومن الجديد تطبيقاته ، ولن يكون نافعاً إلاّ بعد ان يحسن الطلبة الانتفاع به، وبعد ان يقوّم الاساتذة مافيه من أود، وما الكمال إلا لله تعالى.

الاول من كانون الثاني ١٩٨١م
الخامس والعشرون من صفر ١٤٠١هـ

الباب الاول
النشأة والتطور



الفصل الاول

التاريخ

المبحث الاول

النشأة والمؤثرات

النشأة :

ان الباحث حينما يتلمس البذور الاولى للبلاغة العربية قبل عهد التدوين والتأليف يجد أن العرب عرفوا كثيراً من الاحكام النقدية التي أعانتهم على تفهم الشعر وتذوقه ونقده ، والامة التي أنجبت الشعراء الفحول والخطباء المصاقع لابدّ أن تعرف المعالم التي يختطها الشعراء ويترسّمها الخطباء، واذا كان كثير من الاحكام النقدية قبل الاسلام لم يصل الينا مع ما وصل من شعر وخطب وأمثال ، فان بعض تلك الاحكام تناقلتها الالسن وتداولتها الكتب،وقد وصف القرآن الكريم العرب بأنهم أصحاب بيان فقال سبحانه وتعالى : «الرحمنُ، علّم القرآنَ، خلق الانسانَ، علّمه البيانَ» (١) ؛ وقال عن حسن كلامهم وشدة أسره وتأثيره في النفوس : «ومن الناس من يُعجبك قولُه في الحياة الدنيا» (٢) ؛ ووصف الوليد بن المغيرة القرآن وقال : «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن، وان له لحلاوةً، وان عليه لطلاوةً، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق» (٣) .

ويمكن ان يستدل الباحث على ان العرب عرفوا كثيراً من الاحكام النقدية قبل الاسلام بأمرين :

الاول : عقلي لا يمكن إنكاره، وهو انه لا يُصدّق ان الشعر وصل إلى ما وصل اليه في ذلك العهد ، وان الخطابة بلغت ذروتها، وان اللغة اخذت صورتها

---

(١) سورة الرحمن، الآيات ١ — ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠٤.

(٣) في سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٧٠ : «والله ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لغدق ، وان فرعه لجناة».

من غير ان يكون هناك عقل مدبر لكل ذلك، ومن غير ان تكون هناك اصول عامة تعارف عليها الشعراء والمتكلمون وساروا عليها فيما نظموا أو قالوا. ومهما تحدّث الباحثون عن السليقة الصافية والذوق السليم، ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء، فان العقل ليكبر ان يكون ماكان من غير ثقافة ودُرْبة، وقواعد تضيء لهم الطريق وتفتح أمامهم سبل القول.

الثاني: نقليّ وهو ما أثر عنهم وما جاء من خطبائهم ووصف خطبهم. وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم، ولما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه للذي رأى من دمامته وقصره وقلته، فقال النعمان: «تسمع بالمعيدي لا أن تراه»، فقال: «أبيت اللعن، ان الرجال لا تكال بالقفزان (١) ولا توزن بالميزان، وليست بمسوك يستقى بها (٢)، وانما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانه، ان صال صال بجنان، وان قال قال ببيان» (٣). وكان ضمرة خطيبا فارسا شاعرا شريفا سيداً، وكان يحكم وينفر بالاسجاع.

واستدل الجاحظ من ألفاظ «العيّ» و «البكيء» و«الحصر» و «المفحم» و «الخطل» و «المسهب» على ان العرب قبل الاسلام عرفوا كثيراً من عيوب البلاغة والخطابة، وقال: «وكلام الناس في طبقات كما ان الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل، وكلّه عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا، فان زعم زاعم انه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت فلم ذكروا العيي والبكيء، والحصر والمفحم، والخطل والمسهب، والمتشدق والمتفيهق، والمهمار والثرثار، والمكثار والهمّار؟ ولم ذكروا الهجر والهذر، والهذيان والتخليط، وقالوا تلقّاعة، وفلان

---

(١) القفزان: جمع قفيز، وهو مكيال.

(٢) المسك: بالفتح وسكون السين: الجلد، وسمي بذلك لانه يمسك فيه الشيء إذا جعل سقاءا.

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ١٧١، ٢٣٧.

يتلهيع في خطبته (١)؟ وقالوا فلان يخطيء في جوابه ويحيل في كلامه ويناقض في خبره؟ ولولا ان هذه الامور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمّي ذلك البعض البعض الآخر بهذه الاسماء» (٢).

ووصفوا كلامهم في أشعارهم فجعلوها كبرود العصب، وكالحلل والمعاطف والديباج والوشي وأشباه ذلك. (٣) ووصفوا شعراءهم وأضفوا عليهم ألقاباً كالمهلهل والمرقش والمثقب والمنخل والمتنخل والأفوه والنابغة، وهذه الاوصاف تتصل بأحكامهم النقدية وبذوقهم للذي ميزوا به بين شاعر وشاعر.

وكان بعض الشعراء يعنون بأشعارهم وينقحونها قبل ان يذيعوها بين الناس، واشتهر زهير بن أبي سلمى بالحوليات وتبعه في ذلك الحطيئة وغيره ممن اعتموا بتنقيح الشعر وتجويده، وكان الحطيئة يقول : «خير الشعر الحولي المحكك» وقال الاصمعي : «زهير بن أبي سلمى والحطيئة واشباههما عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين» (٤). وقال الجاحظ : «وكذلك كل من جوّد في جميع شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة» (٥). وقال واصفا هؤلاء الشعراء : «ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (٦) وزمنا طويلا، ويردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه فيجعل عقله زماما على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، اشفاقا على أدبه واحرازاً لما خوّله الله تعالى من نعمته. وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات، والمقلدات، والمنقحات، والمحكمات، ليصير قائلها فحلا خنذيذاً وشاعراً مفلقا» (٧). وقال : «ومن تكسب

(١) الخطل : ذو الخطل وهو الكلام الفاسد الكثير. المسهب : كثير الكلام.
رجل مهمار : كثير الكلام. التلقاعة والتلقاع : كثير الكلام.
(٢) البيان ج ١ ص ١٤٤ — ١٤٥.
(٣) البيان ج ١ ص ٢٢٢.
(٤) الشعر والشعراء ج ١ ص ٧٨.
(٥) البيان ج ٢ ص ١٣.
(٦) كريتا : تاما.
(٧) البيان ج ٢ ص ٩.

شعره والتمس به صلات الاشراف والقادة وجوائز الملوك والسادة في قصائد للسلاطين وبالطوال التي تنشد يوم الحفل لم يجد بدا من صنيع زهير والحطيئة وأشباههما، فاذا قالوا في غير ذلك أخذوا عفو الكلام وتركوا المجهود: ولم نرهم مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد في صنعة طوال الخطب، بل كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب اقتداراً عليه وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه: وكانوا مع ذلك اذا احتاجوا إلى الرأي في معظم التدبير، ومهمات الامور ميثوه (١) في صدورهم ويقيدوه في انفسهم فاذا قوّمه الثقاف وأدخل الكير، وقام على الخلاص أبرزوه محككا منقحا، ومصفى من الادناس مهذباً (٢):

ان وقوف الشعراء عند قصائدهم ليتفحوها ويجيلوا النظر فيها يدل على الروح النقدية التي كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقده السامعون: ومما يتصل بالنقد قبل الاسلام ماكان شائعا من أحكام يتناقلها الشعراء وما كان يدور في اسواق العرب: وفي كتب الادب والنقد كثير منها يتصل بالمعاني واللغة والقافية.

فمن النوع الاول – المتصل بالمعاني – ماروي عن حكومة أم جندب الطائية بين امرىء القيس وعلقمة الفحل، فقد فضّلت علقمة حينما قال في وصف فرسه:

فأدركهن ثانياً من عنانه يمر كمرّ الرائح المتحلب(٣)

على زوجها امرىء القيس الذي قال:

فللزجر ألهوب وللساق درّة وللسوط منه وقع أخرج مهذب(٤)

وقد سأل امرؤ القيس أم جندب: بم فضلته عليّ ؟فقالت :فرس علقمة أجود من فرسك: قال: وبماذا؟ قالت: انك زجرت وحركت ساقيك وضربت بسوطك، أما علقمة فقد ادرك فرسه ثانيا من عنانه لم يضربه بسوط ولم يتعبه(٥):

---

(١) ميثوه : ذللوه.

(٢) البيان ج ٢ ص ١٣ – ١٤.

(٣) الرائح : السحاب. المتحلب : السائل عرقه.

(٤) أخرج : ذكر النعام. مهذب : مسرع.

(٥) الموشح ص ٢٨ – ٢٩.

وماجرى بين النابغة وحسان بن ثابت والخنساء، فقد رُوي أنهم كانوا يضربون للنابغة قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء وتعرض عليه اشعارها وكان أول من أنشده ذات يوم الاعشى، قال قصيدته التي مطلعها:

مابكاء الكبير بالأطـلال ... وسـؤالي وما تـردّ سـؤالي

ثم أنشده حسان بن ثابت:

لـنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولـدنا بني العنقاء وابني محرّق ... فأكرم بنا خالاً واكرم بنا ابنما

فقال النابغة: أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن أنجبك (١). وأنشدته الخنساء في هذا المجلس قصيدتها:

قذى بعينيك أم بـالعين عـوّار ... أم اقفرت مذ خلت من أهلها الدار

فقال لها النابغة: لا والله، لولا ان سبقك أبو بصير، أنشدني آنفا لقلت: انك أشعر الجن والانس. فقال حسان: «والله، لأنا اشعر منك ومن أبيك وجدك». فقبض النابغة على يده ثم قال: يا ابن أخي، انك لاتحسن أن تقول مثل قولي:

فـانـك كالـليـل الذي هو مدركي ... وان خلت ان المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء: أنشديه، فأنشدته، فقال: «والله مارأيت أنثى أشعر منك». فقالت الخنساء: «والله، ولارجلا» (٢).

ومما يتصل باللغة كلمة «الصيعرية» في بيت المسيب بن علس:

وقـد اتناسى الهمّ عند ادكاره ... بناجٍ عليه الصيعرية مكدم (٣)

فلما سمع طرفة هذا البيت قال: «استنوق الجمل» لأن «الصيعرية» سمة في عنق الناقة لاالبعير (٤).

---

(١) الموشح ص ٨٢، والمصون في الادب ص ٣.

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٤٤.

(٣) الناجي : الجمل. الصيعرية : سمة في عنق الناقة. المكدم : الغليظ أو الصلب.

(٤) [illegible] ١١٠، ١٣٣.

ومما يتعلق بالقوافي ماذكروه عن النابغة، فقد قالوا: انه لم يُقْوِ أحد من شعراء الطبقة الاولى الأهو في قوله:

أمِن آل ميَّةَ رائحٌ أو مغتدي عجلان ذا زاد وغيرِ مزوَّدِ
زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ

وفي قوله:

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليدِ
بمخضب رخص كأن بنانه عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعْقَدُ

فقدم المدينة فعيب عليه ولم يأبه، وجعلوا يخبرونه وهو لايفهم مايريدون «فأتوا بجارية: اذا صرت إلى القافية فرتلي، فلما قالت: «الغرابُ الاسودُ» و«يُعْقَدُ» و«باليد» و«مزوَّد» علم فانتبه فلم يعد اليه، وقال: «قدمت الحجاز وفي شعري صنعة، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس»(١): وقال عمرو بن العلاء: «فحلان من الشعراء كانا يُقويان: النابغة وبشر بن أبي خازم، فأما النابغة فدخل يثرب فغُنِّي بشعره فتفطن فلم يعد للاقواء، وأما بشر بن أبي خازم فقال له أخوه سوادة: انك تُقْوي. قال: وما الاقواء؟ قال: قولك:

ألم تر أن طول الدهر يسلي وينسي مثلما نُسيت جذامُ

ثم قلت:

وكانوا قومنا فبغوا علينا فسقناهم إلى البلد الشآمِ

فقال: ثبيت خطئي، ولست بعائد»(٢).

وذكر ابو هلال العسكري أن القدماء أشاروا إلى الفصل والوصل في الكلام، قال: «وكان أكثم بن صيفي اذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه: افصلوا بين كل معنى منقضٍ، وصلوا اذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض. وكان الحارث

---

(١) الموشح ص ٤٥-٤٦.
(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٧٠، والموشح ص ٨٠.

ابن أبي شمر الضاني يقول لكاتبه المرقش: اذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الالفاظ ، فانك اذا حذفت الحبل بغير مايحسن أن تحذف به نفرت القلوب عن وعيها، وملّته الاسماع، واستثقلته الرواة»(١):

وشك بعض الباحثين في هذه الروايات (٢) . ولكننا مع هذا الشك نقرر ان هذه الروايات تعكس جانباً من فهم العرب للنقد في مرحلة التكوين الاولى ، وليس بعيداً أن تصدر مثل هذه الاحكام قبل الاسلام بعلما رأينا كثيراً من الدلائل التي تؤيدما ذهبنا اليه: يضاف إلى ذلك ان هذه الروايات ليس فيها التعليل القائم على النظرة العلمية لكي ننكرها وانما هي احكام عابرة أطلقها الشعراء والمحكمون ، معتمدين على الذوق الفطري الذي عرف به العرب: وكان شعراء اليونان بعد ان انتهى عصر الملاحم وازدهر الشعر الغنائي في القرن السادس قبل الميلاد يصدرون بعض الاحكام التي تعبّر عن رأي ذاتي أبعد مايكون عن القاعدة العلمية. ومعنى ذلك أن الشعراء شاركوا في حركة النقد القديم، فلم لاينطبق ذلك على العرب وهم أهل علم ودراية وذوق ورواية، ولهم خطب رائعة وشعر بديع؟

واذا ماانتقلنا إلى العصر الاسلامي رأينا ايمان العربي بالقرآن الكريم واعتناقه الاسلام كان حكما نقديا أدركه بذوقه السليم وفطرته الصافية، ورأينا الرسول الكريم محمداً – صلى الله عليه وسلم – يعنى عناية عظيمة بأحاديثه وخطبه،وقد أثر عنه انه كان يقول «لايقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي» ،كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه(٣): وكان يستمع إلى الشعر ويقول: «ان من البيان لسحرا» .وكان الخلفاء الراشدون والصحابة يستمعون إلى الشعر ويبدون رأيهم فيه:

(١) كتاب الصناعتين ص ٤٤٠.
(٢) ينظر تأريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٩، ودروس في البلاغة وتطورها ص ١٠.
(٣) الحيوان ج ١ ص ٣٣٥.

واذا مانظرنا إلى العصر الاموي رأينا الحياة الادبية تزدهر، وكان الخلفاء يعقدون المجالس ويستمعون إلى الشعراء ويعلقون على بعض مايسمعونه، ومن ذلك ان ابن قيس الرقيات أنشد عبد الملك بن مروان قصيدته التي يقول فيها:

يأتلق التاجُ فوق مفرقهِ على جبين كأنه الذهب

فلما سمع عبد الملك ذلك غضب وقال له: وقد قلت في مصعب بن الزبير:

انّما مصعبٌ شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح مالا فخر فيه وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة(1).

وكان المؤدبون يقومون بدور عظيم في تعليم اللغة وأدبها ورسم القواعد العامة التي تفضي إلى اتقان اللغة وتذوقها: وكان هؤلاء المؤدبون يخوضون في موضوعات كثيرة، وليس من شك في ان الفصاحة والبلاغة كانت من تلك الموضوعات.

وشهد القرن الثاني للهجرة حركة ادبية واسعة، وكانت الحواضر تزخر بالعلماء، وبلغت حركة التدوين والتأليف ذروتها في العصر العباسي الاول، وظهرت كتب التفسير واللغة والادب والتأريخ تحمل تراثا ضخما حافلا بكل طريف، وكانت البلاغة احد العلوم التي اهتم بها العرب منذ عهد مبكر، وقد دفعتهم إلى العناية بها أهداف ومؤثرات كثيرة:

الأهداف:

ان الحياة الجديدة التي عاشها العرب بعد ان خرجوا من جزيرتهم دفعتهم إلى العناية باللغة والادب، لأنهم وجدوا تحديات كثيرة تعرضت لها العربية بعد أن دخل في الاسلام قوم أرادوا هدمه وتقويض دولة العرب. وكانت الجهود العظيمة التي بذلها المخلصون ايذانا بظهور علوم اللغة التي اخذت تتطور جيلا بعد جيل حتى أصبحت سامقة لاتقدر عليها هوج الاعاصير:

(1) نقد الشعر ص ٢١٤.

وقد تظافرت أسباب وأهداف كثيرة دفعت العرب إلى الخوض في الدراسات البلاغية ،ويمكن تلخيصها في :

١ – الغرض الديني :

وهو خدمة القرآن الكريم الذي كان معجزة تحدّى الانس والجن، ولكي يبرهنوا على اعجازه ويفهموا آياته واسلوبه ليستنبطوا الاحكام منه اتجهوا إلى البلاغة باحثين فنونها وموضحين اقسامها لتكون لهم عونا على فهم القرآن ، وكان هذا الغرض من اهم الاهداف التي دفعتهم الى البحث والتأليف فيها ؛ وقد أشار ابو هلال العسكري إلى هذا الهدف السامي بقوله : «اعلم – علّمك الله الخير ودلّك عليه وقيضه لك وجعلك من اهله – أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله – جلّ ثناؤه – علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق ، الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت اعلام الحق وأقامت منار الدين ، وازالت شبه الكفر ببراهينها ،وهتكت حجب الشك بيقينها . وقد علمنا ان الانسان اذا اغفل علم العربية وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ماخصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب، وماشحنه من الايجاز البديع والاختصار اللطيف ،وضمنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها، وإنما يُعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه وبراعته وسلاسته ونصاعته وكمال معانيه وصفاء ألفاظه. وقبيح لعمري بالفقيه المؤتم به، والقارىء المُهْتدى بهديه، والمتكلم المشار اليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه، وبالعربي الصليب والقرشي الصريح أن لايعرف اعجاز كتاب الله – تعالى – إلاّ من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي، أو انه يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبيّ ؛ فينبغي من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله – تعالى –

ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جلّ اسمه» (١).

٢ ـ الغرض التعليمي:

وهو تعليم الناشئة اللغة العربية ومعرفة أساليبها بعد أن اتصل العرب بأمم شتى وأدى ذلك الاتصال إلى فساد اللغة ودخول اللحن فيها. يضاف إلى ذلك أن كثيراً من المسلمين كانوا بحاجة إلى تعلم العربية وبلاغتها ليفهموا القرآن الكريم وليعيشوا في ظل دولة لغتها العربية. وكانت المقدرة الكتابية في كثير من الأحيان السبيل الموصل إلى المناصب الرفيعة وكان على من يسعى إلى أن تسنمها أن يكون كاتباً له في الأدب وفنونه يد طولى وله أسلوب رفيع. فلكي يتعلم العربي الناشيء في بيئة امتزجت فيها اللغات بلغته ويصبح قادراً على التعبير الحسن والنظم الرائق وانشاء الرسائل، ولكي يتعلم المسلم لغة دينه ولغة الدولة التي يعيش في ظلها، ولكي يصل الناس إلى أرقى المناصب وأعلى الرتب ـ كان عليهم جميعاً أن يتقنوا العربية، ولا يتم ذلك الإتقان إلا بمعرفة ألفاظها وتراكيبها ومعانيها وأساليبها، والبلاغة إحدى السبل التي توصل إلى هذه الغاية وتخدمها.

٣ ـ الغرض النقدي:

وهو تمييز الكلام الحسن من الرديء والموازنة بين القصائد والخطب والرسائل. والبلاغة تعين الناقد كثيراً لأنها تقدم له الآلة التي تعينه على الفهم والحكم، ولذلك نجد القدماء يعنون عناية كبيرة بها، ويؤلفون الكتب فيها. وقد اشار العسكري إلى الهدفين التعليمي والنقدي بقوله: «ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة، منها أن صاحب العربية اذا أخلّ بطلبه وفرّط في التماسه ففاتته فضيلته وعلقت به رذيلة فوته عفّى على جميع محاسنه وعمّى سائر فضائله، لانه اذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ولفظ حسن وآخر قبيح،

(١) كتاب الصناعتين ص ١ ـ ٢.

وشعرنا در وآخر بارد ، بان جهله وظهر نقصه : وهو ايضا اذا اراد أن يصنع قصيدة أو ينشيء رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخلط الغُرر بالعرر واستعمل الوحشي العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل كافعل ابن جحدر في قوله :

حلفت بما أرقلت حوله همرجلة خلقها شيظم

وماشبرقت من تنوفية بها من وحى الجن زيزيّم (١)

وانشده ابن الاعرابي فقال: ان كنت كاذبا فالله حسيبك :وكما ترجم بعضهم كتابه إلى بعض الرؤساء : «مكركسة تربونا ومحبوسة بسربتا » فدلّ على سخافة عقله واستحكام جهله، وضرّه الغريب الذي اتقنه ولم ينفعه ،وحطه ولم يرفعه، لما فاته هذا العلم وتخلف عن هذا الفن.

واذا اراد ايضا تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذا العلم ساء اختياره وقبحت آثاره فيه ، فأخذ الرديء المرذول وترك الجيد المقبول ، فدلّ على قصور فهمه وتأخر معرفته وعلمه »(٢).

ويتصل بهذا الغرض رواية الادب ومعرفة الجيد الذي يُروى والرديء الذي ينبغي ان يطرح، وقد اشار العسكري إلى ذلك بقوله : «وقد قيل: اختيار الرجل قطعة من عقله، كما ان شعره قطعة من علمه، وماأكثر من وقع من علماء العربية في هذه الرذيلة، منهم الاصمعي في اختياره قصيدة المرقش:

هل بالديار أن تجيب صمم لو أن حيا ناطقا كلم

ولااعرف على اي وجه صرف اختياره اليها وماهي بمستقيمة الوزن ولاموتلفة الروي ولا سلسة اللفظ ولاجيدة السبك ولامتلائمة النسج، وكان المفضل يختار من الشعر

(١) أرقلت : أسرعت. الهمرجلة : الناقة. الشيظم : الطويل الجسم. شبرقت : عدت. التنوفية : المفازة والارض الواسعة. الوحي : الصوت الخفي. زيزيم : صوت الجن.

(٢) كتاب الصناعتين ص ٢-٣.

مايقل تداول الرواة له ويكثر الغريب فيه، وهذا خطأ من الاختيار، لان الغريب لم يكثر في كلام الا أفسده وفيه دلالة الاستكراه والتكلف »(١) .

وكانت هذه الاهداف دافعا قويا حفزهم إلى الخوض في دراسة البلاغة والتأليف فيها ، وكانت هذه الاهداف غرض المؤلفين جميعا ، ولانكاد نجد كتابا من كتب البلاغة واعجاز القرآن يخلو من الاشارة اليها ،ولعل مانقلناه من مقدمة كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري يوضح الغرض ويخدم الفكرة ويبين على تصور الدوافع الكثيرة التي كان لها الفضل الكبير في ظهور كتب البلاغة.

وقد تظافرت جهود كثيرة على وضع أسس البلاغة وأصولها ، ويمكن ان نتلمس ذلك في المفسرين والاصوليين، واللغويين والنحاة، والشعراء والكتّاب، والفلاسفة والمتكلمين. وكانت كل طبقة من هؤلاء تتفق في كثير من الاسس وتلتقي في أهداف واضحة المعالم، وان كان رجالها يختلفون في تصورهم للبلاغة

المؤثرات :

أثرت في نشأة البلاغة وتطورها عدة عوامل أهمها:

القرآن الكريم :

كان للقرآن الكريم أثر عظيم في البلاغة ، وقد شغل الناس به وأخلوا يتدارسونه ويوضحون معانيه ويتحدثون عن ألفاظه وتراكيبه ومافيه من فنون وقف العرب أمامها مبهورين. وكانت البلاغة من العلوم التي أولوها عناية كبيرة وجعلوها «أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ. — بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه، لانه الانسان اذا اغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ماخصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وماشحنه به من الايجاز البديع» (٢) وذهبوا أبعد من ذلك فقال عمرو بن عبيد عن البلاغة أنها «مابلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، ومابصّرك بمواقع رشدك وعواقب غيك»(٣).

(١) كتاب الصناعتين ص ٣

(٢) كتاب الصناعتين ص ١.

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٤.

وكان تأثير القرآن واضحا في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية ، وكانت آياته البينات الشاهد البلاغي الرفيع . وكانت احدى آياته مدعاة إلى ان يؤلف أبو عبيدة «مجاز القرآن». يقول : «أرسل اليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج اليه سنة ١٨٨هـ، فقدمت الى بغداد واستأذنت عليه فاذن لي ، فدخلت عليه وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه ، وفي صدره فرش عالية لا يُرتقى اليها إلاّ على كرسي وهو جالس عليها فسلمت عليه بالوزارة ، فردّ وضحك واستدناني حتى جلست اليه على فرشه ، ثم سألني وألطفني وباسطني وقال : أنشدني ، فأنشدته فطرب وضحك ، وزاد نشاطه . ثم دخل رجل في زي الكتّاب له هيئة فأجلسه الى جانبي وقال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا أبو عبيدة علاّمة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا ، وقال لي : اني كنت اليك مشتاقا ، وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لي أن أعرفك اياها ؟ فقلت : هات . قال :

قال الله – عزّ وجل – : «طَلْعُها كأنه رؤوسُ الشياطين» (١) ، وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف . فقلت : انما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنّنةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم اوعدوا به . فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج اليه من علمه . فلما رجعت الى البصرة عملت كتابي الذي سميته «المجاز» (٢).

وانتهى ابن خلدون إلى أن ثمرة علم البلاغة إنما هي في فهم الاعجاز من القرآن، لأن اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ،

---

(١) سورة الصافات، الآية ٦٥.

(٢) معجم الادباء ج ٧ ص ١٦٦ – ١٦٧.

وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها ، وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن ادراكه» (١) .

وكانت لمسألة اعجاز القرآن أثر كبير في تطور البلاغة العربية، وكان المتكلمون أول من بحثوا في الاعجاز، واختلفت وجهات النظر في ذلك وتشعبت سبل القول، لأن الوصول إلى ذلك صعب، وتحديد البلاغة في كتاب الله أصعب، ولكنهم - مع ذلك - مضوا يتلمسون بلاغة القرآن ويبينون اعجازه، فكانت دراساتهم أحسن مصدر للبلاغة وأجلّ مورد لمن أراد أن يتذوق الكتاب العزيز ويفهم البيان .

ومن أشهر الذين عنوا بهذه المسألة أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (- ٣٠٦هـ) الذي ألف كتاب «اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه»، ولم يصل هذا الكتاب لنعرف الموضوعات التي عالجها وان كان يبدو من العنوان انه يتحدث عن اسلوب كتاب الله واعجازه في النظم والتأليف .

ومنهم أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (- ٣٨٦هـ) صاحب رسالة «النكت في اعجاز القرآن» وقد ذهب إلى أن القرآن معجز ببلاغته، وهو أعلى طبقات الكلام .

وأبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (- ٣٨٨هـ) مؤلف رسالة «بيان أعجاز القرآن» وقد رأى أن البلاغة ترجع إلى جمال ألفاظ القرآن وحسن نظمه وسمو معانيه وتأثيره في النفوس.

ومنهم أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (- ٤٠٣هـ) الذي ألف كتاب «اعجاز القرآن»، وهو من الكتب المهمة، وقد ذهب الباقلاني إلى أن كتاب الله معجز لأنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب .

والقاضي أبو الحسن عبد الجبار الاسد آبادي (- ٤١٥هـ) الذي كان الجزء السادس عشر من كتابه «المغني في أبواب التوحيد والعدل» خاصا باعجاز القرآن ، وقد ذهب الى أن القرآن معجز بنظمه ، وهي الفكرة التي بني عليها عبد القاهر الجرجاني كتابه « دلائل الاعجاز » .

وهذه الكتب وغيرها تعدّ من أهم مصادر دراسة البلاغة، لأنها تعرضت لأسلوب القرآن الكريم وتكلمت على أساليب العرب في الكلام وقد كان أثرها عظيماً في تطور البلاغة واستقلالها عن الدراسات الأدبية والنقدية.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢.

المفسرون :

ويتصل بالقرآن وأثره المفسرون، وهم الذين ينظرون في كتاب الله تعالى ويفسرون ألفاظه ويوضحون معانيه ويبينون مقاصده وأهدافه ، ويشرحون ما فيه من قيم رفيعة ونظرات عميقة، ويظهرون فنون القول فيه وروعة البيان ،ولكي يستطيع المفسر أن يقوم بهذا كله لابد من أن يطلع على علوم اللغة العربية لينفذ إلى أسرار القول ويغوص على معانيه: والبلاغة إحدى الوسائل المهمة التي تكشف أسرار الاعجاز وتوجه الآيات التي لايمكن حملها على الظاهر: وقد شعر المفسرون بهذا للعمل المظيم فأخذوا يضعون لدراساتهم القرآنية مقدمات بلاغية أو يخوضون في مباحثها حينما يتحدثون عن الآيات وبلاغتها، وصاروا ينبهون إلى أهمية ذلك، ويتضح ذلك في مقدمة تفسير الطبري وتفسير الكشاف للزمخشري، فقد أشار إلى أهمية معرفة البلاغة لأن القرآن عربي وأسلوبه عربي، ولكي تكون آياته واضحة ينبغي معرفة أساليب العرب وفنون القول عندهم : وقد نعى السكاكي على المفسر الذي لايعرف من البلاغة شيئاً، قال: «الوقف على تمام مراد الحكيم – تعالى وتقدس – من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين – المعاني والبيان – كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل» (1).

وأصبحت كتب البلاغة سبيلا تفضي إلى رحاب القرآن، ومعالم يهتدي بها الدارسون ويستعين بما فيها من ومضات مشرقة ولمحات بديعة المفسرون ومن هنا كانت البلاغة مقدمة لدراسة كتاب الله وتفسيره وإدراك فصاحته وبلاغته ،وصار الأساتذة لايقدمون على تدريس كتب التفسير إلا بعد أن يلم طلابهم بطرف من البلاغة وفنونها كما فعل يحيى بن حمزة العلوي حينما ألف كتابه «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز» ليكون عوناً لمن شرع في قراءة تفسير الكشاف عليه .

---

(1) مفتاح العلوم ص ٧٧.

وكتب التفسير كلها تتصل بالبلاغة، ولعل أهم تفسير عني بالبلاغة «الكشاف» لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (– ٥٢٨هـ) الذي جمع فيه كثيراً من فنون البلاغة واستعان بها في فهم كلام الله وإظهار مافيه من روعة وجمال.

ويتصل بالقرآن الكريم الأصوليون وهم أصحاب الصناعة الثانوية في فهمهم للشرع الأسلامي من كتاب الله وحديث الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – واستخراج أصول التشريع. وقد أثر هؤلاء في البلاغة، وفي كتبهم بحوث مستفيضة عن الخبر والإنشاء، والحقيقة والمجاز، وهي بحوث تدل على استئثار علم أصول الفقه بها.

ومن الكتب التي عنيت بالبلاغة وأثرت فيها كتاب «الرسالة» للإمام محمد بن أدريس الشافعي (– ٢٠٤هـ)، وكتاب «المعتمد في أصول الفقه» لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي (– ٤٣٦هـ) وكتاب «المستصفى من علوم الاصول» للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (– ٥٠٥هـ)، وكتاب «الاحكام في أصول الأحكام» لأبي الحسن علي بن أبي علي سيف الدين الآمدي (– ٦٣١هـ).

اللغويون والنحاة:

ومن الذين أثروا في نشأة البلاغة وتطورها اللغويون والنحاة، وقد كانت لهم يد طولى في ذلك، وظل دورهم مشهوداً منذ عهد التدوين واستطاعوا أن يسيطروا على مناهج الدرس ويرفعوا لواء المحافظة على اللغة ويردّوا المحدثين وما ذهبوا إليه. وأخبار الخصومة بين الشعراء واللغويين والنحاة مستفيضة، من ذلك أن ابن أبي إسحاق اعترض على الفرزدق لرفع (مجلف) في قوله:

وعضُّ زمانٍ يا ابن مروان لم يَدَعْ من المال إلاّ مسحتاً أو مجلّفُ

فقال: علام رفعت «مجلف»؟ فرد الفرزدق: على مايسوؤك وينوؤك، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا (١) وكان الخليل بن أحمد يقول لابن مناذر: «إنما أنتم معشر الشعراء تبع لي وأنا سكان السفينة، إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم

(١) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٦ وما بعدها.

وإلا كسدتم «فقال ابن مناذر: «والله لأقولن في الخليفة قصيدة امتدحه بها ولا أحتاج إليك فيها عنده ولا إلى غيرك» (١).

وكانوا يستهينون بالنحاة ولا يقبلون أحكامهم، قال أبو أحمد العسكري: «أخبرنا أبو بكر محمد بن يحيى قال: حدثني علي بن العباس قال: رآني البحتري ومعي دفتر فقال: ماهذا؟ فقلت: شعر الشنفرى. قال: وإلى أين تمضي؟ قلت أقرأه على أبي العباس أحمد بن يحيى. قال: رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام فلم أرَ له علماً بالشعر مرضياً ولا نقداً له ورأيته ينشد أبياتاً صالحة وبعيدها إلا أنها لاتستوجب الترديد والاعجاب بها» (٢). ووقف بعض البلاغيين بوجه اللغويين والنحاة أيضاً وسخروا منهم كابن الأثير الذي قال وهو يتحدث عن ابن جني «لكن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب» (٣).

إن هذا الصراع بين اللغويين والنحاة والشعراء أفاد الأدب ودفع الجميع إلى البحث والتفكير فكانت الكتب العظيمة والآراء السديدة. وإذا كان موقف الشعراء يتسم بالمغالاة، فإن اللغويين والنحاة أثروا في البلاغة، وكانت لهم وقفات محمودة والتفاتات بارعة دخلت كتب البلاغة فيما بعد. ومن أقدم الذين اهتموا باللغة وشواردها والنظر في الشعر واستخلاص قواعده معمر بن المثنى (- ٢٠٨هـ) المعروف بأبي عبيدة، وفي كتابه «مجاز القرآن» كثير من الإشارات إلى فنون البلاغة وأساليب التعبير.

ومنهم أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (- ٢١٦هـ) الذي كانت له آراء نقدية وبلاغية تمثل ذوقه وذوق عصره، ويتضح ذلك في كتابه «فحولة الشعراء» وفي الآراء الكثيرة التي تناقلتها كتب البلاغة والنقد.

(١) الاغاني ج ١٨ ص ١٨٤.
(٢) المصون في الادب ص ٤.
(٣) المثل السائر ج ١ ص ٣٨٣.

وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد (– ٢٨٥هـ) الذي ذكر كثيراً من فنون البلاغة في كتابه «الكامل»، وكان كلامه على التشبيه من أوسع ماعرف في عهده، وقد صار عمدة البلاغيين حينما درسوا هذا الفن وقسموه ومثّلوا له .

وأبو الحسين أحمد بن فارس(– ٣٩٥هـ) الذي كان كتابه «الصاحبي» من أهم كتب اللغويين التي عرضت لموضوعات البلاغة، ولعله أول من تحدث بوضوح عن الخبر والانشاء حينما قسم الكلام إلى: خبر واستخبار، وأمر ونهي، ودعاء وطلب، وعرض وتحضيض، وتمنّ وتعجب (١). وتحدث عن موضوعات كثيرة أخرى كالحقيقة والمجاز، والحذف والاختصار ، والزيادة والتكرار، والتقديم والتأخير، والإعتراض والإيماء، والتهكم ، والكناية ،والإفراط، والإستطراد ، والتأكيد، وغيرها.

ومن النحاة الذين كانت كتبهم مادة خصبة للبلاغيين أبو بشر عمرو بن عثمان ابن قنبر(– ١٨٠هـ) صاحب الكتاب المشهور .

وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (– ٢٠٧هـ) ، مؤلف «معاني القرآن» .

وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (– ٢٩١هـ) صاحب«قواعد الشعر» .

وعبد القاهر الجرجاني (– ٤٧١هـ – أو ٤٧٤هـ) صاحب « دلائل الاعجاز » و «أسرار البلاغة» .

وقد كانت لكتب هؤلاء النحاة أثر في البلاغة لأنها عنيت بالأساليب العربية وذكرت كثيراً من المصطلحات التي دخلت في كتب البلاغة وأصبحت مصطلحات علمية .

الشعراء والكتّاب :

وأثّر الشعراءُ في البلاغة، وقد كانوا يعنون بالقول ويجودون أشعارهم وينقحونها منذ عهدهم الأول، وقد دلت الملاحظات البيانية على أنهم كانوا أصحاب ذوق ومعرفة بجيد الشعر ورديئه . ونما ذوقهم حينما تقدم بهم الزمن وكثرت ملاحظاتهم حتى إذا ماجاء العصر العباسي ودخل العرب حياة جديدة تطورت نظرتهم إلى

---

(١) ينظر الصاحبي ص ١٧٩ وما بعدها.

الشعر وإدراكهم لما فيه من روعة وجمال أو تصنع وتطبع: وقد رُوِيَ ان بشار ابن برد كان ينقد الشعر ويشير إلى جيده ورديئه، وأنشد قول الشاعر :

وقـد جعل الأعـداء ينتقصوننـا وتطمع فينـا ألسـن وعيـون

ألا إنما ليلى ، عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكـف تليـن

فقال : والله لو زعم انها عصا مخ أو عصا زبد ، لقد كان جعلها جافية خشنة بعد أن جعلها عصا ، ألا قال كما قلت :

ودعجاء المحاجر من معدّ كأن حديثها ثمر الجنـان

إذا قامت لمشيتها تثنـت كأن عظامها من خيـزران (١)

وقال: «لم أزل منذ سمعت قول امرىء القيس في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه» (٢)

وفي كتب الأدب كثير من هذه الأحكام التي تدل على مكانة الشعراء في العصر العباسي وتوجيههم النقد والبيان. قال ابن المعتز : «البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ماهو» (٣). وقال ابن رشيق القيرواني: «أهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما أشبه ذلك، ولو كانوا دونهم بدرجات، وكيف وأن قاربوهم أو كانوا منهم بسبب؟ وقد كان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لايجرون مع خلف الاحمر حلبة هذه الصناعة، أعني النقد، ولا يشقون له غباراً لنفاذه فيها وحذقه بها واجادته لها» (٤).

---

(١) الاغاني ج ٣، ص ١٥٤.

(٢) الاغاني ج ٣ ص ١٩٦.

(٣) البديع ص ٥٨.

(٤) العمدة ج ١ ص ١١٧.

وكان ابن المعتز (ـ ٢٩٦هـ) الشاعر العباسي أكثر الشعراء تأثيراً في البلاغة، فقد وضع كتابه «البديع» الذي تحدث فيه عن خمسة فنون من البديع هي: الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد اعجاز الكلام على ماتقدمها والمذهب الكلامي. وتكلم على ثلاثة عشر فناً وسماها «محاسن الكلام» وهي: الالتفات، والاعتراض، والرجوع، وحسن الخروج، وتأكيد المدح، وتجاهل العارف، والهزل يراد به الجد، وحسن التضمين، والتعريض والكناية، والافراط في الصفة، وحسن التشبيه، ولزوم مالا يلزم، وحسن الابتداء، وكانت هذه الفنون عمدة البلاغيين فبنوا عليها كتبهم وذكروا ماقاله ابن المعتز وأضافوا اليها فنوناً كثيرة.

ومن الشعراء الذين كانت لهم مشاركة في البلاغة الشريف الرضي (ـ ٤٠٦هـ) صاحب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» و «المجازات النبوية».

وابن رشيق القيرواني (ـ ٤٦٣هـ) مؤلف «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده» و «قراضة الذهب».

وابن سنان الخفاجي (ـ ٤٦٦هـ) مؤلف «سر الفصاحة».

وأسامة بن منقذ (ـ ٥٨٤هـ) صاحب «البديع في نقد الشعر».

وابن أبي الاصبع المصري (ـ ٦٥٤هـ) مؤلف «تحرير التحبير» و «بديع القرآن».

وكان للكتّاب أثر واضح في البلاغة، فقد صبغوا كثيراً من بحوثها بصبغة أدبية لما امتازوا به من أدب رفيع وذوق سليم. وهم الذين قال الجاحظ عنهم: «أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً» (١). وقال ابن رشيق: «الكتّاب أرق الناس في الشعر طبعاً وأملحهم تصنيفاً وأحلاهم ألفاظاً وألطفهم معاني وأقدرهم على تصرف وأبعدهم من تكلف، وقد قيل: الكتّاب دهاقين الكلام» (٢).

---

(١) البيان ج ١ ص ١٣٧.

(٢) العمدة ج ٢ ص ١٠٦.

وأخذت الكتابة مكانة مرموقة منذ العصر الأموي وكان عبد الحميد الكاتب (– ١٣٢ هـ) ممن انتهت اليهم رياسة الكتابة في ذلك العهد. وكان ابن المقفع (– ١٤٣ هـ) ممن أثَّر في البلاغة ونقلت عنه كثير من الأقوال فيها. ولكن أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (– ٢٥٥ هـ) من أكثر الكتّاب تأثيراً في البلاغة، وظلت بما ذكره في كتبه ولا سيما «البيان والتبيين» و «الحيوان» من فنون بلاغية وأساليب بليغة وأصبحت دراسته لمسائلها أساس البلاغيين وإن كان لم يبحثها بحثاً علمياً يقوم على التحديد الدقيق والتقسيم المنطقي الذي عرفته كتب المتأخرين.

ومن الكتّاب الذين أثروا في البلاغة قدامة بن جعفر (– ٣٣٧ هـ) مؤلف «نقد الشعر».

وابن وهب الكاتب صاحب «البرهان في وجوه البيان» وهو الكتاب الذي طبع قسم منه باسم «نقد النثر» ونسب إلى معاصره قدامة بن جعفر.

وأبو هلال العسكري (– ٣٩٥ هـ) مؤلف «كتاب الصناعتين» أي: صناعة الشعر والنثر.

وابن ناقيا البغدادي (– ٤٨٥ هـ) مؤلف «الجمان في تشبيهات القرآن».

وضياء الدين بن الأثير (– ٦٣٧ هـ) صاحب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» و «الجامع الكبير» و «الاستدراك».

وشهاب الدين محمود الحلبي (– ٧٢٥ هـ) صاحب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل».

المتكلمـــون :

وأثّر المتكلمون في نشأة البلاغة وتطورها، والمتكلمون أصحاب الصناعة الكلامية في بحثهم للقرآن الكريم وتدليلهم على اعجازه واستنباط العقائد منه والدفاع دونه. وقد ظهر أثرهم مبكراً، وكان المعتزلة أظهر فرقة ألفت في البيان وتحدثت في فن

القول: ولعل صحيفة بشر بن المعتمر (– ٢١٠هـ) من أقدم الآثار في ذلك (١)، وقد تحدث فيها عن فن القول وأوضح فيها كثيراً من القضايا التي أصبحت عمدة البلاغيين والنقاد، من ذلك كلامه على الإستعداد للإنتاج الأدبي والإهتمام بتخير اللفظ والمعنى وتحديد المنازل التي يمر بها الأديب، وأولها منزلة البليغ التام الذي يكسو عباراته جمالاً يرجع إلى رشاقة الألفاظ وعذوبتها وجزالتها وسهولتها ووضوح المعاني وانسجامها. وثانيها منزلة من لم تسعفه طبيعته بالألفاظ الملائمة والقوافي الجيدة والمعاني الرائعة، وعليه أن يتأنى ويؤجل الكتابة إلى وقت نشاطه وفراغ باله، فإن كان له في الأدب طبيعة حقاً واتاه الكلام وانثالت عليه الألفاظ والمعاني. وثالثها: منزلة من شحّ طبعه ونضبت ينابيع القول عنده، وهذا لايأتي بجيد الكلام مهما حاول أو تكلف، وحريٌّ به أن يترك صناعة الأدب ويتحول إلى غيرها. وفي الصحيفة حديث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والمطابقة من أهم شروط البلاغة.

ومن المتكلمين الذين شاركوا في البلاغة وفن القول واصل بن عطاء (– ١٣١هـ) وعمرو بن عبيد (– ١٤٤هـ) وسهل بن هارون (– ١٧٣هـ) والجاحظ الأديب المعتزلي. وقد طبع هؤلاء وغيرهم البلاغة بطابع عقلي يعتمد على الاستدلال والدقة في التحديد والتقسيم.

وألف بعض فلاسفة المسلمين في البلاغة والنقد، ولكنهم كانوا يغرفون من بحر أرسطو طاليس، ويلخصون كتابيه «الشعر» و «الخطابة». فقد اختصر كتابَ الشعر الكندي (– ٢٥٢هـ) ولخصه أبو نصر الفارابي (– ٣٣٩هـ)، ولابن سينا (– ٤٢٨هـ) رسالة في «معاني الشعر»، ولابن الهيثم (– ٤٣٠هـ أو ٤٣٢هـ) رسالة في صناعة الشعر، ولابن رشد (– ٥٩٥هـ) تلخيص لشعر أرسطو.

ولكن الذوق العربي رفض مثل هذه الدراسات لأنها لاتحكّم الذوق في الأدب وقد صرح البحتري بذلك فقال :

(١) الصحيفة في البيان ج ١ ص ٣٥ وكتاب الصناعتين ص ١٣٤.

كلفتمونا حدود منطقكم　　في الشعر يكفي عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق　　ما نوعه وما سببه
والشعر لَمحٌ تكفي اشارته　　وليس بالهَذْر طوّلت خطبه

وثار ابن الأثير (– ٦٣٧هـ) على أساليب الفلسفة ورأى في أعيانها من أمثال الفارابي وابن سينا رجالا أضلّهم أرسطو وافلاطون (١).

---

(١) ينظر المثل السائر ج ١ ص ٣١٠

المبحث الثاني
المدارس البلاغية

كانت العوامل المؤثرة في البلاغة كثيرة منها الادبية ومنها الكلامية ، وقد أدّى هذا الاختلاف في المؤثرات إلى ان تتجه البلاغة اتجاهين أطلق عليهما اسم «المدرسة الكلامية» و «المدرسة الادبية». وأمر هذين الاتجاهين أو المدرستين قديم، وقد نبه أبو هلال العسكري إلى منهجين في دراسة البلاغة، فقال :

«وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين وانما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتّاب، فلهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل» (1) .

وقال السيوطي وهو يترجم لنفسه : «ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة» (2). ولو لم تكن معالم هذين الاتجاهين واضحة ما وجدنا العسكري يصرح بهما في عهد مبكر، ورأينا السيوطي بعده بقرون يفخر بأنه درس البلاغة على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة.

فما خصائص كل مدرسة؟ ومَنْ أشهر أعلامها ؟

المدرسة الكلامية :

كان للفلسفة وعلم الكلام أثر في الفكر العربي والاسلامي، ولم يسلم علم من العلوم من الأثر الفلسفي والكلامي، وكان للبلاغة نصيب عظيم من ذلك الاثر فوثقت الصلة منذ عهد مبكر بينها وبين المنطق والفلسفة، وأخذت هذه الصلة تزداد قرنا بعد قرن حتى بلغت أوجها في القرن السادس للهجرة وما بعده. وقد انعكس ذلك في الدرس البلاغي، فكانت المدرسة الكلامية التي اهتمت بالتحديد الدقيق والتقسيم العقلي، وجعل التعريف جامعا مانعا، واستعمال أساليب المتكلمين

(1) كتاب الصناعتين ص ٩

(2) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ وما بعدها.

في بحث الموضوعات وحصرها، والاكثار من الالفاظ الفلسفية والمنطقية؛ وقد ساق البلاغيون كثيراً من المقولات (١) عند القول في الملكة حين وردت في تعريف الفصاحة والبلاغة، وما صدّروا به البيان من بحوث الدلالات الوضعية والعقلية. وأدخلوا فيها بعض مسائل الفلسفة الطبيعية والالهية والخلقية كالكلام في الالوان والطعوم والروائح والحواس الانسانية ومقرها، والوهم والخيال والفكرة والحس المشترك والاسباب والمسببات وغيرها. وأدخلوا فيها من الالفاظ الفلسفية والكلامية الشيء الكثير، مما لاصلة له بالبحث البلاغي الذي يعتمد أول ما يعتمد على الذوق السليم.

ومن شواهد الاثر الفلسفي في هذه المدرسة الاقلال من الامثلة الادبية، لان رجالها اهتموا بالتحديد المنطقي والحصر والتقسيم، فكانوا يذكرون لكل قاعدة شاهداً واحداً أو مثالا قصيراً. وليتهم وقفوا عند ذلك، فهم كثيراً ما يذكرون أمثلة لاجمال فيها، لان صحة الشاهد أو المثال عندهم أصل كل شيء، أما جمال وما يبعث في النفس من احساس أو شعور فني فلم يوجهوا عنايتهم اليه. ولعل اهتمام المتأخرين منهم بالاختصار وتلخيص الكتب المتقدمة كان سبب الاقلال من الامثلة والشواهد والاكتفاء باقلها وأقصرها، وبما ينسجم مع أذواقهم التي سيطرت عليها النزعة العقلية، وخير مثال على ذلك كتـــاب «التلخيص» للخطيب القزويني (– ٧٣٩هـ) الذي أوجز فيه مباحث البلاغة التي ذكرها السكاكي (–٦٢٦هـ) في كتابه «مفتاح العلوم»، فأصبحت جافة لا تنفع كثيراً مما اضطره إلى شرح كتابه بالايضاح ودفع الآخرين كالتفتازاني وبهاء الدين السبكي وعصام الدين الاسفراييني وغيرهم إلى شرحه أيضاً.

وشاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية حيث يقطن خليط من الفرس والترك والتتر، وكانت خوارزم اكبر البيئات التي ظهر فيها

(١) المقولة : صفة من الصفات تحمل على الشيء كالمقولات التسع : الكمية والكيفية والاضافة والمكان والزمان والوضع والملك والفعل والانفعال.

أقطاب هذه المدرسة كفخر الدين الرازي (- ٦٠٦هـ) صاحب «نهاية الايجاز في دراية الاعجاز» والسكاكي صاحب «مفتاح العلوم».

وأهم كتبها «دلائل الاعجاز» لعبد القاهر الجرجاني و«نهاية الايجاز في دراية الاعجاز» للرازي و «مفتاح العلوم» للسكاكي و «المصباح في اختصار المفتاح» لبدر الدين بن مالك و «تلخيص المفتاح» و «الايضاح» للقزويني و «عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح» لبهاء الدين السبكي و «المطول على التلخيص» و «المختصر» لسعد الدين التفتازاني و «مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح» لابن يعقوب المغربي، وغيرها من شروح التلخيص الاخرى.

المدرسة الادبية :

كان القرآن الكريم من اهم العوامل التي طبعت بحوث البلاغة بطابع ادبي يعتمد على الذوق الرفيع قبل اعتماده على التحديد والتقسيم. وكان للكتاب والشعراء أثر واضح في البلاغة، فقد صبغوا كثيراً من موضوعاتها بصبغة ادبية لما امتازوا به من أدب غزير وذوق سليم. وكانت نتيجة تلك العوامل ان اتجهت البلاغة منذ عهد مبكر اتجاها ادبيا وسلكت طريقاً بعيداً عن المدرسة الكلامية، وكانت لها خصائص واضحة تميزها عن المدرسة الاخرى، ومن ذلك انها لم تهتم كثيراً بالتحديد والتقسيم وان جنحت إلى ذلك فعلى غير تعمق وتقاذ والتزام للتصحيح التام للأصول المنطقية ولم تهتم باقتباس المنطقيات ومسائل الفلسفة بل نبذتها وحملت عليها وحاربتها ؛ وكان ابن الاثير أحد أقطابها من الذين أنكروا ادخال الاساليب الفلسفية في البحث، «قال : اعلم ان ذلك الحصر كلي لا جزئي، ومحال ان تحصر جزئيات المعاني وماينفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها، لا جرم ان ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا يفتقر اليه فان البدوي البادي راعي الابل ماكان يمر

شيء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله، ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحلال إن قال شعراً أو تكلم نثراً (١).

ومن خصائص المدرسة الادبية استعمال المقاييس الفنية في الحكم على الادب ولذلك نجدها مرة تستطيع التعليل ومرة لا تستطيع ذلك، وترجعه إلى الذوق والاحساس الفني. ومن ذلك ان اسلوب كتبها سهل لا يحتاج إلى عناء كبير في فهمه كما يحتاج في قراءة كتب المدرسة الاخرى، وسبب ذلك ان معظم رجالها عاشوا في بيئات عربية كالعراق والشام ومصر، وكانوا إلى جانب ذلك شعراء أو كتاباً. أما رجال المدرسة الكلامية فقد عاشوا في بيئات أعجمية فغلبت على كتبهم العجمة ولم يكونوا أدباء بل كانوا من الفلاسفة والمتكلمين.

وأسرف رجال المدرسة الادبية في ذكر الشواهد والامثلة، وكانوا يذكرون القاعدة أو التعريف ثم يأتون بالامثلة الكثيرة. ولم تكن الامثلة مقصورة على الجملة أو بيت الشعر وانما تعدتها إلى القطعة الشعرية والرسالة الادبية. ويتضح هذا في جميع كتب المدرسة، فابن المعتز – مثلا – يذكر تعريف الاستعارة أو التجنيس ويورد بعد ذلك امثلة كثيرة ويفرق بين الحسن والرديء، وتبعه البلاغيون الآخرون في هذا المنهج كأبي هلال العسكري في «كتاب الصناعتين» وابن رشيق في «العمدة» وأسامة ابن منقذ في «البديع في نقد الشعر» وابن الاثير في «المثل السائر» و«الجامع الكبير» وابن أبي الاصبع المصري في «تحرير التحبير».

وقد سادت هذه المدرسة في المناطق الوسطى من العالم الاسلامي كالعراق والشام ومصر وشمالي افريقية.

وأهم كتبها التي تضمنت خصائصها كتاب «البديع» لابن المعتز و «كتاب الصناعتين» للعسكري و «العمدة» لابن رشيق و «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي و «أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني و «البديع في نقد الشعر» لابن منقذ ، و «المثل السائر» و «الجامع الكبير» لابن الاثير و «بديع القرآن» و «تحرير التحبير»

(١) المثل السائر ج ١ ص ٣١٠.

لابن أبي الاصبع و «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» لشهاب الدين الحلبي .

هاتان هما المدرستان البلاغيتان، وقد كانت لكل واحدة منهما خصائص عامة ، ولكن هل يمكن وضع فاصل بين الذين اتجهوا اتجاها عقليا والذين نهجوا نهجا ادبيا؟ ليس من الممكن ذلك لان البلاغي الواحد كثيراً ما يمزج بين الطريقتين ويستفيد من الاتجاهين ، فالجاحظ مثلا - وهو رأس فرقة اعتزالية سميت الجاحظية - نراه يميل إلى الفن ويحكم الذوق في كثير من الاحيان، وأبو هلال العسكري مع تأكيده انه لن يتبع طريقة المتكلمين نراه يتجه نحوهم في تقسيماته وتبويبه ويجري في مضمارهم ويخدم اغراضهم. وكان عبد القاهر الجرجاني يميل مرة إلى المدرسة الكلامية في كتابه «دلائل الاعجاز» ويتجه إلى المدرسة الادبية في كتابه «أسرار البلاغة»، وهو في كتابه الاول يجادل جدلاً منطقيا فيكرر اساليب أهل الجدل كقوله : «إن قلتم قلنا...» و «كيف لا يكون الامر كذلك...» و «ماهو إلاّ كذا وكذا...» وهو في كتابه الثاني أديب يعمد إلى التحليل الفني وابراز ما في الكلام من بلاغة وجمال لانه لا يريد ان يدافع دفاعا عقليا كما دافع عن القرآن في كتابه «دلائل الاعجاز».

وممن جمعوا بين الطريقتين في كتاب واحد يحيى بن حمزة العلوي (- ٧٤٩هـ) صاحب «الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وحقائق الاعجاز»، فهو في القسم الاول منه يسير على منهج أدبي واضح فيه التحليل والاكثار من الامثلة ، وهو في القسم الثاني من الكتاب يتبع طريقة المدرسة الكلامية في تصنيف موضوعات البلاغة وعرضها ، وفي الجدل وتقديم الادلة، وقد يكون سبب ذلك انه في هذا القسم تعرّض لاعجاز القرآن، وهو مما يدفع الباحث إلى النظر العقلي وردّ الشبهات بالادلة والبراهين.

هذا ماكان من أمر البلاغة العربية قديما، أما اليوم فان المنهج الحديث يتطلب الاستفادة مما سبق لبناء بلاغة جديدة تعتمد على ذوق العصر وتستند إلى ماظهر من ادب وفنون.

الفصل الثاني

الفصاحة والبلاغة

المبحث الاول

الفصاحة

لفظة والفصاحة ، مما شاع وعرفه العرب بمفهومه اللغوي قبل أن تأخذ الالفاظ دلالتها الفنية : ونجد لها في المعاجم دلالتين :

الاولى : لغوية تقوم على المعنى الاول الذي وضعه العرب واستعملوه قبل أن تظهر علوم البلاغة والنقد . ففي لسان العرب : «يوم مفصح : لا غيم فيه ولا قرّ» .

أفصح اللبن : ذهب اللبأ عنه . فصح اللبن : أذا اخذت عنه الرغوة : قال نضلة السلمي :

رأوه فازدروه وهو خرق ... وينفع أهله الرجل القبيح

فلم يخشوا مصالته عليهم ... وتحت الرغوة اللبن الفصيح

أفصحت الشاة والناقة : خلص لبنها . أفصح الصبح : بدا ضوؤه واستبان ، وكل ما وضح فقد أفصح ، وكل واضح مفصح . ويقال : قد فصحك الصبح ، أي بان لك وغلبك ضوؤه . فصحه الصبح : هجم عليه.

الثانية : دلالة تقرب من المعنى الاصطلاحي الذي تعارف عليه البلاغيون ، ففي اللسان : «والفصاحة : البيان، فَصُحَ الرجل فصاحةً فهو فصيح من قوم فصحاء وفصاح وفُصح ، وامرأة فصيحة من نسوة فصاح وفصائح . رجل فصيح وكلام فصيح ، أي : بليغ .

لسان فصيح ، أي : طلق . وقد جاء في الشعر في وصف العجم : أفصح ، يريد به بيان القول وان كان بغير العربية ، كقول أبي النجم :

أعجم في آذانها فصيحا

يعني : صوت الحمار انه اعجم ، وهو في آذان الأتن فصيح بيّن :

وفَصُحَ الاعجمي فصاحة : تكلم بالعربية وفهم عنه . وقيل : جادت لغته حتى لايلحن . أفصح كلامه افصاحا وأفصح تكلم بالفصاحة وكذلك الصبيّ . يقال : أفصح الصبي في منطقه افصاحا اذا فهمت ما يقول في أول ما يتكلم . أفصح الاغتم : اذا فهمت كلامه بعد غتمته . أفصح عن الشيء افصاحا اذا بينه وكشفه . فَصُحَ الرجل وتفصّح اذا كان عربيّ اللسان فازداد فصاحة وقيل تفصّح في كلامه وتفاصح : تكلف الفصاحة . يقال :

ما كان فصيحا ولقد فصح وهو البين في اللسان والبلاغة : والتفصح استعمال الفصاحة وقيل : التشبه بالفصحاء .

وقيل : جميع الحيوان ضربان : أعجم وفصيح ، فالفصيح كل ناطق ، والاعجم كل مالا ينطق .

الفصيح في اللغة المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه : أفصح الكلام وأفصح به وأفصح عن الامر : الفصيح في كلام العامة : المعرب ».

وفي هذا يتضح معنى البيان والظهور في كلمة «الفصاحة» ، ليس هذا المعنى بعيداً عن الدلالة الاولى ولا عن المعنى الذي اصطلح عليه علماء البلاغة ، وهو رقة الالفاظ وجمالها ، وبيان التعبير ووضوحه .

في القرآن والحديث :

لو مضينا نبحث عن لفظة « الفصاحة » في تراثنا لرأيناها في قوله تعالى حكاية عن نبيه موسى – عليه السلام – : «وأخي هرونُ هو أفصَحُ مني لسانا » (١) وفي الحديث النبوي الشريف: «أنا افصح العرب بيد أني من قريش»(٢) و«غفر

(١) القصص ٣٤.

(٢) قال عبد الله بن رواحة في مدح الرسول – صل الله عليه وسلم – :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت فصاحته تنبيك بالخبر .

له بعددكل فصيح وأعجم »، وفسره أصحاب الحديث بأن النبي محمداً - صلى الله عليه وسلم - أراد بالفصيح بني آدم ، وبالاعجم البهائم » (١) .

ولا تخرج لفظة «الفصاحة» في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عن معناها اللغوي وهو الظهور والبيان . وحينما دخلت هذه اللفظة الدراسات البلاغية والنقدية ارتبطت بلفظة البلاغة وصارت صنوها ، وأصبح رجال البلاغة الاوائل لايفرقون بينهما ، بل لم يروا بأساً في أن يستعملوا احداهما مكان الاخرى كما فعل ابوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ (- ٢٥٥هـ) الذي لم يضع حداً فاصلاً بين اللفظتين وانما اجراهما بمعنى واحد في مواضع كثيرة من كتابه «البيان والتبيين» ،

الجاحظ :

عرف الجاحظ البلاغة بقوله : «وقال بعضهم - وهو احسن ما اجتبيناه ودوّناه : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك» (٢) . وفي هذا التعريف التقاء الفصاحة بالبلاغة ، والنص على امتزاجهما .

والفصاحة - عنده - واسعة المعنى ، ولذلك نراه يتحدث عنها وعن الالفاظ كثيراً ، وتعدّ اشاراته في كتابه «البيان والتبيين» من اوسع ما وصل الينا من عهد التدوين الاول . ويرى ان الالفاظ جديرة بالرعاية والاهتمام ، يقول : «وقد يستخف الناس الفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى ان الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع الا في موضع العقاب أو موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ، لانك لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام . والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث ، ولفظ القرآن الذي عليه نزل

(١) النهاية في غريب الحديث والاثر ج ٣ ص ٤٥٠ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٥ .

انه اذا ذكر الابصار لم يقل الاسماع ، واذا ذكر سبع سماوات لم يقل الارضين ؛ ألا تراه لا يجمع الارض أرضين ولا السمع أسماعا. والجاري على أفواه العامه غير ذلك لا يتفقدون من الالفاظ ماهو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال» (١).

وتكلم على تنافر الحروف فقال : «فأما في اقتران الحروف فان الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير. وهذا باب كبير وقد يُكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي اليها يجرى» (٢).

وتحدث عن تنافر الالفاظ فقال : «ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وان كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها الا ببعض الاستكراه، فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ولمّا رأى من لا علم له أنّ أحداً لايستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج ، وقيل لهم : ان ذلك انما اعتراه اذ كان من اشعار الجن ، صدّقوا بذلك .

ومن ذلك قول ابن يسير :

لم يضرها والحمد لله شيءٌ وانثنت نحو عزْفِ نفْسٍ ذهولِ

فتفقد النصف الاخير من هذا البيت فانك ستجد بعض الفاظه يتبرأ من بعض» (٣)

وينبغي أن تكون الالفاظ متماثلة متلائمة كي لايقع بينها التنافر فتصبح كأولاد علّة ، يقول : «وأنشدني أبو العاصي ، قال : أنشدني خلف الاحمر في هذا المعنى :

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠.
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٩.
(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٥.

وبعض قريض القوم أولاد علّة   يكدّ لسان الناطق المتحفّظ (١)
وقال أبو العاصي : وأنشدني في ذلك أبو البيداء الرباحي :

وشعر كبعر الكبش فرّق بينه   لسانٌ دعيٌّ في القريض دخيل

فانه يقول : اذا كان الشعر مستكرها وكانت الفاظ البيت من الشعر لايقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين اولاد العلّات . واذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختها مرْضيّاً مُوافقا كان على اللسان عند انشاد ذلك الشعر مؤونة .

قال : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ افراغا واحداً ، وسبك سبكا واحدا ، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان .

وأما قوله : « كبعر الكبش » فانما ذهب الى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور ، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملسا وليّنة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده ، والاخرى تراها سهلة ليّنة ورطبة مواتية ، سلسة النظام خفيفة على اللسان حتى كأنّ البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد » (٢) .

ويرى أن اللفظ كما لا ينبغي أن يكون عاميا وساقطا سوقيا ، فكذلك لاينبغي أن يكون غريبا وحشيا الا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي (٣) .

لقد اهتم الجاحظ بالالفاظ اهتماما عظيما وأولاها عناية كبيرة ، وقد دفعه هذا الاهتمام الى أن يقول : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي

(١) اولاد علة : هم بنو رجل واحد من أمهات شتى .
(٢) البيان ج ١ ص ٦٦ .
(٣) ينظر البيان ج ١ ص ١٤٤ .

والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير» (١) ؛

وظن بعض الباحثين أنه يميل الى اللفظ كل الميل ، وأنه لا يرى للمعنى كبير أهمية ، والواقع انه عُني باللفظ وأعطاه نصيبه من الاهتمام ، وشُغل بالمعنى والتصوير الادبي الذي يقول عنه : «فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير » ، وهذه نظريته التي شرحها عبد القاهر الجرجاني وسماها « نظرية النظم » ، فالجاحظ اهتم بالالفاظ والمعاني والتصوير مع انه يرى أن بعضهم لا يحفل الا بالمعنى وحده كأبي عمرو الشيباني الذي يرى أن المعنى متى كان رائعاً حسناً ظل كذلك في أية عبارة وضع فالبيتان :

لاتحسبنَّ الموتَ موتَ البلى فانّما الموتُ سؤالُ الرجال
كلاهما مَوْتٌ ولكنّ ذا أفظعُ من ذاك لذلّ السؤال

استحسنهما أبو عمرو على حين ليست عليهما مسحة من جمال سوى الوزن ؛ وعابه الجاحظ ورأى أنه مسرف في تقديرهما ، وقال : «وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلّف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً ، ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أنّ ابنه لا يقول شعراً أبداً » (٢) .

لقد اهتم الجاحظ باللفظ ولكنه لم يهمل المعنى ، ولذلك فليس صحيحا ماذهب اليه بعضهم وهو أنّ الجاحظ كرّس جهوده لخدمة الالفاظ ، ولاجله خاض عبد القاهر الجرجاني غمار هذا البحث. ويرى الدكتور محمد مندور أن كل آراء عبد القاهر تنحصر في مسألتين:

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٣١.
(٢) الحيوان ج٣ ص ١٣١ .

الأولى : انكاره لما رآه الجاحظ من اهمية فصاحة الالفاظ باعتبار تلك الفصاحة صنعة في اللفظ ذاته، ثم ثورته على مذهب أبي هلال العسكري الذي يردّ جودة الكلام إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل.

الثانية : تعلّقه جودة الكلام بخصائص في النظم (١).

وعبارة الجاحظ «فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»، وما نقله عبد القاهر من اهتمامه بالصياغة والصناعة، خير ما يفند هذا الرأي، لان عبد القاهر سار على خطا الجاحظ ونقل مصطلحه في التصوير وقال : «وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدعناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور في كلام العرب ويكفيك قول الجاحظ «وانما الشعر صناعة وضرب من التصوير»(٢). فالجاحظ من أصحاب الصياغة، ولذلك تسقط عنه تهمة الاهتمام بالشكلية والالفاظ، وان كان كثير الاعتناء باللفظ واختيار ما يؤدي المعنى أداءً حسناً، وهذه مهمة الاديب الذي يقدّر قيمة الكلام ويبذل في سبيله أعظم الجهود، وقد كان الجاحظ اديباً كبيراً وعالماً قديراً، فعُني بالالفاظ كما عُني بالمعاني وكان له الفضل في تصوير نظم الكلام.

ابن قتيبة :

وتحدث ابن قتيبة (- ٢٧٦) عن الالفاظ، وذكر ان الشعر أربعة أضرب :

١ - ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول القائل في بعض بني أمية (٣) :

في كفّه خيزران ريحه عَبِقٌ ... من كفّ أروع في عرنينه شَمَمُ
يُغضي حياء ويُغضَى من مهابته ... فما يُكلَّم الا حين يبتسم

وكقول أوس بن حجر :

---

(١) ينظر في الميزان الجديد ص ١٤٩.

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٨٩.

(٣) كذا في الشعر والشعراء، وفي الهامش للحزين الكناني من أبيات يمدح بها عبد الله بن عبد الملك بن مروان. والبيتان في ديوان الفرزدق ج ٢ ص ١٧٨ (طبعة مكتبة صادر)، وهما في مدح زين العابدين رضي الله عنه.

أبتها النفس اجملـي جـزعا   إن الذي تحذرين قـد وقعا

٢ – وضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى كقول القائل :

ولما قضينا من منىً كل حاجة   ومسح بالاركان من هو ماسحُ
وشدّت على حدْب المهارى رحالنا   ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
اخذنا بأطراف الاحاديث بيننا   وسالت بأعناق المطي الاباطح

يقول ابن قتيبة : «هذه الالفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وان نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الاركان وعالينا ابلنا الانضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الاباطح» (١).

ونحوه قول المطوط :

إن الذين غدوا بلبك غادروا   وَشَلاً بعينك لا يزال معينا
غيضنَ من عبراتهن وقلن لي: ماذا لقيت من الهوى ولقينا (٢)

٣ – وضرب منه جاد معناه وقصرت الفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة :

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

٤ – وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه ، كقول الاعشى في امرأة:

وفـوهـا كأقاحـــــي   غذاه دائـم الهطـــــل
كما شيبَ بـراحٍ بـا   رد من عسـل النحـل

ولم يشر ابن قتيبة إلى لفظة «الفصاحة» في كتابه «الشعر والشعراء» ولكنه استعمل كلمة «الالفاظ»، ويرى أن المحدث ليس له أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي الكلام ككثير من أبنية سيبويه، ولا أن يسلك فيما يقول الاساليب التي لا تصح

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٦٦ ويعد عبد القاهر الجرجاني غير هذا الرأي فهو يراها من أبدع الشعر وأعذبه وقد حللها تحليلا جميلا. (ينظر دلائل الاعجاز ص ٥٨) .

(٢) البيتان في ديوان جرير ص ٥٧٨، وهما من قصيدة في هجاء الاخطل.

في الوزن ولا تحلو في الاسماع. يقول: «وهذا يكثر، وفيما ذكرت منه ما دلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروي وأسهل الالفاظ وأبعدها من التعقيد والاستكراه واقربها من أفهام العوام. وكذلك اختار للخطيب اذا خطب والكاتب اذا كتب فانه يقال: «أسير الشعر والكلام المطمع» يراد الذي يطمع في مثله من سمعه وهو مكان النجم من يد المتناول» (١).

وفي كتابه «أدب الكاتب» حديث عن الالفاظ والابنية، ولكنه لا يسميها «فصاحة» وانما هي قواعد يستعين بها الكاتب. وعقد في كتابه «عيون الاخبار» بابا سمّاه «كتاب العلم والبيان» تحدّث فيه عن الاعراب واللحن والتشادق والغريب والبيان والالفاظ التي تقع في كتب الامان والعهود والخطب. وهو في هذه الابواب والفصول ليس كالجاحظ الذي أرسى كثيراً من قواعد الفصاحة ووضع أمثلتها التي تردد في كتب البلاغة والنقد.

المبرد:

وليس فيما كتب المبرد (- ٢٨٥هـ) اشارة إلى الفصاحة وان كان يفضل أن تكون الالفاظ جزلة (٢).

ثعلب:

ولا فيما كتب أبو العباس ثعلب (- ٢٩١هـ) الذي اشار إلى جزالة الالفاظ(٣).

ابن المعتز:

ولا فيما ألف ابن المعتز (- ٢٩٦هـ) صاحب كتاب البديع.

قدامة:

وتحدث قدامة بن جعفر (- ٣٣٧هـ) عن نعت اللفظ، وقال ينبغي أن يكون سمحاً، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٣.
(٢) الكامل ج ١ ص ٤٣.
(٣) قواعد الشعر ص ٥٩.

البشاعة (١)؛ وذكر عيوب اللفظ وهي :

١ – أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الاعراب واللغة:

٢ – وأن يركب الشاعر منه ماليس بمستعمل الا في القَرْط:

٣ – ولا يتكلم به إلا شاذاً، وذلك هو الوحشي الذي مدح عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – زهيراً بمجانبته له وتنكبه اياه فقال: «لا يتبع حوشي الكلام».

٤ – ومن عيوب اللفظ المعاظلة، وهي التي وصف عمر بن الخطاب زهيراً بمجانبته لها فقال: «وكان لا يعاظل بين الكلام». وهي ليست مداخلة الشيء في الشيء لانه محال أن ينكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه من بعض أو فيما كان من جنسه، وانما يكون الانكار فيما يدخل بعضه فيما ليس من جنسه وما هو غير لائق به (٢):

ابن وهب :

وفي كتاب «البرهان في وجوه البيان» (٣) لابي الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب اشارات الى جزالة اللفظ وسخافته وركاكته ؛ ولم يحدد معاني هذه المصطلحات واكتفى بالتمثيل وقال : «وأما جزالة اللفظ فكقوله :

وإلى عدوك يا ابن عم محمد رصدان: ضوءُ الشمس والاظلامُ
فاذا تنبّه رُعْته واذا غفا سلّت عليه سيوفك الأحلامُ

وأما سخافة اللفظ وركاكته فمثل قول الآخر :

يا عتب سيدتي أما لك دين حتى متى قلبي لديك رهين
فأنا الصّبور لكل ما حملتني وأنا الشقي البائس المسكين (٤)

(١) نقد الشعر ص ٢٦.
(٢) نقد الشعر ص ١٩٦-٢٠١ .
(٣) هو النص الكامل للكتاب المطبوع باسم «نقد النثر» المنسوب إلى قدامة بن جعفر .
(٤) البرهان في وجوه البيان ص ١٧٧.

وقال عن الفصيح : «وأما الفصيح من الكلام، فهو ما وافق لغة العرب ولم يخرج عما عليه أهل الادب، ولتصحيح ذلك وضع النحو، ولجمعه وضعت الكُتُب في اللغة، وذكر المستعمل منها والشاذ والمهمل، وحق من ينشأ في العرب أن يستعمل الاقتداء بلغتهم، ولا يخرج عن جملة ألفاظهم، ولا يقنع من نفسه بمخالفتهم فيخطئوه ويلحنوه» (١).

وليس في هذه الاشارات ما يوضح رأي صاحب «البرهان» في الفصاحة كما عرفها الجاحظ ومعاصروه.

العسكري :

وذكر ابو هلال العسكري (– ٣٩٥هـ) رأيين في الفصاحة :

الأول : ان الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وان اختلف أصلاهما لانّ كل واحد منهما هو الابانة عن المعنى والاظهار له. يقول : «فاما الفصاحة فقد قال قوم : انها من قولهم : أفصح فلان عما في نفسه اذا أظهره، والشاهد على انها هي الاظهار قول العرب : أفصح الصبح اذا أضاء، وأفصح اللبن اذا انجلت عنه رغوته فظهر، وفصح أيضاً. وأفصح الاعجمي اذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين، وفصح اللسان اذا عبر عما في نفسه واظهره على جهة الصواب دون الخطأ. واذا كان الامر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وان اختلف أصلاهما» (٢).

الثاني : انهما مختلفان، وذلك انّ الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ، لان الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، والبلاغة انما هي انهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى. يقول : «وقال بعض علمائنا : الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لا يجوز أن يُسمّى الله تعالى فصيحاً اذ كانت الفصاحة تتضمن الآلة، ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالالة ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمن من تمام البيان.

(١) البرهان ص ٢٥٢.

(٢) كتاب الصناعتين ص ٧.

والدليل على ذلك أن الالثغ والتمتام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن أقامة الحروف.

وقيل : «زياد الاعجم» لنقصان آلة نطقه عن اقامة الحروف ، وكان يعبر عن «الحمار» بالممار، فهو أعجم وشعره فصيح لتمام بيانه» (١).

ووضّح الامر بقوله : «ومن الدليل على ان الفصاحة تتضمن اللفظ والبلاغة تتناول المعنى، ان الببغاء يسمى فصيحا ولا يسمى بليغا اذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه . وقد يجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحا بليغا اذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك ، غيرمستكره فج ولا متكلف وخم، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء لما فيه من ايضاح المعنى وتقويم الحروف»(٢) .

وهذا هو رأيه، أما الرأي الاول فقد عرضه ، لانّ بعضهم يذهب إلى ذلك، وعقد فصلا في تمييز الكلام تحدث فيه عن صفات الالفاظ الحسنة ، وانتهى إلى أنّ الكلام اذا جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلم من الحيف في التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب — قبِلَهُ ولم يردَّه، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه، والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ (٣).

وأعطى الالفاظ أهمية كبيرة، لانه ليس الشأن في ابراد المعاني ، لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب، وليس يطلب من المعنى الا أن يكون على هذه الاوصاف ، وهو ما أشار اليه الجاحظ من قبل، ولكنه جعل التصوير أساس البيان.

(١) كتاب الصناعتين ص٧.
(٢) كتاب الصناعتين ص٨.
(٣) كتاب الصناعتين ص٥٧.

ابن سنان :

وعقد ابن سنان الخفاجي (— ٤٦٦هـ) في كتابه «سر الفصاحة» فصولاً ضافية تحدث فيها عن صفات الحروف ومخارجها، وفصاحة اللفظة المفردة والالفاظ المؤلفة:

والفصاحة عنده — : «الظهور والبيان» ، (١) والفرق بينها وبين البلاغة «أن الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ والبلاغة لا تكون الا وصفاً للالفاظ مع المعاني . لايقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وان قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً » (٢) .

ولكي تكون اللفظة الواحدة فصيحة ينبغي ان تتوفر فيها بعض الشروط ، قال «وان الفصاحة على ما قدمنا نعت للالفاظ اذا وجدت على شروط عدة ، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الالفاظ وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم. وتلك الشروط تنقسم قسمين فالاول منها : يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم اليها شيء من الالفاظ وتؤلف معه .

والقسم الثاني : يوجد في الالفاظ المنظومة بعضها مع بعض » (٣) .

فاما الذي يوجد في اللفظة الواحدة فثمانية أشياء :

الاول : أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، وعلة ذلك أن الحروف التي هي اصوات تجرى من السمع مجرى الالوان من البصر ، ولاشك في أن الالوان المتباينة اذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الالوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد احسن منه مع الصفرة .

(١) سر الفصاحة ص٥٩.
(٢) سر الفصاحة ص٦٠.
(٣) سر الفصاحة ص٦٥.

ومثال التأليف من الحروف المتباعدة كثير جلّ كلام العرب عليه ، فأما تأليف الحروف المتقاربة فمثل «الهعخع» ، وقد رُوي أن الخليل بن احمد الفراهيدي قال : «سمعنا كلمة شنعاء هي الهعخع » وانكرنا تأليفها ». وقيل : ان اعرابيا سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهعخع » (١). وقال ابن سنان : «وللحروف الحلق مزية في القبح اذا كان التأليف منها فقط ، وأنت تدرك هذا وتستقبحه كما يقبح عندك بعض الامزجة من الالوان وبعض النغم من الاصوات »(٢).

الثاني : ان يكون لتأليف اللفظة في السمع حسن ومزية على غيرها وان تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة كما نجد لبعض النغم والالوان حسنا يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره من جنسه . ومثاله في الحروف «ع.ذ.ب» فان السامع يجد لقولهم « العُذيب» — اسم موضع — و« عذيبة» — اسم امرأة — و«عذب وعذاب » و« عَذَّبَ» و«عذبات» مالا يجده فيما يقارب هذه الالفاظ في التأليف . وليس سبب ذلك بعد الحروف في المخارج فقط ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ، ولو قدّمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الاولى في تقديم العين على الذال لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير . وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصنا أو فننا أحسن من تسميته عسلوجا ، وان أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط (٣) ؛ ومن الكلمات العذبة الجميلة «تفاوح» وقد استعملها المتنبي فقال :

إذا سارت الاحداج فوق نباته   تفاوح مسك الغانيات ورنده (٤)

وهي في غاية من الحسن ، وقيل : ان المتنبي أول من نطق بها على هذا المثال ، ومثال مايكره قول المتنبي :

---

(١) سر الفصاحة ص٥٧.

(٢) سر الفصاحة ص٦٧.

(٣) الشوحط : شجر يتخذ منه القسي.

(٤) الرند : العود ، او الآس ، او شجر طيب الرائحة.

مبارك الاسم أغرّ اللقب كريم الجرشي شريف النسب(1)

فانك تجد في « الجرشي » تأليفاً يكرهه السمع وينبو عنه ، وأين كلمة «النفس» من هذه اللفظة الثقيلة ؟

الثالث : أن تكون غير متوعرة وحشية كقول أبي تمام :

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طائر سعْد ولا طائر كهلِ

فان «كهلاً» هنا من غريب اللغة ، وروي أن الاصمعي لم يعرف هذه الكلمة وانها ليست موجودة الا في شعر بعض الهذليين وهو قوله :

فلو أن سلمى جاره أو أجاره رياح بن سعد ردَّه طائر كَهْلُ

وقيل : إن الكهل الضخم ، وهي لفظة ليست قبيحة التأليف لكنها وحشية غريبة لايعرفها مثل الاصمعي ولهذا اعتمد الحذاق من الشعراء على اختيار اسماء المنازل والنساء في الغزل وتجنبوا مالا يحسن لفظه ، وعابوا على جرير قوله :

وتقول بَوْزَعُ قد دببت على العصا هلاّ هزئت بغيرنا يابَوْزَعُ

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك قال له : أفسدت شعرك « ببوزع ».

وقد قال ابن سنان : « وأنا أكره من قول كثير بن عبد الرحمن صاحب عزّة :

وما روضة بالحزن طيبة الثرى يمجّ الندى جثجاثها وعرارها

ذكر «الجثجاث» لأنه اسم غير مختار ، ولو أمكنه ذكر غيره كان عندي أليق وأوفق ؛ ولا أحب أيضاً تسمية أبي تمام صاحبه — علاثة — وندائه بالترخيم في قوله :

قف بالطلول الدارسات علاثا أضحت حبال قطينهن رثاثا

وإن كان الرويّ قاده إلى ذلك ، فليت شعري من حظر عليه القوافي واقتصر به على الثاء دون غيرها من الحروف» (2).

---

(1) كريم الجرشي: كريم النفس.

(2) سر الفصاحة ص٧٦.

الرابع : أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية، ومثال العامية قول أبي تمام:

جليت والموت مبد حرَّ صفحته وقد تَفَرْعَنَ في أفعاله الأجلُ

فإن «تفرعن» مشتق من أسم «فرعون» وهو من ألفاظ العامية ، وعادتهم أن يقولوا : «تفرعن فلان» إذا وصفوه بالجبرية .

ومنه قول أبي نصر عبد العزيز بن نباتة:

أقام قوام الدين زيغ قناته وأنضج كيّ الجرح وهو فطير

فلفظة «فطير» عامية مبتذلة .

ومنه قول أبي تمام :

قد قلت لما لجّ في صدّه أعطف على عبدك ياقابري

فإن «قابري» من ألفاظ عوام النساء .

ومن ذلك لفظة «أوجعتها» في قول ابن نباتة :

فقد رفعت أبصارها كل بلدة من الشوق حتى أوجعتها الاخادع

ولفظة «الجورب» في قول المتنبي :

تستغرق الكفّ فَودَيه ومنكبه وتكتسي منه ريح الجورب الخلق

الخامس : أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة . ويدخل في هذا القسم ماينكره اهل اللغة ويردّه علماء النحو من التصرّف الفاسد في الكلمة ، وقد يكون ذلك لاجل أن اللفظة بعينها غير عربية كما أنكروا على أبي الشيص قوله :

وجناح مقصوص تحيّف ريشه ريب الزمان تحيّف المقراض

وقالوا : ليس «المقراض» من كلام العرب ، ولم يسمع عنهم إلا مثنّى .

وقد تكون الكلمة عربية الا انها قد عبّر بها عن غير ما وضعت له في عرف اللغة ، كما قال البحتري :

يشقّ عليه الريح كل عشية جيوب الغمام بين بكر وأيم

فوضع «الايم» مكان «الثيب» وليس الامر كذلك ، ليس الأيّم الثيّب في كلام العرب ، انما «الايم» التي لازوج لها بكراً كانت أو ثيباً .

ومن ذلك قول البحتري:

شَرْطِيٌّ الانصاف إن قيل اشترط وصديقي مَنْ اذا صافى قَسَطْ

وأراد «وقسط» عدل ، لان الامر عليه، وليس الامر كذلك، وانما يقال «أقسط» اذا عدل «وقسط» اذا جار، ومنه قوله تعالى : «وأمّا القاسطونَ فكانوا لجهنّمَ حطَباً» (١) .

وقد يكون على جهة الحذف من الكلمة كقول رؤبة بن العجاج:

قواطناً مكةَ من ورْقِ الحَما

يريد الحمام.

وقد يكون على وجه الزيادة في الكلمة مثل أن تشبع الحركة فيها فتصير حرفا ، كما قال الشاعر.

وأنت على الغواية حين ترمي وعن عيْب الرجال بمنتزاح

أي : بمنتزح.

وقد يكون ايراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل ، كلفظة «بهت» التي جاءت رديئة شاذة في قول البحتري :

متحيرين فباهت متعجب مما يرى أو ناظر متأمل

والعربي المستعمل «بُهِتَ الرجل يُبْهَتُ فهو مبهوت» .

ويدخل في هذا القسم مايسمى الضرورة الشعرية من اظهار التضعيف ،أو مدّ المقصور ، أو قصر الممدود ، أو تأنيث المذكر على بعض التأويل ، أو صرف مالا ينصرف وغير ذلك .

السادس: أن لاتكون الكلمة قد عبربها عن أمر آخر يكره ذكره ، فاذا اوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وان كملت فيها الصفات، كقول الشريف الرضي :

أعزز علي بان أراك وقد خلت من جانبيك مقاعدُ العُوّادِ

فايراد «مقاعد» في هذا البيت صحيح ، الا انه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا

---

(١) الجن ١٥.

الشأن، لاسيما اضافته إلى من يحتمل اضافته اليهم وهم «العوّاده، ولو انفرد لكان الامر سهلا فاما اضافته إلى ماذكره فقبها قبح لاخفاء به.

السابع :أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فأنها متى زادت على الامثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة: ومن ذلك قول أبي نصر بن نباته:

فـاياكم أن تكشفـوا عن رؤوسكم   ألا انّ مغناطيسهنّ الـذوائبُ

«ومغناطيسهن» كلمة غير مرضية لطولها.

ومنه قول أبي تمام:

فلاذربيجان اختيالٌ بـعـدمـا   كانـت معرّس عبرة ونكـالِ

سَمُجَتْ ونبهنا على استسماجها   ماحولها من نَضْرةٍ وجمـالِ

قوله «استسماجها» رديء لكثرة الحروف وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الالفاظ إلى الشاذ النادر.

ومنه قول المتنبي :

ان الكـريم بـلا كرام منهم   مثل القلوب بلا سويداواتها (١)

ف «سويداواتها» كلمة طويلة جدا .

الثامن: أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك ، فانها تحسن به: ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة :

وغابَ قُميرٌ كنت أرجو طلوعه   وروّح رعيان ونوّم سمر

وهذا تصغير مختار في موضعه، فأما الاسماء التي لم ينطق بها الا مصغرة كاللجين والثريا فليس التصغير فيهما حسن بذكر، لانه غير مقصود بهما ما ذهب اليه ابن سنان ، ومعظم هذه الشروط تدخل في فصاحة الالفاظ المؤلفة ، والاخلال بها قد يؤدي الى زيادة القبح والتنافر في الكلام، لانه حين تكون الالفاظ مجتمعة تحتاج الى دقة

(١) سويداء القلب : حبته، وجمعها سويداوات.

في التركيب واختيار اللطيف منها . يقول ابن سنان متحدثا عن الشرط الاول:
وأن " الاول منها أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، وهذا بعينه في التأليف ، وبيانه أن يجتنب الناظم تكرر الحروف المتقاربة في تأليف الكلام كما أمرناه بتجنب ذلك في اللفظة الواحدة ، بل هذا في التأليف أقبح ، وذلك ان اللفظة المفردة لايستمر فيها من تكرار الحرف الواحد أو تقارب الحرف مثلما يستمر الكلام المؤلف إذا طال واتسع (١) » .
ومما قبح قول أبي تمام :

فالمجد لايرضى بان ترضى بأن   يرضى المؤمل منك الا بالرضى

ومنه قول الآخر :

وقبر حرب بمكان قفــر   وليس قرب قبرحـرب قبر

ومنه قول المتنبي :

وتسعدني في غَمْرة بعد غَمْرَة   سبوح لها منها عليها شـواهد

وأما الثاني من شروط اللفظة المفردة فيكون في التأليف اذا ترادفت الكلمات المختارة فيوجد الحسن فيها اكثر وتزيد طلاوته على مالا يجمع من تلك الكلمات الا القليل ، وهذا يرجع الى اللفظة بانفرادها وليس للتأليف فيه الا ما أثاره التواتر والترادف .

وكذلك الثالث والرابع من الأقسام لاعلقة للتأليف بهما ، وإنما يقبح إذا كثر فيه الكلام الوحشي أو العامي .

وأما الخامس فللتأليف به علقة وكيدة ، لأن اعراب اللفظة تبع لتأليفها من الكلام وعلى حكم الموضع الذي وردت فيه:

وأما السادس فللتأليف فيه تعلق بحسب إضافة الكلمة إلى غيرها، فإن القبح يختلف بحسب ذلك.

---

(١) سر الفصاحة ص ١٠٧.

وأما السابع فلا علاقة للتأليف به، إلا أن ظهور قبحه أجلى إذا ترادفت فيه الكلمات الطوال

وأما الثامن فلا علاقة للتأليف به إذ كان لايتعدى الكلمة بانفرادها .

ودراسة ابن سنان للفصاحة من أخصب الدراسات ،ولا يكاد المتأخرون يخرجون عنها في كل ماألفوا أو اختصروا أو شرحوا.

عبد القاهر .

وكانت للفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان ألفاظاً مرادفة عند عبد القاهر الجرجاني (– ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ)، وكلها يعبر بها عن «فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ،وراموا أن يعلموهم مافي نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم» (١).

والألفاظ عنده خدم المعاني وأوعية لها تتبعها في حسنها وجمالها أو قبحها ورداءتها، يقول: «ولن تجد أيمن طائراً، وأحسن أولا وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا مايزينها . فأما أن تضع في نفسك أنه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم. فإن ساعدك الجد كما ساعد في قوله .

أوْدعاني أمت بما أوْدعاني

وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله .

وأنجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

وقوله .

هن الحمام فإن كسرت عيافة من حائهن فإنهن حمام

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٥.

فذاك ولا اطلقت ألسنة العيب »(١):

إنّ الفصاحة تكون في المعنى وليس للكلمة المفردة كبير قيمة، وكثيراً ماتستعمل اللفظة في موضع فتكون حلوة الجرس عذبة، وتستعمل في موضع آخر فتفقد تلك المزية، وإنما كان ذلك «لأن المزية التي من أجلها نصفُ اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح مزية تحدث بعد أن لاتكون وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم. وهذا شيء ان أنت طلبته فيها وقد جئت بها إفراداً لم ترم فيها نظماً ولم تحدث لها تأليفاً طلبت محالاً. وإذا كان كذلك وجب أن تعلم قطعاً أن تلك المزية في المعنى دون اللفظ» (٢).

فالألفاظ عند عبد القاهر لاتتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لاتعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ «الأخدع» في بيت الحماسة:

تلفتُّ نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليتاً وأخدعا (٣)

وبيت البحتري:

واني وان بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رقّ المطامع أخدعي

فإن لها في هذين البيتين مالايخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يادهرُ قوّمْ من أخدعيك فقد أضججتَ هذا الانام من خُرُقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ماوجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة .

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٩، وينظر دلائل الاعجاز ص ٤٠١.
(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٠٧.
(٣) الاخدعان : عرقان في جانبي العنق قد خفيا وبطنا، والليت : صفحة العنق

ومن أعجب ذلك لفظة «الشيء» فانك تراها مقبولة حسنة في موضع وضعيفة مستكرهة في موضع، وان اردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة:

ومن مالىء عينيه من شيء غيره   اذا راح نحو الجمرة البيضُ كالدُّمى

والى قول أبي حيّة النميري:

اذا ماتقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ   تقاضاه شيءٌ لايملّ التقاضيا

فانك تعرف حسنها ومكانها من القبول، ثم انظر في بيت المتنبي:

لوالفلكُ الدوّار أبغضتَ سعيه   لعوّقه شيءٌ عن الدوران

فانك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم.

ومن سر هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدةمواضع ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحة لاتجدها في الباقي ، مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة «الجسر» في قول أبي تمام:

لايطمع المرء أن يجتاب لجته   بالقول مالم يكن جسرا له العمل

وقوله:

بَصُرْتَ بالراحة العظمى فلم ترها   تُنال إلاعلى جسْرٍ من التَّعَب

فترى لها في الثاني حسنا لاتراه في الاول ، ثم تنظر اليها في قول ربيعه الرقي :

قولي: نعم ، ونعم إنْ قلت واجبة

قالت : عسى وعسى جسْرٌ إلى نَعَمٍ

فترى لها لطفا وخلابة وحسنا ليس الفضل فيه بقليل.

ويتبنى عبد القاهر إلى أن الكلمة لو كانت اذا حسنت من حيث هي لفظ واذا استحقت المزية والشرف، استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع اخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت أما ان تحسن أبداً أولا تحسن أبدا . (١)

ولعل الغرض الديني كان دافعا إلى هذا الرأي ،لان كلمات القرآن الكريم عربية نطق بها الشعراء والخطباء وتداولها الناس ، وليس لها مزية وهي مفردة لايضعها

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٨، ٦٢.

سلك يوحّد بينها ويجمع متفرقها ،ولكي يظهر عبد القاهر إعجاز القرآن ويرد ماكان يشيع في البيئات المختلفة اتجه إلى نظرية النظم ليسدّ بها المسالك ويفند آراء المختلفين ويوقف طعنات الحاقدين.

ولم يقف عند الاهتمام بالنظم وانما اهتم بالتصوير الادبي الذي لايكون إلاّ بترتيب الالفاظ والتأليف بينها، يقول: «ومعلوم ان سبيل الكلام سبيل التصوير والصّياغة وان سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أوسوار، فكما ان محالاً إذا انت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك محال اذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه. وكما انا لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود أو فصّه أنفس لم يكن ذلك تفضيلاله من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي اذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لايكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام »(١).

فعبد القاهر يرى أن للتصوير الادبي قيمة كبيرة، ولذلك أطال الكلام في «أسرار البلاغة» على الوسائل التي تجعل للصورة حسنة مقبولة، وفصّل القول في نظرية النظم، وذهب إلى أبعد من ذلك ورأى أن في الاستعارة مالايمكن بيانه الاّ بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته .يقول متحدثا عن الاستعارة في بيت الشاعر:

سالت عليه شعابُ الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

«فانك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها انما تمّ لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما تُوخّي في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة تلك ومؤازرته لها. وان شككت فاعمد إلى الجارّين والظرف فأزل كلاّ منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل «سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره» ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن

(١) دلائل الاعجاز ص ١٩٦.

والحلاوة وكيف تعدم أريحيتك التي كانت وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها»(١).

إنّ الفصاحة عنده لاتكون إلا بتوخي معاني النحو، أي النظم، والألفاظ لا تفيد حتّى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ويعمد بها إلى وجه في التركيب. فلو انك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً كيف جاء واتفق وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كل ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»: «منزل قفا ذكرى من نبك حبيب» أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان، وأسقطت نسبته من صاحبه، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه، بل أحلت أن يكون له اضافة إلى قائل ونسب يخص بمتكلم (٢).

وانتهى إلى الحكم بالخطأ على مَنْ قصر الفصاحة على الكلمات من حيث هي ألفاظ منطوقة وأصوات مسموعة، والأديب لايطلب اللفظ بحال، وإنما يطلب المعنى فإذا ظفر به فاللفظ معه وإزاء ناظره، ولذلك لم تكن الفصاحة عنده من صفات المفردات من غير اعتبار التركيب.

إن عبد القاهر ربط بين الفصاحة والنظم ولذلك لم يُطل الكلام على شروط الفصاحة كما فعل معاصره ابن سنان الخفاجي، ولكنه مع ذلك لاينكرها كل الإنكار، ونراه يقول في خاتمة كتابه «دلائل الاعجاز»: «واعلم أنّا لاتأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الاعجاز، وإنما الذي ننكره ونُفَيِّل رأي من يذهب اليه أن يجعله معجزاً به وحده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ماذكرنا من شناعات»(٣). فهو لم ينكر فصاحة الألفاظ ونغمها ولكنه لم يُرد أن يفسر الاعجاز بها، ولذلك لم يدرسها كما

(١) دلائل الاعجاز ص٧٨.

(٢) أسرار البلاغة ص٨.

(٣) دلائل الاعجاز ص٤٠١، فيل - بتشديد الياء - رأيه: قبحه وخطأه.

فعل الآخرون ولم يعْنَ بها عناية تظهر ميزتها وتأثيرها في الكلام (١).

الـــرازي .

عرف فخر الدين الرازي (–٦٠٦هـ) الفصاحة بأنها «خلوص الكلام من التعقيد»(٢) وهي –عنـده– تتصل بالمعنى ، لأن الإفادة اللفظية يستحيل تطرق الكمال والنقصان اليها ، فإن السامع للفظ إما أن يكون عالماً بكونه موضوعاً لمسماه أو لا يكون . فإن كان عالماً به عرف مفهومه بتمامه ، وإن لم يكن عالماً به لم يعرف منه شيئاً أصلا .

وحصر البحوث المتعلقة بالدلالة اللفظية في امرين .

الاول : ان الفصاحة والبلاغة لايجوز عودهما الى الدلالة اللفظية .

الثاني : ان الفصاحة وان كانت غير عائدة الى الدلالة اللفظية ، لكن من الامور العائدة الى جوهر اللفظ والى دلالته الوضعية مايفيد الكلام كمالاً وزينة وجمالا (٣) وهذه فكرة عبد القاهر التي بنى عليها نظريته في النظم ، ويرى بهاء الدين السبكي أن الرازي يميل الى ان الفصاحة راجعة الى الالفاظ والمعاني (٤) .

ابن الاثير :

وكان ضياء الدين بن الاثير (–٦٣٧هـ) اوضح من السابقين تصوراً وفهماً للفصاحة ، وقد اهتم بها اهتماماً عظيماً وصحح كثيراً من الآراء في كتابيه «المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر» و«الجامع الكبير» . يقول عن الفصاحة : «اعلم ان هذا باب متعذر على الوالج ومسلك متوعر على الناهج ، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ، ولم أجد من ذلك ما يعوّل

---

(١) ينظر الفصل الثالث «اللفظ والمعنى» في كتابنا «عبدالقاهر الجرجاني– بلاغته ونقده» ص ٨٧– ١١٨ .

(٢) نهاية الايجاز ص٩ .

(٣) نهاية الايجاز ص١١ .

(٤) عروس الافراح– شروح التلخيص ج١ ص١٣٥ .

عليه الا القليل . وغاية ما يقال في هذا الباب : ان الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي ، يقال : أفصح الصبح اذا ظهر . ثم انهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون عن السرّ فيه »(١). ولا تبين الفصاحة بهذا القول لانه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات :

الاول : انه اذا لم يكن اللفظ ظاهراً بيّناً لم يكن فصيحا ، ثم اذا ظهر وتبين صار فصيحاً .

الثاني : انه اذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البيّن فقد صار ذلك بالنسب والاضافات الى الاشخاص ، فان اللفظ قد يكون ظاهراً لزيد ولا يكون ظاهراً لعمرو ، فهو اذن فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا . وليس كذلك ، بل الفصيح هو فصيح عند الجميع لا خلاف فيه بحال من الاحوال ، لانه اذا تحقق حدّ الفصاحة وعرف ما هي لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف .

الثالث : انه اذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع وهو مع ذلك ظاهر بين ، ينبغي أن يكون فصيحا ، وليس كذلك لان الفصاحة وصف حسن اللفظ لا وصف قبح .
فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل : « ان اللفظ الفصيح هو الظاهر البيّن ». ومعنى ذلك ان ابن الاثير لا يأخذ بهذا القول الذي اثار حيرته فمضى يبحث عن تعريف للفصاحة ، ويحقق القول فيها . وقد شرح المسألة بوضوح فقال ان المقصود بـ « ان الكلام الفصيح هو الظاهر البيّن » ان تكون الفاظه مفهومة لا يحتاج فهمها إلى استخراج من كتاب لغة ، وانما كانت بهذه الصفة لانها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم ، وانما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الالفاظ لمكان حسنها ، وذلك أن ارباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار الفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحسن الالفاظ سبب استعمالها دون غيرها

---

(١) المثل السائر ج ١ ص ٦٤.

واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ، فالفصيح من الالفاظ هو الحسن.

فان قيل : من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الالفاظ حتى استعملوه وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه ؟

قيل لهم: إنّ هذا من الامور المحسوسة التي شاهدها في نفسها،لان الالفاظ داخلة في حيز الاصوات ، فالذي يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، ألا ترى ان السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل اليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس ، والالفاظ جارية هذا المجرى فانه لاخلاف في أن لفظة « المزنة » و « الديمة » حسنة يستلذها السمع ، وان لفظة «البعاق» قبيحة يكرهها السمع .وهذه اللفظات الثلاثة من صفة المطر،وهي تدل على معنى واحد، ومع هذا فانك ترى لفظتي «المزنة» و «الديمة» وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال وترى لفظ « البعاق» وما جرى مجراه متروكاً لايستعمل ، وان استعمل فانما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير سليم .

لقد ثبت ان الفصيح من الالفاظ هو «الظاهر البيّن» ، وانما كان ظاهرا بينا لانه مألوف الاستعمال ، وانما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع ،والذي يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يأتلف عن مخارج الحروف، فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بفصاحة لانه ضدها لمكان قبحه . ولو كـانت الفصاحة لأمر يرجع الى المعنى لكانت هذه الالفاظ في الدلالة عليه سواء ليس منها حسن ومنها قبيح ، ولما لم يكن كذلك علم انها تخص اللفظ دون المعنى .

وابن الاثير لم يفصل بين اللفظ والمعنى في هذا القول وانما خص اللفظ بصفة هي له والمعنى يجيء فيه ضمنا وتبعا .

واشار الى الفصاحة عند المتقدمين فقال: «وقد ذكر من تقدمني من علماء البيان للالفاظ المفردة خصائص وهيئات تتصف بها ، واختلفوا في ذلك ، واستحسن

احدهم شيئا فخولف فيه وكذلك استقبح الآخر شيئا فخولف فيه ، ولو حققوا النظر ووقفوا على السر في اتصاف بعض الالفاظ بالحسن وبعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف في شي منها » (١) .

ورد رأي من ذهب الى ان كل الالفاظ حسن وقال : « ومن يبلغ جهله الى ان لا يفرق بين لفظة «الغصن» ولفظة «العسلوج» ، وبين لفظة « المدامة » ولفظة «الاسفنط» ، وبين لفظة «السيف» ولفظة «الخنشليل» ، وبين لفظه «الاسد» ولفظة «الفدوكس» ، فلا ينبغي ان يخاطب ولا يجاوب بجواب، بل يترك وشأنه كما قيل: « اتركوا الجاهل بجهله ولو القى الجعر(٢) في رحله». وما مثاله في هذا المقام الا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كلوة وشعر قطط(٣) كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد اسيل وطرف كحيل، ومبسم كأنما نظم من اقاح ، وطرة كأنها ليل على صباح. فاذا كان بانسان من سقم النظر ان يُسَوّي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد ان يكون به من سقم النظر أن يُسَوّي بين هذه الالفاظ وهذه . ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام فان هذا حاسّة ، وهذا حاسّة ، وقياس حاسة على حاسّة مناسب ». ثم قال : «ومن له ادنى بصيرة يعلم أن للالفاظ في الاذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوتا منكرا كصوت حمار، وأنّ لها في الفم ايضا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم » (٤) .

وذكر ان ابن سنان قد تحدث عما يتعلق باللفظة الواحدة من الاوصاف وقسمها عدة اقسام — كما مرّ — وفيما قاله ابن سنان لا حاجة اليه ، لان تباعد المخارج

---

(١) المثل السائر ج ١ ص ١٤٨.

(٢) الجعر . مايبس من العذرة في المجعر أي الدبر ، أو نجو كل ذات مخلب من السباع

(٣) الشعر القطط : القصير الجعد.

(٤) المثل السائر ج ١ ص ١٤٩ — ١٥٠.

يشمل معظم اللغة العربية ، وان جريان اللفظة على العرف العربي ليس مما يوجب لها حسنا ولا قبحا ، وانما يقدح في معرفة مستعملها بما ينقله من الالفاظ ، وان تصغير الكلمة مما لا حاجة إلى ذكره لان المعنى يسوق اليه. أما الاوصاف الاخرى التي ذكرها ابن سنان فقد اقام عليها ابن الاثير بحثه في الالفاظ فقبل منها ما قبل ورفض ما رفض، وشرح تلك الاوصاف بما يغني عن كثير من الكتب ، وكانت دراسته من أوسع الدراسات وأعمقها ولم يأت بعده من أضاف اليها ، واتجهت الكتب إلى التلخيص والقضاء على النزعة الادبية التي اتسمت بها دراسة ابن الاثير .

السكاكي :

وعندما قسم السكاكي (– ٦٢٦هـ) البلاغة إلى علومها لم يعقد للفصاحة فصلا وانما تكلم عليها بعد أن انتهى من علم البيان، وذكر انها قسمان : –

الاول : راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد.

وشرح تعقيد الكلام وقال : هو ان يعثر صاحب الفكر في متصرفه ويشيك الطريق إلى المعنى، كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلاّ مُملكاً   أبو أمه حيٌ أبوه يقاربه

وكقول أبي تمام :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن   كاثنين ثان إذ هما في الغـــار

أما غير المعقد فهو أن يفتح صاحبه للفكرة الطريق ويمهده (١).

الثاني : راجع إلى اللفظ، وهو :

١ – أن تكون الكلمة عربية اصيلة، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدْوَرَ واستعمالهم لها اكثر، لا مما أحدثها المولدون ولا مما أخطأت فيه العامة.

٢ – وأن تكون أجرى على قوانين اللغة.

٣ – وأن تكون سليمة من التنافر.

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٦ – ١٩٧.

وجعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة التي حصر مرجعها في المعاني والبيان، ولم يجعل للفصاحة مرجعا في شيء منهما، وهو في ذلك يتابع عبد القاهر والرازي اللذين نظرا إلى النظم ولم يوليا اللفظ المفرد اهمية كبيرة.

ابن مالك :

واختصر بدر الدين بن مالك (- ٦٨٦هـ) القسم الثالث من «مفتاح العلوم» وتكلم على الفصاحة وأطلق عليها اسم البديع الذي قال عنه «هو معرفة توابع الفصاحة» وعرّف الفصاحة بانها «صوغ الكلام على وجه له توفية بتمام الافهام لمعناه وتبيّن المراد منه»(١). وقسمها إلى معنوية ولفظية، وذكر ما في «مفتاح العلوم» من صفاتهما، ثم قسم المعنوية إلى مختصة بالافهام والتبيين ومختصة بالتزيين والتحسين. وهذه الانواع الثلاثة هي علم البديع عند المتأخرين.

القزويني :

وحينما جاء الخطيب القزويني (- ٧٣٩هـ) وجد الطريق ممهداً فأخذ عن علماء البلاغة المتقدمين ورتب بحث الالفاظ ترتيبا علميا خالف فيه السكاكي وبدر الدين، لانه اتخذها مقدمة للبلاغة، وفي هذه المقدمة التي كانت كشفا عن معنى الفصاحة والبلاغة وانحصار علم البلاغة في المعاني والبيان - تكلم على صفات الالفاظ وما ينبغي أن تكون عليه. وكان بحثه ابتداءاً باتخاذ الفصاحة مقدمة لعلوم البلاغة بعد أن كانت موضوعا تشيع فيه الحياة (٢).

بدأ القزويني مقدمته بقوله: «للناس في تفسير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة لم أجد - فيما بلغني منها - ما يصلح لتعريفهما به ولا ما يشير إلى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصوف بهما المتكلم، فالاولى أن نقتصر

(١) المصباح ص٧٥.

(٢) ينظر القزويني وشروح التلخيص ص٢٤٩-٢٨٣.

على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين »(١). وهذا غير صحيح ، لان البلاغيين اهتموا بهما ووضعوا لهما حدوداً وفرقوا بينهما ، وكانت بحوث الجاحظ وقدامة وأبي هلال وعبد القاهر وابن سنان وابن الاثير من أروع ما كتب وأبدع ما خطته يد بلاغي ناقد ، وما مقدمة القزويني إلا خلاصة هذه الدراسات ، فكيف لم يترك القدماء تعريفاً للفصاحة أو البلاغة يمكن الركون اليه ، ولعله في ذلك متأثر بدعوى عبد القاهر الذي يقول : « لم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها فأجد بعض ذلك كالرمز والاشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج »(٢) ويقول : « انا لم نَرَ العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاما للاولين ويتدارسوه ، ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم أن يسألوا عن بيان له وتفسير ، الا علم الفصاحة فانك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم الفاظا للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلا أو يستطيعوا ان يسألوا عنها أن يذكروا لها تفسيراً يصح »(٣).

وهذا صحيح في عهد التأليف الاول وعند عبدالقاهر الذي لم يفرق بين المصطلحين ، لانهما عنده يعبر بهما عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا واخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (٤) ، اما القزويني فالامر عنده مختلف ، لان مصطلحات البلاغة استقرت في عهده وأصبح للفصاحة والبلاغة محتوى واضح .

والفصاحة والبلاغة عند القزويني تقع كل واحدة منهما صفة لمعنيين :

الاول : الكلام كما في « قصيدة فصيحة أو بليغة » و « رسالة فصيحة أو بليغة »

(١) الايضاح ص٢.
(٢) دلائل الاعجاز ص٢٨.
(٣) دلائل الاعجاز ص٣٥٠.
(٤) دلائل الاعجاز ص٣٥.

م/٥/ب

الثاني : المتكلم كما في «شاعر فصيح أو بليغ» ، و «كاتب فصيح أو بليغ» .
وتحدث عن فصاحة اللفظة المفردة ، وقال ان الفصاحة تقع صفة للمفرد فيقال «كلمة فصيحة» ، ولا يقال «كلمة بليغة» . ووضع للفظة المفردة شروطا هي خلوصها من :

١ ـ تنافر الحروف : والتنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان كما رُوي أن أعرابيا سئل عن ناقته فقال : «تركتها ترعى الهعخع» .

ومنه ما دون ذلك كلفظة «مستشزر» في قول امرىء القيس :

غدائرها مستشزرات إلى العلى تضلّ العقاص في مثنّى ومرسل

ولم يشرح القزويني هذا التنافر ولم يذكر علته ، وكان ابن سنان قد علله بقوله : «وعلة هذا واضحة وهي ان الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الالوان من البصر ولاشك في أن الالوان المتباينة اذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الالوان المتقاربة ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب مابينه وبين الاصفر وبعد مابينه وبين الاسود . واذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش اذا مزجت من الالوان المتباعدة» (١) .

لقد جمعت لفظة «الهعخع» القبح من أطرافه ، لان جميع حروفها حلقية ، وحرف حلقي واحد يبعث على الثقل فكيف اذا اجتمع الهاء والعين والخاء في كلمة واحدة؟ .
ولفظة «مستشزرات» ـ وان كانت أخف منها ـ ثقيلة لتوسط الشين التي هي من الحروف المهموسة الرخوة بين التاء التي هي من المهموسة الشديدة والزاي التي هي من المجهورة الرخوة . ويرى النقاد أن امرأ القيس لو قال : «مستشرف» لزال الثقل .

٢ ـ الغرابة : وهي ان تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج في معرفته إلى البحث في كتب اللغة ، كما رُوي عن عيسى بن عمر النحوي أنه سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال : «مالكم تكأكأتم عليّ تكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني» .

---

(١) سر الفصاحة ٦٦ .

أو يخرج له وجه بعيد كما في قول العجاج :

وفاحماً ومَرْسِناً مُسرَّجاً

فانه لم يعرف ما أراد بقوله « مسرّجا» حتى اختلف في تخريجه ، فقيل : هو من قولهم للسيوف « سريجية » منسوبة إلى قين يقال له سريج ، يريد أنه في الاستواء والدقة كالسيف السريجي . وقيل من السراج ، يريد انه في البريق كالسراج ، وهذا يقرب من قولهم : « سرج وجهه » أي : حَسُنَ ، و« سرّج الله وجهه» أي بهجه وحسنه .

وهذا بحث اهتم به النقاد والبلاغيون كابن سنان الذي عاب الذين يكثرون من الوحشي الغريب في كلامهم وذكر ما وقع فيه بعضهم فخرج كلامه عن الفصاحة وبعد عن الفهم (١). وكابن الاثير الذي يرى أن الوحشي ليس المستقبح من الالفاظ وانما هو قسمان : غريب حسن ، وغريب قبيح (٢) .

٣ـ **مخالفة القياس اللغوي** : كقول الراجز :

الحمدُ لله العليّ الأجْلَلِ الواهبِ الفَضْلِ الكريمِ المُجْزِلِ

فان القياس « الأجلّ » بالادغام .

ولم يوضح مخالفة القياس ، وكان ابن سنان قد تكلم عليه ووضحه وأدخل فيه كل ما ينكره اهل اللغة ويردّه علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة (٣).

ووضع القزويني قاعدة للفظة الفصيحة فقال : « ثم علامة كون الكلمة فصيحة أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيراً أو اكثر من استعمالهم ما بمعناها»(٤).

وبعد ان انتهى من شروط اللفظة الفصيحة تحدث عن فصاحة الكلام وهي :

١ـ**خلوصه من ضعف التأليف** : ومثل له بقوله : « ضربَ غلامُهُ زيداً» فان رجوع الضمير إلى المفعول المتأخر لفظاً ممتنع عند الجمهور لئلا يلزم رجوعه إلى ماهو متأخر لفظاً ورتبة ، وقيل يجوز لقول الشاعر :

---

(١) سر الفصاحة ص٧٥.

(٢) المثل السائر ج١ ص٥٧ ، ١٥٥ ، ١٦٣ .

(٣) سر الفصاحة ص٨٢-٩١.

(٤) الايضاح ص٤.

جزى ربّه عني عدي بن حاتم   جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

٢ – التنافر: وهو أن تكون الالفاظ بسببه متناهية في الثقل على اللسان متتابعة كما في البيت الذي انشده الجاحظ :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

ومنه ما دون ذلك كقول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى   معي وإذا ما لمته لمته وحدي

وسبب التنافر في « أمدحه » مابين الحاء والهاء من تنافر لانهما حلقيان ، وتكرار الكلمة في الشرط والجزاء .

٣ – التعقيد : وهو أن لايكون ظاهر الدلالة على المراد به وله سببان :

الاول : مايرجع إلى اللفظ وهو ان يختل الكلام ولا يدري السامع كيف يتوصل منه إلى معناه كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلاّ مملكاً   أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

ووضع القزويني قاعدة للكلام الخالي من التعقيد اللفظي وقال انه : « مما سلم نظمه من الخلل فلم يكن فيه ما يخالف الاصل من تقديم أو تأخير او اضمار او غير ذلك الا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظية أو معنوية (١). وهذا ما تكلم عليه عبدالقاهر وسماه « التعقيد » أو « فساد النظم» (٢) وادخله ابن سنان في بحث التقديم والتأخير (٣)، وعدّه ابن الاثير من المعاظلة المعنوية التي يسببها التقديم والتأخير (٤).

الثاني : ما يرجع إلى المعنى وهو أن لايكون في انتقال الذهن من المعنى الاول إلى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به ظاهراً كقول العباس بن الأحنف :

سأطلب بُعْدَ الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

(١) الايضاح ص٦.
(٢) اسرار البلاغة ص١٦٢.
(٣) سر الفصاحة ص١٢٥.
(٤) المثل السائر ج١ ص٢٩٤ ، ج٢ ص٤٤ وما بعدها.

كنّي بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن ، وأصاب ، لان من شأن البكاء ان يكون كناية عنه كقولهم : « أبكاني واضحكني » أي : اساءني وسرني ، كما قال :

أبكاني الدهر ويا ربمـا   أضحكني الدهـر بما يـرضي

ثم طرد ذلك في نقيضه فأراد ان يكنى عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقاً من غير اعتبار شيء آخر، واخطأ لان الجمود خلو العين من البكاء في حال ارادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرّة وانما يكون كناية عن البخل كما قال الشاعر :

ألا أنّ عينـا لم تجدْ يوم واسط   عليك بجاري دمعهـا لجمـودُ

وضبط القزويني الكلام الخالي من التعقيد وقال عنه : « ماكان الانتقال من معناه الاول إلى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهراً حتى يخيّل إلى السامع أنه فهمه من حاقّ اللفظ » (١).

وأضاف إلى ذلك خلوص الكلام من كثرة التكرار، كقول المتنبي :

وتسعدني في غمرة بعـد غمرة   سبوح لها منها عليهـا شواهـد

وخلوه من تتابع الاضافات، كقول ابن بابك :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي   فانت بمرأى من معاد ومسمع

وكان الصاحب بن عباد قد أشار إليه بقوله : «اياك والاضافات المتداخلة فإنها لا تحسن» ، ويرى القزويني ان هذا الشرط لا يؤخذ به دائما ، لان ذلك ان افضى باللفظ إلى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه وإلاّ فلا تخل بالفصاحة، وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم». وهذا رأي عبد القاهر الذي قال : «ولكنه اذا سلم من الاستكراه ملح ولطف» ؛

ومما حسن فيه قول ابن المعتز :

(١) الايضاح ص٦.

وظلت تدير الراح أيدي جآذر عتاق دنانير الوجوه مـــلاح

ومما جاء فيه حسنا جميلا قول الخالدي يصف غلاما له :

ويعرف الشعر مثل معرفتي وهو على أن يزيـد مجتـهـد

وصيرفي القريض وزان دينار المعاني الـدقـاق منتـقـد (١)

ومما يتصل بالالفاظ الفنون التي سماها البلاغيون « المحسنات اللفظية » وهي عظيمة الاهمية في دراسة الالفاظ ، وينبغي ان توضع في بحث الفصاحة لان لها تأثيراً في الكلام . واذا تابع المحدثون صاحب « مفتاح العلوم » فتحدث عنها في البديع فان دراستها هنا اجدى واكثر نفعا . وقد سبق إلى ذلك علماء البلاغة كابن الاثير الذي قسم الصناعة اللفظية قسمين :

الأول : في اللفظة المفردة .

الثاني : في الالفاظ المركبة ، وهي السجع ، والتصريع ، والتجنيس ، والترصيع ولزوم ما لايلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الالفاظ ، وتكرار الحروف .

هذه دراسة البلاغيين للفصاحة أما النقاد فقد تحدثوا عن دقة الالفاظ وابحاثها وسهولتها وجزالتها والفتها وغرابتها وغير ذلك مما نجده في كتب البلاغة والنقد، وهو حديث فيه طرافة وجدّة يتمم ماذكره البلاغيون عن الفصاحة واوصافها .

(١) الايضاح ص ٨، ودلائل الاعجاز ص ٨٢ .

المبحث الثاني

البلاغة

كلمة «البلاغة» من الكلمات التي شاع استعمالها في كتب الادب ، وكانت هي والفصاحة صنوين تستعملان معاً او تستعمل الواحدة في موضع الاخرى .

في اللغة :

والبلاغة – في اللغة – الانتهاء والوصول، وفي لسان العرب : «وبلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا : وصل وانتهى. تبلغ بالشيء : وصل إلى مراده. البلاغ ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب. البلاغ : مابلغك، والكفاية . الابلاغ : الايصال بلغت المكان بلوغا : وصلت اليه، وكذا اذا شارفت عليه».

وأشار ابن منظور إلى المعنى الاصطلاحي فقال : «البلاغة : الفصاحة . والبَلْغ والبِلْغ : البليغ من الرجال. ورجل بليغ وبَلْغٌ وبِلْغٌ : حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ مافي قلبه، والجمع بلغاء. وقد بَلُغَ بلاغة : صار بليغاً».

وليس في هذا القول غير المعنى العام للكلمة ، فهي – أولا – الانتهاء والوصول إلى الغاية، وهي – ثانيا – الفصاحة ، أي ان الكلمتين مترادفتان . وهذا رأي معظم اللغويين والبلاغيين الاوائل.

في القرآن :

ولو تلمسنا هذه اللفظة في التراث العربي لرأيناها شائعة معروفة ، وقد جاءت لفظة «بليغ» في قوله تعالى : «فأَعْرِضْ عنهم، وَعِظْهُم، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً» (1).

يقول الراغب الاصفهاني في تفسيرها : «البلاغة تُقال على وجهين : أحدهما أن يكون بذاته بليغاً، وذلك بأن يجمع ثلاثة اوصاف : صوابا في موضوع لغته ،

(1) النساء ٦٣ .

وطبقاً للمعنى المقصود، وصدقاً في نفسه: ومتى اخترم وصف من ذلك وكان ناقصا في البلاغة.

والثاني : أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له وهو أن يقصد القائل أمراً فيردّه على وجه حقيق أن يقبله المقول له. وقوله تعالى : «وقل لهم في أنفسهم قولا بليغاً» يصح حمله على المعنيين» (١).

وذهب الزمخشري مذهبا نفسياً في تفسيرها ، واشار إلى تأثيرها رمزاً في قوله: « قل لهم قولا بليغًا مؤثراً في قلوبهم يغتمون به اغتماما ويستشعرون من الخوف استشعاراً » (٢).

في الحديث :

وليس في احاديث النبي – صلى الله عليه وسلم – مايشير إلى هذا المعنى مع كثرة ماجاء من مشتقاتها في كلامه (٣). فقد ورد عنه قوله : «أن الله يبغض البليغ الذي يتخلل بلسانه» . وجاء عنه انه عاب فيه المتشادقين والثرثارين والذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها (٤).

في التراث :

ولا نكاد نعثر على بغيتنا في فترة صدر الاسلام ، وحينما جاء العصر الاموي نجد معاوية بن أبي سفيان يسأل صحار بن عياش : ماهذه البلاغة التي فيكم ؟ « قال: « شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا » . وقال له معاوية : ماتعدّون البلاغة فيكم ؟ «قال: «الايجاز». قال له معاوية : «وماالايجاز ؟ «قال صحار : «ان تجيب فلا تبطيء ، وتقول فلا تخطيء » (٥).

وفي كتاب « البيان والتبيين » تعريفات كثيرة للبلاغة عند العرب وغيرهم ، فقد قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل من الوصل : وقيل لليوناني : ما البلاغة؟

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص٦٠.

(٢) الكشاف ج١ ص٤٠٧.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ج١ ص١٥٢.

(٤) البيان والتبيين ج١ ص٢٧١.

(٥) البيان ج١ ص٩٦.

قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهندي : مالبلاغة؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة . وقال بعض أهل الهند : « جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة » (١) .

وفسّرها عمرو بن عبيد (– ١٤٤ هـ) في أول الامر تفسيراً دينيا حين قيل له ما البلاغة ؟ قال : مابلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك . قال السائل : ليس هذا أريد . قال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال : ليس هذا اريد . قال : قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « إنّا معشر الانبياء بكاء » أي قليلو الكلام ، ومنه قيل « رجل بكيء » . وكانوا يكرهون ان يزيد منطق الرجل على عقله . قال السائل : ليس هذا أريد . قال كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام مالا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت . قال السائل : ليس هذا أريد . قال عمرو : فكأنك تريد تخير اللفظ في حسن الافهام؟ قال : نعم . قال : انك اذا اوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالالفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبولة عند الاذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستحققت على الله جزيل الثواب (٢) .

وقال الاصمعي (– ٢١٦هـ) عن البليغ انه : « من طبق المفصل واغناك عن المفسّر » (٣) :

وقال العتابي (– ٢٢٠ هـ) أن « كل من أفهمك حاجته من غير اعادة ولا حُبْسة فاظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق » .(٤) .

(١) البيان ج١ ص٨٨.
(٢) البيان ج١ ص١١٤ ، وينظر عيون الاخبار ج٢ ص١٧٠.
(٣) البيان ج١ ص١٠٦.
(٤) البيان ج١ ص١١٣.

الجاحظ :

ولم يعرّفها الجاحظ (ـ ٢٥٥هـ) بعد أن ذكر كثيراً من تعريفاتها ، واكتفى بأن اختار قولاً أعجبه . يقول : « وقال بعضهم — وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه — لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك » (١).

وليس في هذا التعريف ما يشير الى المعنى الاصطلاحي الذي حدّده البلاغيون والجاحظ في كل ما ذكر لايضع بين الفصاحة والبلاغة حداً ، فكثيراً ماتأتيان مترادفتين ، وهما عنده البيان بمعناه الواسع قبل أن يقيده المتأخرون .

المبرد :

وللمبرد (ـ٢٨٥هـ) رسالة صغيرة سماها «البلاغة» ، أجاب فيها عن رسالة أحمد ابن الواثق الذي سأله : «أي البلاغتين أبلغ ؟ أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والكلام المنثور والسجع وأيتهما عندك ـ أعزك الله ـ أبلغ ؟ » .

وأجابه المبرد : «إنّ حق البلاغة احاطة القول بالمعنى واختيار الكلام وحسن النظر حتى تكون الكلمة مقاربة اختها ومعاضدة شكلها ، وأن يقرب بها البعيد ، ويحذف منها الفضول » (٢) .

ومصطلح «البلاغة» في هذه الرسالة لايعني العلم المعروف ، وانما من تحديد لبعض معانيها . واذا لم نجد فيها ما نطمح اليه فاننا نستطيع القول أن المبرد أول مَنْ أطلق «البلاغة» على بعض رسائله .

العسكري :

ويظهر مصطلح البلاغة بوضوح في «كتاب» الصناعتين «لابي هلال العسكري (ـ ٣٩٥هـ) الذي قال : «إنّ أحق العلوم بالتعلم وأولادها بالتحفظ بعد المعرفة بالله ـ جل ثناؤه ـ علم البلاغة ومعرفة الفصاحة »(٣) وقال : «البلاغة من قولهم

---

(١) البيان ج ١ ص ١١٥ .
(٢) البلاغة ص ٥٩ .
(٣) كتاب الصناعتين ص ١ .

بلغت المكان ، اذا انتهيت اليها وبلغتها غيري ، ومبلغ الشيء منتهاه والمبالغة في الشيء: الانتهاء الى غايته ، فسميت البلاغة ، بلاغة ، لانها تنهي المعنى الى قلب السامع ، فيفهمه . وسميت البلغة بلغة لانك تتبلغ بها فتنتهي بك الى ما فوقها وهي البلاغ ايضا » (١) وأبدى رأيه في تعريفها ، وحدّها بقوله : «البلاغة : كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن » (٢) .

والبلاغة — عنده — من صفة الكلام لا من صفة المتكلم ، ولذلك لايجوز ان يسمى الله بليغاً ، إذ لايجوز ان يوصف بصفة موضوعها الكلام . وتسميه المتكلم بانه بليغ توسع وحقيقته أن كلامه بليغ كما تقول : «رجل محكم» ونعني أن افعاله محكمة . قال تعالى «حكمةٌ بالغة » (٣) فجعل البلاغة من صفة الحكمة ولم يجعلها من صفة الحكيم ، الا أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بانه بليغ كالحقيقة .

وفي كتاب الصناعتين رأيان :

الاول : أنّ الفصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد وان اختلف اصلاهما ، لان كل واحد منهما انما هو الابانة عن المعنى والاظهار له .

والثاني : ان الفصاحة والبلاغة مختلفتان ، ذلك ان الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ لان الالة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة انما هي انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى (٤) .

ابن سنان :

وحاول ابن سنان الخفاجي (— ٤٦٦هـ) ان يحدّ البلاغة ويرسم معالمها غير انه لم يأت بالكلمة الفاصلة والتعريف الجامع المانع ، ولم يك وحده الذي فعل ذلك

(١) كتاب الصناعتين ص ٦ .
(٢) كتاب الصناعتين ص ١٠
(٣) القمر ٥ .
(٤) كتاب الصناعتين ص ٧

فقدمت بالبلاغة تعريفات كثيرة نقلها الجاحظ في «البيان والتبيين» ، وأبو هلال في «كتاب الصناعتين» ، ولذلك أشار الى اضطراب القوم في حدّها والوقوف على كنهها وقال : «وقد حدّ الناس البلاغة بحدود اذا حققت كانت كالرسوم والعلائم وليست بالحدود الصحيحة . فمن ذلك قول بعضهم لمحة دالة » وهذا وصف من صفاتها فأما ان يكون حاصراً لها وحداً يحيط فليس ذلك بممكن لدخول الاشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحد » (١) .

ولم يعرّف البلاغة ، وانما فرّق بينها وبين الفصاحة وقال : «والفرق بين الفصاحة والبلاغة ، أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ ، والبلاغة لاتكون الا وصفا للالفاظ مع المعاني : لا يقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً » (٢).

لقد وضع ابن سنان حداً فاصلا بين المصطلحين ، وحصر الفصاحة في الالفاظ والبلاغة في المعاني والالفاظ ، واصبحت الفصاحة شطراً للبلاغة وأحد جزئيها . وهذه التفاتة حسنة ، ولكنه اطلق «الفصاحة» على موضوعات البلاغة وسمى كتابه «سر الفصاحة» ومعنى ذلك أنها تشمل الالفاظ والمعاني . وقد أوضح ذلك بقوله : «و في البلاغة اقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو واذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزئيها فكلامي على المقصود — وهو الفصاحة — غير متميز الا في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره ، فأما ما سوى ذلك فعام لايختص ، وخليط لاينقسم » (٣) :

وابن سنان حينما ينتقل الى تأليف الكلام يظل مرتبطاً بالحديث عن الالفاظ ، لان البلاغة أن توضع الالفاظ موضعها حقيقةً أو مجازاً ، تقديماً او تأخيراً ، قلباً او حشواً ، وغير ذلك مما فصل القول فيه .

(١) سر الفصاحة ص ٦٠
(٢) سر الفصاحة ص ٦٠
(٣) سر الفصاحة ص ٦١

عبد القاهر :

ولم يفرّق عبد القاهر (٤٧١هـ) أو (٤٧٤هـ) بين المصطلحين ، لانهما يعبر بهما عن «فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا او تكلموا واخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم » (١) .

والفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان تأتي مترادفة عنده ، ومعنى ذلك أن الحدود بينها لم تتضح ، وأن هذه المصطلحات لم تستقل وتأخذ معناها الدقيق .

الرازي :

ولم تأخذ لفظة «البلاغة» دلالتها المعروفة عند فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) وهي عنده: «بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الايجاز المخل والاطالة المملّة » (٢) ولكنه ربط الفصاحة والبلاغة بالمعنى ، ونحا منحى عبد القاهر في فهمها .

ابن الأثير :

وقال ابن الاثير (– ٦٣٧هـ) أن الكلام يسمى بليغاً لانه بلغ الاوصاف اللفظية والمعنوية ، والبلاغة شاملة للالفاظ والمعاني وهي أخص من الفصاحة كالانسان من الحيوان وليس كل حيوان انسانا ، وكذلك يقال : « كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا » وفرّق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهي انها لا تكون الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة المفردة لاتنعت بالبلاغة وتنعت بالفصاحة اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذي ينتظم كلاما (٣) .

السكاكي :

وحينما قسم السكاكي (٦٢٦ – هـ) البلاغة ووضع معالمها في كتابه « مفتاح العلوم » عرّفها تعريفا دقيقا وقال : «هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاص

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٥ .

(٢) نهاية الإيجاز ص ٩ .

(٣) المثل السائر ج ١ ص ٦٩ .

بتوفية خواص التراكيب حقها ، وايراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها »(١) ؛ وبهذا التعريف أدخل مباحث علم المعاني وعلم البيان ، وأخرج مباحث البديع لانه وجوهٌ يُؤتى بها لتحسين الكلام وهي ليست من مرجعي البلاغة .

وللبلاغة طرفان : أعلى وأسفل متباينان تباينا لايترآءى لاحد ناراهما وبينهما مراتب متفاوتة تكاد تفوت الحصر ، فمن الاسفل تبتدىء البلاغة ، وهو القدر الذي اذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام باصوات الحيوانات ثم تأخذ في التزايد متصاعدة الى ان تبلغ حد الاعجاز ، وهو الطرف الاعلى وما يقرب منه .

ولم يعرّف الفصاحة واكتفى بتقسيمها الى قسمين : قسم راجع الى المعنى ، وقسم راجع الى اللفظ ، ولم يجعلها لازمة للبلاغة التي وحصر مرجعيهما في المعاني والبيان . وقد أشار القزويني الى ذلك بقوله : «وجعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة ، وحصر مرجع البلاغة في الفنين،ولم يجعل الفصاحة مرجعاً لشيء منهما»(٢) وقال التفتازاني « لم يجعل البلاغة مستلزمة للفصاحة ، وحصر مرجعهما في المعاني والبيان دون اللغة والصرف والنحو»(٣) ، ورأى أنّ مرجعهاالى هذه العلوم جميعا لا الى مجرد المعاني والبيان .

ولكن السكاكي — مع ذلك كله — رأى أن البلاغة بمرجعيها والفصاحة بنوعيها « مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين (٤) » ، ولذلك نراه حينما حلل بعض الآيات القرآنية اتخذ من مرجعي البلاغة ومن الفصاحة مقياساً لاظهار ما فيها من صور بيانية ، ومن روعة وتأثير في النفوس .

القزويني :

وكان الخطيب القزويني (— ٧٣٩هـ) آخر من وقف عند البلاغة من المتأخرين وميّز بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم فقال عن الاولى : «أما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته » ومقتضى الحال مختلف ومقامات الكلام

(١) مفتاح العلوم ص١٩٦.
(٢) الايضاح ص٢٤٠.
(٣) المطول ص٣.
(٤) مفتاح العلوم ص٢٠٠.

معاوتة » ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام . وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه عبد القاهر « النظم » (1) .

وقال عن الثانية : «وأما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ » (2) .

وقرّر ان كل بليغ – كلاماً كان أم متكلماً – فصيح ، وليس كل فصيح – بليغا ، وأن البلاغة في الكلام مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، والى تمييز الكلام الفصيح من غيره .

وقسّم البلاغة الى ثلاثة اقسام ، فكان ما يحترز به عن الخطأ علم المعاني ، وما يحترز به عن التعقيد المعنوي علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته علم البديع . فالبلاغة – عنده – ثلاثة :

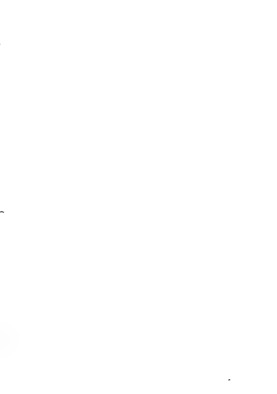
١. علم المعاني
٢. علم البيان
٣. علم البديع

ولم يخرج البلاغيون المتأخرون عن هذا التعريف والتقسيم ، واصبح مصطلح البلاغة يضم هذه العلوم الثلاثة .

(1) الايضاح ص٢، والتلخيص ص٣٣، ٣٣ .
(2) الايضاح ص١١.

الباب الثاني

علم المعاني



الفصل الاول

المعاني

علم المعاني من المصطلحات التي اطلقها البلاغيون على مباحث بلاغية تتصل بالجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير ، أو ذكر وحذف ، او تعريف وتنكير ، أو قصر ، او فصل ووصل ، أو ايجاز واطناب ومساواة .

وليس في كتب البلاغة الاولى اشارة الى هذا العلم ، ولا نعرف احداً استعمله وسمى به قسما من موضوعات البلاغة قبل السكاكي (– ٦٢٦هـ) . وكان الاوائل يستعملون مصطلح «المعاني» في دراساتهم القرآنية والشعرية ، فيقولون : «معاني القرآن» أو «معاني الشعر» ، ويتخذون من ذلك اسماء لكتبهم ، وليس في هذه المصطلحات ما يتصل بالبلاغة أو أحد علومها .

ولعل عبارة «معاني النحو» التي وردت في المناظرة التي جرت بين الحسن بن عبد الله بن المرزبان المعروف بأبي سعيد السيرافي (– ٣٦٨هـ) وأبي بشر متى بن يونس في مجلس الوزير أبي الفتح بن جعفر بن الفرات كانت من اقدم الاشارات الى هذا المصطلح بمعناه القريب من البلاغة . قال السيرافي : «معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير ، وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك ، وان زاغ شيء عن هذا النعت فانه لايخلو من أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر والتأويل البعيد او مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم » (١) .

وعقد احمد بن فارس (– ٣٩٥هـ) في كتابه «الصاحبي» بابا سماه «معاني الكلام» (٢) وهي عند اهل العلم عشرة : خبر واستخبار ، وامر ونهي ، ودعاء وطلب ، وعرض وتحضيض ، وتمن وتعجب . وبذلك يكون ابن فارس اول من أطلق مصطلح «معاني الكلام» على مباحث الخبر والانشاء التي أصبحت فيما بعد أهم فصول علم المعاني .

---

(١) الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٢١ ، ومعجم الادباء ج ٣ ص ١١٧ .

(٢) الصاحبي ص ١٧٩ وما بعدها .

المبحث الاول

نظرية النظم

وكان لنظرية النظم اثر كبير في ظهور هذا اللون من الدراسات ، وللنحاة العرب يد طولى في دراسة الكلام وتحليله والوقوف عند الجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير ، أو ذكر وحذف . ولعل سيبويه (– ١٨٠هـ) كان من اقدم الذين وقفوا عند هذه الجوانب ودرسها بعمق في فصول كتابه الشهير وأبوابه ، ولكن سيبويه والنحاة لم يسموا هذه البحوث نظما وانما هي قواعد تسير عليها العرب في كلامها او انشائها . ولا نستطيع ان ننسب اليهم بعد ذلك نظرية النظم التي حاول بعض المعاصرين أن يربطها بهؤلاء النحاة ربطا وثيقاً لبجرد البلاغيين الاصالة والتجديد ،مع إيماننا بان الموضوعات التي بنيت عليها هذه الفكرة كانت نحوية محضة ، وقد استفاد منها البلاغيون وطوروها وصوروها احسن تصوير .

واذا اردنا ان نتلمس فكرة النظم فينبغي ان نتلمسها في كتب اخرى بعد ان رأينا ارتباطها بكتب النحو . واقدم اشارة عثرنا عليها في الكتب العربية عبارة ابن المقفع (– ١٤٣هـ) التي اشار فيها الى صياغة الكلام . قال : «فاذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل وأن يقولوا قولا بديعاً، فليعلم الواصفون المخبرون ان احدهم وان احسن وابلغ ليس زائداً على ان يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجداً ومرجانا فنظمه قلائد وسموطاً واكاليل ووضع كل فصّ موضعه وجمع الى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسنا فسمي بذلك صائغا رفيقا ، وكصاغة الذهب والفضة صنعوا فيها ما يعجب الناس من الحلي والآنية ، وكالنحل وجدت ثمرات اخرجها الله طيبة وسلكت سبلا جعلها الله ذللا فصار ذلك شفاء وطعاما وشرابا منسوبا اليها مذكوراً به امرها وصنعتها. فمَنْ جرى على لسانه كلام يستحسنه او يستحسن منه فلا يعجبن به اعجاب المخترع المبتدع ، فانه انما اجتباه كما وصفنا» (1) .

---

(1) الادب الصغير – آثار ابن المقفع ص ٣١٩، ورسائل البلغاء ص ٥–٦

واخذ البلاغيون هذا الكلام وادراوه في كتاباتهم من غير أن يشيروا الى ابن المقفع : فقال الجاحظ (– ٢٥٥هـ) : «فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير »(١). وتحدث عن النظم في كتبه وسمّى احدها «نظم القرآن» ، قال : «كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه»(٢). وقال : «وفي كتابنا المنزل الذي يدل على انه صدق ،نظمه البديع الذي لايقدر على مثله العباد مع ماسوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به (٣)» ؛ والجاحظ في هذين النصين وغيرهما يؤمن بأن القرآن الكريم معجز بنظمه ومافيه من بلاغة تأسر القلوب.

وكان لمسألة اعجاز القرآن أثر في بلورة فكرة النظم، وقد ذهب قوم من المتكلمين إلى أن وجه الاعجاز هو مااشتمل عليه القرآن من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم في مطالعه ومقاطعه وفواصله. وذهبت جماعة منهم إلى أن وجه الاعجاز في مجموع الامرين : النظم، وكونه في أعلى درجات البلاغة.

ولابي عبدالله محمد بن يزيد الواسطي (– ٣٠٦هـ) كتاب في اعجاز القرآن سماه «اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه» ، ولانعرف عنه شيئا مع أن عبد القاهر الجرجاني شرحه مرتين ، لان الاصل وشرحيه لم تصل وان كان العنوان يدل على أنه عالج مسألة النظم وأقام عليها إعجاز كتاب الله .

وفي كتب الاعجاز التي وصلت حديث عن النظم، ولكنه لايجلو الصورة ولا يوضح الهدف، وانما هو ومضات في الطريق سار عليها البلاغيون ،فابو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (– ٣٨٨هـ) يرى ان القرآن انما صار معجزاً لانه جاء بأفصح الالفاظ في احسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني، ويقول ان «عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الالفاظ

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٣٢.
(٢) الحيوان ج ١ ص ٩.
(٣) الحيوان ج ٤ ص ٩٠.

التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي اذا أبدل مكانه غيره جاء منه اما تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، واما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة »(١). ويرى ابو الحسن علي بن عيسى الرماني (- ٣٨٦هـ) ان اعلى مرتبة في حسن البيان ماجمع اسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد(٢). ويرى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (- ٤٠٣هـ) أن كتاب الله معجز بالنظم، لانه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، يقول: «فاما شأو نظم القرآن فليس له مثال يُحتذى عليه ولا امام يُقتدى به، ولايصح وقوع مثله كما يتفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة، والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب (٣)».

ويقول: «ليس الاعجاز في نفس الحروف وانما هو في نظمها واحكام رصفها، وكونها على وزن ماأتى به النبي - صلى الله عليه وسلم - وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة في الوجود، وليس لها نظم سواها »(٤). ويقول عن القرآن: «وهو معجزة الرسول - عليه السلام - دال على نبوته من ثلاثة أوجه: أحدها مافيه من عجيب النظم وبديع الرصف، وانه لاقدرة لاحد من الخلق على تأليف مثله ولاتأليف صورة منه أو آية بقدر سورة ..... » (٥).

وكان كلام القاضي عبدالجبار الأسد آبادي (- ٤١٥هـ) أكثر وضوحاً حينما رأى أن الفصاحة والبلاغة تقومان على ضم الكلمات وتقاربها، قال: «اعلم أن الفصاحة لاتظهر في أفراد الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابدّ مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي

---

(١) بيان اعجاز القرآن- ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص٢٦.
(٢) النكت في اعجاز القرآن - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص.٩٨.
(٣) اعجاز القرآن ص١٦٩.
(٤) كتاب التمهيد ص١٥١.
(٥) نكت الانتصار لنقل القرآن ص٥٩.

تناول الفم ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع . وليس هذه الاقسام الثلاثة رابع ، لأنه اما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها ، ولابدّ من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها. فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه أنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون عداها .

فان قال : فقد قلتم ان في جملة مايدخل في الفصاحة حسن المعنى ، فهلاّ اعتبرتموه؟ قيل له : ان المعاني وان كان لابدّ منها فلا تظهر فيها المزيّة ، ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق . على أنّا نعلم أن المعاني لايقع فيها تزايد فاذن يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عنده الالفاظ التي يعبر بها عنها . فاذا صحت هذه الجملة فالذي تظهر به المزية ليس الا الابدال -الاختيار- الذي به تختص الكلمات أو التقدم والتأخر الذي يختص الموقع أو الحركات التي تختص الاعراب، فبذلك تقع المباينة. ولابد في الكلامين اللذين احدهما أفصح من الآخر أن يكون انما زاد عليه بكل ذلك أو ببعضه ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره، وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها، وكذلك القول في جملة من الكلام». ثم قال : « وهذا يبين أن المعتبر في المزية ليس بنية اللفظة، وان المعتبر فيه ماذكرناه من الوجوه . فأما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسناً على السمع لا انه يوجد فضلا في الفصاحة » (١) .

ذلك ماكانت عليه نظرية النظم قبل القرن الخامس للهجرة ، وليس في أقوال الجاحظ ومن جاء بعده فكرة واضحة عنها الا ماكان من كلام القاضي عبدالجبار الذي ربط الفصاحة بالنظم وبنى عليه رأيه في اعجاز القرآن .

(١) المغني ج١٦ ص١٩٩ ومابعدها.

تطور النظرية :

لقد وضحت هذه النظرية وبلغت مداها على يد عبدالقاهر الجرجاني (— ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) الذي أطال الكلام عليها ، وسمّى موضوعات التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والقصر ، والفصل والوصل ، والتعريف والتنكير : معاني النحو أو النظم :" والنظم — عنده — تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض(١) ، أو هو توخي معاني النحو . وقد حصر موضوعاته بقوله : « واعلم أن ليس النظم الا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ، وذلك أنّا لانعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : « زيد منطلق » و « زيد ينطلق » و « ينطلق زيد » و « منطلق زيد » و « زيد المنطلق » و « المنطلق زيد » و « زيد هو المنطلق » و « زيد هو منطلق » .

وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : « إن تخرج أخرج » . و « إن خرجت خرجت » و « إن تخرج فأنا خارج » ، و « أنا خارج إن خرجت » و « أنا إن خرجت خارج » .

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك : « جاءني زيد مسرعاً » و « جاءني يسرع » و « جاءني وهو مسرع » أو « هو يسرع » و « جاءني قد أسرع » و « جاءني وقد أسرع » . فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له .

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى ، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو أن يجيء بـ « ما » في نفي الحال ، وبـ « لا » إذا أراد نفي الاستقبال ، وبـ « إن » فيما يترجح بين أن يكون وأن لايكون ، وبـ « إذا » فيما علم أنّه كائن .

(١) دلائل الاعجاز ص (ص) .

وينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع «الواو» من موضع «الفاء»، وموضع «الفاء» من موضع «ثم»، وموضع «أو» من موضع «أم»، وموضع «لكن» من موضع «بل».

ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والاضمار والاظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ماينبغي له .

هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم ، الا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه العاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ماينبغي له. فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه» (١)

فمعاني النحو أو النظم تشمل: الخبر ،وأركان الجملة وما يتعلق بالمسند والمسند اليه من شرط وحال، وتشمل الفصل والوصل ومعرفة مواضعهما ومعاني الواو والفاء وثم وبل ولكن، وتشمل التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار والاضمار والإظهار والفرق بين هذه الاساليب ليس فرقاً في الحركات وما يطرأ على الكلمات ،وانما في معاني العبارات التي يحدثها ذلك الوضع والنظم الدقيق، ولذلك فليست العمدة في معرفة قواعد النحو وحدها ولكن فيما تؤدي اليه هذه القواعد والاصول. وقد يكون أحدنا لايعرف التسميات الدقيقة لموضوعات النحو ،ولكنه يعرف الفروق بينها ويحس بمعانيها حينما يسمعها ، شأنه في ذلك شأن البدوي الذي عاش بعيداً عن المصطلحات وما سُمي به كتب النحو، غير أنه كان يفهم مايسمع ويميز بين اسلوب وآخر.

(١) دلائل الإعجاز ص ٦٤ - ٦٥.

وليست المزية باللفظة ومعرفتها ، لان ذلك لايؤدي إلى التفاوت بين الكلام ، ولا من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند إلى اللغة ، ولكن للعلم بمواضعها وما ينبغي أن يصنع فيها. وليست بسلامة الحروف ، وانما بالنظم الذي يعطي الكلمات والإعراب معنى دقيقا.

والنظم مراتب ، فمنه مالاترى المزية فيه الا بعد قراءة القطعة الشعرية كقول البحتري :

بلونا ضرائب من قد نرى ... فما إن رأينا لفتح ضريبا

هو المرء أبدت له الحادثا ... تُ عزماً وشيكاً ورأياً صليبا

تنقّل في خُلقي سؤدد ... سماحا مرجّى وبأساً مهيبا

فكالسيف إن جئته صارخاً ... وكالبحر إن جئته مستثيبا

ففي هذه الأبيات تلاحقت الصور وضُمّ بعضها إلى بعض.

ومنه مايهجم الحسن عليك منه دفعة واحدة حتى يعرف من البيت الواحد مكان الشاعر من الفضل وموضعه من الحذق ، ويشهد له بالفضل حتى يعلم أن للبيت من مبل شاعر فحل وانه خرج من تحت يد صنّاع.

ومن النظم ما يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع ، وذلك أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وان يحتاج في الجملة إلى أن توضع في النفس وضعاً واحداً أو أن يكون الحال فيها حال الباني يضع بيمينه في حال مايضع بيساره هناك. ومنه مالايحتاج إلى فكر وروية لكي ينتظم ، بل سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك لايبغي أكثر من أن يمنعها التفرق وكمن نضد أشياء بعضها إلى بعض لايريد في نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة بل ليس الا أن تكون مجموعة في رأى العين، وذلك إذا كان المعنى لا يحتاج أن يصنع فيه شيء غير عطف لفظ على مثله . ولابد أن يتغير المعنى إذا تغير النظم ، وفي ذلك مجال رحب يجول فيه المنشؤون (١).

(١) التفصيل في نظرية النظم يراجع الفصل الثاني من كتاب «عبد القاهر الجرجاني – بلاغته ونقده» ص ٤٩ – ٨٧.

لقد وضح عبد القاهر أصول « علم المعاني » في كتابه « دلائل الإعجاز » وسمّاه « النظم » أو « معاني النحو » . وليست معاني النحو الا علم المعاني الذي عرّفه السكاكي بقوله : « هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على مايقتضي الحال ذكره » . (١) .

جهود النظرية :

كان السكاكي (– ٦٢٦هـ) أول من أطلق مصطلح « علم المعاني » على الموضوعات التي سمّاها عبدالقاهر النظم أو معاني النحو . ومع أنه لم يطلق ذلك على بعض مباحث البلاغة أحد غيره ، الا أن الباحث ليحار حينما يجد مصطلحي « المعاني » و « البيان » قبله . فالزمخشري (– ٥٣٨هـ) يشير اليها في الكشاف ويقول وهو يتحدث عن التفسير : « ولايغوص على شيء من تلك الحقائق الا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما : علم المعاني وعلم البيان » (٢) . وكلامه غير واضح ، لانه كثيراً مايردد هذين المصطلحين وكثيراً مايطلق مصطلح « البيان » على البلاغة كلها ، يضاف إلى ذلك أنه لم يضع حدّاً بين موضوعات المعاني والبيان . وعلة ذلك أنه لم يكن يبحث في البلاغة حينما ألّف « الكشاف » وانما كان يفسر القرآن الكريم ويوضح مافيه من معان رفيعة ومن روعة وجمال وتأثير في النفوس . وكان يستخدم مصطلحات البلاغة وفنونها للوصول إلى هذه الغاية ، ولذلك توزعت في الكتاب ولم يجمعها جامع أو يحدها منهج واضح ونراه أحياناً يسمي البلاغة « بديعاً » ، ففي تفسير قوله تعالى : « اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (٣) يقول : « هذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهي أن تساق كلمة مساق المجاز » (٤) .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧ .
(٢) الكشاف ج ١ ص (ك) .
(٣) البقرة ١٦ .
(٤) الكشاف ج ١ ص ٥٣ .

ويخالف احياناً ماتعارف عليه البلاغيون فيجعل الالتفات من البيان ويقول في العدول من لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب : « قلت : هذا يسمى الالتفات في علم البيان»(١).

وذكر الدكتور شوقي ضيف أن الزمخشري أول من ميَّز بين المصطلحين وقسَّم البلاغة إلى معان وبيان ، وان السكاكي تأثربه في هذا التقسيم (٢) ، ولكن ماذكرناه ومايضمه تفسير الكشاف لايؤيد هذا القول، وان كانت عبارة الزمخشري توحي بذلك قبل البحث والتدقيق.

وذكر فخرالدين الرازي(– ٦٠٦هـ) مصطلحي « علم البيان» و « علم المعاني» ولكنه لم يعرفهما أو يوضحهما ولم يحدد موضوعاتهما . يقول وهو يتحدث عن الخبر : « ولكن الخبر هو الذي يتصور بالصور الكثيرة ، وتظهر فيه الدقائق العجيبة والاسرار الغريبة من علم المعاني والبيان » (٣) . وعبارة « من علم المعاني والبيان » غامضة لايفهم منها الا معنى عام هو البلاغة ، أما معانيهما التي حصرها السكاكي فلم يشر اليها، وهو في ذلك يتابع الزمخشري الذي ذكر المصطلحين من غير أن يعرفهما أو يفصل بينهما .

ويكرر السكاكي بعض العبارات مثل « صناعةعلم المعاني» و« علماء علم المعاني» و« اذهان الراضة من علماء المعاني » و « أئمة علم المعاني »(٤) ، ولكنه لم يحددمعانيها أو يذكر علماء علم المعاني وأئمته . ولم نعثر في تاريخ البلاغة على علماء اختصوا بهذا العلم وبحثوا فيه كما فعل السكاكي في « مفتاح العلوم» إلا ماتلاحظه من وقوف عبدالقاهر الجرجاني على « معاني النحو في كتابه» دلائل الاعجاز » و« البيان » في كتابه « أسرار البلاغة » ولكن هذا الوقوف لايعني أنه ميَّز بينهما ، لان موضوعات البلاغة ظلت تختلط في الكتابين ،وان كان الاول اقرب إلى علم المعاني والثاني ألصق بعلم البيان :

---

(١) الكشاف ج ١ ص ١١.
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٢١، ٢٧٠، ٢٨٨.
(٣) نهاية الايجاز ص ٣٦.
(٤) مفتاح العلوم ص ٨١، ٩٥، ١١٩، ١٢١.

ولاننا لم نستطع أن نتبين مفهوم المعاني قبل السكاكي مع ما جاء في « الكشاف» و« نهاية الايجاز » نقرر أنه أول من قسم البلاغة إلى معان وبيان ومحسنات ، وحدد موضوعاتها وارسى قواعدها ، وانه أول من أطلق على الموضوعات المتعلقة بالنظم مصطلح « علم المعاني» ، وعلى الموضوعات التي تبحث في الصورة والخيال - التشبيه والمجاز والكناية - مصطلح « علم البيان» ، وانه اول من سمى غير هذه البحوث محسنات أو وجوهاً مخصوصة يصار اليها لقصد تحسين الكلام» . وقسمها إلى ما يختص بالمعنى وما يتعلق باللفظ . ولم يُسمها بديعا، وكان بدرالدين بن مالك (- ٦٨٦هـ) صاحب «المصباح» هو الذي اطلق عليها هذا المصطلح وتابعه الخطيب القزويني والمتأخرون .

وكان للسكاكي منهج في بحث موضوعات« علم المعاني» اختلف عن كل ما ألفناه في كتب البلاغة الاولى، وقد قرر - كما قرر غيره - أن كلام العرب قسمان : الخبر والطلب ، ولذلك قسم المعاني إلى قانونين .

الاول : يتعلق بالخبر .

والثاني : يتصل بالطلب .

وقسم القانون الاول إلى أربعة فنون :

الاول : في تفصيل اعتبارات الاسناد الخبري ، تكلم فيه على أنواع الخبر واغراضه ومؤكداته وخروجه على مقتضى الظاهر .

الثاني : في تفصيل اعتبارات المسند اليه ، تكلم فيه على حذفه وذكره ، وتعريفه وتنكيره ، واضماره ، وكونه معرفة سواء أكان موصولا أم اسم اشارة أم معرفاً بالالف واللام أم بالاضافة . وتحدث عن نعت المعرف ، وتأكيد المسند اليه ، وبيانه وتفسيره ، وبدله ، والحالة التي تقتضي العطف والفصل وتنكيره ، وتقديمه على المسند وتأخيره ، وقصره ، وخروجه على مقتضى الظاهر ، والالتفات .

الثالث : في تفصيل اعتبارات المسند، تكلم فيه على حذفه وذكره ، وإفراده ، وكونه فعلا، وتقييده وترك تقييده ، وكونه منكراً ، ثم تحدث عن تخصيصه وتركه ،

وكونه اسماً معرفاً، وكونه جملة فعلية واسمية وظرفية، وتكلم على تقديمه وتأخيره وعقد في هذا الفن فصلا تحدث فيه عن الفعل، وتركه واثباته، وترك مفعوله واثباته، واضمار الفاعل واظهاره. وتحدث عن اعتبار التقديم والتأخير مع الفعل، والحالات المقتضية لتقييد الفعل بالشرط.

الرابع: في تفصيل اعتبارات الفصل والوصل، والايجاز والاطناب، والقصر وقسم القانون الثاني إلى خمسة فصول هي التمني، والاستفهام، والامر، والنهي، والنداء.

وبعد أن أكمل بحث الخبر والطلب تحدث عن استعمال الخبر موضع الطلب واستعمال الطلب موضع الخبر، وذكر أسلوب الحكيم في خاتمة البحث (١).

(١) ينظر البلاغة عند السكاكي ص ١٤٠ ومابعدها.

المبحث الثاني

نقـد المنهـج

لقد بحث السكاكي «علم المعاني» بهذا المنهج وقسمه هذا التقسيم ، وبوبه هذا التبويب الذي تتضح فيه النزعة المنطقية . ويلاحظ أنه قدَّم البحث في الخبر مع أن كثيراً من الموضوعات التي تحدث عنها فيه لا تخص الخبر وحده وإنما هي مشتركة بينه وبين الطلب . وقد علل سعد الدين التفتازاني (– ٧٩٢هـ) ذلك بقوله : «وإنما ابتدأ بأبحاث الخبر لكونه أعظم شأناً وأعم فائدة ، لأنه هو الذي يتصور بالصور الكثيرة وفيه تقع الصياغات العجيبة ، وبه تقع غالباً – المزايا التي بها التفاضل ، ولكونه أصلاً في الكلام ، لأن الإنشاء إنما يحصل منه باشتقاق كالأمر والنهي ، أو نقل كـ «بئس» و«نعم» و«بعت» و«اشتريت» ، أو زيادة أداة كالاستفهام والتمني وما أشبه ذلك .

ثم قدَّم بحث أحوال الاسناد على أحوال المسند اليه والمسند مع أن النسبة متأخرة عن الطرفين ، لأن علم المعاني يبحث عن أحوال اللفظ الموصوف بكونه مسنداً اليه ومسنداً . وهذا الوصف إنما يتحقق بعد تحقيق الاسناد ، لأنه مالم يسند أحد الطرفين إلى الآخر لم يصر أحدهما مسنداً أليه والآخر مسنداً . والمتقدم على النسبة إنما هو ذات الطرفين ولابحث لنا عنها » (١).

ومهما حاول أنصار هذا المنهج أن يوجهوه فإن البلاغة التي نقيس بها الأدب ونحكم بها عليه لايمكن أن يعالج منهج بحثها هذا التعليل ، وان يصطنع لها اصطناعاً يبعدها عن روحها الأدبية . ولكن هل نجح السكاكي في هذا المنهج ؟ وهل استطاع أن يحصر موضوعات علم المعاني حصراً دقيقاً ؟

الواقع أنه لم ينجح في هذا التقسيم الذي بناه على المنطق وحده ، فحصر به موضوعات المعاني حصراً مزقها تمزيقاً أفقدها كل حياة ، وباعد بينها وبين مايتطلبه الفن الأدبي الذي ينبغي أن يعتمد – أول مايعتمد – على الذوق الرفيع .

---

(١) المطول ص ٤٣.

ولتوضيح ذلك نقول أن السكاكي قسم مباحث المعاني حسب ركني الجملة — المسند اليه والمسند — وعلى هذا الأساس ذكر التقديم — مثلاً — في المسند اليه مرة وفي المسند تارة أخرى. وفعل مثل هذا بالموضوعات الأخرى كالتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير وكان من الدقة أن يبحث كل موضوع بحثاً مستقلاً فيتكلم على التقديم والتأخير في فصل والذكر والحذف في ثان، والتعريف والتنكير في ثالث، وبذلك تجمع أوصال الموضوع الواحد في بحث يستوفي أجزاءه ويجمع شتاته. أما أن يوزع أقسام الموضوع الواحد هذا التوزيع ويذكر عنه في كل باب نتفاً يسيرة لاتُجدي نفعاً، فما لايمكن الأخذ به والتعويل عليه. وبالمقارنة بين ماكتبه السكاكي وما كتبه عبد القاهر أو ابن الأثير يتضح مدى افساده هذه المباحث وجوره عليها. فبعد أن كنا نقرأ في «دلائل الاعجاز» أو «المثل السائر» موضوعات فيها عرض وتحليل وجمع لاطراف الموضوع الواحد جمعاً يخرج الدارس منه بفكرة واضحة وفائدة كبيرة، — بعد هذا كله — نقرأ في «مفتاح العلوم» موضوعات تناثرت أطرافها في عدة أبواب لايخرج الدارس منها إلا بصورة حائلة، وقواعد جامدة، وأمثلة مبتسرة. وقد يلجأ لكي يكون فكرة صحيحة إلى أن يلم شتات الموضوع الواحد ويضم بعضها إلى بعض، وفي هذا اضاعة للجهد وافساد للبلاغة والذوق.

وكانت ثمرة ذلك أن بعثر السكاكي الموضوعات وأفقدها رونقها، وأصبحت لاتُجدي نفعاً إلا بالرجوع إلى عدة فصول لجمع شتاتها، وتوحيد أجزائها.

أما بحث خروج الكلام على مقتضى الظاهر كوضع المضمر موضع المظهر، ووضع المظهر موضع المضمر، والالتفات في المسند اليه فليس دقيقاً، لأن هذه الفنون لاتخصه وحده وانما تدخل المسند أيضاً. وقد أشار السكاكي إلى ذلك بقوله: «واعلم أن هذا النوع أعني نقل الكلام من الحكاية إلى الغيبة لايختص المسند اليه» (١) وكان ينبغي أن يضع لكل لون من هذه الفنون بحثاً يفصل القول فيه تفصيلاً.

(١) مفتاح العلوم ص ٩٥

وتكلم على استعمال المضارع مكان الماضي في الحالات المقتضية لتقييد الفعل بالشرط مع أن الاخبار عن الفعل المضارع أو بالمستقبل نوع من الالتفات كما صرح به البلاغيون .

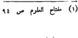
وعقد فصلا للفعل وما يتعلق به من ترك واثبات، واظهار واضمار، وتقديم وتأخير مع أن الفعل مسند وكان ينبغي أن يبحثه في باب المسند ويذكر أنه يأتي فعلاً واسماً وجملة .

ولكننا لابد أن نحمد للسكاكي انتباهه إلى اشتراك كثير من المباحث التي ذكرها في المسند والمسند اليه، فقد أشار – وهو يتحدث عن الحالة المقتضية لقصر المسند اليه على المسند – إلى أن القصر لايختص بالمسند اليه وانما يدخل المسند أيضاً ، ويجري بين الفاعل والمفعول، وبين المفعولين، وبين الحال وذي الحال، وبين كل طرفين، يقول «وأعلم أن القصر كما يكون للمسند اليه على المسند يكون للمسند على المسند اليه ، ثم هو ليس مختصاً بهذا البين بل له شيوع وله تفريعات ، فالأولى أن نفرد الكلام في ذلك فصلا ونؤخره إلى تمام التعرض لما سواه في قانوننا هذا ليكون إلى الوقوف عليه أقرب» (١).

هذا مايتعلق باتخاذ ركني الجملة أساساً في تقسيم مباحث علم المعاني ، أما مايتصل بالموضوعات نفسها فقد ذكر التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والايجاز والإطناب ، والتعريف ، والتنكير ، والقصر ، في القانون الأول أي في باب الخبر . وليس في هذا دقة ، لان هذه الموضوعات تدخل الطلب كما تدخل الخبر وقد أشار عبد القاهر إلى ذلك بقوله : «انه لايجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه في الاستفهام معنى لايكون له ذلك المعنى في الخبر ، وذاك أن الاستفهام استخبار ، والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك . فإذا كان كذلك كان محالا أن يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام فيكون المعنى إذا قلت : « أزيد قام » غيره اذا قلت : « أقام زيد ؟ » ثم لايكون هذا الافتراق في الخبر .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٩٤



م/٧/ب

ويكون قولك « زيد قام » و «قام زيد» سواء ، ذاك لأنه يؤدي إلى أن تستعمله امرأً لاسبيل فيه إلى جواب ، وان تستثبته المعنى على وجه ليس عنده عبارة يثبته لك بها على ذلك الوجه » (١) وبقوله : « وإذ قد عرفت الحكم في الابتداء بالنكرة في الاستفهام فابْنِ الخبر عليه » (٢) .

ولم يأخذ السكاكي برأي عبد القاهر مع انه اعتمد على كتابيه وجردهما من النزعة الأدبية وأحالهما هياكل بتقسيماته المنطقية.

والعجيب أن الخطيب القزويني وسعد الدين التفتازاني وغيرهما من الشراح تابعوا السكاكي في هذا التقسيم مع أنهم ذكروا أن الموضوعات التي بحث في الخبر تدخل الطلب أيضاً . يقول القزويني بعد أن ذكر أحوال المسند : «كثير مما ذكر في هذا الباب والذي قبله غير مختص بهما كالذكر والحذف وغيرهما : والفطن إذا اتقن اعتبار ذلك فيهما لايخفى عليه اعتباره في غيرهما» (٣) . واعاد هذا القول في كتابه «الايضاح» بعد أن ذكر أحوال الاسناد والمسند اليه والمسند وأحوال متعلقات الفصل والقصر ، وقال: «ماذكرناه في هذه الأبواب الخمسة السابقة ليس كله مختصاً بالخبر بل كثير منه حكم الانشاءفيه حكم الخبر ،يظهر ذلك بأدنى تأمل»(٤) وقال التفتازاني: «ان الاسناد الانشائي أيضاً أما مؤكد أو مجرد عن التأكيد، وكذا المسند اليه أما مذكور أو محذوف ، مقدم أو مؤخر ، معرف أو منكر ، إلى غير ذلك ، وكذا المسند اسم أو فعل ، مطلق أو مقيد بمفعول أو بشرط أو غيره ، والمتعلقات أما متقدمة أو متأخرة ، مذكورة أو محذوفة ، واسناده وتعلقه أيضاً اما بقصر أو بغير قصر، والاعتبارات المناسبة في ذلك مثل مامر في الخبر ، ولا يخفى عليك اعتباره بعد الإحاطة بما سبق» (٥) .

ولكن البلاغيين سحروا بمنهج السكاكي وساروا عليه من غير أن يحاولوا اصلاحه إلا ماصدر عنهم من ملاحظات لاتبعد البلاغة عن جوهره كثيراً، ونرى — إذا

(١) دلائل الاعجاز ص ١٠٨
(٢) دلائل الاعجاز ص ١٠٩
(٣) التلخيص ص ١٢٥
(٤) الايضاح ص ١٠٩
(٥) المطول ص ٢٤٦

ما أردنا أن نعيد ترتيب مباحث علم المعاني في كتاب «مفتاح العلوم» — أن يبحث الخبر والإنشاء في باب مستقل وتذكر انواعهما وأساليبهما، ثم تبحث الجملة في باب آخر، يجمع أجزاءها، ويكون للتقديم والتأخير فصل، وللذكر والحذف فصل ثان، وللتنكير والتعريف فصل ثالث، وللقصر وأنواعه وطرقه فصل رابع، ولتقييد المسند والمسند اليه فصل خامس. ولابد من بحث الفصل والوصل، والايجاز والاطناب في بابين مستقلين. وبهذه الطريقة نجمع مافرقه السكاكي ونبعث الحياة في هذا الفن ليكون صالحاً للدراسات الأدبية.

وليس بغريب أن ندعو إلى هذا النهج فقد بحث المتقدمون البلاغة بما هو قريب منه وكان لاعلامهم كأبي هلال وابن رشيق وابن سنان وعبد القاهر وابن الأثير مناهج سليمة وبحوث طريفة ذات نفع عظيم وأثر كبير، لأنهم لم يبعثروا الموضوعات في فصول كثيرة وإنما جمعوها جمعاً دقيقاً، وبذلك جاءت كتبهم آية في الإبداع، وكانت بحوثهم غاية في الوضوح والجلاء.

وكان الخطيب القزويني (— ٧٣٩هـ) أوضح منهجاً من السكاكي، والمعاني عنده «علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال» (١). وقد رفض تعريف السكاكي وهو «تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على مايقتضي الحال ذكره» (٢)، لأن التتبع ليس بعلم ولاصادق فلا يصح تعريف شيء من العلوم به.

وحصر علم المعاني في ثمانية أبواب :

الأول : أحوال الاسناد الخبري ؛

الثاني : أحوال المسند اليه ؛

الثالث : أحوال المسند ؛

الرابع : أحوال متعلقات الفعل ؛

(١) الايضاح ص ١٢

(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧

الخامس : القصـر .
السادس : الانشاء .
السابع : الفصل والوصل .
الثامن : الايجاز والإطناب (1) .
ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو انشاء ، لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لاتطابقه أو لايكون لها خارج ، الأول الخبر ، والثاني الإنشاء. ثم الخبر لابد له من اسناد ومسند اليه ومسند، واحوال هذه الثلاثة هي الأبواب الثلاثة الأولى. ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلاً أو متصلاً به أو في معناه كاسم الفاعل ونحوه، وهذا هو الباب الرابع ، ثم الاسناد ، والتعلق كل واحد منهما يكون إما بقصر أو بغير قصر ، وهذا هو الباب الخامس . والانشاء هو الباب السادس. ثم الجملة إذا قرنت بأخرى فتكون الثانية إما معطوفة على الاولى أو غير معطوفة ، وهذا هو الباب السابع ولفظ الكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد عليه، وهذا هو الباب الثامن .
وهذا المنهج يختلف قليلا عن منهج السكاكي ، وهو أقرب إلى الكمال ، لأن القزويني ضم الموضوعات المتشابهة في فصول مستقلة ، وكان في بحثه ألصق بالبلاغة وروحها من صاحب «مفتاح العلوم» الذي مزقها كل ممزق .
وسيطر هذا المنهج على البلاغيين وظلت كتبهم تقسم علم المعاني هذا التقسيم ، ولم يخرج عنه معظم المتأخرين والمحدثين .
وإذا كان علم المعاني قريباً من النحو أو هو توخي معاني النحو فإنه يختلف عنه في معالجة الموضوعات ، وقد فصّل القول في ذلك عبد القاهر وانتهى إلى أننا لانريد المعاني الأُوَل وإنما المعاني الثواني وهي عنده معنى المعنى. ولخص المتأخرون فائدة علم المعاني فقال بهاء الدين السبكي: «ولعلك تقول ، أي فائدة لعلم المعاني فإن المفردات والمركبات علمت بالعلوم الثلاثة – اللغة والنحو والصرف – وعلم

(1) ينظر كتاب (القزويني وشروح التلخيص ص ٢٨٧) ومابعدها .

المعاني غاية من علم النحو؟ كلا ان غاية النحوي أن يتزل المفردات على ماوضعت له ويركبها عليها ووراء ذلك مقاصد لاتتعلق بالوضع مما تتفاوت به أغراض المتكلم على أوجه لاتتناهى وتلك الاسرار لاتعلم إلا بعلم المعاني، والنحوي -وإن ذكرها- فهو على وجه إجمالي يتصرف فيه البياني تصرفاً خاصاً لايصل اليه النحوي؛ وهذا كما أن معظم أصول الفقه من علم اللغة والنحو والحديث وإن كان مستقلا بنفسه .

واعلم أن علمي أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل فإن الخبر والإنشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الأصول وإن كان مايتكلم عليه الاصولي من كون الأمر للوجوب والنهي للتحريم ومسائل الإخبار والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد والاجمال والتفصيل والتراجيح كلها ترجع إلى موضوع علم المعاني، وليس في أصول الفقه ماينفرد به كلام الشارع عن غيره إلا الحكم الشرعي والقياس وأشياء يسيرة» (١) .

وهذا ماأطال الكلام عليه عبد القاهر الذي قال إن الصحة في الكلام هي الخطوة الاولى، أما الخطوة الثانية فهي فهم الكلام واستخلاص مافيه من المعاني الثواني التي يدل عليها ، ولذلك كان علم المعاني ضرورياً في فهم الاساليب البلاغية بعد ان فقد النحو رونقه وبهاءه وأصبح قواعد لاتُعنى إلا بالاعراب والبناء، والعوامل، والجدل المنطقي الذي لايخدم اللغة بقدر مايعوقها عن النمو والازدهار.

---

(١) عروس الافراح - شروح التلخيص ج ١ ص ٥١-٥٣ .

الفصل الثاني

الخبر

المبحث الاول

أضربه

ظهرت دراسات هذا الموضوع في رحاب الكلام ، وكان لمسألة خلق القرآن أثر في ذلك ، وقد بنى المعتزلة رأيهم على أساس أن القرآن أمر ونهي وخبر وذلك مما ينفي عنه صفة القدم التي ذهب اليها معظم المسلمين .

وظهر في بيئة الاعتزال رأيان في صدقه وكذبه :

الرأي الاول : ينسب إلى أبي اسحاق ابراهيم بن سيار المعروف بالنظام (– ٢٢١هـ) وخلاصة هذا الرأي ان صدق الخبر مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صواباً كان أو خطأ ، وكذبه مطابقة حكمه له . واحتج بوجهين :

احدهما : أن من أعتقد أمراً فاخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع يقال : ماكذب ، ولكنه أخطأ . كما رُوي عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت فيمن شأنه كذلك « ماكذب ولكنه وهم » .

الثاني : قوله تعالى : « والله يشهد أن المنافقين لكاذبون » (١) كذّبهم في قولهم « أنك لرسول الله » وإن كان مطابقاً للواقع لانهم لم يعتقدوه ورد الخطيب القزويني على الوجه الاول بان المنفي تعمد الكذب لا الكذب بدليل تكذيب الكافر إذا قال : « الاسلام باطل » وتصديقه اذا قال : « الاسلام حق » فقول للسيدة عائشة « ماكذب » متأول بما كذب عمداً .

وأجاب عن الوجه الاول بوجوه :

احدها : أن المعنى نشهد شهادة واطأت فيها قلوبنا ألسنتنا ، كما يترجم عنه « أنّ »

---

(١) المنافقون ١ ، والآية : « اذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم أنك لرسوله، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون» .

واللام» ، وكون الجملة اسمية في قولهم : « انك لرسول الله » فالتكذيب في قولهم « نشهد» وأدعائهم فيه المواطأة لاي قولهم « انك لرسول الله » .

ثانيها: أن التكذيب في تسميتهم اخباره شهادة ، لان الاخبار اذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة .

ثالثها: ان المعنى لكاذبون في قولهم «انك لرسول الله» عند انفسهم لاعتقادهم انه خبر على خلاف ماعليه حال المخبر عنه.

الرأي الثاني: ينسب إلى أبي عثمان الجاحظ (ــ ٢٥٥هـ) ،وفيه انكر انحصار الخبر في الصدق والكذب، وزعم أنه ثلاثة أقسام: صادق ،وكاذب ،وغير صادق،ولاكاذب .فالخبر الصادق هو المطابق للواقع مع الاعتقاد بانه مطابق، والخبر الكاذب هو الذي لايطابق الواقع مع الاعتقاد بانه غير مطابق .أما الخبر الذي ليس بصادق ولاكاذب فهو أربعة انواع :

١. الخبر المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق.
٢. الخبر المطابق للواقع بلا اعتقاد .
٣. الخبر غير المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق.
٤. الخبر غير المطابق للواقع بلا اعتقاد (١) .

وانتقلت هذه المباحث إلى كتب البلاغة والادب ،فقال ابن قتيبة (ــ ٢٧٦هـ) وهو يتحدث عما كان في زمانه من معارف اذهلت بعضهم: «والكلام أربعة: أمر ،وخبر، واستخبار، ورغبة ،ثلاثة لايدخلها الصدق والكذب وهي :الامر، والاستخبار، والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر»(٢) .

وقسم ثعلب (ــ ٢٩١هـ) قواعد الشعر إلى أمر ،ونهي ،وخبر،واستخبار(٣)؛

---

(١) ينظر الايضاح ص ١٣ ــ ١٥، وشروح التلخيص ج١ص١٧٦ ومابعدها.
(٢) أدب الكاتب ص ٤.
(٣) قواعد الشعر ص ٢٥ وما بعدها .

أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن وهب الكلام إلى خبر وطلب،وقال:
بر كل قول أفنت به مستمعه مالم يكن عنده ،كقولك : قام زيد فقد أفدته م بقيامه ::: والطلب : كلّ ما طلبته من غيرك ، (١).

وعقد احمد بن فارس (- ٣٩٥هـ) في كتابه «الصاحبي» باباً سماه « معاني كلام» وهي عند أهل العلم عشرة: خبر واستخبار، وأمر ونهي ،ودعاء وطلب ،عرض وتحضيض، وتمن وتعجب .وقال في تعريف الخبر :«أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر اكثر من انه إعلام :تقول اخبرته أخبره والخبر هو العلم.وأهل النظر يقولون الخبر ماجاز تصديق قائله أو تكذيبه وهو افادة المخاطب أمراً في ماض من زمان او مستقبل ، أودائم ،(٢).

تعريفه :

وكان للبلاغيين المتأخرين وقفة عند الخبر ودلالته ،وقد عادوا في بحثه إلى منهج المعتزلة وأدخلوا فيه المباحث الفلسفية والعقائدية فقال فخر الدين الرازي (- ٦٠٦هـ) انه «القول المقتضي بتصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي او بالاثبات ومَن حدّه بانه المحتمل للصدق والكذب المحدودين بالصدق والكذب وقع في الدورمرتين»(٣)

وعرض السكاكي (٦٢٦هـ) أقوال السابقين في تعريف الخبر وناقشها وذهب إلى أن الخبر والطلب مستغنيان عن التعريف الحدّي (٤). أما الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) فقد ذكر آراء السابقين كالنظام والجاحظ ولكنه أخذ برأي الجمهور وقال في بداية بحثه الخبر :« اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما ، ثم اختلفوا فقال الاكثر منهم صدقه مطابقة حكمه للواقع ،وكذبه عدم مطابقة حكمه له. هذا هو المشهور وعليه التعويل»(٥): وإلى ذلك ذهب معظم شراح التلخيص (٦).

(١) البرهان في وجوه البيان ص ١١٣.
(٢) الصاحبي ص ١٧٩.
(٣) نهاية الإيجاز ص ٣٧.
(٤) مفتاح العلوم ص ٧٨ - ٧٩.
(٥) الايضاح ص ١٣.
(٦) شروح التلخيص ج١ ص ١٨٣ .

وصفوة القول أنّ الخبر كل كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته ، وهذا التعريف يصدق على كل كلام يؤخذ من غير النظر إلى قائله ؛ والأخبار التي وردت في القرآن الكريم وأحاديث النبي – صلى الله عليه وسلم – والحقائق العلمية والبديهيات التي لاشك فيها، لايمكن ان تحتمل الكذب مع انها اخبار عن شيء ،ولذلك تخرج من هذا التعريف، أما غيرها من الاخبار ،فهي قابلة للتصديق والتكذيب من أي انسان صدرت لأنها ينظر اليها، لا لذات القائلين؛

أضربه :

للجملة الخبرية معنى يحدده تركيبها ، فاذا اطلقت خالية من أي تأكيد كانت لها دلالة،واذا أكدت بمؤكد واحد ، او اكثر كانت لها دلالة اخرى . وقد انتبه العرب إلى ذلك في اطلاقهم الخبر ، وأشار عبد القاهر إلى هذه الاختلافات فقال: «واعلم ان مما أغمض الطريق الى معرفة مانحن بصدده ان ههنا فروقا خفية تجهلها العامة وكثير من الخاصة ، ليس أنهم يجهلونها في موضع ويعرفونها في آخر ، بل لايدرون انها هي ولا يعلمونها في جملة ولا تفصيل. رُوي ابن الأنباري انه قال : ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس (١) وقال له : اني لأجد في كلام العرب حشواً. فقال له أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون: «عبد الله قائم» ثم يقولون: «ان عبد الله قائم» ثم يقولون : «أنّ عبد الله لقائم» فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ. فقولهم «عبد الله قائم» اخبار عن قيامه، وقولهم: «إنّ عبد الله قائم» جواب عن سؤال سائل وقولهم: «ان عبد الله لقائم» جواب عن انكار منكر قيامه ؛ فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. قال: فما أحار المتفلسف جواباً».

وإن كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوب مستفهم أو معترض فما ظنك بالعامة ومن هو في عداد العامة ممن لايخطر شبه هذا بباله» (٢) ؛

---

(١) يريد به المبرد .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٤٢ .

فالخبر ثلاثة أضرب :

الأول : الابتدائي ، وهو الخبر الذي يكون خالياً من المؤكدات لأن المخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه. ومن ذلك قوله تعالى: «قال بل فعله كبيرهم هذا»(١) . وقوله: «ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريقٌ منهم من بعد ذلك» (٢) ومنه قول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي   وأسمعت كلماتي من به صمَمُ
أنام ملء جفوني عن شواردها   ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ

ففي هذه الأمثلة إلقاء للخبر إلى مخاطب خالي الذهن من حكمه ، ولذلك جاءت من غير توكيـد .

الثاني : الطلبي ،وهو الخبر الذي يتردد المخاطب فيه ولا يعرف مدى صحته ، أو هو كما قال السكاكي: «وإذا ألقاها إلى طالب لها متحير طرفاها عنده دون الاستناد فهو منه بين بين لينقذه من ورطة الحيرة استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة أو إنّ» (٣) ومن ذلك قوله تعالى: «وجاء رَجُلٌ من أقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى إنّ الملاء يأتمرون بك ليقتلوك فاخرجْ إني لك من الناصحين» (٤) وقوله: «إذ قالوا: ليوسُفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا» (٥) .

ومنه قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ   قتلننا ثم لم يُحيين قتـلانــا

وقول البحتري :

هل يجلبَنّ إليّ عطفـك موقف   ثبت لديك أقول فيه وتسمع

(١) الأنبياء ٦٣ .
(٢) النـور ٤٧ .
(٣) مفتاح العلوم ص ٨١ .
(٤) القصص ٢٠
(٥) يوسف ٨ .

في هذه الأمثلة أكد الخبر بإحدى أدوات التأكيد، مثل «إنّ» في الآية الأولى والبيت الأول، واللام في الآية الثانية «ليوسفُ» والنون في «يجلبنّ» والمؤكد في كل منها واحد.

الثالث: الانكاري، وهو الخبر الذي ينكره المخاطب انكاراً يحتاج إلى أن يؤكد بأكثر من مؤكد: ففي قوله تعالى: «واُضربْ لهم مَثلاً أصحابَ القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذّبوهما فعززنا بثالث فقالوا: انا اليكم مرسلون. قالوا ماأنتم إلاّ بَشر، مثلنا، وما أنزل الرحمنُ من شيءٍ إن أنتم إلا تكذِبون. قالوا: ربُّنا يَعلَمُ أنّا اليكم لمُرسَلونَ» (١). حيث قال أولا: «أنا اليكم مرسلون» وقال ثانيا «انا اليكم لمرسلون» حينما ازداد انكارهم ولذلك أكده بـ«إنّ» أولا وباللام ثانياً ليزيل عنهم ذلك الشك والانكار ومنه قوله: «إنّكم لذائقو العذاب الأليم» (٢).

ومنه قول الحماسي:

إنّا لنصفح عن مجاهل قومنا ... ونقيم سالفة العدو الأصيَدِ (٣)

ومتى نَجِدْ يوماً فساد عشيرة ... نصلح وإن نَرَ صالحاً لانفْسُدِ

وفي هذه الامثلة مؤكّدان «إنّ» و «اللام».

مؤكداته:

للخبر مؤكدات كثيرة منها:

١. إنّ: وهي التي تنصب الاسم وترفع الخبر، ومنها قوله تعالى: «ياأيُّها الناس إنَّ وَعْدَ الله حقٌّ» (٤)، وقوله: «ياأيُّها الناسُ اتقوا ربكم إنَّ زَلزلةَ الساعة شيء عظيم» (٥) وقول الشاعر:

---

(١) يس ١٣-١٦.

(٢) الصافات ٣٨.

(٣) السالفة: صفحة العنق. الاصيد: المتكبر.

(٤) فاطر ٥.

(٥) الحج ١.

إنّ التي زعمت فؤادك ملّها   خلقت هواك كما خلقت هوىً لها

وقول البحتري:

شرفاً بني العباس إنّ أباكم   عمّ النبي وعيصه المتفرع
إنّ الفضيلة للذي استسقى به   عمر وشفع إذ غدا يستشفع

ولـ«إنّ» أثر في العبارة غير التوكيد، وفي «دلائل الإعجاز» (١) أشارات إلى مواقعها في الكلام، ولكن الذي يتصل بالموضوع «التأكيد» كما في بيت أبي نواس:

عليك باليأس من الناس   إنّ غنى نفسك في الياس

يقول عبد القاهر معلقا عليه: «فقد ترى حسن موقعها وكيف قبول النفس لها، وليس ذلك إلا لان الغالب على الناس أنهم لايحملون انفسهم على اليأس ولايدعون الرجاء والطمع ولايعترف كل أحد ولايسلم ان الغنى في اليأس، فلما كان كذلك كان الموضع موضع فقر إلى التأكيد فلذلك كان من حسنها ما ترى. ومثله سواء قول محمد ابن وهيب:

أجارتنا إنّ التعفف باليأس   وصبر على استدرار دنيا بإبساس (٢)
حريان ان لايقذفا (٣) بمذلة   كريما وان لايحوجاه إلى الناس
أجارتنا إنّ القداح كواذب (٤)   واكثر اسباب النجاح مع الياس

هو كما لايخفى كلام مع من لايرى ان الامر كما قال بل ينكره ويعتقد خلافه ومعلوم انه لم يقله إلا والمرأة تحدوه وتبعثه على التعرض للناس وعلى الطلب» (٥).

٢: أنّ: وهي التي تنصب الاسم وترفع الخبر، كقوله تعالى «قُلْ إنّما يُوحى

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٣، وما بعدها، وينظر نهاية الايجاز ص١٣٧ وما بعدها. والطراز ج٢ ص٢٢٠.

(٢) الإبساس: هو التصويت عند الحلب ليستدر لبن الناقة ويتألفها.

(٣) أي: اليأس والصبر حريان.

(٤) القداح: جمع قدح - بالكسر فيهما - وهي الازلام التي يستقسمون بها في الجاهلية الخط.

(٥) دلائل الإعجاز ص٢٥٠.

إلى أنما إلهكم إله واحد »(١) وقوله: «فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدًى من الله ، إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين »(٢).

ولم يعدّ بعضهم «أنّ» من المؤكدات لان مابعدها في حكم المفرد والتأكيد المقصود هو تأكيد النسبة لا المسند ولا المسند اليه ، ولكن ابن هشام يقول : «أنّ تكون حرف توكيد تنصب الاسم وترفع الخبر، والاصح انها فرع عن «إنّ» المكسورة »(٣).

٣. كأنّ : وفيها التشبيه المؤكد إن كانت بسيطة وان كانت مركبة من كاف التشبيه و«أنّ» فهي متضمنة لان فيها ماسبق وزيادة . كقوله تعالى : «وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويْ كأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ، ويْ كأنه لا يفلح الكافرون »(٤) وقول بكر ابن النطاح :

تـراهم ينـظرون إلى المعـالي	كما نظرت إلى الشيب الملاحُ
يحدّون العيـون اليّ شـزراً	كأني في عـيـونـهـم السـمـاحُ

٤. لكنّ : لتأكيد الجمل، وقيل: للتأكيد مع الاستدراك ؛ وقيل: انها للتوكيد دائما مثل «أنّ» (٥) ؛ ومنه قوله تعالى : «إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »(٦) .

وقول المتنبي:

فلا تعجبا إنّ السيوف كثيـرة	ولكنّ سيفَ الدولة اليوم واحدُ

(١) الأنبياء ١٠٨ .
(٢) القصص ٥٠ .
(٣) مغني اللبيب ج ١ ص ٣٩ .
(٤) القصص ٨٢ .
(٥) مغني اللبيب ج ١ ص ٢٩١، والبرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٤٠٨ .
(٦) القصص ٥٦ .

٥. لام الابتداء: وتفيد تأكيد مضمون الجملة، ولهذا زحلقوها في باب «إنّ» عن صدرالجملة كراهية ابتداء الكلام بمؤكدين. ومنه قوله تعالى: «إن ربي لسميعُ الدعاء» (١).

٦. الفصل: وهو من مؤكدات الجملة، وقد نص سيبويه على أنه يفيد التأكيد وقال في قوله تعالى: «إنْ ترنِي أنا أقلَّ منك مالا وولدا» (٢) إنّ «ضمير الفصل «أنا» وصف للياء في «ترني» يزيد تأكيداً» (٣).

٧. أمّا: وهي حرف شرط وتفصيل وتوكيد، ومنه قوله تعالى: «إنّ اللهَ لايستَحي أنْ يضربَ مَثلاً مابعوضةً فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحقُّ من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أرادَ اللهُ بهذا مثلا» (٤).

ولكن ابن هشام قال: «وأما التوكيد فقلَّ من ذكره ولم أرَ من أحكم شرحه غير الزمخشري فإنه قال: فائدة «أما» في الكلام أن تعطيه فضل توكيد تقول: «زيد ذاهب» فإذا قصدت توكيد ذلك وانه لامحالة ذاهب وانه بصدد الذهاب وانه منه عزيمة قلت: «اما زيد فذاهب» ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب. وهذا التفسير مُدْلٍ بفائدتين كونه «توكيداً»، وانه في معنى الشرط»(٥) ومنه قول الشاعر:

ولم أرَ كالمعروف أما مذاقُـه ... فحلوٌ وأمّا وجهُهُ فجميـلُ

٨. قد: وهي حرف تحقيق، ومنه قوله تعالى: «ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم» (٦). وقوله: «قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون» (٧). وقول المقنع الكندي:

(١) ابراهيم ٣٩ .
(٢) الكهف ٣٩ .
(٣) الكتاب ج ١ ص ٣٩٥؛ وينظر البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٤٠٩ .
(٤) البقرة ٢٦ .
(٥) مغني اللبيب ج ١ ص ٥٧ .
(٦) آل عمران ١٠١ .
(٧) المؤمنون ١ ـ ٢ .

يعاتبني في الدين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهم حَمْدا
أسُدُّ به ماقد أخلّوا وضيّعوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سَدّا

٩ـ السين : وهي حرف يختص بالمضارع ويخلصه للاستقبال . كقوله تعالى : «أولئك سيرحمهم اللهُ» (١) فالسين تفيد وجود الرحمة لامحالة فهي تؤكد الوعد كا تؤكد الوعيد في قوله : « سأنتقم منك يوماً» (٢) .

ومنه قول المتنبي :

سيعلم الجمْعُ ممن ضَمّ مجلسُهُ بأنني خيرُ من تمشي به قَدَمُ

١٠ـ القسم : وهو عند النحاة جملة يؤكد بها الخبر ، حتى انهم جعلوا قوله تعالى : «والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون» (٣) ، قسماً وإن كان فيه إخبار إلاأنه لما جاء توكيداً للخبر سميّ قسما (٤).

وللقسم أحرف هي : الباء والواو والتاء ، والباء هي الاصل لدخولها على كل مقسم به .
ومنه قوله تعالى: «والضحى والليل إذا سجا» (٥) ، وقوله : «والتين والزيتون، وطور سينينَ ، وهذا البلد الأمين» (٦) وقوله : «قالوا تالله تفتأ تذكر يوسُفَ حتى تكونَ حَرَضاً أو تكونَ من الهالكين » (٧)، وقوله: «وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أنْ تُولوا مُدْبِرين» (٨).

ومنه قول ابن أبي ربيعة :

فوالله لا ادري وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر أم بثمان

(١) التوبة ٧١ .
(٢) مغني اللبيب ج١ ص١٣٨، والبرهان في علوم القرآن ج٢ ص٤١٨.
(٣) المنافقون ١ .
(٤) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٤٠ .
(٥) الضحى ١ـ٢
(٦) التين ١ـ٣ .
(٧) يوسف ٨٥ .
(٨) الأنبياء ٥٧.

١١ – نونا التوكيد : وهما الثقيلة والخفيفة، ومن ذلك قوله تعالى: «ولئن لم يفْعَل ما آمره ليُسجَنَنَّ وليكونَنْ من الصاغرين» (١)، وقوله: «لنَسْفَعَنْ بالناصية» (٢) ومنه قول الشاعر:

لأستسهلنَّ الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال الا لصابر

١٢ – لن : يؤتى بها لتأكيد النفي، كقوله تعالى: «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال: ربِّ أرني أنظرْ اليك، قال: لن تراني ،ولكن انظر إلى الجَبَل فان استقر مكانه فسوف تراني»(٣) ؛

ومنه قول الطرماح :

لقد زادني حباً لنفسيَ أنني بغيض إلى كل امرىء غير طائل

وأني شقيٌّ باللئام ولن ترى شقياً بهم الا كريم الشمائل

١٣– الحروف الزائدة : وهي كثيرة منها الباء كما في قوله تعالى: «وما أنا بظلام للعبيد»(٤) .

وقول معن بن أوس :

ولست بماش ماحييت لمنكر من الأمر لايمشي إلى مثله مثلي

و«مِنْ» كقوله تعالى: «وماتَسْقُطُ مِن ورقةٍ إلاّ يعلمها»(٥) ، وقوله: «ماترى في خَلْقِ الرحمن من تفاوت» (٦).

ومنها قول زهير:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ

(١) يوسف ٣٢ .
(٢) العلق ١٥.
(٣) الاعراف ١٤٣.
(٤) ق ٢٩ .
(٥) الانعام ٥٩ .
(٦) الملك ٣.

١٤ – **حروف التنبيه** : ومنها «أما» حرف استفتاح وتكثر قبل القسم، كقول أبي صخر الهذلي :

أما والذي أبكى وأضحك والذي   أمات وأحيا والذي أمرُهُ الأمرُ
لقد تركتني أحسد الوحش أنْ أرى   أليفين منها لايروعهما النَّفرُ

و«ألا» الاستفتاحية، كقوله تعالى : «ألا إنَّهم هم المفسدون» (١) ، وقوله : «ألا إنَّ أولياءَ الله لاخوفٌ عليهم ولاهم يَحْزَنون»(٢):

ومنه قول المعري:

ألا في سبيل المجد ماأنا فاعلُ   عفافٌ وإقدامٌ ومَجْدٌ ونائلُ

---

(١) البقرة ١٢ .
(٢) يونس ٦٢ .

المبحث الثاني

اغراضه

للخبر غرضان أصليان هما:

الأول: فائدة الخبر، ومعناه افادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة أو الكلام، وهذا هو الأصل في كل خبر، لان فائدته تقديم المعرفة أو العلم إلى الآخرين ومن ذلك قوله تعالى: «الله نورُ السماواتِ والأرضِ، مَثَلُ نورِهِ كمشكاةٍ فيها مصباحٌ، المصباحُ في زجاجة، الزجاجةُ كأنَّها كوكبٌ دُرّيٌّ يُوقدُ من شجرةٍ مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية، يكاد زيتُها يضيءُ ولو لم تَمسَسْهُ نارٌ، نورٌ على نور، يَهْدي اللهُ لنورهِ من يشاء، ويَضربُ اللهُ الأمثالَ للناس، واللهُ بكلِ شيءٍ عليم» (1). وقوله: «تبارك الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده ليكونَ للعالمين نذيراً. الذي له مُلْكُ السماواتِ والارضِ ولم يتخذْ ولداً ولم يكن له شريكٌ في المُلْكِ وخلَقَ كُلَّ شيءٍ فقدَّرَه تقدير. واتخذوا من دونه آلهةً لايخلُقُون شيئا وهم يُخلقون ولايملكون لأنفسهم ضرّاً ولانفعاً ولايملكون موتاً ولاحياةً ولانُشورا» (2).

ومنه قول الشاعر:

فلا الجودُ يُفني المالَ والجدُّ مُقبِلٌ ولا البخلُ يُبقي المالَ والجدُّ مُدْبِرُ

وقول أبي نواس:

ذكَرَ الكرخَ نازحُ الأوطانِ فصبا صبوةً ولاتَ أوانِ
ليس لي مُسْعِدٌ بمصر على الشَوْ قِ إلى أوْجهِ هناكَ حِسانِ

الثاني: لازم الفائدة، وهذا الغرض لايقدم جديداً للمخاطب وانما يفيد أن المتكلم عالم بالحكم، ومن ذلك قولنا لصديق: «زاركم محمدٌ أمس» فالمخاطب يعلم ذلك

(1) النور ٣٥ .

(2) الفرقان ١ - ٣.

ولكن الغرض من هذه الجملة اخباره أن المتحدث عارف بذلك : ومنه قول المتنبي مخاطباً سيف الدولة الحمداني ومادحاً شجاعته وبطولته :

تدوس بك الخيلُ الوكورَ على الذرى وقد كَثُرَتْ حول الوكور المطاعِم

وسيف الدولة يعلم ذلك.

وقول أحد الشعراء معاتباً :

وتغتابني في كـل نـاد تحـسـله وتزعم أنيَ لَسْتُ كفءاً لمثلكا

ولكن الخبر كثيراً مايخرج على خلاف مقتضى الظاهر ، يقول السكاكي : «هذا ثم انك ترى المفلقين السحرة في هذا الفن ينفثون الكلام لاعلى مقتضى الظاهر كثيراً»(١).

ومن ذلك :

١ – أن ينزل غير السائل منزلة السائل اذا قدّم اليه مايلوح له بحكم الخبر فيستشرف له استشراف المتردد الطالب، كقوله تعالى: «ولاتُخاطبني في الذين ظلموا انهم مُغْرَقون »(٢)، وقوله: «وما أُبرىء نفسي إنَّ النفس لأمّارةٌ بالسّوء» (٣). قال القزويني : «وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض». وروي عن الأصمعي أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخلف الاحمر يأتيان بشاراً فيسلمان عليه بغاية الاعظام ثم يقولان : ياأبا معاذ ،ماأحدثت؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأتياه يوماً فقالا : ماهذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة؟ قال : هي التي بلغتكما ؛ قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب . قال: نعم ، ان ابن قتيبة يتباصر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه مالايعرف ، قالا : فأنشدناها ياأبا معاذ ، فأنشدهما :

بكّـــرا صاحبيّ قبـل الهجيـر إنّ ذاك النجـاح في التبكيـر

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت ياأبا معاذ مكان «إنّ ذاك النجاح» ،

---

(١) مفتاح العلوم ص ٨٢، وينظر الايضاح ص ١٩.

(٢) هود ٣٦ .

(٣) يوسف ٥٣ .

«بكرًا فالنجاح» كان أحسن. فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : «إنّ ذاك النجاح» كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : «بكّرًا فالنجاح» كان هذا من كلام المولدين ، ولايشبه ذاك الكلام ولايدخل في معنى القصيدة، فقام خلف فقبل بين عينيه».

فهل كان ماجرى بين خلف وبشار بحضر من أبي عمرو بن العلاء — وهم من فحولة هذا الفن — إلا للطف المعنى في ذلك وخفائه»(١) ؟

٢ — أن يتزل غير المنكر اذا ظهر شيء عليه من أمارات الانكار، ومنه قوله تعالى : «ثم إنكم بعد ذلك لميتون»(٢) ، وقد أكد اثبات الموت تأكيدين — وان كان مما لاينكر — لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ في انكار الموت لتماديهم في الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قيل : «ميتون» دون «تموتون»، ومنه قول حجل بن نضلة :

جاء شقيقٌ عارضًا رمحه إنّ بني عمك فيهم رماح

فإن مجيئه هكذا مُدلًا بشجاعته قد وضع رمحه عارضًا ، دليل على اعجاب شديد منه واعتقاد انه لايقوم اليه من بني عمه أحد، كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح.

٣ — ان ينزل المنكر منزلة غير المنكر ، اذا كان معه ما ان تأمله ارتدع عن الانكار ، كما يقال لمنكر الاسلام : «الاسلام حق» ،وعليه قوله تعالى: «لاريبَ فيه»(٣) وقوله : «ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون »(٤) وقد أكد اثبات البعث تأكيداً واحداً — وان كان مما ينكر — لانه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديداً بأن لاينكر ،

(١) الايضاح ص ١٩ ، وينظر دلائل الاعجاز ص ٢١١، ومفتاح العلوم ص ٨٢.

(٢) المؤمنون ١٥ .

(٣) البقرة ٢ .

(٤) المؤمنون ١٦.

الاغراض المجازية :

الاصل في الخبر أن يلقى لغرضين هما: فائدة الخبر، ولازم الفائدة، غير انه كثيراً مايخرج على خلاف مقتضى الظاهر. ولكنه لايقتصر على ذلك وانما يخرج مجازاً إلى اغراض كثيرة تفهم من السياق وقرائن الاحوال، ومن ذلك:

١ - **اظهار الضعف**: ومنه قوله تعالى: «قال رَبِّ إني وَهَنَ العظمُ مني واشتعل الرأسُ شيباً»(١)، وقول الشاعر:

إنَّ الثمانين - وبلّغتهـا - قد أحوجَتْ سمعي إلى تَرْجُمان

وقول أبي نواس:

دبَّ فيَّ السقـامُ سُفْلاً وعلْوا وأراني أمـوت عُضْـواً فعضوا

٢ - **الاسترحام**: ومنه قول ابراهيم بن المهدي مخاطباً المأمون:

أتيـتُ جُـرمـاً شنيعـاً وأنـت للعفـو أهْـلُ

فان عفـوتَ فَمَـنٌّ وان قتلْـتَ فَعَـدْلُ

وقول الآخر:

فما لي حيـلـةٌ إلاّ رجائي لعفـوكَ إن عفوْتَ وحسْنُ ظَنّي

٣ - **تحريك الهمة**: ومنه قوله تعالى: «للذين أحسنوا الحُسنى وزيادةٌ»(٢)

٤ - **اظهار التحسر**: ومنه قول أعرابي يرثي ولده:

ولمّا دعوتُ الصبرَ بعدكَ والأسَى أجابَ الأسى طوعاً ولم يُجِبِ الصَّبْرُ

وقول المتنبي:

أقمتُ بأرض مصرَ فلا ورائي تخبُّ بيَ الركابُ ولا أمامي

وقوله في الرثاء:

الحزْنُ يُقْلِقُ والتجمّلُ يردع والقلبُ بينهما عصيٌّ طيّـعُ

يتنازعـان دموعَ عيـنِ مسهّدٍ هذا يجيء بهـا وهذا يرْجِـعُ

(١) مريم ٤.

(٢) يونس ٢٦.

٥ – المدح : ومنه قول النابغة الذبياني :

فانكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعتَ لم يبْدُ منهنّ كوكب

٦ – الفخر : ومنه قول عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطامَ لنا صبيّ تخرّ له الجبابرُ ساجدينـــــا

وقول أبي فراس الحمداني :

إنّــا إذا اشتــدّ الــزمــا نُ ونـاب خـطـبٌ وادلهمّ

ألفيـت حـــول بيوتنـــا عُــــدَدَ الشجــاعة والكرَمْ

للقـــا العـدا بيـضَ السيو فِ ، وللنـدى حمر النعَمْ

هـــذا وهـــذا دأبنــــــا يُودى دمٌ ويُـــراق دَمْ

وقول الشريف الرضي :

لغير العلى مني القلى والتجنبُ ولولا العلى ماكنتُ في العيش أرغبُ

وقور فلا الالحان تأسر عزمتي ولاتمكر الصهباءُ بي حين أشربُ

ولاأعرف الفحشاءَ إلا بوصفها ولا أنطقُ العوراءَ والقلبُ مُغْضبُ

٧ – التوبيخ : ومن ذلك قولنا لتارك الصلاة: «الصلاة ركن من اركان الاسلام» .

٨ – التحذير : ومنه قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : «أبغضُ الحلال إلى الله الطلاقُ» .

٩ – الامر : ومنه قوله تعالى : «والمطلقاتُ يتربّصن »(١)وقوله: « والوالداتُ يرْضِعنَ »(٢)، فان السياق يدل على ان الله تعالى أمر بذلك لانه خبر؟

١٠ – النهي : ومنه قوله تعالى : «لايَمَسُّه إلا المطهّرون »(٣) :

(١) البقرة ٢٢٨ .
(٢) البقرة ٢٣٣ .
(٣) الواقعة ٧٩

١١ ــ **الوعد :** ومنه قوله تعالى : «سَنُريهم آياتنا في الآفاق »(١) ؛

١٢ ــ **الوعيد:** ومنه قوله تعالى: «وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون»(٢).

١٣ ــ **الدعاء :** ومنه قوله تعالى: «إيّاكَ نَعْبُدُ وإياك نستعين» (٣)، أي:أعنّا على عبادتك ؛وقولنا : «عفا الله عنه »؛

١٤ ــ **الانكار والتبكيت:** ومنه قوله تعالى: «ذُقْ إنك أنت العزيزُ الكريم»(٤)؛

١٥ ــ **التمني :** ومنه قولنا: «وددتك عندنا»؛

١٦ ــ **الانكار :** ومنه: «ماله عليّ حق» .

١٧ ــ **النفي :** ومنه: «لابأس عليك».

١٨ ــ **التعظيم :** ومنه: «سبحان الله»؛

وربما كان اللفظ خبرا والمعنى شرطا وجزاء، كقوله تعالى: «إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون »(٥)، فظاهره خبر، والمعنى انّا ان نكشف عنكم العذاب تعودوا؛ ومنه قوله : «الطلاقُ مرّتان »(٦) ، والمعنى : من طلق امرأته مرتين فليمسكها بعدهما بمعروف أو يسرحها باحسان (٧).

(١) فصلت ٥٣ .
(٢) الشعراء ٢٢٧.
(٣) الفاتحة ٥ .
(٤) الدخان ٤٩.
(٥) الدخان ١٥.
(٦) البقرة ٢٢٩.
(٧) تنظر أغراض الخبر المجازية في الصاحبي لابن فارس ص ١٧٩ ، والبرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٣٢٠.

الفصل الثالث

الانشاء

المبحث الاول

الامر والنهي

الإنشاء :

الإنشاء كل كلام لايحتمل الصدق والكذب لذاته لانه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لايطابقه : وهذا ماعتمد عليه القدماء حينما فصلوا بين الخبر والانشاء فقال القزويني :« ووجه الحصر أنّ الكلام اما خبر أوانشاء ، لانه اما ان يكون لنسبته خارج تطابقه اولا تطابقه ، اولا يكون لها خارج ، الاول الخبر ، والثاني الانشاء (١) .

أقسامه :

والانشاء قسمان :

الاول : الانشاء الطلبي ، وهو مايستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب،وهو خمسة أنواع : الامر ، والنهي ، والاستفهام ، والتمني ، والنداء .

الثاني : الانشاء غير الطلبي : وهو مالايستدعي مطلوباً ، وله أساليب مختلفة منها :

١ – **صيغ المدح والذم :** ومنها : نعم وبئس، كقوله تعالى: «إنْ تُبدوا الصدقات فنعمّاهي وإنْ تُخفوها وتؤتوها الفقراءَ فهوخيرٌ لكم ويُكفّر عنكم من سيئاتكم واللهُ بما تعملون خبير» (٢) ، وقوله :« ولدارُ الآخرة خيرٌ ولنعم دارُ المتقين»(٣) ، وقوله : « يدعو لَمن ضَرُّهُ أقربُ من نفعه لبئس المولى ولبئس العشيرُ » (٤) .

وقول زهير في مدح هرم بن سنان :

نعم امرأً هَرِمٌ لم تَعْرُ نائبةٌ   إلاّ وكان لمرتاعٍ لها وَزَرا

ومنها : «حبذا ولا حبذا» كقول جرير :

---

(١) الايضاح ص ١٣ .

(٢) البقرة ٢٧١ .

(٣) النحل ٣٠ .

(٤) الحج ١٣ .

يا حبذا جبلُ الريّان من جبلٍ   وحبذا ساكنُ الريّان مَنْ كانا
وحبذا نفحاتٌ من يمانية   تأتيك من قِبَلِ الريّان أحيانا

ومنها الأفعال المحوّلة إلى «فَعُلَ» مثل: «كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ من أفواههم» (١)؛

٢ – التعجب: وله صيغتان قياسيتان هما: «ماأفعله» كقوله تعالى: «قُتِلَ الانسانُ ماأكفرَه» (٢) «وقوله: «فما أصبرَهُم على النار» (٣). وقول الشاعر:

فما أكثرَ الاخوانَ حين تعدُّهم   ولكنهم في النائبات قليـــــــلُ

وقول الآخر:

بنفسي تلك الأرضُ ماأطيبَ الربى   وما أحسنَ المصطافَ والمتربَّعا

و «أفْعِلْ به» كقوله تعالى: «أَسْمِعْ بهم وأبْصِرْ يوم يأتوننا» (٤) وبأتي سماعياً كقولهم: «لله دَرُّه عالماً».

٣ – القسم: ويكون بالواو والتاء والباء، كقوله تعالى: «والضحى، والليل إذا سجى» (٥) وقوله: «تالله لقد آثرك اللهُ علينا» (٦). وقولنا: «أقسم بالله أني بريء».

ومن صيغ القسم التي تأتي كثيراً «لعمر» كقوله تعالى: «لَعَمْرُكَ إنهم لفي سَكْرَتِهم يَعْمَهُون» (٧):

وقول الشاعر:

لعَمْرُكَ ما أدري واني لأَوْجَلُ   على أيِّنا تعدو المنيةُ أوّلُ

٤ – الرجاء: وهو طلب حصول أمر محبوب قريب الوقوع. والحرف الموضوع له «لعلّ»، كقوله تعالى: «فلعلك تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك وضائقٌ به»

(١) الكهف ٥.
(٢) عبس ١٧.
(٣) البقرة ١٧٥.
(٤) مريم ٣٨.
(٥) الضحى ١–٢.
(٦) يوسف ٩١.
(٧) الحجر ٧٢.

صدْرُكَ أنْ يقولوا لولا أُنزِلَ عليه كنزٌ أو جاء معه مَلَكٌ ، إنما أنت نذير ، والله على كُلّ شيءٍ وكيل» (١) ؟

وقول ذي الرمه :

لعلَّ انحدارَ الدمع يُعقِبُ راحةً من الوجد أو يشفي نجيَّ البلابلِ (٢)

اما الافعال التي تستعمل في هذا الاسلوب فهي : «عسى» ، كقوله تعالى : «فعسى اللهُ أنْ يأتي بالفتح أو أمْرٍ من عنده» (٣) ، وقول الشاعر

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فَرَجٌ قريبُ

و«حرى» مثل: «حرى محمدٌ أن يقوم».

و«اخلولق» مثل: «اخلولقت السماءُ أن تمطر».

وتسمى هذه الثلاثة «أفعال الرجاء».

٥ – صيغ العقود : مثل : «بعت» و«اشتريت» و«وهبت» و«قبلت».

وهذه أساليب خبر ، لكنها لايراد بها الاخبار لأنها لاتحتمل الصدق والكذب ، ولذلك لم توضع مع الخبر ، ولايهتم البلاغيون بهذه الاساليب الانشائية لقلة الاغراض المتعلقة بها ، ولان معظمها أخبار نقلت من معانيها الاصلية . أما الانشاء الذي يعنون به فهو الطلبي لما فيه من تفنن في القول لخروجه عن أغراضه الحقيقية إلى اغراض مجازية تفهم من سياق الكلام .

وأساليب الانشاء الطلبي خمسة هي : الامر والنهي والاستفهام والتمني والنداء.

الأمر :

وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والالزام ، أو كما قال العلوي:

---

(١) هود ١٢ .

(٢) البلابل : جمع بلبال ، وهو الهم

(٣) المائدة ٥٢ .

«هو صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبيء عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء» (1) : وله اربع صيغ هي:

1 – فعل الأمر: كقوله تعالى: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول»(2)، وقول الحطيئة:

دَعِ المكارمَ لاترحلْ لبغيتـها   واقعُدْ فإنّكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

2 – المضارع المقرون بلام الامر: كقوله تعالى: «لِيُنْفِقْ ذوسَعَةٍ من سَعَتِهِ»(3). وقول أبي تمام:

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدحِ الأمرُ   فليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ

3 – اسم فعل الامر: كقوله تعالى: «عليكم أنفُسَكم لايَضُرّكم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم»(4) أي: الزموا أنفسكم.

ومنه «صه» بمعنى اسكت، و«مه» بمعنى «أكفف» و«آمين» بمعنى: «استجب» و«بله» بمعنى «دع» و«رويده» بمعنى امهله، و«نزال» بمعنى «انزل»، و «دراك» بمعنى «أدرك».

4 – المصدر النائب عن فعل الامر: كقوله تعالى: «وبالوالدين إحسانا» (5)

وقول قَطَري بن الفجاءة:

فصبرا في مَجال الموت صبـــرا   فما نَيْلُ الخلود بمستطـــاع

وقد يخرج الامر عن معناه الاصلي: – وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والالزام الى معانٍ أخرى تفهم من سياق الكلام، ومن هذه الاغراض المجازية:

1 – الدعاء: وهو الطلب على سبيل التضرع، كقوله تعالى: «ربِّ اغفر لي

---

(1) الطراز ج 3 ص 281.
(2) النور 56.
(3) الطلاق 7.
(4) المائدة 105.
(5) البقرة 83.

ولوالديّ » (١) . ويسميه ابن فارس «المسألة » (٢) : ومنه قوله تعالى : «ربنا إنّنا سمعنا منادياًينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنّا، ، ربنا فاغفرْ لنا ذنوبنا وكفّرْ عنّا سيآتنا وتوفنا مع الابرار » (٣). وقوله : «اهدنا الصراط المستقيم» (٤) . ومنه قول المتنبي :

أزِلْ حَسَدَ الحسّادِ عني بكبتهم فأنت الذي صيّرتهم لي حُسّدا

٢ - الالتماس : وهو الطلب الصادر عن المتساوين قدراً ومنزلة على سبيل التلطف كقول ابن زيدون :

دُومي على العهد ما دمنا محافظةً فالحرُّ من دان انصافا كما دينا

٣ - التمني : وهو الطلب الذي لايُرجى وقوعه ، كقول عنترة :

يادارَ عبلةَ بالجواء تكلّمي وعِمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي

وقول امرئ القيس :

ألا أيُّها الليلُ الطويل ألا انجلي بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ

وقول المعري :

فيا موتُ زُرْ إنّ الحياة ذميمةٌ ويانفسُ جدّي إنّ دَهْرَكِ هازِلُ

وقول ابن زيدون :

ويا نسيمَ الصبَّا بلِّغ تحيتنا من لو على البعد حيّاً كان يحيينا

٤ - النصح والارشاد : وهو الطلب الذي لا إلزام فيه وانما النصيحة الخالصة كقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجَلٍ مُسمىً فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدْل» (٥) ، وقوله «واستشهدوا شهيدين من رجالكم » (٦) وقول المتنبي في مدح سيف الدولة :

---

(١) نوح ٢٨.
(٢) الصاحبي ١٨٤.
(٣) آل عمران ١٩٣.
(٤) الفاتحة ٦.
(٥) البقرة ٢٨٢ .
(٦) البقرة ٢٨٢ .

كذا فَلْيَسْرِ من طلب الاعادي ومثل سراك فليكن الطِّــلابُ

٥ ــ **التخيير** : وهو الطلب بان يختار المخاطب بين أمرين أو اكثر ، كقول بشار :

فَعِشْ واحداً أوصلْ أخاكَ فانه مقارفُ ذَنْبٍ مرةً ومجانِبُــه

٦ ــ **الاباحة** : كقوله تعالى : «وكُلُوا واشربوا حتى يتبيّنَ لكم الخيطُ الابيضُ من الخيط الأسود من الفَجْرِ» (١) : وقال القزويني : ومن احسن ما جاء فيه قول كثير :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومةً لدينا ، ولا مقليةً إنْ تقلّت (٢)

أي : لا أنت ملومة ولا مقلية .

ووجه حسنه اظهار الرضا بوقوع الداخل تحت لفظ الامر حتى كأنه مطلوب أي مهما اخترت في حقي من الاساءة والاحسان ، فأنا راضٍ به غاية الرضا فعامليني بهما ، وانظري هل تتفاوت حالي معك في الحالين » (٣) .

٧ ــ **التعجيز** : وهو الطلب بما لايقدر عليه المخاطب كقوله تعالى : «يامعشرَ الجنّ والانس إن استطعتم ان تَنفُذُوا من أقطار السماوات والارض فانْفُذُوا لاتنفُذُونَ إلاّ بسلطان» (٤) ، وقوله : «وإنْ كنتم في ريب مّما نَزَّلْنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دُونِ الله إن كنتم صادقين» (٥)

وقول الشاعر :

أروني بخيلا طال عُمراً ببخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البَذْلِ

٨ ــ **التهديد** : كقوله تعالى: «اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير» (٦) وقوله :

---

(١) البقرة ١٨٧.

(٢) مقلية مكروهة ببغيضة تقلت : تكرهت وتبغضت

(٣) الايضاح ص١٤٣.

(٤) الرحمن ٣٣.

(٥) البقرة ٢٣.

(٦) فصلت ٤٠.

«قل تمتّعوا فإنّ مصيركم إلى النّار» (١) .

ومنه قول الشاعر :

إذا لم تَخْشَ عاقبةَ الليالي ولم تستحيِي فاصنعْ ماتشاء

٩ – التسوية: كقوله تعالى: «فاصْبِروا أو لاتصْبِروا» (٢)، ومنه قول المتنبي:

عِشْ عزيزاً أومُتْ وأنت كريمٌ بين طَعْنِ القَنا وخَفْقِ البنودِ

١٠ – الاهانة: كقوله تعالى: «ذُقْ إنّكَ أنتَ العزيزُ الكريم»(٣)، وقوله: «كونوا حجارةً أو حديداً» (٤) .

١١ – التسخير : كقوله تعالى : «كُونُوا قردةً خاسئين» (٥) ويسميه ابن فارس «التكوين» (٦) .

١٢ – الاحتقار: كقوله تعالى. «ألقُوا ماأنتم مُلْقُون» (٧)، وبعضهم يجمع الاهانة والاحتقار في غرض واحد.

١٣ – التسليم: كقوله تعالى: «فاقْضِ ماأنت قاضٍ» (٨)

١٤ – الندب : كقوله تعالى : «فانتشروا في الأرضِ» (٩)

١٥ – التعجب: كقوله تعالى: «أسْمِعْ بهم وأبْصِرْ» (١٠)، ومنه قول كعب ابن زهير :

أحْسِنْ بها خلّةً لو أنها صدقت موعودَها ولو أنّ النُّصْحَ مقبولُ

---

(١) ابراهيم ٣٠.

(٢) الطور ١٦.

(٣) الدخان ٤٩.

(٤) الاسراء ٥٠.

(٥) الاعراف ١٦٦. خاسئين: مبعدين مطرودين لايسمح لكم بالقرب من اليأس.

(٦) الصاحبي ص١٨٥.

(٧) يونس ٨٠، او الشعراء ٤٣.

(٨) طه ٧٢.

(٩) الجمعة ١٠.

(١٠) مريم ٣٨.

١٦ ـ التلهيف والتحسر : كقوله تعالى: «قلْ مُوتوا بغيظكم» (١) ومنه قول جرير :

موتوا من الغيظ غماً في جزيرتكم لن تقطعوا بطن وادٍ دُونه مُضَرُ

١٧ ـ الوجوب : وذلك أن يكون أمراً وهو واجب كقوله تعالى: «وأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزكاةَ واركعوا مع الراكعين» (٢).

١٨ ـ الخبر : ويكون أمراً والمعنى خبر كقوله تعالى: «فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً» (٣). والمعنى: انهم سيضحكون قليلا ويبكون كثيراً.

١٩ ـ الامتنان: كقوله تعالى: «فكُلوا مما رزقكم الله» (٤)، والظاهر انه قسم من الاباحة لكن معه امتنان.

٢٠ ـ الاكرام: مثل قوله تعالى: «ادْخُلوها بسلامٍ» (٥)، وهو من الاباحة أيضاً.

٢١ ـ التكوين: كقوله تعالى: «كُنْ فيكون» (٦)، وهو قريب من التسخير، إلا أن هذا أعم.

٢٢ ـ التفويض:كقوله تعالى: «فاقْضِ ماأنت قاضٍ» (٧)

٢٣ ـ التكذيب: كقوله تعالى: «قل فأتوا بالتوراة فاتلُوها» (٨) وقوله: «قُلْ هَلُمَّ شهداءكم الذين يَشْهدون أنَّ اللهَ حرَّم هذا» (٩).

٢٤ ـ المشورة : كقوله تعالى: «فانظرْ ماذا ترى» (١٠) .

---

(١) آل عمران ١١٩.
(٢) البقرة ٤٣.
(٣) التوبة ٨٢.
(٤) النحل ١١٤.
(٥) الحجر ٤٦.
(٦) البقرة ١١٧، وغيرها.
(٧) طه ٧٢.
(٨) آل عمران ٩٣.
(٩) الانعام ١٥٠.
(١٠) الصافات ١٠٢.

٢٥ – **الاعتبار**: كقوله تعالى: «أنظروا إلى ثَمَرِه إذاأثمر» (١). ويرى السبكي أن في غالب هذه المعاني نظرا (٢).

النهي:

هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والالزام. ويتفق مع الامر في :

١. أن يكون كل واحد منهما لابدّ فيه من اعتبار الاستعلاء.

٢. انهما يتعلقان بالغير، فلا يمكن أن يكون الانسان آمراً لنفسه أو ناهياً لها.

٣. انهما لابد من اعتبار حال فاعلهما في كونه مريداً لهما. ويختلفان في :

١– ان كل واحد منهما مختص بصيغة تخالف الآخر.

٢– ان الامر دال على الطلب، والنهي دال على المنع.

٣– ان الامر لابدّ فيه من ارادة مأمورة، وان النهي لابدّ فيه من كراهية منهية(٣).

والنهي صيغة واحدة هي المضارع المقرون بـ«لا» الناهية الجازمة، كقوله تعالى: «ولا تَجَسَّسوا ولا يَغْتَبْ بعضُكم بَعْضاً» (٤).

وقد تخرج هذه الصيغة إلى معان مجازية كثيرة منها :

١. **الدعاء** : ويكون صادراً من الأدنى إلى الأعلى، كقوله تعالى: «ربَّنا لاتُؤاخِذْنا إنْ نسينا أو أخطأنا، ربّنا ولا تَحْمل علينا إصْراً» (٥) وقوله: «ربنا لاتُزِغْ قلوبنا بعد إذ هَدَيتنا» (٦).

وقول كعب بن زهير :

لاتأخذَنّي بأقوال الوشاة ولم أُذْنِبْ ولو كَثُرت فيّ الأقاويل

٢. **الالتماس** : ويكون صادراً من أخ إلى أخيه أو صديق إلى صديقه، كقوله

---

(١) الانعام ٩٩ .

(٢) تنظر هذه الأعراض في الصاحبي ص ١٨٤ ومفتاح العلوم ص١٥٢، والايضاح ص ١٤٣، وشروح التلخيص ج ٢ ص ٣١٣ .

(٣) الطراز ج٣ص٢٨٥ .

(٤) الحجرات ١٢ .

(٥) البقرة ٢٨٦ .

(٦) آل عمران ٨ .

تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى : «قال : يابْنَ أُمَّ لاتأخذْ بلحيتي ولا برأسي» (١) .

وقول المعري :

لاتطويا السرَّ عنّي يوم نائبــةٍ ... فإنَّ ذلك ذَنْبٌ غير مُغْتَفَــرِ

٣. **التمني** : ويكون النهي موجها الى مالا يعقل ، كقول الخنساء :

أعينيَّ جودا ولا تَجْمُدا ... ألاتبكيان لصــخر النــدى

٤. **النصح** : كقوله تعالى : «ولا يَأْبَ كاتب أن يكتب كما علّمه الله » (٢)

وكقول الشاعر :

لاتَحْلِفَنَّ على صدق ولاكذب ... فما يفيدك إلاّ المأثمَ الحَلِـــفُ

٥. **التهديد** : كقولنا لمن لايمتثل للامر : «لاتمتثل أمري» :

٦. **التوبيخ** : كقول الشاعر :

لا تنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَه ... عارٌ عليك اذا فعلت عظيــمُ

٧. **التحقير** : كقول الحطيئة :

دَعِ المكارمَ لاترحل لبغيتها ... واقعد فانك أنت الطاعمُ الكاسي

وقول المتنبي :

لاتشترِ العبد إلا والعصا معــه ... إنّ العبيدَ لأنجاسٌ مناكيــدُ

٨. **التيئيس** : ومنه قوله تعالى : لاتعتذروا فقد كفرتم بعد إيمانكم «(٣) وقول المتنبي في مدح سيف الدولة :

لا تطلبن كريماً بعد رؤيتــه ... إنَّ الكرام بأسخاهم يداً خُتِموا

٩. **بيان العاقبة** : كقوله تعالى : «ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلا » (٤) ، أي عاقبة الظالم العذاب لا الغفلة (٥)

---

(١) طه ٩٤ .
(٢) البقرة ٢٨٢ .
(٣) التوبة ٦٦ .
(٤) ابراهيم ٤٢ .
(٥) تنظر هذه الاغراض المجازية في مفتاح العلوم ص١٥٢ ، والايضاح ص ١٤٥ ، وشروح التلخيص ج٢ص٣٢٥ .

المبحث الثاني

الاستفهام

الاستفهام طلب العلم بشيءٍ لم يكن معلوما من قبل ، وهو الاستخبار ، الذي قالوا فيه انه طلب خبر ما ليس عندك أي طلب الفهم . ومنهم من فرّق بينهما وقال ان الاستخبار ما سبق أولا ولم يفهم حق الفهم ، فاذا سألت عنه ثانيا كان استفهاما (١) ولكن المستعمل في الدراسات البلاغية مصطلح «الاستفهام» وللاستفهام أدوات كثيرة وهي نوعان :

الأول : حرفان ، وهما الهمزة وهل : وتستعمل الهمزة لطلب التصديق وهو ادراك النسبة أي تعيينها مثل : « أقام محمد ؟ » الجواب يكون عنها بـ« نعم » أو لا » والتصور وهو ادراك المفرد أي تعيينه مثل : « أقام محمد أم قعد ؟ » والجواب عنها يكون بتحديد المفرد :

أما «هل » فلا يطلب بها غير التصديق مثل :

«هل قام محمد ؟ » والجواب عنها يكون به «نعم» أو «لا» ؛

الثاني : أسماء ، ولا يطلب بها إلا التصور ، وهي :

١. ما : يطلب بها شرح الشيء ، مثل : «ما البلاغة ؟ » ؛

٢. مَنْ : للسؤال عن الجنس مثل : «من هذا ؟ »

٣. أيّ : للسؤال عما يميز احد المتشاركين في أمر يعمهما ، مثل : «أي الثياب عندك ؟ »

٤. كم : للسؤال عن العدد ، مثل : «كم كتابا عندك ؟» ؛

٥. كيف للسؤال عن الحال ، مثل : «كيف محمد ؟ » ؛

٦. أين : للسؤال عن المكان ، مثل : «اين كنت ؟ » ؛

---

(١) الصاحبي ص١٨١، والبرهان في علوم القرآن ج٢ص٣٢٦ .

٧. أنّى : تستعمل تارة بمعنى : «كيف» ، كقوله تعالى : « أنّى يُحْيِي هذه اللهُ بَعْدَ مَوْتِها » (١)

وتارة بمعنى «من اين » كقوله تعالى : « يامريمُ أنّى لكِ هذا ؟ (٢) »

وتارة بمعنى «متى » ، مثل : « أنّى تسافر ؟ » .

٨. متى : للسؤال عن الزمان ، مثل : «متى جئت ؟ » .

٩. أيانَ : للسؤال عن الزمان ، كقوله تعالى : «يَسألُ أيّانَ يومُ القيامة؟» (٣)
وقوله : «يسألون أيّانَ يومُ الدين » (٤)

ولكن الاستفهام قد يخرج عن معانيه الاصلية الى معانٍ كثيرة منها :

١. النفي : كقوله تعالى : «هل جزاءُ الاحسانِ إلاّ الاحسانُ » (٥)
وقول البحتري :

هل الدهر إلاّ غمرةٌ وانجلاؤها وشيكاً وإلاّ ضيقةٌ وانفراجُها

٢. التعجب : كقوله تعالى على لسان سليمان – عليه السلام – :
«مالِي لا أرى الهُدهُدَ ؟» (٦) وقوله : «ما لهذا الرسول يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواق » (٧)

وقول المتنبي :

أبنتَ الدهر عندي كلُّ بنت فكيف وصلت أنت من الزحام؟

(١) البقرة ٢٥٩ .
(٢) آل عمران ٣٧ .
(٣) القيامة ٦ .
(٤) الذاريات ١٢ .
(٥) الرحمن ٦٠ .
(٦) النمل ٢٠ .
(٧) الفرقان ٧ .

٣. **التمني**: كقوله تعالى: «فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا؟» (١)
وقول المتنبي:

أبدي الربعُ أيّ دمٍ أراقـا وأيَّ قلوبِ هذا الركب شاقـا

٤. **التقرير**: كقوله تعالى: «ألم يجدْكَ يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى» (٢)، وقوله: «ألم نشرح لك صدرك؟ ووضعنا عنك وِزْرَك» (٣)، وقوله: «ألم يجعل كيدَهم في تضليل؟» (٤).
وقول ابن الرومي:

ألستَ المرءَ تَجبي كلَّ حَمْدٍ إذا ما لم يكنْ للحمدِ جابِ

٥. **التعظيم**: كقول المتنبي في الرثاء:

مَنْ للمحافلِ والجحافلِ والسُّرى فقدت بفقدك نيِّراً لا يطلعُ
ومن اتخذتَ على الضيوفِ خليفةً ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيِّعُ

وقول الآخر:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثغْرِ؟

٦. **التحقير**: كقوله تعالى على لسان الكفار: «أهذا الذي بعثَ اللهُ رسولاً؟» (٥).
وقول الشاعر:

فدَعِ الوعيدَ فما وعيدك ضائري أطنينُ أجنحةِ الذُّبابِ يَضيرُ؟

٧. **الاستبطاء**: كقوله تعالى: «حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معَهُ متى نَصرُ اللهِ؟» (٦).

(١) الاعراف ٥٣.
(٢) الضحى ٦ – ٧.
(٣) الانشراح ١ – ٢.
(٤) الفيل ٢.
(٥) الفرقان ٤١.
(٦) البقرة ٢١٤.

وقول الشاعر :

حتى متى أنت في لهو وفي لعب والموتُ نحوك يهوي فاغراً فاه

٨ ـ الاستبعاد: كقوله تعالى : «أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسولٌ مبين ، ثم تولوا عنه ، وقالوا : معلّم مجنون؟» (١) أي يستبعد ذلك منهم بعد أن جاءهم الرسول ثم تولوا عنه .

وقول أبي تمام :

مَنْ لي بإنسان إذا أغضبتــه وجهلت كان الحلمُ ردَّ جوابه؟

وقول المتنبي :

وما قتّلَ الأحرارَ كالعفو عنهم ومن لك بالحرّ الذي يحفظ اليدا ؟

٩ ـ الانكار : وهو على وجهين :

١ ـ امّا للتوبيخ ، بمعنى ماكان ينبغي أن يكون، مثل : « أعصيت ربك ؟ » ؛

٢ ـ وإمّا للتكذيب بمعنى «لم يكن» كقوله تعالى : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً؟»(٢)، وقوله : «اصطفى البنات على البنين ؟ » (٣) ؛ أو بمعنى «لايكون» كقوله تعالى : «أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟» (٤) ؛

وعليه بيت امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعــي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوال؟

وقول الآخر :

أأترك إنْ قلّت دراهمُ خالد زيارته ؟ إنّي إذَنْ للئيــمُ

١٠ ـ التهكم : كقوله تعالى : « أصلاتُكَ تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء ؟ » (٥) ؛

(١) الدخان ١٣ ـ ١٤.
(٢) الاسراء ٤٠.
(٣) الصافات ١٥٣.
(٤) هود ٢٨.
(٥) هود ٨٧.

وقول المتنبي :

أفي كل يوم ذا الدمستقُ قادمٌ   قفاه على الاقدام للوجه لائمُ

١١ – التسوية: كقوله تعالى: «إنَّ الذين كفروا سواءعليهم أأنذرتَهم أم لم تُنْذرْهم لايؤمنون » (١) ، وقوله : « وإنْ أدري أقريب أم بعيد ما تُوعدون ؟ » (٢) ؛ وقول المتنبي :

ولست أبالي بعد إدراكيَ العلى   أكان تراثاً ماتناولت أم كسبـا

١٢ – الوعيد: كقوله تعالى: «ألم نُهلِكْ الأولين؟» (٣) ؛

١٣ – التهويل: كقوله تعالى: «ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهين، من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين» (٤)، بلفظ الاستفهام وهي قراءة ابن عباس – رضي الله عنهما – . لما وصف الله تعالى العذاب بأنه مهين لشدته وفظاعة شأنه أراد أن يصور كنهه فقال : «مَنْ فرعون؟» أي أتعرفون من هو في فرط عتُوِّه وتجبره؟ ماظنكم بعذاب يكون هو المعذِّب به ؟ .

١٤ – التنبيه: كقوله تعالى: «فأين تذهبون؟» (٥) ، وقوله: «ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل؟» (٦)،وقوله: «ألم تر كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل؟» (٧) ، وقوله: « ألم تر أنَّ الله أنْزَلَ من السماء ماءً فتصبحُ الأرض مخضرة ؟ » (٨) ؛

١٥ – التشويق : كقوله تعالى : «ياأيُّها الذين آمنوا هل أدُلُّكم على تجارة تُنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خيْرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون» (٩) ، وقوله : « قال : ياآدمُ هل أدُلُّكَ

(١) البقرة ٦.
(٢) الانبياء ١٠٩.
(٣) المرسلات ١٦.
(٤) الدخان ٣٠ – ٣١.
(٥) التكوير ٢٦.
(٦) الفرقان ٤٥.
(٧) الفيل ١.
(٨) الحج ٦٣.
(٩) الصف ١٠ ، ١١.

على شَجَرة الخُلْد ومُلْكٍ لايبلى؟ » (١).

١٦ – الأمر : كقوله تعالى: «فهل أنتم مسلمون؟ »(٢) وقوله: « فهل أنتم منتهون؟» (٣) وقوله: «ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله؟ » (٤).

١٧ – النهي: كقوله تعالى: « ما غرّك بربك الكريم؟ »، (٥) وقوله : « أتخشَوْنهم فاللهُ أحقُّ أن تخشَوْه؟» (٦) بدليل قوله : « فلا تخشَوا الناس » (٧).

١٨ – العرض : كقوله تعالى : « ألا تُحبون أنْ يغفر الله لكم ؟ » (٨) ، وقوله تعالى : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ؟ » (٩).

١٩ – التحضيض : كقوله تعالى : « أن ائتِ القومَ الظالمين . قومَ فرعونَ ألا يتّقون؟» (١٠) أي : ائتهم وامرهم بالاتقاء .

٢٠ – التفجع : كقوله تعالى : « مالهذا الكتاب لايغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً؟»(١١) .

٢١ – التبكيت : كقوله تعالى : « أأنت قُلْتَ للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ » (١٢) .

٢٢ – الارشاد : كقوله تعالى : « أتجعل فيها من يُفْسِدُ فيها ؟ » (١٣) .

٢٣ – الإفهام : كقوله تعالى : « وما تلك بيمينك ؟ » (١٤) .

---

(١) طه ١٢٠.
(٢) هود ١٤.
(٣) المائدة ٩١.
(٤) النساء ٧٥.
(٥) الانفطار ٩.
(٦) التوبة ١٣ .
(٧) المائدة ٤٤ .
(٨) النور ٢٢ .
(٩) التوبة ١٣ .
(١٠) الشعراء ١٠–١١.
(١١) الكهف ٤٩ .
(١٢) المائدة ١١٦ .
(١٣) البقرة ٣٠ .
(١٤) طه ١٧ .

٢٤ – التكثير : كقوله تعالى : «وكم من قرية أهلكناها ؟» (١) وقوله : «وكأيّن من قرية أمليتُ لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتُها؟وإليَّ المصير» (٢) . ومنه قول الشاعر :

كم من دنيٍّ لها قد صرت أتبعه ؟ ولو صحا القلبُ عنها كان لي تبعا

٢٥ – الاخبار والتحقيق: كقوله تعالى : «هل أتى على الانسان حينٌ من الدهرِ لم يكن شيئاً مذكورا؟» (٣)

هذه أهم الاغراض التي يخرج اليها الاستفهام عن معناه الحقيقي (٤) ، وهي كثيرة وقد يتداخل بعضها ببعض ، ولكن الذوق السليم وقرائن الاحوال تشير إلى الغرض وتحدده .

وهذا التقسيم الذي قام عليه بحث الاستفهام عمدة البلاغيين غير أن الذين عنوا بعلوم القرآن يبحثونه بصورة اخرى ويقسمونه تقسيماً آخر ، فالزركشي (٥) يقسمه إلى : الاستفهام بمعنى الخبر وهو ضربان :

احدهما : نفي ، ويسمى استفهام انكار ، والمعنى فيه على ان مابعد الاداة منفي ، ولذلك تصحبه «إلاّ» كقوله تعالى: «فهل يُهلَكُ إلاّ القومُ الفاسقون؟» (٦)

والثاني : اثبات ، ويسمى استفهام تقرير ، كقوله تعالى : «أَلستُ بربكم؟» (٧) أي : أنا ربكم . ويأتي هذا على وجوه كثير منها : مجرد الاثبات ، والاثبات

(١) الاعراف ٤ .
(٢) الحج ٤٨ .
(٣) الانسان ١ .
(٤) ينظر الصاحبي ص١٨١ ، ومفتاح العلوم ص١٥٠ ، والمصباح ص٤٢ ، والايضاح ص١٣٧ ، وشروح التلخيص ج٢ ص٢٩٠ .
(٥) ينظر كتاب البرهان في علوم القرآن ج٢ ص٣٢٦ ومابعدها .
(٦) الاحقاف ٣٥ .
(٧) الأعراف ١٧٢ .

مع الافتخار ، والتوبيخ ، والعتاب ، والتبكيت ، والتسوية ، والتعظيم ، والتهويل ، والتسهيل والتخفيف ، والتفجع ، والتكثير ، والاسترشاد .

والقسم الثاني : الاستفهام المراد به الانشاء ، وهو على ضروب : مجرد الطلب ، والنهي ، والتحذير ، والتذكير ، والتنبيه ، والترغيب ، والتمني ، والدعاء ، والعرض ، والتحضيض ، والاستبطاء ، والايـاس ، والايناس ، والتهكم والاستهزاء والتحقير ، والتعجب ، والاستبعاد ، والتوبيخ .

وهذا التقسيم اكثر دقة غير ان التمييز بين اغراض النوعين صعب ، ولذلك كان الجمع بين النوعين اكثر سهولة وأقرب إلى المدارك كما فعل علماء البلاغة .

المبحث الثالث

التمني والنداء

التمني: التمني توقع أمر محبوب في المستقبل ، والفرق بينه وبين الترجي ، أنه يدخل المستحيلات والترجي لايكون إلا في الممكنات (١) ؛ ولكن البلاغيين يميزون بين نوعين في التمني :

الأول : توقع الأمر المحبوب الذي لايرجى حصوله لكونه مستحيلا ، كقوله تعالى : «ياليتني كُنْتُ معهم فأفوزَ فوزاً عظيماً» (٢) ؛

وقول الشاعر :

ألا ليت الشبابَ يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ

الثاني : توقع الامر المحبوب الذي لايرجى حصوله لكونه ممكناً غير مطموع في نيله ، كقوله تعالى : «ياليت لنا مِثْلَ ما أُوتي قارون» (٣) ؛

والاداة الموضوعة للتمني «ليت» وقد تستعمل ثلاثة أحرف للدلالة عليه :

أحدها : هل ، كقوله تعالى : «فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا» (٤) ؛

والثاني : لو ، سواء كانت مع «ودّ» كقوله تعالى «ودّوا لو تُدْهِنُ فَيُدْهِنون» (٥) أو لم تكن كقوله تعالى : «لو أن لي بكم قوة» (٦) ، وقوله : «لو أنّ لنا كرّةً فنتبرأَ منهم» (٧) ؛

---

(١) البرهان في علوم القرآن ج٢ص٣٢٣ .
(٢) النساء ٧٣ .
(٣) القصص ٧٩ .
(٤) الاعراف ٥٣ .
(٥) سورة ن ٩ .
(٦) هود ٨٠ .
(٧) البقرة ١٦٧ .

الثالث: لعلّ ، كقوله تعالى: «لعلّي أبلغُ الأسبابَ أسبابَ السماوات فأطّلع إلى إله موسى» (١) .

ومنه قول الشاعر

أسِرْبَ القطا هل من يُعير جناحه لعلّي الى من قد هَويتُ أطيرُ (٢)

النداء :

النداء التصويت بالمنادي ليقبل،أو هو طلب اقبال المدعو على للداعي ، وله أدوات هي :

١ ــ **الهمزة:** وتكون لنداء القريب، كقول امرىء القيس:

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلـــل وان كنت قد أزمعت صرمي فاجملي

٢ ــ آ ــ حرف لنداء البعيد، وهو مسموع لم يذكره سيبويه ،وذكره غيره (٣) .

٣ ــ **أيا:** وتكون لنداء البعيد ،وقيل: لنداء القريب والبعيد، كقول الشاعر:

أيا جبلي نعمانَ بالله خلّيـــــا نسيم الصَّبا يخلصْ إليّ نسيمُها

٤ ــ **أي:** لنداء البعيد.

٥ ــ آي: لنداء البعيد.

٦ ــ **هيا:** لنداء البعيد .

٧ ــ **وا:** لنداء البعيد، وهي في الأصل حرف نداء مختص بباب الندبة نحو «وامحمداه» وأجاز بعضهم استعماله في النداء الحقيقي(٤) .

٨ ــ **يا:** لنداء البعيد، وقد ينادى به القريب توكيداً، وقيل: هي مشتركة بين القريب والبعيد ، وهي أكثر أحرف النداء استعمالا ، كقوله تعالى : « ياآدمُ اسكُنْ

---

(١) غافر ٣٦-٣٧.

(٢) ينظر التمني في مفتاح العلوم ص٢٤٧ ، والايضاح ص١٣١ ، وشروح التلخيص ج٢ ص٢٣٨ ، والطراز ج٣ ص٢٩١ ، والبرهان في علوم القرآن ج٢ ص٣٢١.

(٣) مغني اللبيب ج١ ص٢٠.

(٤) مغني اللبيب ج٢ ص٣٦.

أنت وزَوْجُكَ الجنّة» (١) وقد تحذف كما في قوله تعالى: «يُوسُفُ أعرِضْ عن هذا» (٢).

ومنه قول ابن زيدون:

ياساريَ البرق غادِ القصر واسْقِ به   من كان صِرفَ الهوى والود يسقينا
ويانسيم الصَّبا بلِّغْ تحيتنـــــا   من لو على البُعْد حيّاً كان يُحيينا

وقد اشار سيبويه إلى استعمال حروف النداء للقريب مرة وللبعيد تارة اخرى، وقال: «فأما الاسم غير المندوب فينبّه بخمسة اشياء: بـ«يا»و«أيا»و«هيا»و«أي» وبالالف نحو قولك: «أحار بن عمرو» إلاّ ان الاربعة غير الالف قديستعملونها اذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم أو الانسان المعرض عنهم الذي يرونه أنه لايقبل عليهم إلاّ باجتهاد، أو النائم المستقل. وقد يستعملون هذه التي للمدّ في موضع الالف ولا يستعملون الالف في هذه المواضع التي يمدون فيها. وقد يجوز لك ان تستعمل هذه وان شئت حذفتهن كلهن استغناء»(٣).

وقد يخرج النداء إلى اغراض مختلفة منها:

١ – **الاغراء والتحذير**: وقد اجتمعا في قوله تعالى: «ناقةَ اللهِ وسقياها»(٤) وقول المتنبي:

ياأعدَلَ الناس إلاّ في معـــاملتي   فيكَ الخصامُ وأنت الخصمُ والحَكَمُ

٢ – **الاستغاثة**: مثل: «ياناصرَ الدين».

٣ – **الندبة**: كقول المتنبي:

واحرَّ قلباه ممن قلبـه شَبِــمُ   ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

٤ – **التعجب**: كقوله تعالى: «ياحَسْرَةً على العباد»(٥)، لان الحسرة لاتنادى

(١) البقرة ٣٥.
(٢) يوسف ٢٩.
(٣) كتاب سيبويه ج١ ص٣٢٥.
(٤) الشمس ١٣.
(٥) يس ٣٠.

وانما تنادي الأشخاص لأن فائدته التنبيه ولكن المعنى على التعجب كقوله : «ياعجبا لِمَ فعلت؟»(١) .

٥ - **الاختصاص**: مثل: «عليَّ أيها الرجلُ يُعتمد» ، و« اغفر اللهم لنا أيتُها العصابة» ، أي: مخصصاً به دون الرجال، واغفر لنا مخصوصين من بين العصائب.

٦ - **التنبيه** : كقوله تعالى: «ياليتني متُّ قبل هذا »(٢)، لان حرف النداء يختص بالأسماء.

٧ - **التحسر** : كقول ابن الرومي :

ياشبابي وأين مني شبابي	آذنتني حباله بانقضابِ
لَهْفَ نفسي على نعيمي ولهوي	تحت أفنانه اللدان الرطابِ

وقول الآخر:

أيا قبرُ معنٍ كيف واريتَ جودَه	وقد كان منه البرُّ والبحرُ مُتْرعا

هذه أساليب الخبر والانشاء المختلفة ، وقد اتضح ان لكل اسلوب دلالته، وهي غير الإعراب وحركاته، بل ماوراء ذلك من المعاني التي تحملها الجمل والعبارات: واذا كان لكل من الخبر والانشاء دلالته فان احدهما قد يقع موقع الآخر لاغراض بلاغية (٣): والعمدة في ذلك الذوق المهذب والاطلاع الواسع وقرائن الاحوال.

وأساليب الخبر والانشاء مدى رحب يجول فيه الادباء ويتصرف فيه الشعراء وقد أخذ بها القدماء فأحسنوا وأضافوا ، وهي من وسائل التعبير وطرقه المتشعبة، ويقدر الاديب على أن يتوسع فيها وأن يأتي بما لم يسبق اليه اذا أحسن استخدامها وكان له ذوق رفيع .

(١) البرهان في علوم القرآن ج٢ص٣٥٣.

(٢) مريم ٢٣.

(٣) ينظر مفتاح العلوم ص١٥٤ ، والايضاح ص١٤٦ ، وشروح التلخيص ج٢ ص ٣٣٨ والبرهان في علوم القرآن ج٣ص ٣٤٧، ٣٥٠، والطراز ج٣ص٢٩٣.

الفصل الرابع

أحوال الجملة

المبحث الاول

التقديم والتأخير

الجملة كلمات تأتلف لتدل على معنى ، أو هي — كما يقول النحاة — : «اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها»(١). ولاتكون الجملة تامة إلاّ إذا استوفت ركنين هما: المسند اليه والمسند ، واذا ماحذف منها أحد هذين الركنين فان النحاة يلجأون إلى التقدير ليستقيم الكلام.

واستعمل القدماء هذين المصطلحين فقال سيبويه : «هذا باب المسند والمسند اليه وهما مالايستغني واحد منها عن الآخر ولايجد المتكلم منه بُدّاً . فمن ذلك الأسم المبتدأ والمبني عليه وهو قولك : «عبدالله اخوك» و«هذا أخوك» ومثل ذلك قولك : «يذهب زيد» . فلابد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الاول بدّ من الآخر في الابتداء. ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك «كان عبدالله منطلقا» و«ليت زيداً منطلق» لان هذا يحتاج إلى مابعده كاحتياج المبتدأ إلى مابعده »(٢).

ولم يأخذ النحاة بهذين المصطلحين بعد سيبويه وان ادارهما في كتبهم ، وانما استعملوا مايقابلهما من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل وغيرها ، ولكن علماء البلاغة اخذوهما وبنوا عليهما دراستهم في علم المعاني ، فانحصرت في المسند والمسنداليه ومايتبعهما من ذكر وحذف ، وتقديم وتأخير ، وقصر ، ولايتجاوز ذلك الا حينما يتحدثون عن الفصل والوصل ، والمساواة والايجاز والاطناب ، وهو تجاوز لايبعد عن الجملتين في أكثر الاحيان . وكان اكثر البلاغيين تمسكا بهذا المنهج رجال المدرسة الكلامية كالسكاكي والقزويني وشرّاح التلخيص ، أما عبدالقاهر الجرجاني وضياء الدين بن الأثير وغيرهما من أعلام المدرسة الأدبية فلم يتجهوا هذا الاتجاه ولم ينحوا هذا المنحى ، وانما كانوا يحكّمون الذوق ويتحسسون مواطن الجمال

(١) شرح ابن عقيل ج١ص١٤.

(٢) كتاب سيبويه ج١ص٧.

في الكلام. ونتج عن ذلك أن مزقت البلاغة شرّ ممزق فكان الحذف في عدة مواضع ، والذكر في ابواب متفرقة، لانهما درسا في المسند اليه مرة وفي المسند تارة وفي متعلقات الفعل تارة ثالثة . ومثل هذا يقال في الموضوعات التي بحثها عبد القاهر وابن الاثير في فصول موحّدة جمعت الروعة والنفع وإنارة السبيل وتهذيب الذوق وتنمية الملكة الادبية .

وتتصل بأحوال الجملة موضوعات كثيرة، غير ان الاقتصار على أهمها وعلى ماله علاقة بالاساليب المتنوعة أقرب إلى الدراسات البلاغية، ولذلك سيكون الوقوف على التقديم والتأخير، والفصل والوصل، والقصر.

التقديم والتأخير باب تتبارى فيه الاساليب وتظهر المواهب والقدرات ،وهو دلالة على التمكن في الفصاحة وحسن التصرف في الكلام ووضعه الوضع الذي يقتضيه المعنى. يقول الزركشي: «هو أحد أساليب البلاغة، فانهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق»(١).

واختلفوا في عدّه من المجاز، فمنهم من عدّه منه لان تقديم مارتبته التأخير كالمفعول وتأخير مارتبته التقديم كالفاعل، نقل كل واحد منهما عن رتبته وحقه. وقال الزركشي: «والصحيح انه ليس منه ، فإن المجاز نقل ما وضع له إلى مالم يوضع»(٢) . والمعاني لها في التقديم خمسة أحوال:

الاولى : تقدم العلة على معلولها عند القائلين بها كتقدم الكون على الكائنة والعلم على العالمية.

الثانية: التقدم بالذات، كتقدم الواحد على الاثنين ، على معنى ان الوحدة لايمكن تحقق الاثنينية إلا بعد سبقها ؛

---

(١) البرهان في علوم القرآن ج٣ص٢٣٣ .

(٢) البرهان ج٣ص٢٣٣، وينظر الفوائد ص٨٢ .

الثالثة: التقدم بالشرف كتقدم الأنبياء على الاتباع والعلماء على الجهال؛
الرابعة: التقدم بالمكان كتقدم الامام على المأموم وتقدم من يقرب إلى الحائط دون من تأخر عنه.

الخامسة: التقدم بالزمان كتقدم الشيخ على الشباب والاب على الابن (١). وهذه المعاني ثابتة معروفة عقلاً ولذلك لايقع فيها تفاوت أو تفنن في التعبير:

وتقديم الشيء على وجهين:

الاول: تقديم على نية التأخير، وذلك في كل شيء اقر مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ اذا قدم على المبتدأ، والمفعول اذا قدّم على الفاعل: والتقديم لايخرج الخبر أوالمفعول عما كانا عليه قبل التقديم.

الثاني: تقديم لاعلى نيّة التأخير، ولكن على ان ينقل الشيء عن حكم إلى حكم ويجعل بابا غير بابه واعرابا غير اعرابه، وذلك أن يعمد إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له فيقدم تارة على ذاك واخرى ذاك على هذا: ومثاله: «زيد المنطلق» و«المنطلق زيد» فالتقديم والتأخير يؤثران في معنى الجملة، لأن مايقدم هو المبتدأ أو المسند اليه ومايؤخر هو الخبر أوالمسند، وكذلك «ضربت محمداً» و«محمد ضربته» فـ«محمد» في الجملة الاولى مفعول به، وفي الثانية «مبتدأ». وهذا يختلف عن النوع الاول الذي لايتغير فيه حكم المتقدم أو المتأخر، ففي «منطلق زيد» و«زيد منطلق» ظل «زيد» مسنداً اليه و«منطلق» مسنداً، وفي «ضرب زيد عمراً» و«ضرب عمراً زيد» بقي «زيد» مسنداً اليه – فاعلا – و«عمرو» مفعولا به (٢).

وباب التقديم والتأخير واسع لانه يشمل كثيراً من أجزاء الكلام، فالمسنداليه يقدم لاغراض بلاغية منها:

---

(١) الطراز ج٢ص٥٦.
(٢) ينظر تفصيل ذلك في دلائل الاعجاز ص٨٣ ومابعدها.

١ ـ انه الاصل ولامقتضى للعدول عنه كتقديم الفاعل على المفعول ،والمبتدأعلى الخبر، وصاحب الحال عليها.

٢ ـ أن يتمكن الخبر في ذهن السامع لان في المبتدأ تشويقا اليه، كقول المعري :

والذي حـارت البـريـّة فـيـه   حَيَوانٌ مستحدَثٌ مـن جـماد

٣ ـ أن يقصد تعجيل المسرّة ان كان في ذكر المسند اليه تفاؤل: «مثل سعدفي دارك» أو المساءة ان كان فيه مايتطيربه مثل: «السفاح في دار صديقك».

٤ ـ ايهام أن المسند اليه لايزول عن الخاطر مثل: «الله ربي».

٥ ـ ايهام التلذذ بذكره ،كقول الشاعر:

بالله ياظبيات القاع قُلْنَ لـنـا   ليلايَ منكنّ أم ليلى من البَشَرِ؟

٦ ـ تخصيص المسند اليه بالخبر الفعلي إن ولي حرف النفي مثل: «ماأنا قلت هذا» وقول المتنبي:

وما أنا أسقـمـت جسـمي بـه   ولا أنا أضرمت في القلب نارا

٧ ـ تقوية الحكم وتقريره: كقوله تعالى: «والذين هم بربهم لايُشرِكون»(١) ومما يدخل في هذا الحكم تقديم «مثل»و«غير» ، وقد قال عبد القاهر: «مما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم «مثل» و«غير» في نحو قوله :

مِثلُكَ يُثْني المُزْنَ عَنْ صَوْبِه   ويستردّ الدمـعَ عـن غَـرْبِـه

وكذلك حكم «غير» اذا سلك به هذا المسلك» (٢) ، ومنه قول المتنبي :

غيري باكثر هذا النـاس يـنـخـدع   إن قاتلوا جبنوا أو حدّثوا شجعوا

وقال القزويني: «واستعمال«مثل»و«غير» هكذامركوزفي الطباع ،واذا تصفحت الكلام وجدتهما يقدّمان أبداً على الفعل اذا نحي بهما نحو ماذكرناه ولا يستقيم المعنى فيهما اذا لم يقدّما ،والسرّ في ذلك أن تقديمهما يفيد تقوّي الحكم»(٣).

---

(١) المؤمنون ٥٩.
(٢) دلائل الاعجز ص١٠٦ .
(٣) الايضاح ص٦٤.

٨ – افادة العموم: مثل: «كل انسان لم يقم» فيقدم ليفيد نفي القيام عن كل واحد من الناس (١).

ويقدّم المسند لاغراض منها:

١ – تخصيص المسند بالمسند اليه: كقوله تعالى: «ولله مُلْكُ السماوات والارض»(٢) وقوله: «لكم دينُكم وليَ دينِ» (٣).

٢ – التنبيه من أول الامر على أنه خبر لانعت، كقول حسان بن ثابت يمدح النبي – صلى الله عليه وسلم –:

له هِمَمٌ لامنتهى لِكِبارها وهِمَّتُه الصغرى أجلُّ من الدَّهْرِ
له راحةٌ لوأنّ مِعْشار جودها على البر كان البرُّ أندى من البحرِ

٣ – التفاؤل بتقديم مايسر، مثل: «عليه من الرحمن مايستحقه».

٤ – التشويق إلى ذكر المسند اليه، كقول محمد بن وهيب:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمسُ الضّحى وأبو اسحاق والقمرُ

وقول المعري:

وكالنار الحياةُ فمن رماد أواخرها، وأولُها دخانُ (٤)

ومن التقديم: تقديم متعلقات الفعل عليه كالمفعول والجار والمجرور والحال ويكون ذلك لاغراض منها:

١ – **الاختصاص**: كقوله تعالى: «إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَستعين»(٥).

٢ – **الاهتمام بالمتقدم**: كقوله تعالى: «قل أغيرَ الله أبغي رباً وهو ربُّ كلّ شيء»(٦).

٣ – **التبرك**: مثل: «قرآناً قرأت».

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص٩٣، والايضاح ص٥٢، وشروح التلخيص ج١ص٣٨٩.
(٢) آل عمران ١٨٩.
(٣) الكافرون ٦.
(٤) مفتاح العلوم ص١٠٥، والايضاح ص١٠١، وشروح التلخيص ج٢ص١٠٩.
(٥) الفاتحة ٥.
(٦) الانعام ١٦٤.

٤ – ضرورة الشعر ، وهو كثير لايحصره حدٌّ.

٥ – رعاية الفاصلة: كقوله تعالى: «فأما اليتيمَ فلاتقهرْ.وأما السائلَ فلا تنهرْ»(١):

وهذه الاغراض كثيرة ، وقد ذكر الزمخشري أن تقديم هذه الانواع للاختصاص غيران ابن الاثير يرجع ذلك إلى وجهين :

الأول : الاختصاص ، كقوله تعالى: «قل أفغيرَ الله تأمروني أعبُدُ أيُّها الجاهلون ولقد أُوحيَ اليكَ وإلى الذين من قَبْلِكَ لئن أشركْتَ لَيَحْبَطَنَّ عمَلُكَ ولتكونَنَّ من الخاسرين، بَلِ اللهَ فاعْبُدْ وكُنْ من الشاكرين»(٢):

فانه انما قيل «بل الله فاعبد »ولم يقل «بل اعبد الله» لانه اذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره ، ولو قال «بل أعبد» لجاز ايقاع الفعل على أي مفعول شاء :

الثاني : يختص بنظم الكلام ، كقوله تعالى: «إياكَ نَعْبُدُ وإياكَ نستعين».وقد ذكر الزمخشري في تفسيره ان التقديم في هذا الموضع قصد به الاختصاص وليس كذلك فانه لم يقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص ، وانما قدّم لمكان نظم الكلام ، لانه لو قال : نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن مالقوله : «إيَّاكَ نَعْبُدُ وإياكَ نستعين»؛ ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى : «الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، الرحمن الرحيم .مالكِ يوم الدين» (٣) فجاء بعد ذلك قوله: «إياكَ نعبد وإياك نستعين »وذلك لمراعاة النظام السجعي الذي هو على حرف النون، ولو قال «نعبدك ونستعينك» لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن، وهذا غير خافٍ على أحد من الناس فضلاً عن أرباب علم البيان »(٤).

وهناك انواع كثيرة من التقديم لاترجع إلى المسند اليه والمسند ولا إلى متعلقات الفعل عليه وانما ترجع إلى امور كثيرة ، بحثها الزركشي (٥) في انواع التقديم

---

(١) الضحى ٩ – ١٠

(٢) الزمر ٦٤ – ٦٦.

(٣) الفاتحة ٢ – ٤ .

(٤) المثل السائر ج٢ص٣٩ ،وينظر الطراز ج٢ص٦٦.

(٥) البرهان في علوم القرآن ج٣ص٢٣٨.

والتأخير ، وقسمها إلى ماقدم والمعنى عليه ، وماقدم والنية به التأخير والقسم الاول واسع فسيح ومقتضياته كثيرة ذكر منها خمسة وعشرين لونا ، واهمها:

١. **السبق**: كقوله تعالى: «ومن نوحٍ وابراهيمَ وموسى وعيس»(١)

٢. **الذات**: كقوله تعالى: «مايكون من نجوى ثلاثةٍ إلاّ هو رابعهُم ، ولا خمسة إلاّ هو سادسُهم»(٢) :

٣. **العلة والسببية**: كقوله تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين» (٣)،لان العبادة سبب حصول الاعانة.

٤. **المرتبة**: كقوله تعالى: «غفورٌ رحيم» (٤)، لان المغفرة سلامة والرحمة غنيمة ، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة.

٥. **التعظيم**: كقوله تعالى: «ومن يُطعِ اللهَ والرسولَ»(٥)

٦. **الغلبة والكثرة**: كقوله تعال: «فمنهم ظالمٌ لنفسه ،ومنهم مُقتَصِدٌ، ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذْنِ الله »(٦) .

٧. **الاهتمام عند المخاطب**: كقوله تعالى: «فحيّوا بأحسَنَ منها أورُدّوها»(٧)

٨. **مراعاة الافراد**: كقوله تعالى: «المال والبنون»(٨) ،فإن المفرد سابق على الجمع.

٩. **قصد الترتيب**

١٠. **خفة اللفظ**

١١. **رعاية الفاصلة**: كقوله تعالى: «خُذُوه فغُلُّوه ، ثم الجحيم صلّوه» (٩) وهذه الانواع التي ذكرها الزركشي لم يتطرق لها البلاغيون الا من خلال الجملة ،

(١) الاحزاب ٧ .
(٢) المجادلة ٧ .
(٣) الفاتحة ٥ .
(٤) البقرة ١٧٣، وآيات كثيرة.
(٥) النساء ٦٩.
(٦) فاطر ٣٢ .
(٧) النساء ٨٦ .
(٨) الكهف ٤٦ .
(٩) الحاقة ٣٠ - ٣١ .

ولذلك كانت دراستهم لها قاصرة ، اما الذين عنوا بإسلوب القرآن الكريم فقد تجاوزوا هذه المرحلة ونظروا إلى التقديم والتأخير نظرة أوسع واكثر عمقا فجاءت مادتهم اغزر ودراساتهم أخصب، ولايكاد يستثنى من ذلك إلاّ عبد القاهر الذي أبدع في تحليل الاساليب البلاغية ، ونقل النحو من الإعراب والبناء إلى المعاني التي تحتملها العبارات، وكانت نظريته في «النظم» من أحسن ماعرف النقد القديم.

ومن أمثلة تحليله للتقديم والتأخير قوله في النكرة اذا قدمت على الفعل أو قدّم الفعل عليها: «اذا قلت: أجاءك رجل؟ فانت تريد أن تسأله: هل كان مجيء من أحد من الرجال اليه. فإن قدّمت الاسم فقلت: «أرجل جاءك؟» فأنت تسأله عن جنس ماجاءه أرجل هو أم أمرأة؟ ويكون هذا منك اذا كنت علمت انه قد أتاه آت ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتي فسبيلك في ذلك سبيلك اذا أردت أن تعرف عين الآتي فقلت: «أزيد جاءك ام عمرو؟» ولايجوز تقديم الاسم في المسألة الاولى، لان تقديم الاسم يكون اذا كان المسؤول عن الفاعل والسؤال عن الفاعل يكون اما عن عينه او عن جنسه ولاثالث. واذا كان كذلك كان محالا أن تقدم الاسم النكرة وأنت لاتريد السؤال عن الجنس لانه يكون لسؤالك حينئذ متعلق من حيث لايبقى بعد الجنس الاّ العين والنكرة لاتدل على عين شيء فيسأل بها عنه . فان قلت: «أرجل طويل جاءك أم قصير؟» كان السؤال عن أن الجائي من جنس طوال الرجال أم قصارهم؟ فان وصفت النكرة بالجملة فقلت: أرجل كنت عرفته من قبل أعطاك هذا أم رجل لم تعرفه؟ كان السؤال المعطي أكان ممن عرفه قبل أم كان انسانا لم تتقدم منه معرفة.

واذا قد عرفت الحكم في الابتداء بالنكرة في الاستفهام فابن الخبر عليه ، فاذا قلت: «رجل جاءني» لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذي جاءك رجل لاامرأة، ويكون كلامك مع من قد عرف أن قد أتاك آت ، فان لم ترد ذاك كان الواجب أن تقول: «جاءني رجل» فتقدم الفعل»(1) .

(1) دلائل الاعجاز ص ١٠٩ - ١١٠ .

وهذه قيمة التقديم والتأخير في اللغة العربية ، وليس من العبث أن يشغل البلاغيون – وعلى رأسهم عبد القاهر – أنفسهم بهذه المسألة أو غيرها من المسائل الاخرى المتصلة بالاساليب لولا أن لكل تعبير معناه ،ولكل وضع هدفه ومغزاه وفي ذلك اتساع في القول وقدرة على التعبير .

المبحث الثاني
الفصل والوصل

ذهب كثير من البلاغيين إلى أن أسلوب الفصل والوصل فن عظيم، صعب المسلك، دقيق المأخذ، لايحيط بأسراره إلا من أوتي فهم كلام العرب طبعاً سليماً ورزق في ادراك أسراره ذوقاً صحيحاً. ولذلك قصر بعضهم البلاغة على معرفته، ولكن بعضهم، كالقزويني قال: «وماقصرها عليه لان الامر كذلك، وانماحاول بذلك التنبيه على مزيد غموضه وان أحداً لايمكن فيه إلا كمل في سائر فنونها، فوجب الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه في البيان» (١).

والوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه، ولذلك نرى أن يبحث هذا الموضوع بعد بحث الجملة لارتباطه بها ولانه يخص الجمل ومعانيها حينما تفصل أو تربط لامشاركة الثاني للاول في الاعراب وحده. قال العلوي: «ولسنا نريد بتلك الاسرار واللطائف مايكون متعلقا بعلوم الاعراب من كون الاحرف العاطفة تلحق المعطوف في الاعراب ... بل نريد أمراً أخص من ذلك وأغوص على تحصيل الاسرار الغريبة واللطائف العجيبة» (٢).

تكلم الجاحظ (٣) وغيره من أوائل النقاد على الفصل والوصل، ووقف عنده أبو هلال العسكري وقفة طويلة وذكر اقوالا كثيرة تدل على أهمية هذا الموضوع من ذلك أن المأمون قال لبعضهم: «مَنْ أبلغُ الناس؟ فقال: من قرّب الامر البعيد المتناول والصعب الدرك بالالفاظ اليسيرة. قال: ماعدل سهمك عن الغرض، ولكن البليغ من كان كلامه في مقدار حاجته، ولايجيل الفكرة في اختلاس ماصعب عليه من الالفاظ ولايكره المعاني على انزالها في غير منازلها، ولايتعمد

(١) الايضاح ص١٤٧.

(٢) الطراز ج٢ ص٣٣.

(٣) ينظر البيان والتبيين ج١ ص٨٨.

الغريب الوحشي ولا الساقط السوقي، فإنّ البلاغة اذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلي بلا نظام (١).

وبحث ابو هلال في هذا الفصل، ماينصل بفصول القصيدة ومقاطعها ،وهم يعنون بالفصول والمقاطع اواخر الابيات التي تقابل مطالعها وابتداءها ،وتطرق إلى فواصل كتاب الله.وقال ان من حسن المقطع جودة الفاصلة وحسن موقعها وتمكنها في موضعها وذلك على ثلاثة أضرب :

الأول : أن يضيق على الشاعر موضع القافية فيأتي بلفظ قليل الحروف فيتمم به البيت كقول زهير :

وأعلم ما في اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ماني غد عَمِي

وقول النابغة الذبياني :

كالاقحوان غداةَ غِبِّ سمائه جفّت أعاليه وأسفله نَـدي (٢)

وقوله :

لا مرحباً بغد ولا أهلاً بــه إن كان تفريق الاحبة في غد

أَزِفَ الترحل غير أنّ ركابنا لما تزلْ برحالنا وكأن قَـدِ

الثاني : أن يضيق به المكان أيضاً ويعجز عن ايراد كلمة سالمة تحتاج إلى إعراب ليتم بها البيت، فيأتي بكلمة معتلة لاتحتاج إلى الاعراب فيتممه به، مثل قول زهير :

صحا القلب عن سلمى وقدكاد لايسلو وأقفر من سلمى التعانيق فالثقلُ (٣)

ثم قال :

وقد كنت منسلمى سنينا ثمانياً على صِيَرٍ أمر ما يمرّ وما يحلو(٤)

الثالث: أن تكون الفاصلة لائقة بما تقدمها من الفاظ الجزء من الرسالة أو البيت من الشعر وتكون مستقرة في قرارها ومتمكنة في موضعها حتى لا يسد مسدها غيرها وان لم تكن قصيرة قليلة الحروف كقوله تعالى: «وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا، وأنه خلق الزوجين الذكَرَ والأنثى» (٥) وقوله : «وللآخرةُ

(١) كتاب الصناعتين ص٤٣٨.
(٢) غب سمائه : المطر .
(٣) التعانيق والثقل : واديان .
(٤) صير أمر: منتهاه .
(٥) النجم ٤٣ — ٤٥ .

خيرٌ لك من الاولى، ولسوف يُعطيك ربك فترضى» (١) و «أبكى» مع «اضحك» و «أحيا» مع «أمات» و «الانثى» مع «الذكر» و «الاولى» مع «الاخرة» و «الرضا» مع «العطية» في نهاية الجودة وغاية حسن الموقع .

ومن الشعر قول الحطيئة :

همُ القوم الذين اذا ألمَّت من الايام مظلمة أضــــــاءوا

وقول أبي نؤاس :

اذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدوٍّ في ثياب صـديـق

و«الصديق» هنا جيد الموقع ، لان معنى البيت يقتضيه ، وهو محتاج اليه

ودراسة أبي هلال وغيره من البلاغيين والنقاد لهذا الموضوع تختلف عن دراسة البلاغيين المتأخرين، ولذلك لانجد في دراساتهم ما تطرق اليه أبوهلال. ولعل عبد القاهر الجرجاني كان من أوائل الذين بحثوه بحثاً مفصلاً يقوم على التقسيم والتحديد والتعليل والتحليل وربطه بباب العطف عندما ربط البلاغة بمعاني النحو وجعل النظم توخياً له .

وقد أجمل مواضع الفصل والوصل بقوله : «إنّ الجمل على ثلاثة أضرب :

١. جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف فيها ـ لو عطفت ـ بعطف الشيء على نفسه .

٢. وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله الا انه يشاركه في حكم ويدخل معه في معنى مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا أو مضافا اليه فيكون حقها العطف .

٣ جملة ليست في شيء من الحالين ، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه في شيء فلا يكون أياه ولا مشاركا له في معنى بل هو شيء إن ذكر لم يذكر الا بأمر ينفرد به ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله لعدم التعلق بينه وبينه رأسا ، وحق هذا ترك العطف البتة »

(١) الضحى ٤ ـ ٥

فترك العطف يكون اما للاتصال الى الغاية ، أو الانفصال الى الغاية ، والعطف لما هو واسطة بين الامرين ، وكان له حال بين حالين ، فاعرفه (١) . وعلى هذا الاساس وضع عبد القاهر اصول بحث الفصل والوصل ، وقوانينه ، وذكر الامثلة الكثيرة . وجاء علماء البلاغة فاختصروا بحوثه وبوبوها ، وكان تحديدهم أدق ضبطاً ، وقواعدهم اكثر تقييداً . وكان السكاكي من اشهر الذين اتبعوه ولكنه لم يوضح الموضوع ولم يبحثه بحثاً جيداً ، وانصرف الى الكلام على الجامع وانواعه، واستفاد الخطيب القزويني من الرجلين فكان بحثه للفصل والوصل يجمع بين تحديد القاعدة والشرح والتعليل ، أي بين طريقي عبد القاهر والسكاكي . ثم جاء شراح التلخيص فأولوا هذا الموضوع عناية كبيرة وانتهى الى صورته الاخيرة التي نجدها في كتب البلاغة .

مواضـــع الفصـــل:

يجب الفصل في خمسة مواضع :

الاول: أن يكون بين الجملتين اتحاد تام وهو «كمال الاتصال»، وذلك:

١. أن تكون الجملة الثانية توكيداً للأولى ، والمقتضي للتأكيد دفع توهم التجوز والغلط ،وهو قسمان :

أحدهما : أن تنزل الثانية من الاولى منزلة التأكيد المعنوي من متبوعه في افادة التقرير مع الاختلاف في المعنى ، كقوله تعالى : «ألم. ذلك الكتابُ لاريبَ فيه»(٢)، فإن وزانَ «لاريب فيه» وزان نفسه في «جاءني محمد نفسه» .

وقوله : « كأنْ لم يَسْمَعْها، كأنَّ في أذنيه وَقْراً »(٣)، فالثاني مقرر لما أفاده الأول .

---

(١) دلائل الاعجاز ص١٨٧ .

(٢) البقرة ١ - ٢ .

(٣) لقمان ٧. الوقر: الثقل في الاذن .

وثانيهما: أن تنزل الثانية من الاولى منزلة التأكيد اللفظي من متبوعه في اتحاد المعنى ، كقوله تعالى: «ذلك الكتاب لاريبَ فيه هُدًى للمتقين» (١) فأن «هدى للمتقين» معناه: أنه في الهداية بالغ درجة لايدرك كنهها حتى كأنه هداية محضة.

ومن أمثلة كون الجملة الثانية توكيداً للاولى قول المتنبي :

وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدّهر منشداً

فالجملة: «إذا قلت ... توكيد للاولى، لأن معنى الجملتين واحد،ومنه قول الشاعر:

يهوى الثناءَ مبرِّزٌ ومقصــــر حب الثناء طبيعةُ الإنســـان

فالجملة «حب الثناء ...» توكيد للاولى، لأن معنى الجملتين واحد.

٢. أن تكون الجملة الثانية بدلا من الاولى، والمقتضي للابدال كون الاولى غير وافية بتمام المراد بخلاف الثانية والمقام يقتضي اعتناءً بشأنه لنكتة ككونه مطلوباً في نفسه أو فضيعا أو عجيبا أو لطيفا ، وهو ضربان، احدهما : أن تنزل الثانية من الأولى منزلة بدل البعض (٢) من متبوعه ، كقوله تعالى « أمدّكم بما تعلمون ، أمدّكم بانعام وبنينَ ، وجنات وعيون » (٣) فإنه مسوق للتنبيه على نعم الله تعالى عند المخاطبين ، وقوله : « أمدّكم بانعام وبنين وجنات وعيون » أوفى بتأديته مما قبله لدلالته عليها بالتفصيل من غير احالة على علمهم مع كونهم معاندين ، والامداد بما ذكر من الانعام وغيرها بعض الإمداد بما يعلمون ، ويحتمل الاستئناف،

وثانيهما : ان تنزل الثانية من الأولى منزلة بدل الاشتمال (٤) من متبوعة كقوله تعالى « اتبعوا المرسلين : اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون » (٥)، فإن المراد به حمل المخاطبين على اتباع الرسل ، وقوله : « اتبعوا من لايسألكم اجرا وهم

(١) البقرة ٢.

(٢) بدل البعض: هو بدل الجزء من كل ماكان ذلك الجزء أو مساويا النصف أو أكثر منه . مثل : « جاء الطلاب ربعهم أونصفهم او ثلثاهم ».

(٣) الشعراء ١٣٢ - ١٣٤

(٤) بدل الاشتمال: هو بدل الشيء مما يشتمل عليه على شرط أن لايكون جزء منه :مثل «نفعني المعلم علمه» و«احببت خالدا شجاعته»

(٥) يس ٢٠ - ٢١

مهتدون ، أوفى بتأدية ذلك لان معناه : لاتخسرون معهم شيئا من دنياكم وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الاخرة .

ومنه قول الشاعر :

أقول له ارحَل،لاتُقيمَن ّ عندنا   والاّ فكن في السر والجهر مسلما

وقد فصل « لاتقيمن» عن « ارحل» لقصد البدل ، لان المقصود من كلامه هذا أكال اظهار الكراهة لاقامته بسبب خلاف سره العلن ، وقوله : « لاتقيمن عندنا» أوفى بتأدية هذا المقصود من قوله « ارحل» لدلالته عليه بالمطابقة مع التأكيد.

٣. أن تكون الثانية بيانا للاولى ، وذلك بان تنزل منها منزلة عطف البيان من متبوعه في أفادة الايضاح ، والمقتضي للتبيين ان يكون في الاولى نوع خفاء مع اقتضاء المقام ازالته ، كقوله تعالى :«فوسوَسَ اليه الشيطانُ» ، قال : يا آدم هل أدلّك على شَجَرَة الخُلْد ومُلْك لا يبلى ؟» (١)، فصل جملة «قال» عما قبلها لكونها تفسيرا له وتبيينا .

ومنه قول المعري :

الناسُ للناس من بدو ومن حَضَر   بعضٌ لبعض وإنْ لم يشعروا خَدَمُ

فالجملة الثانية « بعض لبعض .. » ايضاح للاولى « الناس للناس ... »وهي بيان لها .

الثاني : أن يكون بين الجملتين كال الانقطاع ، وذلك :

١: ان تختلف الجملتان خبراً وانشاءً لفظاً ومعنى ، كقول الشاعر :

وقال رائدهم : أرسوا نزاولها   فكلّ حتف امرىء يجري بمقدار

فالجملة الأولى : «أرسوا» انشاء لفظاً ومعنى ، و « نزاولها » خبر لفظاً ومعنى لان الغرض تعليل الأمر بالارساء بالمزاولة للحرب أي : « أرسو السفينة لنزاول الحرب» ، أو معنى لا لفظاً ، مثل : « مات فلان ، رحمه الله » ، فالجملة الأولى خبرية لفظا والثانية أنشائية معنى لالفظا ، لان لفظ الفعل خبر لا أمر .

---

(١) طه ١٢٠ .

٢. أن لايكون بين الجملتين جامع أو مناسبة بل تكون كل جملة مستقلة بنفسها مثل: «الليل رهيب . أقبل محمد» ولاصلة بين الجملتين ، ولذلك ترك العطف بينهما لكمال الانقطاع .

الثالث: أن تكون الجملة الثانية جوابا عن سؤال يفهم من الجملة الأولى فتنزل منزلته ويسمى هذا «شبه كمال الاتصال» أو: «الاستئناف» والاستئناف ثلاثة أضرب ، لان السؤال الذي تضمنته الجملة الأولى أما عن :

١. سبب الحكم فيها مطلقا ، كقول الشاعر :

قال لي : كيف أنت ؟ قلت عليل   سَهَرٌ دائمٌ ، وحُزْنٌ طويلُ

أي : مابالك عليلا ؟ او ماسبب علتك ؟

وقول الآخر :

وقد غرضْتُ من الدنيا فهل زمني   مُعْطٍ حياتي لغرٍّ بعدما غرضا (١)

جربْتُ دهري وأهليه فما تركت   لي التجارب في ود امرىء غرضا

أي : لم تقول هذا ويحك ؟ وما الذي اقتضاك أن تطوي عن الحياة إلى هذا الحد كشحك، أي تعرض عنها .

٢ ـ أو عن سبب خاص له كقوله تعالى : «وما أبرىء نفسي ، إنّ النفس لأمّارةٌ بالسوء» (٢). كأنه قيل : هل النفس أمّارة بالسوء ؟ فقيل : ان النفس لأمارة بالسوء .

٣ ـ أو عن غير هذين النوعين ، كقوله تعالى «قالوا : سلاماً ، قال : سلام» (٣) كأنه قيل : فماذا قال ابراهيم عليه السلام ؟ فقيل : قال سلام .

ومنه قول الشاعر :

زَعَمَ العواذِلُ أنني في غَمْرةٍ   صدقوا ، ولكن غمرتي لاتنجلي (٤)

(١) غرض: ضجر ومل. الغر: من لاتجربة له
(٢) يوسف ٥٣.
(٣) هود ٦٩.
(٤) الغمرة: الشدة

لما حكى عن العواذل انهم قالوا : هو في غمرة ، وكان ذلك مما يحرك السامع لأن يسأله فيقول : فما قولك في ذلك وما جوابك عنه ؟ أخرج الكلام مخرجه اذا كان ذلك قد قيل له وصار كأنه قال : أقول صدقوا أنا كما قالوا ولكن لامطمع لهم في فلاحي ، ولو قال : « زعم العواذل انني في غمرة وصدقوا » لكان يكون لم يصحح في نفسه انه مسؤول وان كلامه كلام مجيب (١).

ومنه قول الوليد بن يزيد :

عَرَفْتُ المنزلَ الخالي عَفَا من بعد أحوالِ
عفاه كل حنان عسوف الوبل هَطَّالِ (٢)

فانه لما قال : « عفا » وكان العفاء مما لايحصل للمنزل بنفسه كان مظنة أن يسأل عن الفاعل .

ومثله قول المتنبي :

وما عَفَتِ الرياحُ له مَحَلاً عفاه من حدا بهم وساقا

فانه لما نفى الفعل الموجود عن الرياح ، كان مظنة أن يسأل عن الفاعل.

وقد يحذف صدر الاستئناف لقيام قرينة ، كقوله تعالى : ﴿ويسبّح له فيها بالغدو والآصال. رجال لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْرِ الله﴾ (٣) فيمن قرأ«ويسبح» مَبْنياً للمفعول ــ للمجهول ــ كأنه قيل : من يسبحه ؟ فقيل رجال.

وقد يحذف الاستئناف كله ويقام ما يدل عليه مقامه ، كقول الشاعر :

زعمتم أنَّ اخوتكم قريش لهم إلْفٌ وليس لكم إلافُ (٤)

حذف الجواب الذي هو : كذبتم في زعمكم ، وأقام مقامه «لهم إلْف وليس لكم إلاف» مقامه لدلالته عليه. ويجوز أن يقدر قوله : «لهم إلف ...» جوابا لسؤال

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص١٨٢.
(٢) عفاه: محاه. حنان: مصوت ،والمقصود الرعد المصاحب المطر.
عسوف :شديد. الوبل: المطر الشديد.
(٣) النور ٣٦ - ٣٧.
(٤) الألف والايلاف : العهد.

اقتضاء الجواب المحذوف كأنه لما قال المتكلم : «كذبتم» قالوا : «لم كذبتنا ؟» فقال : «لهم إلْف وليس لكم إلاف» فيكون في البيت استئناف.

وقد يحذف ولا يقام شيء مقامه، كقوله تعالى : «نِعْمَ العبدُ» (١) أي : «أيوبُ» أو «هو»، لدلالة ما قبل الآية وما بعدها عليه (٢).

الرابع : أن يكون بين الجملتين «شبه كمال الانقطاع»، وذلك بأن تكون الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الاولى وينبغي هنا الفصل لان عطفها عليها موهم لعطفها على غيره، ويسمى هذا الفصل «قطعاً»، ومنه قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بهـا بَدَلاً، أراها في الضلال تهيمُ

لم يعطف «أراها» على «تظن» لئلا يتوهم السامع أنه معطوف على «أبغي» لقربه منه، مع انه ليس بمراد، ويحتمل الاستئناف.

الخامس : أن تكون الجملتان متوسطتين بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع مع قيام المانع من الوصل "كأن يكون للاولى حكم لم يقصد اعطاؤه للثانية" كقوله تعالى : «واذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون * اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بهم» (٣). فجملة «الله يستهزىء بهم» لا يصح عطفها على جملة «قالوا ...» لئلا يلزم من ذلك اختصاص استهزاء الله بهم بوقت خلوهم الى شياطينهم، والواقع ان استهزاء الله بهم غير مقيد بوقت من الاوقات. ولا يصح أن تعطف جملة «الله يستهزىء بهم» على جملة «انا معكم» لئلا يلزم أن تكون من مقول المنافقين مع انها من مقول الله تعالى.

مواضع الوصل :

يجب الوصل في ثلاثة مواضع :

الاول : أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع مع الايهام، وذلك بأن تكون احداهما خبرية والاخرى انشائية ولو فصلت لأوهم الفصل خلاف المقصود،

---
(١) ص ٤٤ .
(٢) تبدأ الآية ٤١ بقوله تعالى: «واذكر عبدنا أيوب ...».
(٣) البقرة ١٤ – ١٥.

ومنه قول البلغاء : «لا، وأيّدك الله»، ومثل : «لا، ولطف الله» و «لا، وحفظك الله» .

الثاني : أن تكون الجملتان متفقتين خبراً وانشاءً لفظاً ومعنى كقوله تعالى : «إنَّ الابرارَ لفي نعيم، وإنَّ الفجّارَ لفي جحيم» (١)، وقوله . «يُخرِجُ الحيَّ من الميت ويُخرِجُ الميتَ من الحي» (٢)،وقوله: «يُخادعون اللهَ وهو خادعهم»(٣)، وقوله . «وكُلوا واشربوا ولا تُسرِفوا»(٤)

أو أن تكونا متفقتين خبراً وانشاءً معنى لالفظا كقوله تعالى : « وإذْ أخذْنا ميثاقَ بني اسرائيل، لا تَعبُدون إلاّ اللهَ، وبالوالدين إحساناً، وذي القُربى واليتامى والمساكين، وقولوا للناس حُسْنَاً» (٥)، عطف قوله:«وقولوا»على قوله: «لا تعبدون» لانه بمعنى : لا تعبدوا.

الثالث: أن يكون للجملة الاولى محل من الاعراب وقصد اشراك الجملة الثانية لها في الحكم الاعرابي، وهذا كعطف المفرد على المفرد، لان الجملة لايكون لها محل من الاعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد؛ وينبغي هنا أن تكون مناسبة بين الجملتين كقوله تعالى : «يعلم مايلِجُ في الأرض وما يخرُجُ منها ، وما ينْزِل من السماء ، ومايَعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور» (٦) .

وقوله: «والله يقبضُ ويبسُطُ وإليه تُرْجَعون» (٧) ؛ ولذلك عيب على أبي تمام .

لا والذي هو عالم أن النوى صَبِرٌ، وأنَّ أبا الحسين كريم

---

(١) الانفطار ١٣ - ١٤ .
(٢) الروم ١٩.
(٣) النساء ١٤٢.
(٤) الاعراف ٣١ .
(٥) البقرة ٨٣ .
(٦) سبأ ٢ .
(٧) البقرة ٢٤٥ .

إذ لامناسبة بين كرم أبي الحسين — محمد بن الهيثم — ومرارة النوى، ولا تعلق لأحدهما بالآخر .

ومن إشراك الجملة الثانية بالأولى في الحكم الاعرابي قول المتنبي .

والسرُّ مني موضعٌ لاينالـه نديمٌ ولا يُفضي اليه شـرابُ

فجملة «لاينالـه نديم» صفة «لموضع» ولذلك جاز أن يعطف عليها جملة «ولا يفضي اليه شراب».

وذكر عبد القاهر الجرجاني لوناً من الوصل(١)، وهو أن يؤتى بالجملة فلا تعطف على مايليها ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان، مثال ذلك قول المتنبي .

تولّوا بغتةً فكأنّ بَيْنـاً تهيّبني ففـاجأني اغتيـالا

فكـان مسيرُ عيسِهم ذميلاً وسيرُ الدمع إثرَهُمُ انهمـالا

قوله . «فكان مسير عيسهم» معطوف على (تولوا بغتة) دون مايليه من قوله «ففاجأني» لأنا إن عطفناه على هذا الذي يليه أفسدنا المعنى من حيث أنه يدخل في معنى «كأنّ» وذلك يؤدي إلى أن لايكون «مسير عيسهم» حقيقة ويكون متوهماً كما كان تهيب البين كذلك، وهذا أصل كبير . والسبب في ذلك أن الجملة المتوسطة بين هذه المعطوفة أخيراً، والمعطوف عليها الاولى ترتبط في معناها بتلك الاولى كالذي ترى أن قوله «فكأن بَيْناً تهيبني» مرتبط بقوله «تولوا بغتة» وذلك أن الثانية مسبب والاولى سبب ، ألا ترى أن المعنى «تولوا بغتة فتوهمت أن بيناً تهيبني» ولا شك أن هذا التوهم كان بسبب أن كان التولي بغتة ، وإذا كان كذلك كانت مع الاولى كالشيء الواحد، وكانت منزلتها منها منزلة المفعول والظرف وسائر مايجيء بعد تمام الجملة من معمولات الفعل، مما لايمكن افراده على الجملة وان يعتد كلاماً على حدته:

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص ١٨٨ .

ثم قال : «وههنا شيء آخر دقيق، وهو أنك اذا نظرت إلى قوله : «فكان مسير عيسهم ذميلا» وجدته لم يعطف هو وحده على ماعطف عليه ولكن تجد العطف قد تناول جملة البيت مربوطاً آخره بأوله ، ألا ترى أن الغرض من هذا الكلام أن يجعل توليهم بغتة وعلى الوجه الذي توهم من أجله أن البين تهيبه مستدعياً بكاءه وموجباً أن ينهمل دمعه فلم يعنه أن يذكر ذملان العيس الا ليذكر هملان الدمع وان يوفق بينهما، وكذلك الحكم في الأول : فنحن وان كنا قلنا ان العطف على «تولوا بغتة» فانا لانعني أن العطف عليه وحده مقطوعاً عما بعده بل العطف عليه مضموماً اليه مابعده إلى آخره، وانما أردنا بقولنا : إن العطف عليه، ان نعلمك أنه الاصل والقاعدة وان نصرفك عن أن تطرحه وتجعل العطف على مايلي هذا الذي تعطفه فتزعم أن قوله «كان مسير عيسهم» معطوف على «فاجأني» فتقع في الخطأ كالذي أريناك، فأمر العطف إذن موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة وتعمد أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضاً على بعض ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك» (1).

اقتران الجملة الحالية بالواو

ويتصل بالفصل والوصل اقتران الجملة الحالية بالواو وعدم اقترانها بها ، وقد ألحقه البلاغيون بهذا المبحث، وعقد له عبد القاهر الجرجاني والرازي والسكاكي والقزويني فصولا (2) في كتبهم والحقوه بباب الفصل والوصل: ولكن دراسة عبدالقاهر كانت أعمق هذه الدراسات ولذلك فسيكون تلخيصها هنا شرحاً للموضوع وتبياناً له:

تجيء الحال تارة مع الواو وأخرى بغير الواو، وفي تمييز مايقتضي الواو مما لايقتضيه صعوبة والقول في ذلك :

(1) دلائل الاعجاز ص ١٨٩ .

(2) دلائل الاعجاز ص١٥٦ وينظر ونهاية الايجاز ص ١٣٧، ومفتاح العلوم ص ١٣١ والايضاح ص ١٦٥ .

١ – ان الجملة إذا كانت من مبتدأ وخبر فالغالب عليها أن تجيء مع الواو، مثل: «جاء محمد وعمرو أمامه». ومنه قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوالِ

مثال خلوها من الواو قولهم «كلمته فوه إلى فيّ» و «رجع عَوْدُه على بدئه».

٢ – ان كان المبتدأ من الجملة ضمير ذي الحال لم يصلح بغير الواو، مثل: «جاء محمد وهو راكبٌ».

٣ – ان كان الخبر في الجملة من المبتدأ أو الخبر ظرفاً ثم كان قد قدّم على المبتدأ، مثل : «عليه معطف» كثر فيها أن تجيء بغير واو . ومنه قول بشار :

إذا أنكرتني بلدةٌ أو نكرتُها خرجت مع البازي عليَّ سوادُ

٤ – وان كانت الجملة من فعل وفاعل والفعل مضارع مثبت غير منفي لم يكد يجيء بالواو مثل : «جاء محمد يسعى أخوه بين يديه» أو «جاء محمد يسعى»، وعليه التنزيل والكلام، ومثاله قوله تعالى: «ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ» (١) وقوله: «وسَيُجَنَّبُها الاتقى. الذي يؤتي ماله يتزكّى» (٢)، وقوله: «ويَذَرُهُم في طُغيانهم يَعْمَهُون» (٣).

٥ – فان دخل حرف نفي على المضارع تغيّر الحكم فجاء بالواو وبتركها كثيراً، كقول مسكين الدارمي :

أكسبته الورقُ البيض أباً ولقد كان ولا يُدْعَى لأب

وقول مالك بن رفيع وكان جنى جناية فطلبه مصعب بن الزبير :

أتاني مصعبٌ وبنو أبيه فأين أحيد عنهم لا أحيدُ
أقادوا من دمي وتوعدوني وكنت وما يُنَهْنِهُني الوعيدُ (٤)

---

(١) المدثر ٦.
(٢) الليل ١٧ – ١٨.
(٣) الاعراف ١٨٦.
(٤) أي جعلوا من دمي قوداً، وهي الدية.

وقول الشاعر :

مضوا لايريدون الرواحَ وغالَهم   من الدهر أسبابٌ جرين على قَدَرْ

وقول اعشى همدان :

أتينا أصبهان فهزّلتنا   وكنّا قبل ذلك في نعيم
وكان سفاهةً مني وجهلا   مسيري لا أسير إلى حميم

ففي المثالين الاولين اقترنت بالواو ، وفي المثالين الاخيرين لم تقترن .

٦- وبما يجيء بالواو وغير الواو الماضي ، وهو لايقع حالا الا مع «قد» مظهرة أو مقدرة : مثل : «أتاني وقد جهده السير» . ومثال ماجاء بغير واو :

فآبُوا بالرماحِ مكسّراتٍ   وأبْنا بالسيوفِ قد انحنينا

محسنات الوصل :

من محسنات الوصل تناسب الجملتين في الاسمية والفعلية، وتناسب الجملتين الفعليتين في المضيّ والمضارعة، وفي الاطلاق والتقييد، ولا يعدل عن ذلك إلّا لغرض أو المانع ، كما اذا اريد باحداهما التجدد وبالاخرى الثبوت مثل: «قام محمد وعمرو قاعد» إذا اريد أن قيام محمد متجدد وقعود عمرو ثابت مستمر. أو أن يراد حكاية الحال الماضية واستحضار الصورة في الذهن كقوله تعالى: «ففريقاً كذّبْتم وفريقاً تقتلون» (١) :

أو أن يراد الاطلاق في احداهما والتقييد في الاخرى كقوله تعالى: «وقالوا لولا أُنزل عليه مَلَكٌ ، لو أنزلنا ملكاً لقُضي الأمرُ» (٢)، والجملة الأولى مطلقة ، والثانية مقيّدة، لأن الشرط مقيّد للجواب (٣) ؛

---

(١) البقرة ٨٧.

(٢) الانعام ٨ .

(٣) ينظر مفتاح العلوم ص ١٣١، والإيضاح ص ١٦٥، وشروح التلخيص ج ٣ص١٠٩.

الفصل والوصل في المفردات :

لم يتعرض البلاغيون الا الجمل حينما ترتبط أو تنفصل، اما المفردات فلم يتعرضوا لها، ولعل السبب وضوح هذه المسألة أو أن الحكم يعلم من الجملتين.

وكان عبد القاهر الجرجاني قد اتخذ من الحديث عن عطف المفردات سبيلا للحديث عن عطف الجمل، ولكنه لم يعقد لهذا القسم دراسة لأنه مما يتحدث عنه النحاة ولا يقع فيه الاشكال.(١) واشار السكاكي إلى أن الفصل والوصل بين الجمل هو الأصل في هذا الفن (٢). وظن الخطيب القزويني أن غير ذلك متروك ولذلك عرف هذا الاسلوب بقوله: «الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه» (٣) وعلى ذلك سار شراح تلخيصه غير أن العصام عقّب على كلام التفتازاني بقوله: «وعبارته مشعرة بأن الفصل والوصل مختصان اصطلاحاً بالجمل والمقتضيات لهما جارية في المفردات أيضاً. فلا ينبغي التخصيص اصطلاحاً ونحن نفهم من عبارة المفتاح عدم اختصاصهما بها ، وإنما هما الأصل في الجمل حيث قال : « تمييز موضع العطف عن غير موضعه في الجمل هو الأصل في هذا الفن» (٤) : واحفظها في المفردات أيضاً لئلا يكون بمعزل عن البلاغة، وكيف يظن أن عطف الجمل التي هي أخبار لمبتدأ، أو أحوال لصاحب، أو صفات لمنعوت، وتركه مبنيات على أحوال دون مباني المفردات» (٥).

ولعل بهاء الدين السبكي شارح تلخيص القزويني ، كان من أحسن الذين تعرضوا لهذا البحث، وقال أن الأصل في المفرد فصله مما قبله، لأن ماقبله (٦):

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٧١ وما بعدها.

(٢) مفتاح العلوم ص ١٢٠.

(٣) الايضاح ص ١٤٧.

(٤) هذه عبارة السكاكي في المفتاح ص ١٢٠.

(٥) الشرح الاطول ج ٢ ص ٢ .

(٦) عروس الأفراح – شروح التلخيص ج ٣ ص ١١٣ وما بعدها.

١ – اما عامل فيه مثل «زيد قائم» فلا يعطف المعمول على عامله.
٢ – أو معمول فلا يعطف العامل على معموله.
٣ – أو كلاهما معمول والفعل يطلبهما طلباً واحداً فلا يمكن عطفه لأنه يلزم قطع العامل عن الثاني مثل: «علمت زيداً قائماً».

وإذا اجتمع مفردان وامكن من جهة الصناعة عطف احدهما على الآخر فإن كان بينهما جامع تمّ الوصل وإلا كان الفصل هو الاساس.

وصار بهاء الدين السبكي في بحث هذا النوع على منهجه في الجمل، وهو اقسام:

الأول: أن يكون بين المفردين كمال الانقطاع بلا ايهام غير المراد مثل: «زيد عالم قائم» فإنه لاجامع بين هذين الخبرين ولذلك يفصلون، ومثل ذلك الاعداد واحد اثنان ثلاثة اربعة ...، وحروف الهجاء ألف باء... ففي مثل هذه الحالة يجب الفصل.

الثاني: أن يكون بينهما كمال الانقطاع وفي الفصل ايهام غير المراد مثل: «ظننت زيداً ضارباً وعالماً» فيجب العطف إذ لو لم يعطف لتوهم أن «عالماً» معمول «ضارباً».

الثالث. كمال الاتصال بأن يكون تأكيداً معنوياً، أو لفظياً، أو عطف بيان أو نعتاً، أو بدلاً نحو «جاء زيد نفسه» و «جاء زيد أبو عبد الله» و«جاء زيد القائم» فلا يعطف شيء من ذلك.

أو يكون في معنى واحد من هذه الامور كما في عطف الجمل أو فصلها، أو أن يكونا بمنزلة خبر واحد، مثل: «هذا حلو حامض» إذا جعلناهما خبرين.

الرابع: شبه كمال الانقطاع بأن يكون للمفرد الأول حكم ويقصد اعطاؤه الثاني نحو «زيد يعجبني إنْ قُصِد صالح» إذا اريد الاخبار بأنه صالح مطلقاً فإن عطف «صالح» على «معجب» يوهم انه صالح إنْ قصد، لأن الشرط في أحد المتعاطفين شرط في الآخر بخلاف الشرط في واحد من خبري المبتدأ. وتارة يكون عطفه على المفرد قبله يوهم عطفه على غيره مثل «كان زيد ضارباً عمراً قائماً» فلو قيل: «وقائماً» لاوهم انه معطوف على «عمرو» المفعول.

الخامس : شبه كمال الاتصال، مثل «زيد غضبان ناقص الحظ» كأن سائلا سأل: لم غضب ؟

السادس: أن يكون بينهما التوسط من كمال الانقطاع وكمال الاتصال مثل «زيد معط مانع» على أن يكونا خبرين ، فإذا اريد جعل الثاني صفة تعيّن الوصل .

أما العطف بين الجمل والمفردات ، فقد جوّز أكثر النحاة عطف الفعل على الاسم وعطف الاسم على الفعل إذا كان كل منهما في تقدير الآخر: وقال السهيلي يحسن عطف الفعل على الاسم إذا كان اسم فاعل ، ويقبح عطف الاسم على الفعل . وقال أن مثل «مررت برجل يقوم قاعد» ممتنع إلاّ على وجه .وجوّزه الزجاج كعطف الفعل على الاسم،والأكثرون على الجواز .(١) قال تعالى :«صافّاتٍ ويَقْبِضْنَ» (٢) وقال: «فالمُغيراتِ صُبحاً. فأثَرْنَ به نَقعاً» (٣).

(١) عروس الأفراح – شروح التلخيص ج ٣ ص ١١٥ .
(٢) الملك ١٩ .
(٣) العاديات ٣ – ٤ .

المبحث الثالث

القصر

القصر – في اللغة – الحبس، قال تعالى: «حورٌ مقصوراتٌ في الخيام» (١)
أي : محبوسة فيها. وأما معناه في الإصطلاح فهو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص:
وذلك كتخصيص المبتدأ بالخبر بطريق النفي في قوله تعالى : «وما الحياةُ الدنيا
إلا متاعُ الغرور» (٢)، وتخصيص الخبر بالمبتدأ مثل: «ماشاعر إلا المتنبي» ع
طرفاه:

وللقصر طرفان . .

١ – المقصور ، وهو الشيء المخصص .

٢ – المقصور عليه ،وهو الشيء المخصص به:

ففي الآية السابقة «وما الحياةُ الدنيا إلا متاع الغرور» خصصنا الغرور بمتاع الدنيا،
وفي «لايعلم الغيب إلا الله» خصصنا علم الغيب بالله تعالى. «فالحياة الدنيا» مقصور
عليه» ، و «الغرور» مقصور ، و «علم الغيب» مقصور ولفظ الجلالة مقصور
عليه .

ويقع القصر بين .

١ – المبتدأ والخبر ، كقوله تعالى : «وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبله الرُسُلُ» ، (٣) و «ماأديب إلا عليٌّ».

٢ – بين الفعل والفاعل مثل : «لاينجح إلا محمد» ، و «ماقام إلا أنا» .

٣ – بين الفاعل والمفعول مثل: «ماشاهد خالد إلا الحديقة»، في قصر الفاعل على المفعول، أما قصر المفعول على الفاعل فمثل: «ماشاهد الحديقة إلا خالد» .

٤ – بين المفعولين مثل: «ماأعطيت محمداً إلا كتاباً» في قصر المفعول الأول على الثاني، أما قصر المفعول الثاني على الأول فمثل «ماأعطيت كتاباً إلا محمداً».

(١) الرحمن ٧٢ .
(٢) الحديد ٢٠ .
(٣) آل عمران ١٤٤.

٥ – بين الحال وصاحبها، مثل «ماجاء راكضاً إلا محمد» في قصر الحال على صاحبها، اماقصر صاحب الحال عليها فمثل «ماجاء محمد الا راكضاً»، ومثل ذلك كل متعلقات الفعل ، فان القصر يجري فيها ماعدا اثنين :

الاول: المصدر المؤكد، فلايقع القصر بينه وبين الفعل ولذلك لايجوز أن نقول «ماضربت الا ضرباً»، واما قوله تعالى: «إن نظن الاظنا»(١) فتقديره: ظنا ضعيفاً .

الثاني: المفعول معه، فانه لايجيء بعد «الا» ولذلك لايقال «ماسرت إلا والحائط».

أنـــواعــه :

ينقسم القصر بحسب الحقيقة والإضافة إلى:

١– **قصر حقيقي** : وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة لايتعداه إلى غيره أصلاً ، كقوله تعالى: «إنّمايتذكر أولو الالباب»(٢) فالتذكر صفة لاتتجاوز إلى غيرهم من سائر الناس في الحقيقة والواقع ، ومنه: «ماخاتم الانبياء والرسل إلا محمد» «فخاتم الانبياء والرسل» وهو المقصور، مختص بمحمد صلى الله عليه وسلم – وهو المقصور عليه لايتجاوزه إلى غيره.

٢– **قصر اضافي** : وهو غير الحقيقي وذلك بان يكون القصر فيه بالاضافة إلى شيء مخصوص لاإلى جميع ماعدا المقصور عليه: ومنه قوله تعالى: «وما محمد إلا رسول»(٣)، «فمحمد» مقصور على الرسالة بالاضافة إلى شيء آخر، وليس المقصود ان الرسالة مختصة به وحده. ومنه قولنا: «ما محمد الا كاتب» فليس المقصود أن محمداً مقصور على الكتابة وحدها بحيث لايتعداها إلى شيء آخر ، لان الحقيقة والواقع خلاف ذلك، وانما المقصود انه مقصور على الكتابة بالاضافة إلى شيء آخر معين كالشعر أو الرسم أوغيرهما :

وينقسم القصر باعتبار طرفيه: المقصور والمقصور عليه إلى:

---

(١) الجاثية ٣٢ .

(٢) الرعد ١٩ .

(٣) آل عمران ١٤٤.

١ – قصر موصوف على صفة: كقوله تعالى: «ماتَعْبُدُهم إلاّ ليقربونا إلى الله زُلْفَى »(١) فقد قصرت العبادة على التقريب قصر موصوف على صفة.

٢ – قصر صفة على موصوف: مثل: «ماني الدار الأحمد» فقد قصر الوجود في الدار على «محمد» قصر صفة على موصوف.

والمراد بالصفة في اسلوب القصر الصفة المعنوية لاالنعت الذي يذكره النحاة، لان اداة الاستثناء لاتقع بين الصفة والموصوف.

وينقسم القصر بحسب الحقيقة والادعاء إلى:

١ – قصر حقيقي على سبيل الحقيقة.

٢ – قصر اضافي على سبيل الحقيقة.

وهذان النوعان هما اللذان يقصدان عند اطلاق القصر الحقيقي والقصر الاضافي كما سبق:

٣ – قصر حقيقي على سبيل الإدعاء والمبالغة: ومثال قصر الصفة على الموصوف: «لاشاعر في العرب إلاّ المتنبي»اذا كان هناك في العرب شعراء غير المتنبي ولكن لاتريد الاعتراف بهم مبالغة في اضفاء الشاعرية على المتنبي.ومثال قصر الموصوف على الصفة: «ماحاتم إلاّ جواداً» أي أنّ حاتماً لايتصف بغير الجود من الصفات مبالغةً في كمال الجود فيه.

٤– قصر اضافي على سبيل الإدعاء والمبالغة ، ومثال قصر الصفة على الموصوف : «ماعالم إلاّمحمدٌ» وذلك اذا أريد قصر العلم على محمد بالنسبة إلى خالد اذا كان عالماً ايضاً .

ومثال قصر الموصوف على الصفة : «مامحمد إلاّكاتب» اذا قصر «محمد» على الكتابة بالنسبة إلى صفة الشعر او الرسم ويراد بذلك انتفاء صفة الشعر أو الرسم منه.

وينقسم القصر الاضافي فقط بحسب حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام :

(١) الزمر ٣ .

١ ـ قصر افراد: وذلك اذا اعتقد المخاطب الشركة في الحكم بين المقصور وغيره.

٢ ـ قصر قلب: وذلك اذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي يثبت بالقصر،

٣ ـ قصر تعيين: وذلك اذا كان المخاطب مترددا في الحكم بين المقصور عليه وغيره.

فاذا قيل في قصر الصفة على الموصوف: «الاديب محمد لاخالد»وكان المخاطب يعتقد اشتراك محمد وخالد في صفة الادب كان القصر قصر افراد.

واذا كان المخاطب يعتقد غير ذلك كان القصر قصر قلب.

واذا كان المخاطب متردداً لايدري أيهما الاديب كان القصر قصر تعيين.

واذا قيل في قصر الموصوف على الصفة « مامحمد إلاّمدرس» وكان المخاطب يعتقد اتصاف محمد بمهنة التدريس والادارة كان القصر قصر افراد.

واذا كان المخاطب يعتقد اتصاف محمد بالتدريس لابالادارة كان القصر قصر قلب.

واذا كان المخاطب مترددا لايدري أي الصفتين هي صفة محمد كان القصر قصر تعين.

ولايجري هذا التقسيم في القصر الحقيقي ،لان القصر في ذلك النوع قصر بالنسبة إلى ماعدا المقصور عليه على الاطلاق فلايمكن أن يتصور في الشركة او العكس أو التردد على مانراه في القصر الاضافي الذي يجري فيه القصر بالنسبة إلى شي محدود.

شـــروطـه :

وشرط قصر الموصوف على الصفة افراداً عدم تنافي الصفتين حتى تكون المنفية في قولنا «مازيد إلاشاعر» كونه كاتبا، لاكونه مفحما لايقول الشعر ليتصور اعتقاد المخاطب اجتماعهما.

وشرط قصره قلبا تحقق تنافيهما حتى تكون المنفية في قولنا «مازيد الاقائم» كونه قاعداً أوجالسا ، لاكونه أسود أو أبيض، ليكون اثباتهما مشعراً بانتفاء غيرهما.

وقصر التعيين أعم، لان اعتقاد كون الشيء موصوفا بأحدأمرين معينين على الاطلاق لايقتضي جواز اتصافه بهماعاولاامتناعه. وبهذا علم ان كل مايصلح ان يكون مثالا لقصر الافراد أو قصر القلب يصلح أن يكون مثالا لقصر التعيين من غير عكس.

طــرقــه:

اهم طرق القصر أربع :

١ – النفي والإستثناء: ويكون المقصور عليه في هذه الطريقة بعد اداة الاستثناء، كقوله تعالى: «ومامحمدٌ إلاّ رسولٌ قد خلَتْ من قبلِه الرُّسلُ»(١)، وقوله: «وما أنزل الرحمنُ من شيءٍ إنْ أنتم إلاّتكذِبُونَ» (٢)، أي : لستم في دعواكم للرسالة عندنا بين الصدق والكذب كما يكون ظاهر حال المدعي اذا ادعى بل انتم عندنا كاذبون فيها.

ومنه : «ماحمحد الاشاعر»ووجه القصر فيه انه متى قيل: «ماحمحد» توجه النفي إلى صفته لاذاته لان أنفس الذوات يمتنع نفيها وانما تنفى صفاتها وحيث لانزاع في طوله وقصره وماشاكل ذلك وانما النزاع في كونه شاعرا أوكاتبا تناولهما النفي ،فاذا قيل: «الاشاعر» جاز القصر.

وتستعمل «غير» في القصر استعمال «إلاّ».

٢ – انما : ويكون المقصور عليه مؤخراً وجوبا ، ومنه قوله تعالى : «انما يخشَى اللهَ من عبادِه العلماءُ»(٣).

(١) آل عمران ١٤٤ .
(٢) يس ١٥ .
(٣) فاطر ٢٨ .

ومنه قول قيس بن الرقيات:

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ مــن اللهِ   تَجلّتْ عن وجهه الظلماءُ

والدليل على أنها تفيد القصر أمور:

الأول: كونها متضمنة معنى «ما» و«إلا» لقول المفسرين في قوله تعالى «إنما حرّمَ عليكم الميتةَ والدمَ»(1) - بالنصب - معناه «ماحرم عليكم إلاّ الميتة».

الثاني: لقول النحاة إنّ «انما» لاثبات مايذكر بعدها ونفي ماسواه.

الثالث: لصحة انفصال الضمير معها مثل: «انما يضرب أنا»، أي: «مايضرب إلا أنا».

ومن ذلك قول الفرزدق:

أنا الذائدُ الحامي الذمار وانما   يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

وقول عمرو بن معد يكرب:

قد علمت سَلمى وجاراتُها   ماقطّرَ الفارس إلاّ أنــا(2)

3 - **العطف**: بـ«لا» أو «لكن» أو «بل» فان كان العطف بـ«لا» كان المقصور عليه مقابلا لما بعدها، وان كان العطف بـ«لكن» و«بل» كان المقصور عليه مابعدهما.

ومثال قصر الموصوف على الصفة افراداً: «محمد شاعر لاكاتب»، أو «ماحمد كاتب بل شاعر».

ومثال قصر الموصوف على الصفة قلبا: «محمد قائم لاقاعد»، أو «مامحمدقاعداً بل قائم».

ومثال قصر الصفة على الموصوف افرادا أو قلبا بحسب المقام: «محمد قائم لاخالد»، أو «ماخالد قائما بل زيد».

4 - **تقديم ماحقه التأخير**: وهنا يكون المقصور عليه هو المقدّم «فمن قصر الموصوف على الصفة افرادا «شاعر هو» لمن يعتقده شاعراً وكاتبا:

---

(1) البقرة 173.

(2) قطر: صرع.

ومن قصر الموصوف على الصفة قلبا: «قائم هو»لمن يعتقده قاعدا، ومثال قصر الصفة على الموصوف افرادا: «أنا كفيت مهمّك» بمعنى وحدي لمن يعتقد أنك وغيرك كفيتما مهمّه .

ومثال قصر الصفة على الموصوف قلبا : «أنا كفيت مهمّك» بمعنى لاغيري لمن يعتقد أن غيرك كفى مهمة دونك.وهذه الطرق الاربع تختلف من وجوه :

الأول: ان دلالة الثلاث الأول بالوضع دون الرابعة.

الثاني: ان الاصل في العطف أن يدل على المثبت والمنفي جميعا بالنص فلايترك ذلك الاكراهة الاطناب في مقام الاختصاص كما اذا قيل «محمد يعلم النحو والصرف والعروض والقوافي» أو: «محمد يعلم النحو، وخالد وبكر وعمرو» فتقول فيهما «محمد يعلم النحو لاغير» وفي معناه «ليس الا» وأي: لاغير النحو، ولاغير محمد» وأما الثلاثة الباقية فتدل بالنص على المثبت دون المنفي.

الثالث: ان النفي لايجامع الاول لان شرط المنفي بـ«لا» أن لايكون منفيا قبلها بغيرها ويجامع الآخرين فيقال: «انما زيد كاتب لاشاعر» و«هو يأتيني لا محمد».

الرابع: ان اصل النفي والاستثناء ان يكون ماالستعمل له مما يجهله المخاطب وينكر كقولك لصاحب وقد رأيت شبحا من بعيد «ماهو الا محمد» اذا وجدته يعتقده غير محمد ويصر على الانكار. وعليه قوله تعالى «وما من إله إلا الله»(١).

وهناك طرق اخرى للقصر غير ان البلاغيين لم يتفقوا عليها كل الاتفاق، ولذلك تظل الوجوه الاربعة عمدة هذا الاسلوب (٢).

---

(١) آل عمران ٦٢ .

(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ١٣٨، والإيضاح ص ١١٨، وشروح التلخيص ج٢ ص١٦٦.

الفصل الخامس

الايجاز والاطناب والمساواة

المبحث الأول

الايجاز

الايجاز والاطناب والمساواة من الاساليب التي لاتتضح كثيراً الا بالحديث عن انواعها وعرض امثلتها، لان الاتفاق على مقياس يلجأ إليه الدارسون من الامور الصعبة. وكان السكاكي قد ذهب إلى ان الذي يحدد هذه الاساليب هو العرف وقد سمّاه «متعارف الاوساط»، يقول: «اما الايجاز والاطناب فلكونهما نسبيين لايتيسر الكلام فيهما الابترك التحقيق والبناء على شيء عرفي مثل جعل كلام الاوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم. ولابدّ من الاعتراف بذلك مقيسا عليه ولنسمّه «متعارف الاوساط» وانه في باب البلاغة لايحمد ولايذم»(١) ولذلك كان الايجاز أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الاوساط، وكان الاطناب اداءه باكثر من عباراتهم، سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل.

ولكن الخطيب القزويني رأى الاتفاق على متعارف الاوساط صعبا، ووجد أن بناء التعريف عليه أصعب، والاقرب ان يقال: «المقبول من طرق التعبير عن المعنى هو تأدية اصل المراد بلفظ مساو له أو ناقص عنه واف، أو زائد عليه لفائدة»(٢). وهذا التعريف لايكون دقيقا ان لم تعرض اساليب الايجاز والاطناب ليبني عليها اسلوب المساواة ويحدد بدقة ووضوح، ولذلك قال ان المساواة أن يكون اللفظ بمقدار اصل المراد لاناقصا عنه بحذف او غيره، ولازائدا عليه بنحو تكرير او تتميم او اعتراض، أي ان المساواة لاتتضح الابعد دراسة الاسلوبين الآخرين ومعرفتهما معرفة دقيقة، ولكنه قدم الكلام على المساواة لانها الاصل المقيس عليه،

(١) مفتاح العلوم ص ١٣٣ .

(٢) الايضاح ص ١٧٧.

وهذا التقديم لايخدم القياس لان المساواة لاتعرف الابعد معرفة الكلام المحذوف أو الزائد، وبذلك تكون الكلام الذي ليس فيه حذف أو زيادة .

وميّز بين الكلام التام والناقص ولذلك قال إن وافٍ، احتراز عن الاخلال، وهو أن يكون اللفظ قاصراً عن أداء المعنى، كقول عروة بن الورد:

عجبتُ لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

فانه أراد : إذ يقتلون نفوسهم في السلم.

وقول الحارث بن حلّزة :

والعيشُ خيرٌ في ظلا ل النّوك ممن عاش كدّا (١)

فانه أراد : العيش الناعم في ظلال النوك خير من العيش الشاقّ في ظلال العقل ، فأخلّ بالمعنى .

واحترز في الزيادة وقال انها لفائدة ، لكي لايدخل فيها :

١ – التطويل : وهو أن لايتعين الزائد في الكلام ، كقول عدي بن زيد العبادي:

وقدّدتِ الأديم لراهشيه وألفى قولها كذباً ومَيْناً (٢)

فان الكذب والمين واحد .

٢ – الحشو : وهو مايتعين أنه زائد وهو نوعان :

الاول : مايفسد المعنى ، كقول المتنبي:

ولافضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شَعُوب (٣)

فان لفظ « الندى» فيه حشو يفسد المعنى ، لان المعنى انه لافضل في الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت ، وهذا الحكم صحيح في الشجاعة دون الندى ، لان الشجاع لوعلم أنه يخلد في الدنيالم يَخْشَ الهلاك في الاقدام فلم يكن لشجاعته فضل، بخلاف الباذل ماله فانه إذا علم انه يموت هان عليه بذله .

---

(١) النوك : الحمق . الكد : التعب والمشقة .

(٢) قددت : قطعت . الأديم: الجلد. الراهشان : عرقان في باطن الذراعين.

(٣) شعوب : الموت ، المنية .

الثاني : ما لايفسد المعنى ، كقول الشاعر :

ذكرتُ أخي فعاودني صداعُ الرأس والوصبُ (١)

فان لفظ الرأس، حشو لافائدة فيه لان الصداع لايستعمل إلاّ في الرأس ، وليس بمفسد المعنى.

وقول زهير:

وأعلم علم اليوم والامس قبله ولكنّني عن علم مافي غدٍ عم

فان قوله وقبله ، يستغنى عنه غير مفسد .

وهذه المقدمة ضرورية في دراسة هذا الموضوع ، ولكنه لن يتضح إلا بعد الحديث عن أجزائه لإيضاح امثلته وأساليبه.

الإيجاز:

الايجاز – لغة – التقصير، تقول: أوجزت الكلام، أي : قصرته ، وكلام موجز من أوجز.

والايجاز – اصطلاحا – أن يكون اللفظ اقل من المعنى ، مع الوفاء به والا كان اخلالا يفسد الكلام.

وهذا الاسلوب من اهم خصائص اللغة العربية في القديم، فقد كان العرب لايميلون إلى الاطالة والشرح والاسهاب ، وكانوا يعدّون الايجاز هو البلاغة، فأكثم بن صيفي يرى ان البلاغة هي الايجاز ، وكان جعفر بن يحيى يقول لكتّابه: ان قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا»(٢). وفعلوا مثل ذلك في القصائد، وقد قيل لبعضهم مالك لاتزيد على اربعة واثنين؟ قال: هُنّ بالقلوب أوقع وإلى الحفظ أسرع وبالالسن أعلق، وللمعاني أجمع، وصاحبها أبلغ وأوجز.

وقيل لآخر: ألاتطيل القصائد، فقال:

---

(١) الوصب : المرض والوجع الدائم ونحول الجسم ، وقد يطلق على التعب والفتور في البدن .

(٢) البيان والتبيين ج١ص٨٦، وكتاب الصناعتين ص ١٧٣.

أبى لي أن أطيلَ الشعر قصدي إلى المعنى وعلمي بالصوابِ
وايجازي بمختصرٍ قريب حذفت به الفضولَ من الجوابِ
فأبعثُهن أربعةً وستاً مثقفةً بألفاظٍ عذابِ
خوالدُ ماحدا ليلٌ نهارا وماحَسُنَ الصبا بأخي الشبابِ
وهنّ اذا وسمْتُ بهنّ قوما كأطواق الحمائم في الرقابِ
وكنّ اذا أقمت مسافرات تهاداها الرواة مع الركابِ (١)

وفي هذه الابيات خلاصة لاغراض الايجاز ، فبه يصل المتكلم إلى هدفه من غير تمهيد أو زيادة لايقتضيها المعنى ، وبه يأتي الكلام قصيراً يسهل حفظه وروايته ، وهذا مايبدو واضحاً في الامثال والخطب والشعر ، وبهذا الاسلوب أيضاً تصل المعاني إلى القلب في أسرع مايكون وتؤثر فيه فيهتز طرباً ان كان الكلام مما يسر ، وينفعل ويتجهم ان كان مما لايسّر .

وكان لهذه الصفة التي أولع بها العرب ان اهتم البلاغيون والنقاد باسلوب الايجاز ، ووضعوا له حدوداً وأقساماً ، وبينوا مواضعه ، لانه ليس بمحمود في كل موضع ولابمختار في كل كتاب بل لكل مقام مقال ، وإلى ذلك أشار ابن قتيبة بقوله : «ولو كان الايجاز محموداً في كل الاحوال لجرده الله تعالى في القرآن ، ولم يفعل الله ذلك ولكنه أطال تارة للتوكيد وحذف تارة للايجاز وكرر تارة للافهام »(٢) .

وقال ابن جني ان الاطالة والايجاز هما في كل كلام مفيد مستقل بنفسه ولو بلغ الايجاز غايته لم يكن له بد من أن يعطيك تمامه وفائدته مع أنه لابدّ فيه من تركيب الجملة فان نقصت عن ذلك لم يكن هناك استحسان ولااستعذاب . وقال ان العرب إلى « الايجاز أميل وعن الاكثار أبعد » ، وضرب مثلا بالقرآن الكريم ومافيه من الحذف الذي يجعل الكلام موجزا (٣) . ومعنى ذلك ان هذا الاسلوب ضروري كثيره إذا

(١) كتاب الصناعتين ص ١٧٤ .
(٢) أدب الكاتب ص ١٥ .
(٣) ينظر الخصائص ج ١ ص ٣٠ ، ٨٣ ، ٨٦ .

أراد المتكلم أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال ولذلك يقول أبو هلال العسكري:« ان الايجاز والاطناب يحتاج اليهما في جميع الكلام وكل نوع منه ، ولكل واحد منهما موضع . فالحاجة إلى الايجاز في موضعه كالحاجة إلى الاطناب في مكانه فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته ، واستعمل الاطناب في موضع الايجاز واستعمل الايجاز في موضع الاطناب أخطأ » (١) .

وتحدث ابن رشيق عن الايجاز وذكر تعريف الرماني وهو:« الايجاز هو العبارة عن الغرض بأقل مايمكن من الحروف» وقسمه إلى نوعيه المعروفين (٢) .

وعقد ابن سنان له بحثا وسماه «الاشارة» وقال عنه :«هو ان يكون المعنى زائدا على اللفظ،أي‌انه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الاشارة واللمحة (٣) والمختار عنده في الفصاحة والدال على البلاغة هو ان يكون المعنى مساويا للفظ،أو زائدا عليه،أي‌ان يكون اللفظ القليل يدل على الكثير دلالة واضحة ظاهرة لأن تكون الالفاظ لفرط ايجازها قد ألبست‌المعنى‌وأغمضته حتى‌يحتاج في استنباطه إلى طرف من التأمل ودقيق الفكر.

وعرّف الرازي الايجاز بقوله: «وحدّه أنه العبارة عن الغرض بأقل مايمكن من الحروف من غير اخلال» (٤) .

وقال السكاكي ان الايجاز والاطناب – كما سبق – من الامور النسبية كالابوة والبنوة وهي التي يتوقف تعقلها على تعقل غيرها ، فان الكلام الموجز انما يدرك من حيث وصفه بالايجاز بالقياس إلى كلام آخر اكثر منه، وكذلك المطنب انما يدرك من حيث وصفه بالاطناب إلى كلام آخر يكون اقل منه.

---

(١) كتاب الصناعتين ص ١٩٠

(٢) العمدة ج ١ ص ٢٢١ .

(٣) سر الفصاحة ص ٢٤٣ .

(٤) نهاية الإيجاز ص ١٤٥ .

وتحدث عنه ابن الاثير وعقد له فصلا في «المثل السائر» وفصلا في «الجامع الكبير» وقال في تعريفه: «هو حذف زيادات الالفاظ»(١)، «وهذا النوع من الاساليب شريف لايتعلق به الافرسان البلاغة، وذلك لعلو منزلته وبعد مناله. ثم قال بعد أن مهّد لبحثه: «حدّ الايجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه، والتطويل هو ضد ذلك، وهو أن يدل على المعنى بلفظ يكفيك بعضه في الدلالة عليه» (٢).

وسمّاه ابن الزملكاني «الاشارة» وقال: «هو اثبات المعاني المتكثرة بالفظ القليل»(٣).

وقال العلوي: «وهو في مصطلح أهل هذه الصناعة عبارة عن تأدية المقصود من الكلام باقل من عبارة متعارف عليها»(٤).

وهذه التعريفات لاتخرج عن القول بان الايجاز هو التعبير عن المعاني بألفاظ قليلة تدل عليها دلالة لاتحتاج إلى تأمل دقيق.

أقسامه:

الايجاز ضربان:

الأول: ايجاز القصر: وهو تقليل الالفاظ وتكثير المعاني، ويرى ابن الأثير ان التنبه لهذا النوع عسر، لانه يحتاج إلى فضل تأمل. (٥) ومن ذلك قوله تعالى: «ولكم في القِصاص حياةٌ» (٦). وتتبين هذه الآية الكريمة حينما تقارن بقولهم: «القتل أنفى للقتل»، ويتضح ذلك في وجوه:

أحدها: ان عدة حروف ما يناظره منه وهو «في القِصاص حياةٌ» عشرة في التلفظ وعدّة حروفه أربعة عشر.

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٧١، والجامع الكبير ص ١٢٢.
(٢) المثل السائر ج ٢ ص ٧٤.
(٣) التبيان في علم البيان ص ١١٠، وينظر البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص ٢٣٢.
(٤) الطراز ج ٣ ص ٣١٦.
(٥) المثل السائر ج ٢ ص ٧٨.
(٦) البقرة ١٧٩.

ثانيها : مافيه من التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليها فيكون أزجر عن القتل بغير حق لكونه أدعى إلى الاقتصاص .

ثالثها : مايفيده تنكير « حياة» من التعظيم أو النوعية .

رابعها : اطراده بخلاف قولهم ، فان القتل الذي ينفي القتل هو ماكان على وجه القصاص لاغيره .

خامسها : سلامته من التكرار الذي هو من عيوب الكلام بخلاف قولهم :

سادسها : استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم ، فان تقديره : القتل أنفى للقتل من تركه .

سابعها: ان القصاص ضد الحياة ، فالجمع بينهما طباق .

ثامنها : جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة بادخال « في» عليه (١) .

ومن القصر قوله تعالى : « ما اتخذ اللهُ من وَلَد وما كان معه من إله إذَنْ لَذَهَبَ كلُّ إله بما خَلَقَ ولعلا بَعْضُهم على بَعْض » (٢) وقوله: « يا أيُّها الناس إنما بَغْيُكم على أنفسكم » (٣) وقوله: « ولا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّيءُ إلاّ بأهله » (٤) .

ومنه قول الشريف الرضي :

مالوا إلى شُعَب الرِّحال وأسندوا أيدي الطعان إلى قلوب تَخفقُ

فإنه لما أراد أن يصفهم بالشجاعة في أثناء وصفهم بالغرام عبر عن ذلك بقوله «أيدي الطعان» .

(١) الإيضاح ص ١٨٢، وينظر كتب الصناعتين ص ١٧٥، والمثل السائر ج ٢ ص١٢٥ وبديع القرآن ص ١٩٢، ونهاية الإيجاز ص ١٤٥.

(٢) المؤمنون ٩١ .

(٣) يونس ٢٣.

(٤) فاطر ٤٣ .

وهذا مفهوم الايجاز بالقصر عند البلاغيين، غير أن ابن الأثير (١) بعدّه فرعاً من الايجاز الذي لايحذف منه شيء، لأنه يقسم الايجاز إلى قسمين .

١ – الايجاز بالحذف: وهو مايحذف منه المفرد والجملة .
٢ – مالا يحذف منه شيء ،وهو ضربان .

الأول . ماساوى لفظه معناه ويسمى التقدير .
الثاني . مازاد معناه على لفظه ويسمى الايجاز بالقصر .
وقسم الايجاز بالقصر إلى نوعين :

أحدهما . مادلّ لفظه على محتملات متعددة، ويمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها . ومنه قوله تعالى . «ولقد أوحينا إلى موسى أنْ أسر بعبادي فاضربْ لهم طريقاً في البحر يَبَساً لاتخافُ دَرَكاً ولاتخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فَغَشِيَهُمْ من اليَمِّ ماغَشِيَهُم» (٢) فقوله : «فغشيهم من اليم ماغشيهم» من جوامع الكلم التي يستدل على قلتها بالمعاني الكثيرة، أي غشيهم من الامور الهائلة والخطوب الفادحة مالا يعلم كنهه إلا اللهُ ولا يحيط به غيره. ومنه قوله تعالى: «خُذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْف وأعرضْ عن الجاهلين» (٣) فجمع في الآية جميع مكارمِ الأخلاق، لأن في الأمر بالمعروف صلة الرحم ومنع اللسان عن الغيبة وعن الكذب ، وغض الطرف عن المحرمات وغير ذلك، وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وغيرهما. ومثاله قول السَّمَوأل:

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حُسنِ الثناء سبيل

فإن هذا البيت قد اشتمل على مكارم الأخلاق جميعها من سماحة وشجاعة وعفة وتواضع وحلم وصبر وغير ذلك، فإن هذه الأخلاق كلها من ضيم النفس لأنها تجد بحملها ضيماً أي : مشقة وعناء .

(١) المثل السائر ج٢ ص١١٤، وينظر الطراز ج٢ ص ١١٩ وما بعدها.
(٢) طه ٧٧ – ٧٩ .
(٣) الاعراف ١٩٩ .

وثانيهما : مادل لفظه على محتملات متعددة، ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدّتها، بل يستحيل ذلك وهو أعلى طبقات الايجاز مكاناً، ومنه قوله تعالى : «ولكم في القصاص حياةٌ» الذي فاق كل كلام وفضل غيره من كلام العرب.

الثاني : ايجاز الحذف : وهو مايكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعيين المحذوف. أو هو كما قال ابن الأثير: «مايحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه» (١). وقال عن هذا الأسلوب: «أما الايجاز بالحذف فإنه عجيب الامر شبيه بالسحر، وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الافادة أزيد للافادة، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق، وأتم ماتكون مبيناً إذا لم تبيّن، وهذه جملة تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر. والأصل في المحذوفات جميعاً على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام مايدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لايجوز بوجه ولا سبب. ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث لايناسب ماكان عليه أولا من الطلاوة والحسن» (٢).

أدلـة الحـذف :

أدلة الحذف كثيرة منها :

١ – ان يدل العقل على الحذف، والمقصود الاظهر على تعيين المحذوف، كقوله: «حُرِّمت عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزيرِ» (٣)، فإن العقل يدل على الحذف، والمقصود الاظهر يرشد إلى أن التقدير: حرم عليكم تناول الميتة والدم ولحم الخنزير، لأن الغرض الاظهر منها تناولها.

٢ – أن يدل العقل على الحذف والتعيين ، كقوله تعالى : «وجاء ربُّكَ» (٤) أي : أمر ربك أو عذابه أو بأسه.

(١) المثل السائر ج٢ ص٧٨.
(٢) المثل السائر ج٢ ص٨١.
(٣) المائدة ٣.
(٤) الفجر ٢٢.

٣ – أن يدل العقل على الحذف، والعادة على التعيين، كقوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: «فذلكنّ الذي لُمتنني فيه» (١) ، دلّ العقل على الحذف فيه، لأن الإنسان إنما يلام على كسبه فيحتمل أن يكون التقدير «في حبه» لقوله: «قد شغفها حبًّا» (٢)، وأن يكون في مراودته لقوله: «تُراوِدُ فتاها عن نفسه» (٣)، وأن يكون في شأنه وأمره فيشملهما. والعادة دلّت على تعيين المراودة، لأن الحب المفرط لايلام الانسان عليه في العادة لقهره صاحبه وغلبته اياه، وإنما يلام على المراودة الداخلة تحت كسبه التي يقدر أن يدفعها عن نفسه.

٤ – أن تدل العادة على الحذف والتعيين، كقوله تعالى: «لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم» (٤) مع أنهم كانوا أخبر الناس بالحرب ، فكيف يقولون بأنهم لايعرفونها ؟ فلابدّ من حذف ، وتقديره «مكان قتال» أي : انكم تقاتلون في موضع لايصلح للقتال ويخشى عليكم منه ، ويدل على أنهم أشاروا على رسول الله – صلى الله عليه وسلمّ أن لايخرج من المدينة وان الحزم البقاء فيها.

٥ – الشروع في الفعل، كقول المؤمن: «بسم الله الرحمن الرحيم» عند الشروع في القراءة أو أي عمل، فإنه يفيد أن المراد «بسم الله أقرأ». والمحذوف يقدر ما جعلت التسمية «مبدأ» له.

٦ – اقتران الكلام بالفعل، فإنه يفيد تقديره، كقولنا لمن أعرس «بالرفاء والبنين» (٥) فإنه يفيد : بالرفاء والبنين أعرست (٦).

والمحذوف كما تقدم نوعان :

النوع الأول : حذف جزء جملة ، وهو حذف المفردات ويكون على صور مختلفة:

(١) يوسف ٣٢ .

(٢) يوسف ٣٠ .

(٣) يوسف ٣٠.

(٤) آل عمران ١٦٧ .

(٥) الرفاء – بالكسر – الإتفاق والتلاحم .

(٦) الإيضاح ص ١٩٣، وتنظر شروح التلخيص ج٣ ص ٢٠٣.

١ – حذف الفاعل والاكتفاء في الدلالة عليه بذكر الفعل ، كقول العرب «أرسلت» وهم يريدون المطر ولا يذكرون السماء . ومنه قوله تعالى «كلاّ إذا بلغت التراقي وقيل مَنْ رَاقٍ» (١) ، والضمير في « بلغت» للنفس ولم يَجْرِ لها ذكر .
ومنه قول حاتم الطائي :

أماويّ ما يغني الثراءُ عن الفتى   اذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدْرُ

يريد النفس ، ولم يَجْرِ لها ذكر .

٢ – حذف الفعل وجوابه ، وهو نوعان .

أحدهما : يظهر بدلالة المفعول عليه كقوله تعالى : « فقال لهم رسولُ الله ناقةَ الله وسُقْياها » (٢) ، أي : احذروا .

ومنه قول المتنبي .

ولولا أنّ أكثر ما تمنّى   معاودةٌ لقلت : ولا مناكا

فقوله « ولا مناكا» فيه محذوف تقديره . ولا صاحبت مناكا .

وقوله :

ولا إلاّ بأن أصغي وأحكي   فليتك لا يُتَيّمه هواكا

فقوله « ولا إلاّ بأن يصغي وأحكي » فيه محذوف تقديره : ولا ارضى الاّ بأن يصغي وأحكي .

وثانيهما : لايظهر فيه قسم الفعل لانه لايكون هناك منصوب يدل عليه ، وإنما يظهر بالنظر إلى ملاءمة الكلام : كقوله تعالى : « وعُرِضوا على ربك صفّاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أولَ مرّةٍ » (٣) ، فقوله « لقدجئتمونا » يحتاج إلى اضمار فعل ، أي : فقيل لهم : جئتمونا ، أو فقلنا لهم .

ومن هذا الضرب ايقاع الفعل على شيئين وهو لاحدهما ، كقوله تعالى :

(١) القيامة ٢٦–٢٧ .
(٢) الشمس ١٣ .
(٣) الكهف ٤٨ .

«فأجْمِعوا أمركم وشركاءَكم» (١) وهو: «أمركم» وحده، وانما المراد: أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

ومن حذف الفعل باب يسمى «باب اقامة المصدر مقام الفعل» ويؤتى به لضرب من المبالغة والتوكيد كقوله تعالى: «فاذا لَقِيتم الذين كفروا فَضَرْبَ الرقاب» (٢) قوله: «ضرب الرقاب» أصله: فاضربوا الرقاب ضربا، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه، وفي ذلك اختصار وتوكيد.

وأما حذف جواب الفعل فانه لا يكون في الامر المحتوم كقوله تعالى: «فَذَرْهُم يخوضوا ويلعبوا» (٣) فجزم «يخوضوا ويلعبوا» لانهما جواب أمر «فذرهم» وحذف الجواب في هذا لا يدخل في باب الايجاز.

٣ — حذف المفعول به، كقوله تعالى: «وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا» (٤)، فبعد كل فعل مفعول به محذوف.

ويكون ذلك لاغراض:

أحدها: أن يكون غرض المتكلم بيان حال الفعل والفاعل فقط كقوله تعالى. «ولما وَرَدَ ماء مَدْيَنَ وَجَدَ عليه أُمَّةً من الناس يَسقُون ووَجَد من دونهم امرأتين تذودان، قال: ماخَطْبُكما؟ قالتا: لانَسقي حتى يُصدِرَ الرِعاءُ وأبونا شيخٌ كبير. فسَقى لهما ثم تَوَلّى إلى الظل فقال: «ربِّ إني لما انزلتَ اليَّ من خيرٍ فقير» (٥). وقد حذف المفعول به في اربعة مواضع لان الغرض الحديث عن موسى لا عن كون المسقي غنما، أو ابلا، أو غير ذلك.

ثانيها: أن يكون غرض المتكلم ذكره ولكنه يحذفه ليوهم أنه لم يقصده كقول البحتري:

---

(١) يونس ٧١.
(٢) محمد ٤
(٣) الزخرف ٨٣
(٤) النجم ٤٣ – ٤٤.
(٥) القصص ٢٣ – ٢٤.

شَجْوٌ حسّاده وغيظٌ عداه أن يرى مبصرٌ ويسمعَ واعٍ

والمعنى: أن يرى مبصر محاسنه ،ويسمع واعٍ أخباره، ولكنه تغاضى عن ذلك؛
ثالثها : أن يحذف المفعول لانه معلوم ، ويأتي هذا بعد فعل المشيئة كقوله
تعالى : «ولو شاء لهداكم أجمعين» (١)، وقوله : «ولو شاء الله لذهَبَ بسمعهم
وأبصارهم» (٢)، أي : لو شاء الله ان يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها؛
ومما جاء على مثال ذلك شعراً قول البحتري :

لو شئتَ لم تُفسدْ سماحةَ حاتم كرماً ولم تَهدِمْ مآثرَ خـالـدِ

الاصل في ذلك لو شئت الا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها فحذف ذلك من
الاول استغناءً بدلالته عليه في الثاني (٣).

٤ – حذف المضاف والمضاف اليه واقامة كل واحد منهما مقام الآخر:
فمن حذف المضاف قوله تعالى : «واسألِ القريةَ» (٤) ، أي : أهلها .
وقول الشاعر :

إذا لاقيتَ قـومي فاسألِيهم كَفَى قوماً بصاحبهم خبيـرا
هل اعفو عـن اصولِ الحـق فيهم اذا عَسُرَتْ واقتطعُ الصـدورا

أراد أنه يقتطع ما في الصدور من الضغائن، فحذف المضافَ واقام المضاف اليه
مقامه ؛

ومن حذف المضاف اليه قوله تعالى : «لله الامرُ من قبلُ ومن بَعدُ»(٥)،
أي من قبل ذلك ومن بعده ؛ وهذا النوع قليل الاستعمال لان المضاف يكتسي منه
تعريفاً وتخصيصاً فحذفه يخلّ بالكلام لاذهاب فائدته بخلاف المضاف نفسه،
فانه لا يخل حذفه من جهة أن المضاف اليه يذهب بفائدته ويقوم مقامه .

---

(١) النحل ٩ .
(٢) البقرة ٢٠ .
(٣) ينظر المثل السائر ج٢ ص٩٧، وبديع القرآن ص ٨٥ ، والطراز ج٢ ص١٠٤ .
(٤) يوسف ٨٢ .
(٥) الروم ٤ .

وربما حذف المضاف والمضاف اليه وهذا نادر، كقوله تعالى: «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أثرِ الرسول» (١)، أي من أثر حافر فرس الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد قال العلوي عنه «ولا يكاد يوجد إلا حيث دلالة الكلام عليه» (٢)، وسماه ابن الاثير «حذف المضاف مكررا» (٣).

٥ - حذف الموصوف والصفة واقامة كل واحد منهما مقام الآخر، فمن حذف الموصوف قوله تعالى: «وآتينا ثمودَ الناقةَ مُبْصِرةً» (٤) أي: آية مبصرة ولم يرد الناقة فانها لامعنى لوصفها بالبصر. ومنه قول الشاعر:

أنا ابن جَلا وطلاّع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

أي: أنا ابن رجل جلا.

وقول البحتري:

في اخضرار من اللباس على أصـ ـفر يختال في صَبِيغة وَرْسِ

فقوله «على اصفر» أي على فرس أصفر، وهذا مفهوم من قرينة الحال لانه لما قال «على اصفر» علم بذلك انه أراد فرسا أصفر.

ومن حذف الصفة قوله تعالى: «وكان وراءَهم مَلِكٌ يأخذُ كلَّ سفينة غَصبا (٥)» أي: كل سفينة صحيحة أو صالحة.

٦ - حذف الشرط وجوابه: ومثال حذف الشرط قوله تعالى: «ياعباديَ الذين آمنوا إنَّ أرضي واسعةٌ فإيايَ فاعبدون» (٦)، فالفاء في قوله «فاعبدون»

---

(١) طه ٩٦.

(٢) الطراز ج٢ ص١٠٧.

(٣) المثل السائر ج٢ ص٩٩.

(٤) الأسراء ٥٩.

(٥) الكهف ٧٩.

(٦) العنكبوت ٥٦.

جواب شرط محذوف ، والمعنى : إن ارضي واسعة فان لم تخلصوا إليَّ العبادة في ارض فاخلصوها في غيرها .

ومنه قوله : « فمن كان منكم مريضاً أو على سَفَرٍ فعدةٌ من أيام أُخَرٍ » (١) أي: فأفطر فعدةٌ من أيام أخر .

ومن حذف الشرط قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعةُ يُقْسِم المجرمونَ مالبثوا غيرَ ساعة ، كذلكَ يُؤفكون . وقال الذين أوتوا العلمَ والايمانَ لقد لَبِثْتُم في كتابِ اللهِ إلى يوم البعث فهذا يومُ البَعْثِ ولكنكم كنتم تعلمون » (٢) . يقول : إن كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث ، أي : قد تبين بطلان قولكم. ومنه قول الشاعر :

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ثم القـفـول فقد جئنا خراسانا

كأنه قال : إن صح ما قلتم إنَّ خراسان اقصى مايراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص .

وأما حذف جواب الشرط فكقوله تعالى : «قل أرأيتم إنْ كان من عند الله وكفرتم به وشَهِدَ شاهدٌ من بني اسرائيل على مِثْلِه فآمن واستكبرتم إنَّ الله لا يهدي القومَ الظالمين » (٣) ، فان جواب الشرط هنا محذوف تقديره : ان كان القرآن من عندالله وكفرتم به ألَسْتم ظالمين ؟ ويدل على المحذوف قوله تعالى: «إن الله لايهدي القوم الظالمين » .

ويحذف جواب الشرط :

١- لمجرد الاختصار ، كالآية السابقة ، وكقوله تعالى :

«ولو أنَّ قرآناً سُيِّرتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ ، أو كُلِّم به الموتى»(٤) أي : لكان هذا القرآن :

(١) البقرة ١٨٤ .
(٢) الروم ٥٥-٥٦.
(٣) الاحقاف ١٠.
(٤) الرعد ٣١ .

٢ – للدلالة على أنه شيء لايحيط به الوصف ، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب كقوله تعالى : «وَسِيقَ الذين اتقوا ربَّهم إلى الجنة زُمَرًا ، حتى إذا جاءوها وفُتِحَتْ أبوابُها وقال لهم خزنَتُها: سلامٌ عليكم طِبْتُم فادخلوها خالدين » (١) وقد حذف جواب الشرط لعظمة المشهد ولكي تذهب النفس في تصوره كل مذهب (٢).

ولهذا المعنى حذفت الصلة من قولهم : « جاء بعد اللَّتَيا والتي »(٣) أي المشار اليه بهما وهي المحنة والشدائد قد بلغت شدتها وفظاعة شأنها مبلغا يبهت الواصف معه حتى لايحير بنت شفة (٤).

٣ – لعلم المخبر بوضع الكلام ، وقد سأل سيبويه استاذه الخليل عن قوله تعالى: «حتّى اذا جاءوها وفُتِحَتْ أبوابها» (٥) أين جوابها؟ وعن قوله تعالى : « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذابَ » (٦) ، « ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار » (٧) ، فقال : « ان العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم المخبر لأي شيء وضع هذا الكلام » (٨).

٧ – حذف القسم وجوابه، ومثال حذف القسم «لأَفعلنَّ» أي : والله لافعلن؛ ومثال حذف جوابه قوله تعالى : « والفجرِ وليالٍ عشْرٍ ، والشَّفْعِ والوَتْرِ ، والليل اذا يسري . هل في ذلك قَسَمٌ لذي حِجْرٍ . ألم تَرَ كيف فعل ربُّك بعاد »

---

(١) الزمر ٧٣ .
(٢) ينظر الإيضاح ص ١٨٧، وشروح التلخيص ج٣ ص١٩٣.
(٣) اللتيا : تصغير التي .
(٤) مفتاح العلوم ص١٣٤ – ١٣٥، والإيضاح ص١٨٨ .
(٥) الزمر ٧٣ .
(٦) البقرة ١٦٥ .
(٧) الانعام ٢٧ .
(٨) كتاب سيبويه ج١ ص٤٥٣.

إِرَمَ ذاتِ العِماد. التي لم يُخلَق مِثلُها في البلاد (١) ﴾، فجواب القسم هنا محذوف تقديره : ليعذبن ، أو نحوه :

٨ ـ حذف «لو» وجوابها ، ومثال حذف « لو » قوله تعالى : « ما اتخذ اللهُ من وَلَد وما كان معه من إله إذَنْ لَذَهَبَ كلُّ إله بما خَلَق ولعلا بعضُهُم على بعض »(٢) . وتقديره : لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق .

ومنه قول قريط بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة إنْ ذو لوثة لانا

والتقدير : إذن لو كنت منهم لقام بنصري معشر خشن .

ومثال حذف جواب « لو » قوله تعالى : « ولو ترى إذ فَزِعوا فلا فَوْتَ وأُخِذوا من مكان قريب » (٣) . وتقدير جواب لو : لرأيتَ أمراً عظيماً . ومنه قول ابي تمام:
لو يعلم الكُفرُ كم من أعصر كَمَنت له العواقبُ بين السُّمْر والقُضُب
والتقدير : لو يعلم الكفر لاخذ أهبة الحذار .

٩ ـ حذف جواب « لولا » كقوله تعالى : « إنَّ الذين يُحبون أنْ تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا ، لهم عذابٌ أليم في الدنيا والآخرة واللهُ يعلم وانتم لاتعلمون . ولولا فَضْلُ الله عليكم ورحمتُهُ وأنَّ اللهَ رؤوفٌ رحيم » (٤) تقديره : ولولا فضل الله ورحمته لعجَّل لكم العذاب .

١٠ ـ حذف جواب « لمّا » كقوله تعالى : « فلمّا أسلما وتلَّه للجبين. وناديناه أنْ يا ابراهيمُ قد صدَّقتَ الرؤيا، إنا كذلك نَجزي المحسنين» (٥)، وتقديره :

---

(١) الفجر ٦ ـ ٨ .
(٢) المؤمنون ٩١ .
(٣) سبأ ٥١ .
(٤) النور ١٩ ـ ٢٠ .
(٥) الصافات ١٠٣ ـ ١٠٥ .

فلما اسلما وتلّه للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا كان ما كان مما يتعلق به الحال ولايحيط به الوصف .

١١ ـ حذف جواب «أما»، كقوله تعالى : «فأما الذين اسودّت وجوهُهم أكفرتم بعد إيمانكم» (١)، والتقدير : فيقال لهم أكفرتم بعد ايمانكم، فحذف القول وأقام المقول مقامه.

١٢ ـ حذف جواب «اذا»، كقوله تعالى : «واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم تُرحمون. وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلاّ كانوا عنها معْرضين » (٢)، والتقدير : واذا قيل لهم اتقوا أعرضوا وأصرّوا على تكذيبهم، وقد دلّ عليه قوله : «الاّ كانوا عنها معرضين».

١٣ ـ حذف المبتدأ والخبر. ولا يكون خلف المبتدأ الا مفرداً، والاحسن حذف الخبر لان منه ما يأتي جملة. ومن المواضع التي يحسن فيها حذف المبتدأ على طريق الايجاز قولهم «الهلال والله» أي : هذا الهلال.

ومن المواضع التي يصح فيها حذف الخبر قولنا «لولا محمد لكان كذا» .

ومن المواضع التي يحتمل أن يكون المحذوف فيها اما المبتدأ واما الخبر قوله تعالى : «فَصَبْرٌ جميلٌ» (٣)، فيحتمل ان يكون المبتدأ محذوفا وتقديره : «فأمري صبر جميل»، ويحتمل أن يكون من باب حذف الخبر وتقديره : «فصبر جميل أجمل».

١٤ ـ حذف « لا » من الكلام وهي مرادة، كقوله تعالى : «تالله تفتأ تذكُرُ يُوسُفَ» (٤) أي : لا تفتأ، فحذفت «لا» من الكلام وهي مرادة .

ومنه قول امرىء القيس :

(١) آل عمران ١٠٦.

(٢) يس ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) يوسف ١٨ ، ٨٣ .

(٤) يوسف ٨٥ .

فقلت : يمينَ الله أبرحُ قاعداً ولو قطّعوا رأسي لديك وأوصالي

أي : لا أبرح قاعداً.

١٥ ــ حذف الواو من الكلام واثباتها، واحسن حذفها من المعطوف والمعطوف عليه، ومنه قوله تعالى : «يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تُخفي صدورهم أكبر»(١)؛ أي : لايألونكم خبالا وودوا ...

١٦ ــ حذف بعض الكلمة وهو سماعي لا يجوز القياس عليه، (٢) ومنه قول علقمة بن عبدة :

كأن إبريقهم ظبي على شرَفٍ مُفَدَّمٌ بسَبا الكتّان ملثومُ (٣)

فقوله «بسبا الكتان» يريد بسبائب الكتان.

وهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن وان كانت العرب قد استعملته فانه لايجوز لنا أن نستعمله.

النوع الثاني : حذف الجمل وهو قسمان :

أحدهما : حذف الجمل المفيدة التي تستقل بنفسها كلاما وهذا احسن المحذوفات وأدلها على الاختصار ولا نكاد نراه الا في كتاب الله تعالى.

وثانيهما : حذف الجمل غير المفيدة .

وجملة هذين النوعين أربعة أضرب :

الضرب الأول : حذف السؤال المقدر ويسمى الاستئناف ويكون على وجهين :

١ ــ اعادة الاسماء والصفات، كقوله تعالى : «ألم. ذلكَ الكتابُ لاريبَ فيه هدى للمتقين الذين يُؤمنون بالغيب ويُقيمون الصلاةَ ومما رزقناهم ينفقون.

(١) آل عمران ١١٨.

(٢) ينظر المثل السائر ج٢ص١١٣، والطراز ج٢ص١١٢.

(٣) الفدام : خرقة تجعل في فم الإبريق . سبائب الكتان: جمع سبيبة ،وهي الشقة، وقيل : الشقة البيضاء .

والذين يُؤمنون بما أُنزلَ اليك وما أُنزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون، أولئك على هُدًى من ربهم واولئك هم المفلحون» (١) والاستئناف واقع في هذا الكلام على «اولئك» لانه لما قال «ألم. ذلك الكتاب» إلى قوله: «وبالآخرة هم يوقنون» اتجه لسائل أن يقول: مابال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى، فأجيب بأن اولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا.

٢ – الاستئناف بغير اعادة الاسماء والصفات، كقوله تعالى: «ومالي لاأَعْبُدُ الذي فطرني واليه تُرْجَعون. أأتخذ من دونه آلهةً إنْ يُرِدْنِ الرحمنُ بضُرٍّ لاتُغْنِ عنّي شفاعتُهم شيئاً ولا يُنْقِذون. إني اذن لفي ضلال مبين. إني آمنت بربكم فاسمعون. قيل ادخل الجنةَ قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرَمين» (٢). فخرج هذا القول مخرج الاستئناف، لان ذلك من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه، وكأن قائلا قال: كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصلّب في دينه والتسخي لوجهه بروحه؟ فقيل: قيل أدخل الجنة ولم يقل: قيل له، لانصباب الغرض إلى المقول لاإلى المقول له مع كونه معلوماً، وكذلك قوله تعالى: «ياليت قومي يعلمون» مرتّب على تقدير سؤال سائل عما وجد.

الضرب الثاني: الاكتفاء بالسبب عن المسبب وبالمسبب عن السبب، فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب فكقوله تعالى: «وما كُنْتَ بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمْرَ وما كُنْتَ من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قروناً فتطاولَ عليهم العُمُرُ» (٣). فذكر الرحمة التي هي السبب في ارساله إلى الخلق ودلّ بها على المسبب وهو الارسال وعليه قول المتنبي:

(١) البقرة ١–٥.

(٢) يس ٢٢–٢٧.

(٣) القصص ٤٤–٤٥.

أنسى الزمانَ بغوه في شيبته فتسرّهم وأتيناه على الهَرَمِ

أي : فساءنا .

وأما حذف الجملة غير المفيدة من هذا الضرب فكقوله تعالى حكاية عن مريم ـ عليها السلام ـ : «قالت أنّى يكونُ لي غلامٌ ولم يَمْسَسْني بَشَرٌ ولم أكُ بَغِيّاً . قال كذلكِ قال ربُّكِ هو عليَّ هيّن ولنجعلَه آيةً للناس ورحمةً منا وكان أمراً مقضيّاً »(١) ، فقوله : « ولنجعله آية الناس » تعليل معلّله محذوف أي : وانما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس ، فذكر السبب الذي صدر الفعل من أجله ، وهو جعله آية الناس ، ودلّ به على المسبب الذي هو «الفعل» .

واما الاكتفاء بالمسبب عن السبب ، فكقوله تعالى: « فاذا قرأتَ القرآنَ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (٢) ، أي: إذا أردت قراءة القرآن : فاكتفي بالمسبب الذي هو القرآن عن السبب الذي هو الارادة ، والدليل على ذلك أن الاستعاذة قبل القراءة والذي دلت عليه انها بعد القراءة .

الضرب الثالث : الاضمار على شريطة التفسير ، وهو أن يحذف من صدر الكلام مايؤتى به في آخره فيكون الآخر دليلا على الاول : وهو ثلاثة أوجه (٣) :

١ ـ أن يأتي على طريق الاستفهام فتذكر الجملة الاولى دون الثانية ، كقوله تعالى: «أفمن شرَحَ اللهُ صَدرَه للاسلام فهوعلى نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين » (٤) ، تقدير الآية: أفمن شرح الله صدره للاسلام كمن أقسى قلبه؟ ويدل على المحذوف قوله «فويل للقاسية قلوبهم» .

---

(١) مريم ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) النحل ٩٨ .

(٣) ينظر المثل السائر ج٢ص٨٦ والجامع الكبير ص١٢٥، والطراز ج٢ ص٩٧.

(٤) الزمر ٢٢.

٢ – أن يرد على حدّ النفي والاثبات، كقوله تعالى: « لايستوي منكم مَنْ أنفق قَبْلَ الفتح وقاتلَ أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا »(١)، تقديره لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل، يدل على المحذوف قوله: «أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا».

٣ – أن يرد على غير هذين الوجهين، فلايكون استفهاماً ولانفياً واثباتاً كقوله تعالى: «والذين يُؤْتُونَ ما آتَوا، وقلوبُهم وَجِلَةٌ أنَّهم إلى ربهم راجعون» (٢) فالمعنى في الآية: والذين يعطون ماأعطوا من الصدقات وسائر القرب الخالصة لوجه الله تعالى «وقلوبهم وجلة» أي: خائفة من أن ترد عليهم صدقاتهم فحذف قوله «ويخافون أن ترد عليهم هذه النفقات»، ودل عليه بقوله «وقلوبهم وجلة» فظاهر الآية انهم وجلون من الصدقة وليس وجلهم لاجل الصدقة، وانما وجلهم لاجل خوف الرد المتصل بالصدقة:

وكقول أبي تمام:

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسناته آثامُ

والتقدير: أنه يتجنب الآثام فإذا تجنبها فقد أتى بحسنة ثم يخاف أن لاتكون تلك الحسنة مقبولة، فكأنما حسناته آثام فلم يخف الحسنة لكونها حسنة وانما خاف مايتصل بها من الرد فكأنها مخوفة كما تخاف الآثام.

ومنه قول أبي نواس:

سنةُ العشاقِ واحدةٌ فإذا أحببت فاستكنِ

فحذف الاستكانة من الاول وذكرها في المصراع الثاني، لان التقدير: سُنَّة للعاشقين واحدة وهي أن يستكينوا ويتضرعوا، فإذا أحببت فاستكن.

---

(١) الحديد ١٠.

(٢) المؤمنون ٦٠.

الضرب الرابع : ماليس بسبب ولا مسبب ، ولا اضمار على شريطة التفسير ، ولااستئناف . فمن حذف الجمل المفيدة فيه قوله تعالى: « قال تزرعون سبعَ سنينَ دأباً فما حصدتُم فذروه في سُنبُلِه إلاّ قليلا مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكلنَ ما قدَّمتم لهن إلاّ قليلا مما تُحصِنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاثُ الناسُ وفيه يَعصِرون» . وقال الملكُ ائتوني به»(١)، فانه حذف من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها: فرجع الرسول اليهم فأخبرهم بمقالة يوسف فعجبوا لها أو فصدقوه عليها وقال الملكُ : « ائتوني به » .

ومن حذف الجمل غير المفيدة قوله تعالى: « يازكريا إنّا نبشّرُك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سَميا : قال: ربِّ أنّى يكونُ لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقراً وقد بَلَغتُ من الكِبَرِ عِتيا.قال كذلك قال ربُّكَ هو عليَّ هيِّنٌ وقد خلقتكَ من قبلُ ولم تكُ شيئاً . قال: ربِّ اجعل لي آيةً، قال: آيتكَ ألاّ تكلّمَ الناسَ ثلاثَ ليالٍ سويا. فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبّحوا بكرةً وعَشيا. يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوة وآتيناه الحُكمَ صبيا» (٢). هذا الكلام قد حذفَ منه جملة دلّ عليها صدره وهو البشرى بالغلام ، وتقديرها : ولما جاءه الغلام ونشأ وترعرع قلنا له : يايحيى خذ الكتاب بقوة ، فالجملة المحذوفة ليست من الجمل المفيدة .

ومما ورد على ذلك شعراً قول المتنبي :

لا أبغض العيسَ لكني وقيت بها قلبي من الهمّ أو جسمي من السَقَمِ

وفي هذا البيت حذف ، والتقدير : لا أبغض العيس لانضائي اياها في الاسفار ولكني وقيت بها كذا وكذا ، الثاني دليل على حذف الاول.

(١) يوسف ٤٧ - ٥٠.
(٢) مريم ٧ - ١٢.

ومما يتصل بهذا الضرب حذف مايجيء بعد «أفعل» مثل : «الله أكبر» أي: أكبر من كل كبير :

وعليه ورد قول البحتري :

الله أعطاك المحبة في الورى　　وحباك بالفضل الذي لاينُكَرُ

ولأنت أملأ في العيون لديهم　　وأجلّ قدراً في الصدور وأكبرُ

أي : أنت أملأ في العيون من غيرك (١) .

(١) ينظر التفصيل في هذه المسائل، المثل السائر ج٢ص٧١ وما بعدها، والجامع الكبير ص١٢٢ وما بعدها، والإيضاح ص١٨٥ وما بعدها، والطراز ج٢ص٨٨ وما بعدها ، وشروح التلخيص ج٣ص١٨٣ وما بعدها

المبحث الثاني

الأطناب

تعـــريفه :

الاطناب – لغة – مصدر أطنب في كلامه اطناباً ، إذا بالغ فيه وطوّل ذيوله لافادة المعاني . واشتقاقه من قولهم : « أطنب بالمكان، إذا طال مقامه فيه .

والاطناب اصطلاحاً – زيادة اللفظ على المعنى لفائدة.

وقد شغلَ هذا الاسلوب النقاد منذ عهد مبكر وعرض له الجاحظ ، وعقد له البلاغيون فصولا اضافية ، من ذلك مافعله أبو هلال العسكري الذي ذكر في مطلع البحث حجة أصحاب الاطناب فقد قالوا : « المنطق انما هو بيان ، والبيان لايكون إلاّ بالاشباع والشفاء لايقع إلاّ بالاقناع ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشده احاطة بالمعاني ولا يُحاط بالمعاني احاطة تامة إلاّ بالاستقصاء ، والايجاز للخواص ، والاطناب مشترك فيه الخاصة والعامة ، والغبي والفطن ، والريض والمرتاض ، ولمعنى ماأطيلت الكتب السلطانية في افهام الرعايا » (١). ولكن أبا هلال يرى أن الايجاز والاطناب يحتاج اليهما في الكلام ، وهذا هو الصحيح لتتم المطابقة لمقتضى الحال.

وكان ابن الاثير من أكثر البلاغيين اهتماما بهذا الاسلوب ، وقد عرفه بقوله : « هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة » (٢) .

وعرّفه ابن قيّم الجوزية بقوله : « هو زيادة في اللفظ لتقوية المعنى » (٣) ، ويتفق هذا التعريف مع التعريفات الاخرى التي لاتكاد تخرج عن هذا المعنى وهو أن الاطناب زيادة اللفظ لغرض يقصد اليه المتكلم ، وإلاّ كان اطالة لايقتضيها المقام .

(١) كتاب الصناعتين ص ١٩٠.

(٢) المثل السائر ج٢ ص١٢٨ ، وينظر الجامع الكبير ص١٤٦.

(٣) الفوائد ص١٠١.

والتطويل من المصطلحات التي تردد ، وقد ذم بعضهم هذا الاسلوب وميّز بينه وبين الاطناب ، فقال أبو هلال : « فالاطناب بلاغة والتطويل عيّ ، لان التطويل بمنزلة سلوك مايبعد جهلا بما يقرب ، والاطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوي على زيادة فائدة » (١) :

وفرّق ابن الاثير بينهما فقال في التطويل انه « يدل على المعنى بلفظ يكفيك بعضه في الدلالة عليه» (٢) . وقال عنه : « هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة » (٣) في حين قال عن الاطناب إنه « زيادة اللفظ على المعنى لفائدة » (٤) وإذا حذفت منه الزيادة المؤكدة للمعنى تغير ذلك المعنى وزال ذلك التأكيد عنه وذهبت فائدة التصوير والتخييل التي تفيد السامع مالم يكن الا بها ، فقوله تعالى : « فانها لاتعمى الابصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور »(٥) لايسمى إيجازاً لانه أتى فيه بزيادة لفظ هي « الصدور » ولا يسمى تطويلا لان التطويل لافائدة فيه اصلا وهذا فيه فائدة ولذلك سمي اطنابا ، وليس كذلك التطويل فالبيت :

طلوع الثنايا بالمطايا وسابق إلى غاية من يبتدرها يقدَّم

فيه تطويل لان لفظة « المطايا» فضلة لاحاجة اليها (٦) :

وفرّق الخطيب القزويني بين الاطناب والتطويل ولكنه قال عن الثاني : « وهو أن لايتعيّن الزائد في الكلام». (٧) وسُمّي الذي يتعين فيه الزائد حشواً ؛ .

---

(١) كتاب الصناعتين ص١٩١.
(٢) المثل السائر ج٢ص٧٤ .
(٣) المثل السائر ج٢ص١٢٩ .
(٤) المثل السائر ج٢ص١٢٨ .
(٥) الحج ٤٦ .
(٦) ينظر المثل السائر ج٢ص٧٤ و ص١٥٧ .
(٧) الإيضاح ص١٧٧.

يأتي الاطناب على أشكال مختلفة منها :

١- الايضاح بعد الابهام : ويأتي لاغراض :

الأول : ليرى المعنى في صورتين مختلفتين .

الثاني : ليتمكن في النفس فضل تمكن ، فان المعنى إذا ألقي على سبيل الاجمال والابهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والايضاح .

الثالث : لتكمل اللذة بالعلم به ، فان الشيء إذا حصل كال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به ألم وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول فيحصل لها بسبب المعلوم لذة .

الرابع : لتفخيم الامر وتعظيمه .

ومثال هذا الاسلوب قوله تعالى : « وقضينا اليه ذلك الأمْرَ أنَّ دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصْبِحين»(١)، فان «أنَّ دابرَ هؤلاء مقطوع مصبحين» ايضاح للابهام الذي تضمنه لفظ «الامر» وفيه تفخيم للامر وتعظيم له . ومنه قوله تعالى : « قال ربِّ اشرحْ لي صَدْري ويسِّر لي أمْري »(٢)، فان قوله « اشرح لي » يفيد طلب شرح لشيء ما ، وقوله « صدري» يفيد تفسيره وبيانه ، وكذلك قوله: « يسّر لي امري» والمقام مقتضٍ للتأكيد .

ومن الايضاح بعد الابهام باب « نعم وبئس » إذ لو لم يقصد الاطناب لقيل « نعم محمد» و « بئس زيد ».

(١) الحجر ٦٦.

(٢) طه ٢٥-٢٦.

ومنه «التوشيع» وهو أن يؤتى في عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين، احدهما معطوف على الآخر، كما جاء في الخبر: «يشيب ابن آدم وتشب معه خصلتان: الحرص وطول الامل».

ومنه قول الشاعر:

سقتني في ليل شبيه بشعرها شبيهة خديها بغير رقيب
فما زلت في ليلين: شعر وظلمة وشمسين: من خمر، ووجه حبيب

ومنه قول ابن الرومي:

إذا أبو قاسم جادت لنا يده لم يحمد الاجودان: البحرُ والمطرُ
وإنْ أضاءت لنا أنوار غرته تضاءل النّيران: الشمسُ والقمرُ
وإنْ نضا حدّه أو سلّ عزمته تأخر الماضيان: السيفُ والقَدَرُ
من لم يَبِتْ حَذِرا من سطوصولته لم يدر ماالمزعجان: الخوفُ والحذرُ
ينال بالظن مايعيي العيان به والشاهدان عليه: العينُ والأثرُ

وقول البحتري:

لما مشين بذي الاراك تشابهت أعطافُ قضبان به وقدود
في حلّتي حبر وروض فالتقى وردان: وردُ جنى وورد خدود(1)

٢ – ذكر الخاص بعد العام: ويؤتى به للتنبيه على فضل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات، كقوله تعالى: «حافظوا على الصلوات، والصلاة الوسطى»(2) وقد خصّ «الصلاة الوسطى» – وهي صلاة العصر – بالذكر لزيادة فضلها. ومنه قوله تعالى: «من كان

---

(1) ينظر الإيضاح ص١٩٥–١٩٦، وخزانة الأدب ص١٦٩، والبرهان في علوم القرآن ج٢ص٤٧٧، وشروح التلخيص ج٣ص٢١٥.

(2) البقرة ٢٣٨.

عدواً لِلَّه وملائكته ورسله وجبريل وميكال »(١)، و«جبريل» و«ميكائيل» من الملائكة.

وقوله: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر»(٢) والامر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في الخير ولكنه تعالى خصهما.

ومنه قول المتنبي:

فان تَفُقِ الانامَ وأنـــت منهم ... فان المسْكَ بعضُ دمِ الغزالِ

وقول ابن الرومي:

كم من أبٍ قد علا بابن ذرا شرف ... كما علت برسول الله عدنانُ(٣)

٣ - ذكرالعام بعد الخاص: ويؤتى به لافادة العموم مع العناية بشأن الخاص. قال الزركشي: «وهذا أنكر بعض الناس وجوده، وليس بصحيح» (٤) ومثل له بقوله تعالى: «إنَّ صلاتي ونُسُكي»(٥)، والنسك العبادة، فهو أعم من الصلاة.

ومنه قوله تعالى: «ألم يعلموا أنَّ اللّه يعلم سِرَّهم ونجواهم، وأنَّ اللهَ علاّمُ الغيوب»(٦).

---

(١) البقرة ٩٨.
(٢) آل عمران ١٠٤.
(٣) الإيضاح ص ١٩٧ ، وشروح التلخيص ج٣ص٢١٦، والبرهان في علوم القرآن ج٢ص٤٦٤
(٤) البرهان في علوم القرآن ج٢ص٤٧١ .
(٥) الانعام ١٦٢.
(٦) التوبة ٧٨.

٤ ــ **التكرير:** وهو أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أم مختلفا، أو يأتي بمعنى ثم يعيده (١).

ويؤتى به لاغراض:

الاول: التأكيد، كقوله تعالى: «كلاّ سوف تعلمون. ثم كلاّ سوف تعلمون» (٢)، وفي «ثم» دلالة على ان الانذار الثاني أبلغ وأشدّ.

الثاني: زيادة التنبيه على ماينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومنه قوله تعالى: «وقال الذي آمن: ياقوم اتبعون أهْدِكُم سبيلَ الرشاد. ياقوم إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ» (٣)، فانه كرر فيه النداء لذلك.

الثالث: اذا طال الكلام وخشي تناسي الاول أعيد ثانيا تطريةً له وتجديداً لعهده، كقوله تعالى: «ثم إنَّ ربّكَ للذين عملوا السوء بجهالة، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا، إنّ ربك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ» (٤).

الرابع: في مقام التعظيم والتهويل، كقوله تعالى: «الحاقةُ. ماالحاقةُ» (٥) وقوله: «القارعةُ ماالقارعةُ؟» (٦)، وقوله: «إنّا انزلناه في ليلة القَدْرِ. وماأدراكَ ماليلة القَدْرِ؟» (٧).

---

(١) ينظر الفوائد ص١١١، والمثل السائر ج٢ ص١٢٩، ١٥٧، والجامع الكبير ص٢٠٤، وخزانة الأدب ص١٦٤، والمصباح ص١٠٥.

(٢) التكاثر ٣ ــ ٤.

(٣) غافر ٣٨ ــ ٣٩.

(٤) النحل ١١٩.

(٥) الحاقة ١ ــ ٢.

(٦) القارعة ١ ــ ٢.

(٧) القدر ١ ــ ٢.

الخامس: التعجب، كقوله تعالى: «فقُتِلَ كيف قدَّر. ثم قُتِلَ كيف قدَّر»(١) فأعيد تعجبا من تقديره واصابته الغرض.

السادس: لتعدد المتعلق، كما كرره تعالى من قوله: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» في سورة الرحمن، فانها وان تعددت فكل واحد منها متعلق بما قبله.

السابع: الترغيب في قبول النصح، كقوله تعالى: «وقال الذي آمن ياقوم اتبعون اهدِكُم سبيل الرشاد. ياقوم إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ وإنَّ الآخرةَ هي دارُ القرار »(٢)، فقد كرر «ياقوم» لتعطيف قلوبهم.

الثامن: التلذذ بذكر المكرر، كقول الشاعر:

سقى الله نجداً والسلامُ على نجد   وياحبَّذا نجدٌ على القُرْبِ والبُعْدِ

التاسع: اظهار التحسر كقول الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة:

فيا قبرَ معْنٍ أنت أولُ حفرة   من الأرض خُطَّت للسماحة موضعا
ويا قبرَ معن كيف واريت جودَه   وقد كان منه البرُّ والبحرُ مترعا

ويؤتى به لغير ذلك من الاغراض التي يحددها المقام (٣) ».

٥ – **الايغال:** اختلف في معناه، فقيل: هو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، كزيادة المبالغة في قول الخنساء:

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ به   كأنَّه علَمٌ في رأسه نارُ

فهي لم تقف عند تشبيهه بالجبل المرتفع بل أضافت النار في رأسه. وقيل انه

---

(١) المدثر ١٩ – ٢٠.
(٢) غافر ٣٨ – ٣٩.
(٣) ينظر الإيضاح ص ١٩٧، وشروح التلخيص ج٣ص٢١٨، والبرهان في علوم القرآن ج٣ص١١.

لايختص بالنظم، ومن ذلك قوله تعالى: «اتبعوا من لايسألكم أجْراً وهم مهتدون»(١)

ولذلك فتعريفه بأنه «الاتيان في مقطع البيت وعجزه أو في الفقرة الواحدة بنعت لما قبله مفيد للتأكيد والزيادة» (٢) يجمع النوعين .

٦ – التذييل: قال ابن سنان: «هو أن يكون اللفظ زائداً على المعنى وفاضلاً عنه» (٣) .

ويفهم من هذا التعريف أنه يريد «التطويل» ، أو الاطناب، لأنه قسم دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام: المساواة والتذييل والإشارة. وليس كذلك تعريف المتأخرين، فهو «تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد» (٤). وقد قال أبو هلال عن هذا الأسلوب: «وأما التذييل فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه ويتوكد عند من فهمه ، وهو ضد الاشارة والتعريض. وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة والمواقف الحافلة، لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الالفاظ على المعنى الواحد توكّد عند الذهن اللقن وصحّ للكليل البليد» (٥) .

---

(١) يس ٢١ .

(٢) الطراز ج٣ص١٣١، وينظر سر الفصاحة ص ١٨١، وكتاب الصناعتين ص٣٨٠، والجمع الكبير ص٢٤١، والمصباح ص١٠٤، وبديع القرآن ص٩١، وتحرير التحبير ص ٢٣٢، ٢٤١، وخزانة الأدب ص ٢٣٤، والايضاح ص١٩٩، وشروح التلخيص ج٣ ص٢٢٠.

(٣) سر الفصاحة ص٢٤٣ ، ٢٥٦.

(٤) الإيضاح ص٢٠٠، المصباح ص٩٨، الفوائد ص١٢١، شروح التلخيص ج٣ ص٢٢٥، الطراز ج٣ص١١١، البرهان في علوم القرآن ج٣ص٦٨، خزانة الأدب ص ١١٠ .

(٥) كتاب الصناعتين ص٣٧٣.

والتذييل ضربان :

الأول : لايخرج مخرج المثل لعدم استقلاله بإفادة المراد وتوقفه على ماقبله كقوله تعالى: «ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نُجازي إلاّ الكفور» (١) أي : هل نجازي ذلك الجزاء الذي يستحقه الكفور إلاّ الكفور، فإن جعلنا الجزاء عاماً كان الثاني مفيداً فائدة زائدة ؛

ومنه قول الشاعر :

فَدَعَوْا نزالِ فكنت أول نازل   وعلام أركبه إذا لم أنـــــزلِ

فالشطر الثاني تذييل ولكنه غير مستقل عن الأول ؛

وقول المتنبي :

وما حاجة الأظعان حولك في الدجى   إلى قمر؟ماواجد لك عادمه (٢)

فقوله «ماواجد لك عادمه» تذييل ؛

وقول ابن نباتة السعدي :

لم يُبْقِ جودُك لي شيئاً أؤمله   تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

فقوله «تركتني أصحب الدنيا بلا أمل» تذييل غير مستقل عن الجملة السابقة.

الثاني: يخرج مخرج المثل لاستقلاله بنفسه، كقوله تعالى: «وقل : جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زَهوقاً»(٣)،فقوله«إن الباطل كان زهوقا» تذييل وهو مستقل عن السابق ولذلك يخرج مخرج المثل.

---

(١) سبأ ١٧ .

(٢) أي لايعدم القمر من يجدك .

(٣) الاسراء ٨١ .

ومنه قوله تعالى: «وما جعلنا لبشر من قبلك الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فهم الخالدون ؟ كُلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت»(١)، فقوله «كل نفس ذائقة الموت» مستقلة ويضرب بها المثل .

ويصح أن يكون قوله «أفإن مت فهم الخالدون» من الضرب الأول أيضاً. وقوله: «وما أُبرىء نفسي، إنَّ النفس لأمارةٌ بالسوء»(٢)، فقوله « إن النفس لأمارة بالسوء» تذييل يضرب به المثل.

ومنه قول النابغة الذبياني .

ولستَ بمستبقٍ أخا لاتلمه على شَعَثٍ أيُّ الرجال المهذَّبُ

فقوله «أي الرجال المهذب» تذييل وهو مستقل عما قبله ولذلك يضرب به المثل.

وقول أبي نواس .

عَرَّمَ الزمانُ على الذين عهدتهم بك قاطنين ، وللزمان عُرامُ (٣)

فقوله «وللزمان عرام» تذييل وهو مثل .

ومنه قول ابراهيم بن المهدي في رثاء ولده .

تبدَّل داراً غير دار وجيرة سواي ، وأحداثُ الزمان تنوبُ

فقوله «وأحداث الزمان تنوب» مثل ، وهو مستغن عمَّا قبله.

والتذييل .

١ ـ اما لتأكيد منطوق كلام، كقوله تعالى: «وقل جاء الحقّ وزَهَقَ الباطلُ إن الباطل كان زَهوقاً» (٤)

(١) الأنبياء ٣٤-٣٥ .
(٢) يوسف ٥٣ .
(٣) العرام : الشدة والشراسة والأذى .
(٤) الاسراء ٨١ .

٢ – واما لتأكيد مفهومه كبيت النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخا لاتلمّـه على شعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذّبُ

٧ – التكميل: هو الاحتراس، غير أن بدر الدين بن مالك يذكر في كتابه «المصباح» (١) نوعين هما :

الاول: الاحتراس : وهو أن تأتي في المدح أو غيره بكلام فتراه مدخولا بعيب من جهة دلالة منطوقه أو فحواه فتردفه بكلام آخر لتصونه عن احتمال الخطأ، ومنه قول الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكين حَوْلي على إخوانهم لقتلتُ نفسي

فقطنت لتوجه أن يقال لها قد ساويت أخاك بالهالكين من اخوان الناس فلم فرطت في الجزع عليه ، فاحترست بقولها :

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزّي النفس عنه بالتأسي

الثاني: التكميل: وهو أن تأتي في شيء من الفنون بكلام فتراه ناقصاً لكونه مدخولا بعيب من جهة دلالة مفهومه فتكمله بجملة ترفع عنه النقص :

ومنه قول السموأل :

وما مات منّا سيدٌ في فراشه ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قتيلُ (٢)

فرأى انه وصف قومه بالصبر على القتل دون الانتصار من قاتليهم فكمله بالشطر الثاني :

(١) المصباح ص ٩٧ – ٩٨ .

(٢) يقول الشطر الاول إنهم شجعان أهل حرب لايموت أحدهم موتاً طبيعياً وإنما يموتون بجراحات المعركة . وطل الرجل : أهدر دمه . ومعناه : أنهم لايفوتهم ثأر قتيل من قتلاهم ، فهم أقوياء.

وجمع معظم البلاغيين المصطلحين وقال القزويني : «وأما بالتكميل ويسمى الاحتراس أيضاً وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه» (١)، وهو ضربان :

الأول : ضرب يتوسط الكلام ، كقول طرفة :

فسقى ديارك — غير مفسدها — صوبُ الربيع وديمةٌ تَهْمي

فقوله «غير مفسدها» احتراس عن أن تذهب معالمها.

وقول الآخر :

لو أن عزّة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لَها

فقوله «عند موفق» تكميل واحتراس من أنها تقاضي الشمس عند حاكم غير موفق .

وقول ابن المعتز :

صببنا عليها — ظالمين — سياطنا فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

فقوله «ظالمين» احتراس أو تكميل، ولو حذفها الشاعر لفهم أن فرسه بطيئة تستحق الضرب .

الثاني : ضرب يقع في آخر الكلام ، كقوله تعالى: «فسوف يأتي اللهُ بقوم يُحبهم ويُحبونَه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين» (٢)، فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتوهم أن ذلتهم لضعفهم، فلما قال «أعزة على الكافرين» علم أنها منهم تواضع لهم .

ومنه قول عنترة :

أثني عليّ بما علمتِ فإنني سهلٌ مُخالقتي إذا لم أُظْلَمِ

(١) الإيضاح ص٢٠٢ ، وينظر شروح التلخيص ج٣ ص٢٣١ ، والبرهان في علوم القرآن ج٣ص٦٤ ، والطراز ج٣ص١٠٨ وسماه «الاكمال».

(٢) المائدة ٥٤ .

فقوله «إذا لم أظلم» احتراس دل به على أنه قد يخالف فيرجع إلى الحق راضياً ولكنه لايقبل الظلم .

٨ — التقسيم : وهو أن يؤتى في كلام لايوهم خلاف المقصود بفضلة (١) لتفيد نكتة (٢) ، أو كما قال العلوي: «هو تقييد الكلام بفضلة» (٣)؛ ويأتي لأغراض:
الأول : المبالغة، كقوله تعالى: «ويُطعمون الطعامَ على حبه» (٤) أي : مع حبه ، والضمير للطعام أي مع اشتهائه والحاجة إليه.
ومنه : «وآتى المالَ على حبّه» (٥) ، وقوله : «لن تنالوا البر حتى تُنفقوا مما تحبون» (٦) ؛
ومنه قول زهير :

مَنْ يَلْقَ يوما على علاّته هَرِماً يَلْقَ السماحةَ منه والندى خُلُقا

فقوله «على علاته» تتميم المبالغة.
الثاني :الصيانة عن احتمال الخطأ فتره رافعة له: ومنه قول الشاعر :

لئن كان باقي عيشنا مثلَ ماضي فللحبُّ إن لم يدخل النار أرْوَحُ

فقوله « إن لم يدخل النار » معناه سلامة العاقبة وقد أتم به المعنى صيانة عن احتمال الخطأ ، فقد أراد أن أول الحب لذة وراحة فإن كان آخره مثل أوله فهو لامحالة أحمد عاقبة؛ لكن على أن تكون العاقبة سليمة.
الثالث : استقامة الوزن ، ومنه قول المتنبي :

---

(١) الفضلة: هي غير المسند والمسند اليه.
(٢) الإيضاح ص٢٠٥، وشروح التلخيص ج٣ص٢٣٥.
(٣) الطراز ج٣ص١٠٤ .
(٤) الإنسان ٨ .
(٥) البقرة ١٧٧ .
(٦) آل عمران ٩٢ .

وخفوق قلب لو رأيت لهيبـــه ياجنّتي لرأيت فيه جهنمـــا

فقوله : «ياجنّتي» أتى بها من أجل استقامة الوزن (١) .

٩ - الاعتراض : وهو كثير في الاساليب العربية، وقد قال ابن جني : «أعلم أنّ هذا القبيل من هذا العلم كثير قد جاء في القرآن وفصيح الشعر ومنثور الكلام وهو جار عند العرب مجرى التأكيد فلذلك لايشنع عليهم ولا يستنكر عندهم»(٢).

وقال القزويني في تعريفه : «وهو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى ، بجملة أو أكثر لامحل لها من الإعراب لنكتة سوى ماذكر في تعريف التكميل» (٣)، ومنهم من يذهب إلى أن الاعتراض هو الحشو، (٤) وفرّق ابن حجة الحموي بينهما، وقال: «والفرق بينهما ظاهر، وهو أن الاعتراض يفيد زيادة في غرض المتكلم والناظم، والحشو إنما يأتي لإقامة الوزن لاغير» (٥).

والإطناب بالاعتراض أغراض بلاغية منها :

الأول: التنزيه : كقوله تعالى: «ويجعلون لله البنات - سبحانه - ولهم مايشتهون» (٦) فـ «سبحانه» تضمنت تنزيهاً لله تعالى عن البنات .

الثاني: التعظيم: كقوله تعالى : «فلا أُقسِمُ بمواقع النجوم وإنّهُ لقَسَمٌ - لو تعلمون - عظيم» (٧)

---

(١) ينظر الإيضاح ص٢٠٥ ، والطراز ج٣ص١٠٤-١٠٦

(٢) الخصائص ج ١ص٣٣٥ .

(٣) الإيضاح ص٢٠٦ ، وينظر شروح التلخيص ج٣ ص٢٣٧ ، نهاية الإيجاز ص١١١ ، المصباح ص٩٩.

(٤) ينظر المثل السائر ج٢ ص١٨٣ ، والجامع الكبير ص١١٨ ، والطراز ج٢ ص١٦٧ .

(٥) خزانة الأدب ص٣٦٦ .

(٦) النحل ٥٧ .

(٧) الواقعة ٧٥-٧٦.

الثالث : الدعاء، كما في قول عوف بن محلم يشكو كبره :

إنّ الثمانينَ – وبُلّغْتُهـا – قد أحوجتْ سمعي إلى تَرْجُمان

وقول المتنبي .

وتحتقر الدنيا احتقارَ مجـرب يرى كل مافيها – وحاشاك – فانيا

وقوله «حاشاك» دعاء حسن في موضعه .

الرابع . التنبيه، كقول الشاعر .

واعلم – فعلم المرء ينفعـه – أن سوف يأتي كلُّ ماقُـدرا

ومنه قول أبي خراش الهذلي يذكر أخاه عروة :

تقول أراه بعد عروة لاهيـا وذلك رزء – لو علمت – جليل

فلا تحسبي أني تناسيت عهـده ولكنّ صبري – ياأميم – جميل

فقوله «لو علمت» و «ياأميم» جملتان اعتراضيتان تفيدان التنبيه على عظم المصاب وعلى تجلده وصبره .

الخامس . المبادرة إلى اللوم ، كقول كثيرّ عزة .

لو ان الباخلين – وأنت منهم – رأوك تعلّموا منك المطالا

السادس . التحسر، كقول ابراهيم بن المهدي في رثاء ابنه .

واني – وان قُدِّمْتُ قبلي – لعالم بأني – وقد أخّرْتُ – منك قريب

السابع . الاستعطاف ،ومثّل له السبكي (١) ببيت المتنبي .

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه – ياجنتي – لرأيت فيه جهنما

ووجه حسن الاعتراض «حسن الافادة مع أنّ مجيئه مجيء مالا معول عليه في الافادة فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لاترتقبها» (٢).

---

(١) عروس الأفراح – شروح التلخيص ج٣ص٢٤١.

(٢) الايضاح ص٢٠٩.

وهذا هو النوع المفيد من الاعتراض، أما الذي يأتي لغير فائدة فهو على وجهين :

الاول : أن يكون غير مفيد لكنه لايكسب الكلام حسنا ولا قبحا، كقول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا – لا أبالك – يسأم

فقوله «لا أبالك» ليس فيه فائدة توكيد ،وليس فيه قبح :

الثاني : أن يكون غير مفيد لكنه يكون قبيحاً لخروجه عن قوانين العربية وانحرافه عن أقيستها، كقول الشاعر :

فقد – والشك – بيّنَ لي عناءٌ   بوشك فراقهم صُرَدٌ يصيحُ

فـ «والشك» هنا قبيح :

وهذا النوع يكون أقبح في النثر والمثل لم يأت في فصيح كلام العرب وبليغه(1).

(1) ينظر الطراز ج٢ص١٧٤.

المبحث الثالث

المساواة

تلك أساليب الايجاز والاطناب ،وما عدا ذلك فهو أسلوب المساواة التي عرفها البلاغيون بأنها تساوي اللفظ والمعنى بحيث لايزيد أحدهما على الآخر (١)، أوهي وأن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد لاناقصاً عنه بحذف أو غيره، ولا زائداً عليه بنحو تكرير أو تتميم أو اعتراض» (٢).

ومعرفة أساليب الايجاز والإطناب تحدد أسلوب المساواة، ولذلك لم نشر اليها في مطلع هذا الفصل كما فعل البلاغيون وان كان تعريف بدر الدين بن مالك يشير إلى أنها لاتعرّف إلاّ بعد تحديد الايجاز والاطناب، يقول: «أما المساواة وهو أن يكون لفظ الكلام بمقدار معناه لاناقصاً عنه بحذف للاختصار ولا زائداً عليه بمثل الاعتراض والتتميم والتكرار» (٣). ومعنى ذلك أن معرفتها رهينة بأساليب الايجاز والإطناب، فهي تالية لها في العرض والتحديد. ومن أجل ذلك تأخر الحديث عنها ليسهل التمييز ويتضح القصد، أما الاتفاق على متعارف الأوساط فهو أمر من الصعب تحديده ليقاس عليه، وذلك لاختلاف الناس في هذا المتعارف ولتعدّد الأغراض والأهداف التي ترسم الاسلوب الذي يقاس عليه الايجاز والاطناب.

---

(١) ينظر سر الفصاحة ص٢٣٤، والتبيان في علم البيان ص١٨٠، وبديع القرآن ص٧٩، وتحرير التحبير ص١٩٧، والمثل السائر ج٢ص٧٨، والفوائد ص١٧٨، والطراز ج٣ص٣٢٢، وخزانة الأدب ص ٤٥٩.

(٢) الإيضاح ص١٧٧ .

(٣) المصباح ص٣٥.

ويرى أبو هلال العسكري أن المساواة هي المذهب المتوسط بين الايجاز والإطناب، وإلى ذلك أشار القائل بقوله: «كأن ألفاظه قوالب لمعانيه» أي: لايزيد بعضها على بعض (١) .

وقال حازم القرطاجني: «لأن الكلام المتقطع الاجزاء، المنبر التراكيب، غير ملذوذ ولا مستحلى، وهو يشبه الرشفات المتقطعة التي لاتروي غليلا، والكلام المتناهي في الطول يشبه استقصاء الجرع المؤدي إلى الغصص، فلا شفاء مع التقطيع المخلّ، ولا راحة مع التطويل الممل، ولكن خير الامور أوسطها» (٢)؛

ومن أمثلة المساواة قوله تعالى: «حُوْر مقصوراتٌ في الخيام» (٣) .

وقوله . «ودّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهِنون» (٤).

وقوله . «ولا يَحيقُ المكرُ السيءُ إلاّ بأهله» (٥).

وقوله . «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرِض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره» (٦).

وقوله . «هل جزاءُ الإحسان إلاّ الإحسان؟» (٧).

وقوله . «وهل نُجازي إلاّ الكَفور؟» (٨)؛

---

(١) كتاب الصناعتين ص١٧٧.
(٢) منهاج البلغاء ص٦٥.
(٣) الرحمن ٧٢ .
(٤) القلم ٩ .
(٥) فاطر ٤٣ .
(٦) الانعام ٦٨ .
(٧) الرحمن ٦٠ .
(٨) سبأ ١٧ .

وقوله : «إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعدْل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينْهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكم لعلكم تذَكّرُون»(1) :

ومنها قول النابغة الذبياني :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أنّ المنتأى عنك واسع

وقول طرفة :

ستبدي لك الأيامُ ماكنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تـزوّدِ

وقول الآخر :

تُهْدَى الأمور بأهل الرأي ماصلحت فإن تأبّت فبالأشرار تنقـــادُ

وقول الآخر :

أهابُكِ إجلالاً وما بـك قـدرة عليّ ولكن مـلءُ عين حبيبُها

وما هجرتك النفسُ إنك عندها قليلٌ، ولكن قـلّ منـك نصيبُها

وقول زهير :

ومهما يكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ

وقوله :

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا أصبت حليماً أو أصابك جاهـلُ

وفي هذه الأمثلة مساواة بين اللفظ والمعنى، وهذا الأسلوب لايستغني عنه متكلم، وهو كالايجاز والإطناب من مقتضيات الأحوال، بل هو أكثر ضرورة منها، ولا سيما في الدراسات العلمية المعتمدة على اللفظ المطابق للمعنى لازائداً عليه ولا ناقصا عنه ليؤدي غرضه بدقة واتقان .

(1) النحل ٩٠.

الفصل السادس
تطبيقات عامة

(١)

اهتم البلاغيون والنقاد العرب بالألفاظ لان لها اهمية كبيرة في تركيب الكلام، وفرقوا بين الالفاظ في التعبير ، وقالوا ان هناك فرقا واضحا بين الكلمات ، فـ « قائم » مثلا غير « واقف» ، ورووا أن رجلا أنشد ابن هرمة قوله :

بالله ربك إن دخلت فقل لها   هذا ابنُ هرمة قائما بالباب

فقال : ما كذا قلت ، أكنت أتصدق ؟ قال : فماذا ؟ قال : واقفا . ثم قال : « ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى » (١) . وفاضلوا بين الالفاظ وقالوا ان كلمة « المدائح» أحسن وأخف من « المادح» و « نواطق» أحسن وأطبع من « مستنطقات ». و « الضمائير » صحيحة ولكنها ثقيلة غير مألوفة ولا مستعذبة . ويتضح ذلك في البيتين :

ماذا عسى مادح يثني عليك وقد   ناداك في الوحي تقديس وتطهيرُ
فتّ المـمادح الا أن السنـنا   مستنطقات بما تخفي الضمائيرُ

وقد ذكر المرزباني : « وما شيء أملك بالشعر بعد صحة المعنى من حسن اللفظ ، وهذا عمل التكلف وسوء الطبع » (٢).

وذكر الجاحظ ان الناس قد تستخف ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك، وقال ان « الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع الا في موقع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر .والناس لايذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر لانك لاتجد القرآن يلفظ به الا في

---

(١) كتاب الصناعتين ص٦٨ .
(٢) الموشح ص٤٥١ .

موضع الانتقام، والعامة واكثر الخاصة لايفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل انه اذا ذكر الابصار لم يقل الاسماع ،واذا ذكر سبع سماوات لم يذكر الارضين . ألا تراه لايجمع الارض أرضين ولا السمع اسماعاً والجاري على افواه العامة غير ذلك » (١) .

وتحدثوا عن التلاؤم في العبارة وما يوحي من رقة وجمال، وفرقوا بين قول القائل :

وقبـر حـرب بمكـان قفـر ولـيس قـرب قبـر حـرب قبر

وقول أبي حية النميري :

رمتني وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس رميم

رميم التي قالت لجارات بيتها ضمنت لكم ألاّ يزال يهيم

ألا رُبَّ يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

وقال الجاحظ عن البيت الأول: «ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وان كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها إلا ببعض الاستكراه» (٢) وقال الرماني عن أبيات النميري انها من التأليف المتلائم في حين كان البيت المنفرد من التأليف المتنافر (٣) .

وتكلموا على أثر صيغ الألفاظ في الكلام، وعقد ابن الأثير فصلا في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها،(٤) وقال «ان صيغ الألفاظ إذا نقلت من هيئة إلى هيئة كنقلها مثلا من وزن من الأوزان إلى وزن آخر أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة

(١) البيان والتبيين ج١ص٢٠ .
(٢) البيان والتبيين ج١ص٦٥ .
(٣) النكت في اعجاز القرآن — ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٨٧.
(٤) المثل السائر ج١ص٢٨١ .

الفعل أو من صيغة الفعل إلى صيغة الاسم، أو كنقلها من الماضي إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضي، أو من الواحد إلى التثنية أو إلى الجمع أو إلى غير ذلك، انتقل قبحها فصار حسناً، وحسنها صار قبحاً. ومن ذلك أن يقال «سهم صائب» فإذا جمع الجمع الحسن الذي يعذب في الفم قيل: «سهام صوائب» أو «صائبات» و «صيّب». فإذا جمع الجمع الذي يقبح قيل: «سهام صيب» — على وزن كتب — قال أبو نواس .

مأحلّ الله ماصنعت   عينه تلك العشيّة بي
قتلت انسانُها كبدي   بسهام الردى صُيُب

فقوله: «سهام صيب» من اللفظ الذي ينبو عنه السمع ويحيد عنه اللسان؛

ورأى ان وزن «افعوعل» جميل يقال: اعشوشب المكان، واغرورقت العين واحلولى الطعم. وهذا يدل على ان لصيغة اللفظة أهمية في الكلام وأثراً في النفس:؛

وربطوا بين اللفظ والمعنى حينما تحدثوا عن ائتلافهما، لذلك تكون ألفاظ الغزل والعتاب رقيقة وتكون الفاظ الحماسة والهجاء جزلة و شديدة. ومن ذلك قول بشار بن برد .

تثاقل ليلي فما أبرحُ   ونام الصباح فما أصبحُ
وكنت امرءً بالصبا مولعا   وباللهو عندي له مفتحُ
لقد كنت أمسي على طربة   وأصبح من مرح أمرحُ

وألفاظ هذه الأبيات رشيقة ليس فيها شدة، ولكن بشاراً حينما فخر قال:

اذا ما غضبنا غضبةً مضريةً   هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة   ذرا منبر صلّى علينا وسلّما
وإنا لقومٌ ماتزال جيادنا   تساور ملكا أو تناهب مغنما

خلقنا سماءه فوقنا بنجومه ... صيوفاً وتقماً يقبض الطرف أقتما

وهذه الألفاظ غير ماني الأبيات الثلاثة. ويتضح الائتلاف بين اللفظ والمعنى في كثير من الشعر الجيد، وظهر ذلك في كتاب الله، فهو حينما يصور المعنى يستخدم اللفظ الدال عليه، ومن ذلك كلمة «اثاقلتم» في قوله تعال: «ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض» (١) فهي تدل على المعنى بوضوح وتوحي بالثقل، ومثلها كلمة «لتبطئن» في قوله تعالى: «وإنَّ منكم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ» (٢)، فهي تدل على البطء في الحركة، ومثلها أيضاً كلمة «يصطرخون» في قوله تعالى: «والذين كفروا لهم نارُ جهنم لايُقضَى عليهم فيموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها كذلك نجزي كلَّ كفور. وهم يَصطرِخُون فيها ربنا أخرجنا نَعملْ صالحاً غيرَ الذي كُنَّا نَعملُ» (٣) فهي تمثل المعنى أحسن تمثيل وتصور غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان.

فالألفاظ في الكلام ذات دلالة وإيحاء، ولذلك اهتم بها النقاد والبلاغيون وأولوها عناية كبيرة، وتحدثوا عنها في كتبهم غير أن كتب البلاغة المتأخرة حصرت هذه الدراسة في فصاحة الكلام وفصاحة المفرد ووضعت لكل منها شروطاً حدتها وأوقفت نسغ الحياة في مثل هذه الدراسات.

هذه بعض جوانب دراسة الالفاظ، وفي النصوص الآتية ألفاظ كثيرة، فاختر بعضها وتحدث عما فيها من ايحاء او تلاؤم أو رقة أو جزالة وغير ذلك مما له علاقة بين اللفظ والمعاني في ضوء ما تقدم.

---

(١) التوبة ٣٨.

(٢) النساء ٧٢.

(٣) فاطر ٣٦ - ٣٧.

١ – قال تعالى: «أذلك خيرٌ نُزُلاً أم شجرةُ الزَّقُّوم: إنا جعلناها فتنةً للظالمين. إنَّها شَجَرَةٌ تَخرُجُ في أصْلِ الجحيم. طَلْعُها كأنه رؤوس الشياطين. فإنَّهم لآكلونَ منها فمالئون منها البطونَ. ثم إنَّ لهم عليها لَشَوْباً من حميم. ثم إنَّ مَرْجِعَهم لإلى الجحيم» (١).

٢ – وقال: «ربِّ هَبْ لي حُكْماً وألْحِقني بالصالحين. واجْعَلْ لي لسانَ صِدْقٍ في الآخرين. واجعلني من وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم. واغْفِر لأبي إنَّه كان من الضالّين. ولا تُخزِني يوم يُبْعَثون. يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ. إلاّ من أتى اللهَ بقلبٍ سليم. وأُزلِفَتِ الجنةُ للمتقين. وبُرِّزَتِ الجحيمُ للغاوينَ. وقيل لهم أين ما كنتم تَعْبُدون. من دُونِ الله هل ينصرونكم أو يَنْتَصِرون. فكُبْكِبوا فيها هم والغاوون» (٢).

٣ – قال بشار بن برد:

أبا مسلمٍ ما طول عيشٍ بدائمٍ ... ولا سالم عمّا قليلٍ بسالمِ
على الملك الجبار يقتحم الردى ... ويصرعه في المأزق المتلاحمِ

٤ – وقال بدر شاكر السياب في قصيدة «انشودة المطر»:

عيناك غابتا نخيلٍ ساعةَ السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء كالأقمار في نَهَرْ
يرجّه المجداف وهْناً ساعة السحر
كأنما تنبض في غوريهما النجوم
وتغرقان في ضباب من أسى شفيف

---

(١) الصافات ٦٢ – ٦٨.
(٢) الشعراء ٨٣ – ٩٤.

م/١٥/ب

كالبحر صرّح اليدين فوقه السماء
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف
والموت والميلاد والظلام والضياء
فتستفيق ملء روحي رعشة البكاء
ونشوة وحشية تعانق السماء
كنشوة الطفل اذا خاف من القمر
كأن اقواس السحاب تشرب الغيوم
وقطرة فقطرة تذوب في المطر
وكركر الاطفال في عرائش الكروم
ودغدغت صمت العصافير على الشجر
أنشودة المطر ، مطر ، مطر ، مطر

(٢)

لم يعجب النقاد بعض الالفاظ التي وردت في النصوص الآتية، استخرجها وعلّق عليها، وبين ما فيها من وجوه الاستهجان:

١ ــ قال أبو تمام :

يا دهر قوّم من أخدعيك فقد   أضججت هذا الانام من خرقك

٢ ــ قال تابط شراً :

يظل بموماة ويمسي بغيرها   جحيشا ويعروري ظهور المسالك

٣ ــ قال المتنبي :

جفخت وهم لا يجفخون بهابهم   شيَمٌ على الحسب الأغر دلائلُ

٤ ــ قالت ليلى الاخيلية :

اذا هبط الحجاج أرضاً مريضة   تتبع أقصى دائها فشفاهــا
شفاها من الداء العضال الذي بها   غلام اذا هزّ القناة سقــاهــا

٥ – قال أبو تمام :

فبلاذربيجان اختيال بعدما كانت معرس عبرة ونكال
سمجت ونبها على استسماجها ماحولها من نضرة وجمال

٦ – وقال أبو نصر عبد العزيز بن نباتة :

أقام قوام الدين زيغ قناته وأنضج كييّ الجرح وهو فطير

٧ – قال الرصافي :

سكنت الخان في وطني كأني أخو سفر تقاذفه الدروب

٨ – قال السياب :

يختض قلبيهما التمتام بينهما والريح خرساء تعيي غيرها هاها

٩ – قال أحمد الصافي :

واعتزل العنكبوت أمري وفي بقاءه معي رغبت

١٠ – قال الزهاوي :

لقد كنت في درب ببغداد ماشياً وبغداد فيها للمشاة دروب
فصادفت شيخاً قد حنى الدهر ظهره له فوق متن للطريق دبيب
عليه ثياب رثة غير أنها نظاف فلم تدنس لهن جيوب
تدل غضون في وسيع جبينه على أنه بين الشيوخ كئيب

(٣)

يعني علم المعاني بأساليب الكلام عند العرب ، وقد كانت في كتب النحو الأولى آثارة من تلك العناية ، ولعل كتاب سيبويه وكتاب المقتضب للمبرد من خيرة الكتب النحوية التي اهتمت بطرق التعبير وما بينها من فروق يدركها من ثقف لغة العرب وأدرك بذوقه جمالها، ولكن العناية بالأساليب انحسرت حينما بدأ النحاة

يعنون بالعامل والاعراب والعلل الثواني والثوالث وما إلى ذلك من اهتمام أبعد كتب النحو عن تذوق الأساليب .

وكان لعبد القاهر الجرجاني أثر في ردّ كثير من مزايا الكتب الاولى إلى الموضوعات التي تكلم عليها البلاغيون في علم المعاني كالخبر والانشاء والفصل والوصل والقصر والايجاز والاطناب، ولكن عبد القاهر لم يضع حدوداً فاصلة بين ماسمي خبراً وما سمي انشاء، لأنه يرى أن الفرق بينهما فيما يؤديه كل منهما من معنى. قال : «لايجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه في الاستفهام معنى لايكون له ذلك المعنى في الخبر ، وذاك ان الاستفهام استخبار والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك، فإذا كان كذلك كان محالاً أن يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام ، فيكون المعنى إذا قلت: «أزيد قام؟» غيره إذا قلت: «أقام زيد؟» ثم لايكون هذا الافتراق في الخبر ويكون قولك: «زيد قام» و «قام زيد» سواء ذلك لأنه يؤدي إلى أن تستعمله أمراً لاسبيل فيه إلى جواب وأن تستثبته المعنى على وجه ليس عنده عبارة يثبته لك بها على ذلك الوجه، وجملة الأمر أن المعنى في ادخالك حرف الاستفهام على الجملة من الكلام هو أنك تطلب أن يقفك في معنى تلك الجملة ومؤداها على اثبات أو نفي فإذا قلت : «أزيد منطلق؟» فأنت تطلب أن يقول لك: « نعم هو منطلق»، أو يقول: «لاماهو منطلق»، وإذا كان ذلك كذلك كان محالاً أن تكون الجملة إذا دخلتها همزة الاستفهام استخباراً عن المعنى على وجه لاتكون هي إذا نزعت منها الهمزة إخباراً به على ذلك الوجه فاعرفه» (١)،

ويتضح في كلام عبد القاهر أن هناك فروقاً دقيقة تدرك بالحسّ اللغوي المثقف والذوق السليم. وكان لجهود هذا النحوي في البلاغة أثر واضح في مباحث علم المعاني ومنها : الخبر وهو أساس التعبير قبل أن يتصرف فيه المتكلم ويخرج به إلى أغراض مجازية متعددة .

(١) دلائل الاعجاز ص١٠٨ .

ومن الخبر قوله تعالى : وألر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويلٌ للكافرين من عذاب شديد. الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا أولئك في ضلال بعيد. وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم فيضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم »(١) .

هذه الآيات بما تضمنت من عبارات بديعة رائعة تخبر عن حقائق يريد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام الناس وهي تقرر واقعاً وتنفع الناس. وهذا هو الخبر الحقيقي، ولكن حينما يقول سبحانه وتعالى : «عبَس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يُدريك لعلّه يزّكّى. أو يذكّر فتنفعه الذكرى. أمّا من استغنى فأنت له تصدّى، وماعليك الايزكّى . وأمّا من جاءك يسعى: وهويخشى. فأنت عنه تلهّى » (٢) . فإنه لا يريد اخباراً وانما يريد عتابا للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك حينما أتاه ابن مكتوم وعنده رجال من قريش يدعوهم إلى الاسلام رجاء أن يُسلم باسلامهم غيرهم ، فقال ابن مكتوم : « يارسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله » . وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم ، فكره الرسول — صلى الله عليه وسلم — قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت سورة «عبس» وكان الرسول بعده يكرمه ويقول اذا رآه : «مرحبا بمن عاتبني فيه ربي» .

فالآيات اخبار عن هذه القصة ولكنها لا تريد أن تقف عند هذه الحادثة وانما تريد ان تعاتب الرسول، وبذلك خرج الخبر عن معناه الحقيقي إلى العتاب ، ومثل ذلك ماقاله النبي العظيم حين دعا قومه إلى الاسلام : «إنَّ الرائد لا يكذب

(١) ابراهيم ١ — ٤ .

(٢) عبس ١ — ١٠ .

أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذي لا إله الا هو إني رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة» . وهذه الكلمات خبر ولكنه خرج عن معناه ، لان الرسول الكريم لم يكن هنا في موقف المخبر لان قومه يعرفون صدقه وامانته وانما هو في موقف المعاتب ، لانهم أعرضوا عن دعوته .

فالخبر يكون حقيقياً حينما يراد به «فائدة الخبر» أو «لازم الفائدة» ويكون مجازياً حينما يخرج عن هذين الغرضين. وفي النصوص الآتية أخبار حقيقية ومجازية ، عيّنها واشرح معانيها ووضح الاغراض المختلفة فيها :

١ – قال تعالى : «وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالامس يقولون : وَيْ كأنّ اللهَ يَبْسُطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا وَيْ كأنه لا يُفلح الكافرون» (١) .

٢ – وقال : «إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ اللهَ يهْدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» (٢) .

٣ – وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر اليه» .

٤ – وقال الامام عليّ – رضي الله عنه – من كتاب إلى بعض امراء جيشه : «فان عادوا إلى ظل الطاعة فذلك الذي نحب ، وان توافت الامور بالقوم إلى الشقاق والعصيان فانهد بمن أطاعك إلى من عصاك واستغن بمن انقاد معك عمن تقاعس عنك ، فان المتكاره مغيبه خير من مشهده وقعوده أغنى من نهوضه» (٣) :

---

(١) القصص ٨٢ .
(٢) القصص ٥٦ .
(٣) توافي القوم : وافى بعضهم بعضاً حتى تم اجتماعهم . أنهد : انهض .

وقال المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ

٦ – وقال عبد الرحيم محمود :

سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياة تسر الصديق وإمّا ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان ورودُ المنايا ونيلُ المنى
لعمرُك إني أرى مصرعي ولكن أغذُّ إليه الخطى
أرى مقتلي دون حقي السليب ودون بلادي هو المبتغى
لعمرك هذا ممات الرجال ومن رام موتا شريفا فذا

٧ – وقالت أعرابية ترثي زوجها :

كنا كغصنين في جرثومة بسقا حيناً على خير ماتمني به الشجر
حتى اذا قيل قد طالت فروعهما وطال قنواهما واستمطر الثمر
أخنى على واحدي ريب الزمان وما يبقي الزمان على شيء ولا يذّر
كنّا كأنجم ليل بيننا قمرٌ يجلو الدجى فهَوَى من بيننا القمر(١)

٨ – وقال المتنبي :

ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيها وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
ولو أنَّ الحياة تبقى لحيٍّ لعددنا أضلَّنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

٩ – وقال ابو فراس الحمداني :

صبرت على اللأواء صبر ابن حرّة كثير العدا فيها قليل المساعد (٢)
منعت حمى قومي وسدت عشيرتي وقلدت أهلي غرَّ هذي القلائد

(١) الجرثومة :الأصل. التنمر : الملق. أخنى عليه الدهر: أتى عليه وأهلكه.
(٢) اللأواء :الشدة والمحنة.

١٠ ــ وقال أبو نواس :

دبَّ فيَّ السقامُ سُفْلا وعُلْـوا   وأراني أمـوت عضواً فعضـواً
ذهبت جـدتي بطاعـة نفسي   وتذكّرت طـاعة الله نضـوا
لهف نفسي عـلى ليـالٍ وأيـا   م تجاوزتهـن لعـبا ولهـوا
قد أسأنا كـلَّ الاسـاءة فالل   هـمَّ صفحـا عنّـا وغفرا وعفوا

١١ ــ وقال أبو سلمى :

ان جيش التحريـر شعب فلـ   طين تنـادت آساده والنـسـور
وجناحـاه في الشآم جنـاح   وعلى غـزّة الجناح الأثـير
جيش حطين جيشنا يزحف اليو   م فقـد آن أن تـوّفى النـذور
الدويـلات والحـدود تـداعت   وتولّت آثامهـا والشـرور
علم واحد وجيش وحـيد   ونضـال وقـائـد ومسـير
وأمـام التأريخ يخفق في السا   ح عليهم لـواؤه المنشـور

١٢ ــ وقال الأخطل الصغير :

بغداد ياشغف الجمال وملعب الغزلِ للطـروبِ
بَنَتِ المكارمُ للعروبـة فيك جامعةَ القلـوبِ
بيتَ من الاخلاق ضاقت عنه أخلاق الشعوبِ
وسِعت دياناتِ السماح وضمّ اشتاتَ الندوبِ
زفراتُ أحمد في رسالتـه وآلامُ الصليـبِ
بغداد ماحمل السرى منّي سوى شبحٍ مريبِ
جفلت له الصحراء والتفت الكثيبُ إلى الكثيبِ
وتنصتت زمر الجنادب من فويهات الثقوب
يتساءلون وقد رأوا قيس الملوح في شحوبي
والتمتمات على الشفاه مضرّجات بالنسيب
تبكي لها قبل الصبا ويذوب فيه كل طيب
يتساءلون من الفتى العربيّ في الزي الغريب

تعرّض البلاغيون لاساليب الانشاء المختلفة وميّزوا بينها وأشاروا إلى ما يأتي منها حقيقة وما يأتي منها مجازاً ، وكان تمييزهم دقيقاً يكشف عن المعنى وينقله بوضوح؛ ومن ألطف ما ذكر عبد القاهر كلامه على الاستفهام وتغيّر المعنى بتغيّر تركيب الجملة. قال : «ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة فإن موضع الكلام على انك اذا قلت : «أفعلت؟» فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده. واذا قلت : «أأنت فعلت؟» فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه؛ ومثال ذلك انك تقول : «أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟» ، «أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟» ، «أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟» ، تبدأ في هذا ونحوه بالفعل لان السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه لانك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه مجوّز أن يكون قد كان وأن يكون لم يكن. تقول: «أأنت بنيت هذه الدار؟» «أأنت قلت هذا الشعر؟» ، «أأنت كتبت هذا الكتاب؟» ، فتبدأ في ذلك كله بالاسم ذلك لانك لم تشك في الفعل أنه كان . كيف وقد اشرت إلى الدار مبنية والشعر مقولا والكتاب مكتوبا ، وانما شككت في الفاعل من هو. فهذا من الفرق لا يدفعه دافع ولا يشك فيه شاك ولا يخفى فساد أحدهما في موضع الآخر» (١) .

فالمعنى في الاستفهام تحدّده صياغة العبارة ولذلك وجد عبد القاهر فرقاً بين عبارة واخرى وحدّد ذلك الفرق وما يوحي من معنى يختلف باختلاف التعبير.

ويكون الاستفهام مجازيا كما يكون حقيقيا فمحمود سامي البارودي حينما رثى زوجه استخدم اسلوب الاستفهام ليظهر تحسره وألمه على فقيدته وما أصابه وهو في منفاه، قال :

---

(١) دلائل الاعجاز ص٨٧ .

يادهــر فيــم فجعتني بحليلة | كانت خلاصة عدتي وعتادي؟
إنْ كنت لم ترحم ضنايَ لبعدها | أفلا رحمت من الاسى أولادي؟
أفردتهنَّ فلم ينمن توجّـعـا | قرحى العيون رواجـف الاكباد
ألقين درَّ عقودهن وصغن من | درِّ العيون قلائد الاجيـاد
يبكين من ولَهٍ فراق حفيّة | كانت لهنَّ كثيرة الاسعاد
فخلودهن من الدموع نديّة | وقلوبهنَّ من الهموم صوادي
أمليكة القصرين أيّ فجيعـة | حلّت لفقدك بين هذا النادي؟

فصيغ الاستفهام «فيم فجعتني؟» و«أفلا رحمت؟»و «أي فجيعة؟» لايراد بها الاستفهام الحقيقي وانما يراد بها التحسر وتصوير هول المصاب.

وفي النصوص الآتية صور من الاستفهام ،عينْ تلك الصّور وبينْ ماجاء منها حقيقة أو مجازاً:

١ – قال تعالى: «هل جزاء الاحسان إلاّ الاحسان ؟»(١):

٢ – وقال: «ألم نُربِّك فينا وليدا ؟»(٢):

٣ – وقال: «وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أُنزلَ اليه ملكٌ فيكونَ معه نذيرا ؟»(٣):

٤ – سأل رجل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أيُّ الاسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

٥ – وقال ابن الرومي:

يأخي أين عهـد ذاك الاخـاء | أين ماكـان بيننا من صفاء ؟
كشفـت منك حاجتي هفـوات | غطّيت برهـة بحسن اللقـاء

(١) الرحمن ٦٠ .
(٢) الشعراء ١٨ .
(٣) الفرقان ٧ .

يا أخي هبك لم تصب من مه ... بك حظاً كسائر البخلاء
أفلا كان منك رد جميل ... فيه للنفس راحة من عناء؟

٦ – وقال ابو تمام في فتح عمورية وهو يتحدث عن ادّعاء المنجمين:

أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟
تخرّصاً واحاديثاً ملفّقة ... ليست بنبْع اذا عُدّت ولاغرَب

٧ – وقال المتنبي:

أتنكر يا ابن اسحاق اخائي ... وتحسب ماء غيري من انائي؟
أأنطق فيك هُجْراً بعد علمي ... بأنك خير من تحت السماء؟

٨ – وقال البحتري:

أأكفرك النعماء عندي وقد نمت ... عليّ نمو الفجر والفجرُ ساطعُ؟
وأنت الذي أعززتني بعد ذلتي ... فلا القول مخفوض ولا الطرف خاشع

٩ – وقال أبو العلاء المعري:

أفوق البدر يوضع لي مهادُ ... أم الجوزاء تحت يدي وسادُ؟
قنعت فخلت أن النجم دوني ... وسيان التقنع والجهاد
ورويدك أيها العادي ورائي ... لتخبرني: متى نطق الجماد؟
مقاه ذاد عنك الناس حلم ... وغيّ فيه مفسدة رشاد
ألخمل والنباهة في لفظ ... وأفقر والقناعة لي عتاد؟

١٠ – وقال ايليا أبو ماضي:

أأمانيّ كلها من تراب ... وأمانيك كلها من عسجد؟
وأمانيّ كلها للتلاشي ... وأمانيك للخلود المؤكّد؟
لا، فهذي وتلك تأتي وتمضي ... كذويها وأي شيء يؤبّد؟
أيها المزدهي إذا مسّك الـهـ ... ـم ألا تشتكي؟ ألا تتنهد؟
وإذا راعك الحبيب بهجر ... ودعتك الذكرى ألا تتوجد؟

١١ – وقال نسيب عريضة :

أيا نجمة سطعت في الظلا   م أتبري طريق فتى لايدام
لقد طال ليلي فهل من صبا   ح وطال اضطرابي فهل من سلام؟
أيا نجمة في اعالي السما   ء أطلت السكوت فهل من كلام؟

١٢ – وقال عبد الرحيم محمود

فكيف اصطباري لكيد الحقو   د؟ وكيف احتمالي لسوم الأذى؟
أخوفاً وعندي تهون الحيا   ة وذلاً وإني لرب الإبا؟
بقلبي سأرمي وجوه العدا   ة ، وقلبي حديد وناري لظى
وأحمي حياضي بحد الحسا   م فيعلم قومي بأني الفتى

١٣ – وقال عبد الكريم الكرمي:

سأل الفجر : أين خولة فانهد   ت طيوب وتمتمت كيف تسأل؟
هي في كل زهرة من بلادي   عبق في صميمنا يتغلغل
انها من مروج عكاء والرمـ   لة والسد نشوة تتنقل
من كروم الجليل خمرية الانـ   داء نشوى ومن كروم المجدل
عطرها مذ كان أنفاس بنيا   ن ورغم الزمان لم تتبدل

١٤ – وقال القروي :

باسم العروبة بعد الله أفتتح   لله ثم لعيد الوحدة السبح
شرحت صدري لها طفلا وهل سوى   ذكر العروبة صدر الحر ينشرح
كم جر عندي ليالي بؤسها ترحا؟   فحق لي في ليالي عرسها الفرح

١٥ – وقال :

ما لهذا الشرق لايسرح في   لكبات من علوج الغرب سود؟
أشهيداً علقوا أم جرساً   رن فاهتز له قلب الوجود ؟
ومرت ألحانه مطربة   حول عرش الله أرواح الجدود

الأمر والنهي والنداء والتمني مثل الاستفهام من أساليب الانشاء ولها معان حقيقية ومجازية فهي حقيقية حينما يراد بها الامر أو النهي أو النداء أو التمني، وهي مجازية حينما تخرج عن معانيها الاصلية. قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه: «أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا ادلي اليك فإنه لاينفع تكلّم بحق لانفاذ له. آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لايطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك ، والبينة على من ادّعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرّم حلالا أو أحلّ حراماً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه إلى الحق فان الحقّ قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل : الفهم الفهم عندمايتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنّة النبي صلّى الله عليه وسلم. اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ».

هذه قطعة من رسالة بعث بها الخليفة الثاني إلى ابي موسى الاشعري يوصيه فيها بالعدل بين الناس وقضاء حوائجهم والنظر في أمورهم وهي رسالة تعدّ من أسس القضاء، وقد بدأها – رضي الله عنه – بقوله : «فان القضاء فريضة محكمة وسنّة متّبعة فافهم اذا ادلي اليك». وهذه صيغة أمر صادرة من عمر إلى الاشعري وهي ملزمة لاتحتمل صدقاً أوكذباً. ومثل ذلك ماجاء به من صيغ الامر في قوله: «آس» و«اعرف» و«قس» و«اعمل» وهي كلها أوامر واجبة التنفيذ. وهذا الضرب من الامر يسمى: أمراً حقيقياً.

وقال القروي :

يارية السدأماء مهما تكثري ... عدد السفين فعند ربك أكثر

لاتستقلي في الخصومة عدّنا ... فالعدل خلف أخي الظلامة عسكر

لايخدعن بسليك أنّسا أمّة صبرت قلب من بمُيّت من يصبر

فقوله: «لاتستقلّي» «ولايخدعن» نهي ولكنه ليس حقيقياً، لان الشاعر ليس في موقف يقدر فيه أن يصدر نواهيه لذلك فهو يحذّر وينذر.

ويأتي النداء على الحقيقة كما في قول سليمان العيسى :

يامصر وحدة أمتي قدر على الزمن الوقــاح
قدر على التاريخ شتتاه فما بمحـــوه ماح
لن تستريح بساحة إلاّ لتشعل نار ســاح
المارد العربي عاد مع الربيع ،مع الاقـاحي
وللنسر فك جناحه ومضى يقهقه للرياح

ولكنه يأتي على المجاز للندبة كقول المتنبي:

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

أو للتحسر كقول ابن الرومي:

ياشبابي وأين مني شبابي آذنتني حباله بانقضاب
لهف نفسي على نعيمي ولهوي تحت أفنانه اللدان الرطاب

وفي النصوص الآتية صور لاساليب الانشاء، عيّنها وبيّن أغراضها:

١ – قال تعالى: «فلما قضى موسى الأجَلَ وسار بأهله آنس من جانب الطُّور ناراً قال لاهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذْوة من نار لعلكم تصطلون. فلمّا أتاها نودي من شاطىء الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أنْ ياموسى إنّي أنا الله ربُّ العالمين وأن ألْقِ عصاك فلمّا رآها تهتز كأنّها جانٌ ولّى مُدْبراً ولم يُعَقّبْ. ياموسى أقْبِلْ ولاتخَفْ انكَ من الآمنين. أسْلُكْ يدكَ في جيبكَ تخرجْ بيضاء من غير سوء واضمُمْ اليكَ جناحكَ من الرّهْبِ فذانكَ برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين» (١).

(١) القصص ٢٩ – ٣٢ .

٢ – وقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

٣ – وقال الامام علي – رضي الله عنه –: «يامعشر المسلمين تجلببوا السكينة وكمّلوا اللأمة وقلقلوا السيوف في الاغماد وكافحوا الضبا وانصلوا السيوف بالخطى فانكم بعين الله. ولايعود كل منكم الكرّ وليستحي من الفرّ فان للفرّار في الاعقاب ونار في الحساب. وطيبوا عن الحياة نفسا وسيروا إلى الموت سجحا، ودونكم هذا الرواق الاعظم، وعليكم بالصبر فان الشيطان راكبه صعدته، فصمداً صمداً حتى يبلغ الحق أجله والله معكم ولن يتركم اعمالكم».

٤ – وقال حافظ ابراهيم:

مالثوا الليل عنهم والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى؟
كيف أمسى رضيعهم فقد الأ ... م وكيف اصطلى مع القوم نارا؟
كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعى وأسقف تتجارى؟
ربِّ إنَّ القضاء أنحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الاقدارا
ومُرِ النار أن تكفَّ أذاها ... ومُرِ الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروي ... هذه الارض فهي تشكو الاوارا

٥ – وقال بدر شاكر السياب في قصيدة بور سعيد:

ياحاصد النار من أشلاء قتلانا ... منك الضحايا وان كانوا ضحايانا
كم من ردى في حياة وانخذال ردى ... في ميتة وانتصار جاء خذلانا
انَّ العيون التي طفَّأتَ أنجمها ... عجّلن بالشمس أنْ تختار دنيانا
وامتد كالنور في اعماق تربتنا ... غرس لنا من دم واخضلّ موتانا
فازلزلي يابقايا كـاد أوانا ... يبقى عليها من الاصنام لولانا

٦ – وقال ابو الطيب المتنبي:

عِشْ عزيزا أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفقِ البنودِ
واطلب العزّ في لظى وذرِ الذُّ ... ل ولو كان في جنان الخلود

٧ – وقال ابن زيدون:

دومي على العهد مادمنا محافظة ... فالحرّ من دان انصافاً كما دينا
أولي وفاء وإن لم تبذلي صلةً ... فالذكر يقنعنا ، والطيف يكفينا

٨ – وقال محمود حسن اسماعيل:

ياسماء الشرق طوفي بالضيـاء ... وانشري شمسك في كلّ سماء
ذكّريه واذكري أيامه ... بهُدى الحق ونور الانبياء

٩ – وقال قَطَرِيّ بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شَعاعاً . ... من الابطال ويحكِ لاتراعي
فانك لو سألت بقاء يوم ... على الاجل الذي لك لم تطاعي

١٠ – وقال ابن زيدون:

ياساريَ البرق غادِ القصر واسْقِ به ... من كان صِرْفَ الهوى والودّ يسقينا
وياNسيمَ الصَّبا بلِّغ تحيتنا ... من لو على البعد حيّا كان يُحْيينا

١١ – وقال مالك بن الريب وقد حضره الموت:

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا ... برابية إنيّ مقيم لياليا
أقيما عليّ اليوم أو بعض ليلة ... ولاتُعجِلاني قد تبينَّ مابيا
وقوما اذا مااستلّ روحي فهيئا ... لي السدرَ والاكفان ثم ابكيا ليا
وخطا بأطراف الاسنّة مضجعي ... وردّا على عينيَّ فضل رداليا

١٢ – وقال ابراهيم طوقان في قصيدة «الفدائي»:

لاتسل عن سلامته ... روحه فوق راحته
بدّلته همومه ... كفناً من وسادته

يرقب الساعة التي بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يرا ه بإطراق هامته
بين جنبيه خافق يتلظى بغايته
من رأى فحمة الدّجى أضرمت من شرارته
حملته جهنّم طرفاً من رسالته

١٣ – وقال الرصافي :

أتونس انّ في بغداد قوماً ترفّ قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب إلى مَن خصّ منطقهم بضادِ
ودين أوضحت للناس قبلا نواصعُ آيه سُبُلَ الرشادِ
فنحن على الحقيقة أهلُ قربى وان قضت السياسةُ بالبعادِ

١٤ – وقال عمر أبو ريشة :

ياروابي القدس يامجلى السنى يارؤى عيسى على جفن النبي
دون علياتك في الرحب المدى صهلة الخيل ووهج القضب
لمّت الآلام منا شملنا ونمت مابيننا من نسب
فإذا مصر أغاني جلّق وإذا بغداد نجوى يثرب
ذهبت أعلامها خافقة والتقى مشرقها بالمغرب
كلّما انقض عليها عاصف دفنته في ضلوع السحب

(٦)

ان صياغة العبارة في اللغة العربية يحدد المعنى ، وليس من العبث تعدد الاساليب وتلونها ، بل أن لكل أسلوب معنى يحدده وضع الألفاظ في الجملة ، فلتقديم اللفظة معنى غير ماني تأخيره ، ولتعريفها دلالة غير ماني تنكيرها ، ولفصلها غرض غير ماني وصلها ، ومثل ذلك يقال في القصر وغيره من طرق التعبير ه وقد اهتمّ النحاة الأوائل بهذه المسألة وشاركهم في ذلك اللغويون ، ولكن البلاغيين وعلى رأسهم عبد

القاهر تعمّقوا في دراسة الأساليب بعد أن تحولت كثير من كتب النحو عن العناية بمثل هذه الجوانب . ومما يتصل بهذه المسألة وإيضاح الفرق بين عبارة وأخرى في التركيب قول عبد القاهر وهو يتحدث عن التقديم والتأخير : «إذا قلت: «أجاءك رجل» ؟ فأنت تريد أن تسأله : هل كان مجيء من أحد من الرجال اليه ؟ فإذا قدمت الاسم فقلت : «أرجل جاءك؟» فأنت تسأله عن جنس من جاءه أرجل هو أم امرأة ؟ ويكون هذا منك إذا كنت علمت أنه قد أتاه آت ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتي ، فسبيلك في ذلك سبيل إذا أردت أن تعرف عين الآتي فقلت: «أزيد جاءك أم عمرو؟ ». ثم قال: «وإذ قد عرفت الحكم في الابتداء بالنكرة في الاستفهام فابن الخبر عليه، فإذا قلت: «رجل جاءني» لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذي جاءك رجل لا امرأة، ويكون كلامك مع من قد عرف أن قد أتاك آت: فإن لم ترد ذلك كان الواجب أن تقول : «جاءني رجل» فتقدم الفعل. وكذلك إذا قلت: «رجل طويل جاءني» لم يستقم حتى يكون السامع قد ظن أنه قد أتاك قصير أو نزّلته منزلة من ظن ذلك »(1).

ومما يتصل بهذا الباب وتركيب الكلام قول المتنبي :

وللسِّرّ مني موضعٌ لا ينالـه نديمٌ ولا يفضي اليـه شـرابُ

ففي هذا البيت جملتان هما : «لاينالـه نديم» و «لايفضي اليه شراب»، والاولى صفة «موضع»، وقد أريد اشراك الثانية لها في الحكم ولذلك عطفت عليها، ولا يصح أن تحذف الواو لأن الكلام يكون مقطوعاً، وليس هذا من أساليب العرب: ويأتي عكس ذلك أي غير معطوفة في أنواع أخرى من التعبير، فإذا قيل كما قال المتنبي أيضاً :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

كان الفصل لأن الجملة الثانية أو(الشطر الثاني) «إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا» توكيد للاولى ولا يصح العطف في مثل هذه الحال »

(1) دلائل الاعجاز ص١٠٩ — ١١٠ .

وهذه مسألة تتصل بالأسلوب وما يوحي من معنى، ولذلك قالوا : لا يصح أن يقال: «لاحياك الله» جواباً لسائل لأن معنى هذه العبارة ذم في حين أن المقصود المدح، ولذلك يقال: «لا وحياك الله» ومثلها: «لا وبارك الله فيك» و «لا ، وعافاك الله». فالواوهنا واجبة لأنها تحدد المعنى الذي يقصده المتكلم أو الكاتب.

والفرق واضح بين «ماأختار إلاّ منكم صديقاً» و «ماأختار الاصديقاً منكم»، فالاختصاص في العبارة الاولى في «منكم» وفي الثانية في «صديقاً». وكان عبد القاهر قد تحدث عن مثل ذلك عندما تكلم على قول السيد الحميري:

لو خـيّـر المنـبر فرسانـــه ماأختار إلاّ منكـم فارســاً

قال : «والاختصاص في «منكم» دون «فارساً»، ولو قلت : «ماأختار إلاّ فارساً منكم» صار الاختصاص في «فارساً» (١)». ومعنى ذلك أن التقديم والتأخير احدثا تغييراً في المعنى، ولولا ذلك لظلت العبارة ذات معنى ثابت، ولظلت كثير من المعاني حبيسة الصدور. وهذا من أهم مزايا اللغة العربية، ولذلك استطاع المنشئون بها والمتحدثون بألفاظها أن يصوروا المعاني المختلفة ويعبروا عن مشاعرهم وهواجسهم أحسن مايكون التعبير.

وفي النصوص الآتية ألوان مختلفة من أساليب التقديم والتأخير والفصل والوصل والقصر، عينّها وتحدث عما تؤدي من معان لو تغير نظمها أو غيرّ أسلوبها.

١ – قال تعالى: «إنّ الله لايُحبُّ من كان مُختالا فخوراً» (٢)،

٢ – وقال : «لله الأمْرُ من قَبْلُ ومن بَعْدُ» (٣).

٣ – وقال : «مما خطيئاتُهم أُغرقوا فادخلوا ناراً» (٤)،

(١) دلائل الاعجاز ص٢٦٥ .
(٢) النساء ٣٦ .
(٣) الروم ٤ .
(٤) نوح ٢٥ .

٤ ــ وقال : «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً» (١) :

٥ ــ وقال : «وضرب لنا مثلا ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة» (٢) :

٦ ــ وقال : «وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين» (٣) :

٧ ــ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لااله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك»:

٨ ــ الامام علي ــ كرم الله وجهه ــ : «انه ليس شيء بشرّ من الشرّ إلاّ عقابه، وليس شيء بخير من الخير إلاّ ثوابه، وكل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه، فليكفكم من العيان السماع ومن الغيب الخبر. واعلموا أن مانقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر»:

٩ ــ وقال المعري :

أعندي وقد مارستُ كل خفيّة يُصدّقُ واشٍ أو يُخيّبُ سائلُ؟

١٠ ــ وقال المتنبي :

ذلُّ من يغبط الذليل بعيش ربّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ
من يهُنْ يسهُل الهوانُ عليه مالجرح بميّتٍ إيلامُ

(١) الاسراء ٢٩ .

(٢) يس ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) آل عمران ١٤٤ .

١١ – وقال علي محمود طه :

فلسطين لاراعتك صيحة مقتال	سلمت لاجيال وعشت لابطال
ولا عزّك الجيل المفدّى ولا خبت	لقومك نار في ذوائب أجيال
صحت باديات الشرق تحت غبارهم	على خلجات الروح من تربك الغالي

١٢ – وقالت نازك الملائكة :

في قلبه النابض قد أغمدوا	رمحاً غليظ الحدّ خشن الشفاه
من صدره الحرّ يغذي الثرى	والورد يستنبته من دماه
يارمح اسرائيل مهما ارتوى	من جنحه من روحه من مناه
يبقى أسرانا عربي الشذا	والضوء يبقى عربيّ المباه

١٣ – وقالت :

الوحدة الكبرى دنا ركبها	منّاً فيا بشرى الشفاه الظماء
يافرحة السارين تحت الدجى	قد لاحت الدار وحان اللقاء

(٧)

الايجاز والاطناب والمساواة من أساليب التعبير، لكل واحد منها غرضه ومجال استعماله وموقعه؛ فقد يدعو المعنى أو الحال إلى الايجاز وقد يتطلب الموقف الاطناب وقد يتحقق الغرض بالمساواة ؛ واللغة العربية تميل إلى الايجاز ويتجلّى ذلك في الشعر القديم وفي الأمثال السائرة، ولكن الإطناب والمساواة وجدا سبيلهما إلى كثير من كلام العرب عندما اقتضاهما المقام ؛

وفي النصوص الآتية أمثلة للايجاز والإطناب والمساواة، حدّدها وبيّن نوعها:

١ – قال تعالى: «كُلُّ امرىء بما كسب رهين» (١)؛

٢ – وقال : «وإن يُكذّبوك فقد كُذّبتْ رُسُلٌ من قبْلك» (٢) ؛

(١) الطور ٢١ .

(٢) فاطر ٤ .

٣ – وقال: «رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات»(١)؛
٤ – وقال: «ولكم في القصاص حياةٌ» (٢)؛
٥ – وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»؛
٦ – وقال ابن نباتة السعدي :

لم يُبْقِ جودُك لي شيئاً أؤمله ... تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

٧ – وقال ابراهيم بن المهدي في رثاء ابنه :

واني وان قُدِّمْتَ قبلي لعالم ... بأني وان أخرت منك قريب

٨ – وقال المتنبي :

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته ... فسرّهم وأتيناه على الهرم

هذه بعض النصوص من كتاب الله وكلام رسوله وأشعار العرب، أمّا الأدب الحديث فلا تتضح هذه الأساليب في العبارة الواحدة أو البيت مثل اتضاحها في القطعة أو القصيدة أو العمل الأدبي؛ ويعرف ذلك بالموازنة بين النصوص المتشابهة أو التي تعالج موضوعاً واحداً أو تتعرض لقضية واحدة، ولكي تتضح الرؤية وتقرّب الصورة تؤخذ عدة نصوص تعالج العمل الفدائي أو بطولة الجيش أو وصف مشهد من الطبيعة أو الحياة، وسيبدو عند الموازنة الفرق بين هذه الأساليب ؛ فالرصافي وايليا أبو ماضي تعرّضا للفقر والغنى وتحدّثا عن استغلال الأغنياء للفقراء ولكن الأول أوجز في التعبير ولم يعرض الجوانب المتصلة بالموضوع كلها وإنما عبّر تعبيراً مباشراً فقال :

أرى كل ذي فقر لدى كل ذي غنى ... أجيراً له مستخدماً في عقاره
ولم يعطه إلاّ اليسير وإنما ... على كدّه قامت صروح يساره

(١) نوح ٢٨ .
(٢) البقرة ١٧٩ .

ويلبس من تذليله العزّ ضافياً ... وينظره شزراً بعين احتقاره
يشد الغنى أزر الفتى في حياته ... وما الفقر إلاّ مكسر في فقاره (١)

وأطنب الثاني وعرض الصور الموحية والمؤثرة فقال :

نسي الطين ساعة أنّه طـ ... ين حقير فصال تيهاً وعربدْ
وكسى الخزّ جسمه فتباهى ... وحوى المال كيسه فتمرّدْ
ياأخي لاتمل بوجهك عنّي ... ماأنا فحمة ولا أنت فرقد
أنت لم تصنع الحرير الذي تلبـ ... س واللؤلؤ الذي تتقلـد
أأمانيّ كلها من تراب ... وأمانيك كلها من عسجد
وأمانيّ كلها للتلاشي ... وأمانيك للخلود المؤكـد
أنت مثلي من الثرى وإليه ... فلماذا ياصاحبي التيه والصدّ ؟
أيها الطين لست أنقى وأسمى ... من تراب تدوس أو تتوسّد
سدت أو لم تسد فما أنت الاّ ... حيَوان مسيَّر مستعبـد
إنّ قصراً سمكته سوف يند ... دكّ وثوباً حبكته سوف ينقد
لايكن للخصام قلبك مأوى ... إن قلبي للحبّ أصبح معبـد
أنا أولى بالحب منك وأحرى ... من كساء يبلى ومال ينفد

فالرصافي أوجز التعبير عن الموضوع ، ولكن ايليا أبو ماضي أطنب، وليس هذا هو الفرق الوحيد بين الشاعرين ، بل هناك فرق أهم وهو أن الرصافي عبّر عن المعنى تعبيراً مباشراً خالياً من الابداع والايحاء . وعبّر أبو ماضي تعبيراً فنياً فيه ابداع وايحاء، وبذلك حلّق في أجواء رحبة ،وهذه من أهم سمات الفن الأصيل.

---

(١) العقار : كل ملك ثابت. الصرح: القصر. اليسار: الغنى. الازر: الظهر أو القوة. الفقار : العمود الفقري.

الباب الثالث
علم البيان

الفصل الاول

البيان

المبحث الاول

البيان لغة واصطلاحا

جاء في المعجم أن البيان من «بان الشيء وأبان ، اذا اتضح وانكشف، وفلان أبْيَنُ من فلان، أي : أوضح كلاماً منه » (١) .

فالبيان لغة الوضوح والكشف والظهور ، أما مدلوله الاصطلاحي فلا يستوي محدداً في العصور المتعاقبة كما لايتفق عليه مختلف الباحثين تعريفاً جامعاً مانعاً خلال عهود حياة هذه الكلمة ، ومن هنا فلابد ان نقف مع النصوص في شيء من التسلسل التاريخي :

اقدم هذه النصوص آيات من الذكر الحكيم دارت في مواضع يعنينا منها موضعان:

أولهما : قوله تعالى: « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين» (٢) .

والبيان ههنا — على رأي الزمخشري — (٣) هو الايضاح

ونقل القرطبي عن الحسن وغيره: ان البيان في هذه الآية الكريمة يعني القرآن (٤) .

كما ذكر مصنفو كتب علوم القرآن: ان البيان اسم من أسماء القرآن الحكيم وصفة له. ويؤيد سياق الآية هذا الذكر وذلك النقل ، فنرى كلمة البيان دالة في هذه الآية الكريمة على مايمتاز به القرآن الكريم من الاسلوب المعجز في موضوعاته الدينية والفكرية وفي لغته الفصيحة التي تأتي دونها ثمار القرائح ونتاجات العقل بلاغة ً في كل زمان ومكان .

(١) مقاييس اللغة (بين) .

(٢) آل عمران ١٣٨ .

(٣) الكشاف ج ١ص٢١٨ .

(٤) الجامع لاحكام القرآن ج٤ص٢١٦

وثانيهما: قوله تعالى: «الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان» (١)؛

لقد اختلف المفسرون في تحديد مدلول البيان في هذه الآيات الكريمات، فقيل: انه اسماء كل شيء، وقيل: اللغات كلها، وقيل: بيان الحلال من الحرام والهدى من الضلال، وقيل: الكلام والفهم وقيل لسان كل قوم الذي يتكلمون به، وقيل: الكتابة والخط بالقلم (٢)؛

وذهب الزمخشري إلى ان البيان ههنا: مايميز الانسان عن سائر الحيوان، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير (٣)؛

ومما يحسم هذا الخلاف وينتهي به إلى مايشبه اليقين أن القرآن الكريم في هذا الموضع منه لم يستعمل مصطلح اللغة واللسان والكلام والمنطق وغير ذلك من المصطلحات التي فسر بها اولئك المفسرون مدلول كلمة البيان، مما يبين ذلك أن هذا المدلول تدل عليه كلمة البيان نفسها؛ وهذه الدلالة في ضوء الدراسات اللغوية العلمية والبحوث البلاغية والنقدية القديمة والمعاصرة لاتتعدى الملكة التي خلق الله تعالى عليها الانسان كائنا قادراً على التعبير عمّا في نفسه والتأثير فيمن حوله من بني جلدته؛ فمدلول كلمة البيان الاصطلاحي بين يدي القرآن الكريم وفي فجر القرن الاول للهجرة هو ملكة التعبير ونتاج هذه الملكة من فن القول؛

ونلتقي في الحديث النبوي الشريف بكلمة البيان في موضعين رئيسين (٤): اولهما: ماروي عنه - صلى الله عليه وسلم - من قوله: «إنّ من البيان لسحرا، وإنّ من الشعر لحكمة»؛

---

(١) الرحمن ١ - ٤.
(٢) الجامع لاحكام القرآن ج١٧ص١٥٢.
(٣) الكشاف ج٤ص٤٩.
(٤) النهاية في غريب الحديث والاثر ج١ص١٧٤ - ١٧٥.

الملاحظ : أن بعض البيان ههنا قد عدّ من السحر ، ولما كان معنى السحر قلب الشيء في عين الانسان ، فان مدلول كلمة البيان اصطلاحاً في هذا الحديث الشريف هو ما يمتاز به فنّ القول من التأثير بمهارة اسلوبه وتلوّن عباراته ؛

اما الموضع الثاني فهو ما رُوي عنه – صلى الله عليه وسلم – من أنه قال : «البذاء والبيان شعبتان من النفاق» :

المشكل في هذا الحديث : أنه يلوم البيان جملة وتفصيلا وإن كانت له رواية أخرى تنص على أن «البذاء وبعض البيان شعبتان من النفاق» ؛ وهذه الرواية تعني أنّ البيان ليس مذموماً كله: ومهما يكن من أمر فان المدلول الاصطلاحي لكلمة البيان في هذا الحديث هو التصنع في تزيين فن القول والتأنق في صياغة عباراته والتكلف في اقامة اساليبه بلا مراعاة لوجه الحق في معناه وموضوعاته ؛ وعلى هذا كله فان كلمة البيان اصطلاحاً يتنوع مدلولها حتى نهاية العقد الاول من القرن الاول للهجرة في ثلاثة مناح من القيم اللغوية والتعبيرية والجمالية التأثيرية وهي: ملكة التعبير ونتاج هذه الملكة والتصنع المفرط في شكل هذا النتاج ؛

نشأة البيان :

وعندما اشتدت حركة الجمع والتأليف في مختلف العلوم ، عُني الباحثون بتدارس كلمة البيان وتحديد مدلولها وتفصيل أدواتها ؛ وربما يأتي الجاحظ (٢٥٥هـ) في طليعة هؤلاء الباحثين قدماً في التاريخ وسعة في البحث ، فقد سمىّ أحد كتبه «البيان والتبيين» وثبّت فيه النقول الكثيرة في حد البيان والاستشهاد بالنصوص التي تدخل تحت خيمته : ومدلول البيان عنده : الكشف والايضاح والفهم والافهام، وهو يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وتمام الآلة ، واحكام الصنعة ،وسهولة المخرج ، وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف ، واقامة الوزن(١)؛

---

(١) البيان والتبيين ج١ص٧٦ .

ودلالته على المعاني خمسة أشياء :
اولها اللفظ ، ثم الاشارة (١) ، ثم العقد (٢) ، ثم الخط ، ثم الحال التي تُسمى نُصْبَة (٣) .

وجلي من هذا أن الجاحظ يرسخ الخطوط العامة لنظرية البيان العربي في ضوء المناحي الثلاثة لمدلول مصطلح البيان التي نوهنا بها بين يدي آي الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف ، فهو حين يتحدث عن ماهية البيان ويذكر انها الكشف والايضاح والفهم والافهام يتسع على المنحى الاول الذي رسخه القرآن الكريم ملكة وهبها الله تعالى الانسان وعندما يحلل امثلة رائعة من نصوص قرآنية وأثرية وادبية يسترشد بالمنحى الثاني لمدلول كلمة البيان فيما يتعلق بنتاج تلك الملكة ، كما انه يعتمد المنحى الثالث من هذا المدلول متوافراً على تتبع مميزات الثمار وادوات تحقيقها .

ويعني : انكل هذا يدل على اصالة ولادة نظرية البيان العربي بمناحيها الرواسخ في نصوص من آي الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف ثم نمو ملامحها العامة بما أثر عن الصحابة والتابعين وعلماء اللغة العربية الرواد من احكام في تقويم نتاج الادباء وبما بذله الجاحظ في هذا المجال من عناية بالنقل والتدوين والتمحيص ؛ لقد انعكس ماقام به الجاحظ في التصدي لبحث البيان على الآثار البلاغية والنقدية التي صنفت بعده ، وانعقد فوق رؤوس الرواد(٤) من البلاغيين من امثال ابن

(١) اما الدلالة بالاشارة فباليد والرأس والعين والحاجب والمنكب اذا تباعد الشخصان وبالثوب وبالسيف ، وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجراً ومانعا رادعا ، ويكون وعيدا وتحذيرا .

(٢) العقد هو الحساب دون اللفظ والخط .

(٣) النصبة : هي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد ، وذلك ظاهر في خلق السماوات والارض ، وفي كل صامت وناطق ، وجامد ونام ، ومقيم وظاعن وزائد وناقص .

(٤) راجع كتاب فنون بلاغية ص١٥ — ٢٠ وكتاب مصطلحات بلاغية ص٦٩ — ٧٤ حيث تتبع مؤلفهما الدكتور احمد مطلوب مدلول مصطلح البيان بالتحليل والموازنة لدى هؤلاء البلاغيين .

وهب في كتابه «البرهان في وجوه البيان» ، والرماني (– ٣٨٦هـ) في رسالته «النكت في اعجاز القرآن» ، وابن رشيق القيرواني (– ٤٦٣هـ) في مؤلفه «العمدة» ، وعبد القاهر الجرجاني (– ٤٧١هـأو٤٧٤هـ) في كتابيه «دلائل الاعجاز» وأسرار البلاغة » وسواهم من أعلام هذا الميدان .

ولعل أبرز مميزات مدلول البيان في نظر الجاحظ وهؤلاء البلاغيين يتمثل في ثلاث خصائص :

الأولى : السعة في المفهوم .

الثانية : التقيد في الحد والتعريف .

الثالثة : الاستشهاد بالنصوص الادبية في التحليل .

جمود البيان :

بعد التطور الذي شهده البيان يقف الباحث ليسأل : هل بقيت تلك الخصائص الثلاث التي امتاز بها البيان ؟

ان تاريخ البلاغة العربية نفسه يثير هذا السؤال ويجيب مؤكداً ان مدلول كلمة البيان الاصطلاحي وصورتها تلك لم تَبْقَ كما ولدت في فجر القرن الاول الهجرة وتطورت في عهد ازدهار البلاغة العربية . ويذكر هذا التاريخ تصدي السكاكي (– ٦٢٦هـ) للبلاغة العربية في كتابه «مفتاح العلوم» بداية لتغير حال البيان العربي ونهاية به لحيوية نظريته ؛ فالمعروف أن السكاكي (١) وضع للبلاغة قواعدها المنطقية ، وقسمها الى المعاني والبيان والحق بهما المحسنات ، ووضع لكل قسم تعريفاً جامعاً مانعاً ، وحدد مباحثه وفنونه في قوالب جامدة . وعرّف البيان بقوله : «هو معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه » (٢) ؛

---

(١) راجع كتاب فنون بلاغية »ص٢٠.

(٢) مفتاح العلوم» ص٧٧ .

ثم ادخل الدلالات في تقسيم موضوعاته واثار مناقشة دخول هذا الموضوع أو ذاك فيه وخروجه عنه ، فبحث من هذا الباب ثلاث دلالات للالفاظ :

أولاها : دلالة اللفظ على تمام ما وضع له .

وثانيتها : دلالة التضمن وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له أو جزء مسماه مع دخوله فيه كالسقف — مثلا — في مفهوم البيت — .

وثالثتها : دلالة الالتزام وهي دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه ، لازم له : كالحائط في مفهوم السقف (1):

وبنى السكاكي تقسيم البيان على هذه الدلالات ، فأخرج التشبيه ، لأنّ دلالته وضعية ، والدلالة الوضعية لا يمكن بها ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، في وضوح الدلالة لان السامع اذا كان عالما بوضع الالفاظ لم يكن بعضها أوضحَ دلالةً من بعض وإلاّ لم يكن كل منها دالا عليها بخلاف دلالة التضمن ودلالة الالتزام اللتين هما دلالتان عقليتان يمكن بهما التصرف في الالفاظ وايرادها في طرق متعددة للدلالة على المعنى الواحد .

أما الموضوعات الاخرى ، فقال في حصرها : «واذا عرفت أن إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لايتأتى إلاّ في الدلالات العقلية وهي الانتقال من معنى الى معنى بسبب علاقة بينهما كلزوم احدهما الآخر بوجه من الوجوه ظهر لك أنّ علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني ثم اذا عرفت أن اللزوم اذا تصور بين الشيئين فأما ان يكون من الجانبين كالذي بين الامام والخلف بحكم العقل او بين طول القامة وبين طول النجاد بحكم الاعتقاد ، أو من جانب واحد كالذي بين العلم والحياة بحكم العقل أو بين الاسد والجرأة بحكم الاعتقاد ، ظهر لك أن مرجع علم البيان اعتبار هاتين الجهتين :

---

(1) المصدر السابق، ص١٥٦.

جهة الانتقال من ملزوم الى لازم ، وجهة الانتقال من لازم الى ملزوم . ولا يربك بظاهرة الانتقال من أحد لازمي الشيءْ الى الآخر مثل ما اذا انتقل من بياض الثلج الى البرودة ، فمرجعه ما ذكر ينتقل من البياض الى الثلج ثم من الثلج الى البرودة فتأمل . واذا ظهر لك أن مرجع علم البيان هاتان الجهتان ، علمت انصباب علم البيان الى التعرض للمجاز والكناية ، فان المجاز يُنتقل فيه من الملزوم الى اللازم كما تقول : «رعينا غيثاً» والمراد لازمه وهو النبت ، وقد سبق ان اللزوم لايجب أن يكون عقليا بل إن كان اعتقاديا إما لعرف أو لغيرعرف ، صحَّ البناء عليه ، وأما نحو قولك : «أمطرت السماء» نباتاً ، أي غيثاً من المجازات المنتقل فيها عن اللازم الى الملزوم فمنخرط في سلك «رعينا الغيث» ، وان الكناية يُنتقل فيها من اللازم الى الملزوم كما تقول : «فلان طويلُ النجاد» ، والمراد طول القامة الذي هو ملزوم طول النجاد ، فلا يصار الى جعل النجاد «طويلا» أو «قصيرا» إلاّ لكون القامة طويلة أو قصيرة فلا علينا أن نتخذهما اصلين » (١) .

واذن فموضوعات البيان عند السكاكي تنحصر في بابين رئيسين هما ، باب المجاز وباب الكناية ، وان لم يستطع أن يهمل بحث التشبيه في علم البيان وذلك لسببين : —

أولهما : ان نصوصا قرآنية وأثرية وادبية قد جرت بأفانين شتّى من اسلوب التشبيه ،
وثانيهما : ان العلماء الذين سبقوا السكاكي ومشايعيه في بناء نظرية البيان العربي قد درسوا التشبيه وحدّوه وأوردوا في دراسته وحدّه صوراً فنية رائعة (٢) ؛

ومن هنا التف على ما قرره وقال : «ثم ان المجاز — اعني الاستعارة — من حيث انها من فروع التشبيه — كما ستقف عليه — لاتتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم الى اللازم بل لابدّ فيها من تقدمه تشبيه شيءٌ بذلك الملزوم في لازم له تستدعي تقديم التعرض للتشبيه فلا بدّ من أن نأخذه أصلا ثالثا ونقدمه » (٣) ؛

(١) مفتاح العلوم ص١٥٧ .
(٢) راجع كتاب الكامل ج٣ص٨١٨ .
(٣) مفتاح العلوم ص١٥٧ .

وبعد ذلك اخذ يرتب اصول البيان ومباحثه الثلاثة الرئيسة ، فرأى ان الاستعارة تعتمد على التشبيه فلا بدّ أن يقدّم مبحثه عليها ، لانه واذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني » (١) ، ولما كان طريق الانتقال من الملزوم الى اللازم واضحا بنفسه ، ووضوح طريق الانتقال من اللازم الى الملزوم انما هو بالغير وهو للعلم بكون اللازم مساويا للملزوم أو أخص منه - قدّم السكاكي الاستعارة وأخّر الكناية ، لانها بالنظر الى هذه الجهة نازلة من المجاز منزلة المركّب من المفرد .

لقد استولى منحى السكاكي ومنهجه في حدّ البيان وتأصيل اقسامه ومباحثه على معاصريه عامةً وعلى القزويني (- ٧٣٩هـ) الذي لخص مفتاحه والذين شرحوا هذا التلخيص ، فاستوت نظرية البيان العربي مقننة في حدود ضيقة بعد أن كانت تشمل فنون البلاغة وفن القول لدى السابقين (٢) .

(١) المصدر السابق ١٥٧.

(٢) ينظر شرح ذلك في البلاغة عند السكاكي ، والقزويني وشروح التلخيص ، ومناهج بلاغية ، وفنون بلاغية ، للدكتور احمد مطلوب .

المبحث الثاني

أهمية البيان

في عصرنا هذا حين تخرج المتخصصون في الجامعات العربية واتصل المثقفون بالثقافة الاوربية ظنّ بعضهم أن البيان العربي هو ما استقر في كتب البلاغة والبديع المتأخرة ، وان الاساليب هي التي انتجها هذا البيان في اثواب من التزويق اللفظي والصنعة المتكلفة ، فظهرت تيارات سطحية لم تستطع ان تتوغل في اصالة هذا البيان وتقف على كنوزه التي في عصور ازدهار الادب ، فأعلنت حرباً عليه ودعت الى التخلص من سمات الجمال التي يزدان بها هذا الادب (١) ، ولذلك تجرد باحثون للرد على هذه التيارات وتمجيد دور البيان العربي الذي نوّه به البلاغيون القدامى وفي مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني الذي قال : «ثم انك لا ترى علماً هو أرسخ اصلا ، وابسق فرعا ، وأحلى جنّى ، وأعذب وردا ، وأكرم نتاجا ، وانور سراجا ، من علم البيان الذي لولاه لم ترَ لسانا يحوك الوشي ، ويصوغ الحلي ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقرى (٢) الشهد، ويريك بدائع من الزهر ، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر ، والذي لولا تحفّيه بالعلوم وعنايته بها ، وتصويره اياها ، لبقيت كامنة مستورة ولما استبنت لها يد الدهر صورة، ولاستمر السِّرار (٣) بأهلتها ، واستولى الخفاء على جملتها ، الى فوائد لايدركها الاحصاء ومحاسن لايحصرها الاستقصاء » (٤) .

ثم ان البيان العمود الفقري لعلوم الادب العربي وفنون لغة الضاد ، وذلك لان هذه العلوم والفنون تهدف الى خدمة البيان ، الذي عُني به العرب في جاهليتهم واسلامهم ، وشُغلوا به في عصور ازدهار العربية ، وفي عصور انحطاطها ،

---

(١) راجع كتاب البيان العربي ص٢٨٢.

(٢) يقرى: يجمع.

(٣) السرار – بالفتح – آخر ليلة في الشهر يستسر فيها القمر، أي يختفي.

(٤) دلائل الاعجاز ص٤.

والبيان ،أو دراسة الفن الادبي ، ينبغي ان يساير كل نشاط فكري ، وان لايتخلف عن أية حركة علمية تخدم التراث العربي في العلم أو في الفن ، بعثاً او تجديداً ، لأثره البعيد في خدمة لغة العرب ، اذ هو يشرح محاسنها وصنوف التعبير بها ، ويجلي أساليبها المختلفة ، وفضل التعبير بكل اسلوب منها ويفسر الملامح الجمالية التي تبدو في قصيدة الشاعر أو خطبة الخطيب ، أو رسالة الكاتب ، أو مقالة المتكلم ، كما ان له ميداناً آخر رحباً فسيحاً في مجال العقيدة ودراستها ، واللغة والعقيدة هما حلقتا المجد في سلسلة امجاد الامة العربية ، وسر حياتها وعظمتها ، وسر خلودها وبقائها متماسكة في وجه الغيَر والاحداث (١).

وتتجلى اهمية البيان في ميادينه تلك : ان اجادة تحقيق قوانينه وابداع مهارته وفهم ثماره أمور تقتضي توفر آلات وأدوات ذكر منها ابن الاثير (–٦٣٧ﻫ) : معرفة علم العربية من النحو والصرف ، ومعرفة ما يحتاج اليه من اللغة ، وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشيّ الغريب ، ومعرفة امثال العرب وأيامهم ، والوقائع التي جاءت في حوادث خاصة باقوام ، والاطلاع على تأليفات من تقدم من ارباب هذه الصناعات المنظومة منه والمنثورة ، والحفظ للكثير منه ومعرفة الاحكام السلطانية في الامامة والامارة والقضاء والحِسْبة (٢) ، وحفظ القرآن الكريم ، والتدرب باستعماله وادراجه في مطاوي كلامه ، وحفظ ما يحتاج اليه من الاخبار الواردة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال ، ومعرفة علم العروض والقوافي (٣).

وهكذا فان البيان العربي يتواصل حلقه بين تراث الامة العربية وثقافتها المعاصرة ، كما يضيء نبراساً نحو المستقبل الزاهر في استمرار اصالة ثقافة هذه الامة ودورها الرائد في بناء الانسان العربي فكراً وروحياً .

ونحن اذ نقرر للبيان العربي هذه الاهمية ندرس في الفصول القادمة أصوله ومباحثه دراسة تحليلية تطبيقية متناولين التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية ،

(١) راجع البيان العربي ص١٢ – ١٣.

(٢) الحسبة بالكسر : الأجر ، واسم من الاحتساب ،وهو حسن الحسبة : حسن التدبير .

(٣) راجع كتاب: المثل السائر، القسم الاول ص٤٣ – ٤٤.

الفصل الثاني

التشبيـــه

المبحث الاول

تعريفه وأركانه

إذا ماالتمسنا في المعجم معنى كلمةالتشبيهلغة لم يكن لنا بد من المرور بالمدلولات التي دارت عليها مادة «شبه» وما يرادفها من مادة «مثل»، ذلك لأن أصحاب المعجمات قد ذكروا تلك المدلولات وذلك المعنى في سياق واحد :

التشبيه لغة :

ذكر ابن منظور أن «الشِبْهُ والشَبَهُ والشبيه: المثل، والجمع أشباه وأشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله، وأشبهتُ فلانا وشابهته واشتبه عليّ، وتشابه الشيئان واشتبها أشبه كل واحد منهما صاحبه : وشبهه إياه وشبهه به مثله والتشبيه: التمثيل» (١)،

ونقل الزمخشري في المنحى ذاته انه: «ماله شبه وشَبَهٌ وشَبيه ، وفيه شَبَهٌ منه، وقد أشبه أباه وشابَهه، وما أشْبَهَه بأبيه وفي الحديث اللبن يشبه عليه ::: واشتبهت الامور وتشابهت :التبست لاشباه بعضها بعضاً :

وفي القرآن : المحكم والمتشابه: وشبه عليه الأمر: لبس عليه» (٢) فمادة «شبه» ومادة «مثل» تلتقيان على ثلاثة معانٍ متحدة في عموم وخصوص:

أولها : اتفاق شيئين أو أمرين على الاطلاق في صفاتهما كافة حتى لايجد المرء بينهما مفارقة فيختلطان عليه ويظن أحدهما الآخر:

وثانيها : تقارب شيئين أو أمرين في وجه من الوجوه فيتفقان من ذلك الوجه وقد يختلفان من سواه .

(١) لسان العرب (شبه).
(٢) أساس البلاغة (شبه)

وثالثها: تساوي شيئين أو أمرين حتى يستوي كل أحد منهما بدلاً عن الآخر .

التشبيه اصطلاحاً :

المتفق عليه : ان المعاني اللغوية لأية كلمة أسبق ظهوراً من مدلولاتها الاصطلاحية ، ومن هنا فإن علماء البلاغة الذين صعبوا إلى تحديد مدلول كلمة التشبيه اصطلاحاً قد تأثروا إلى حد كبير بما أدلى به اصحاب المعجمات من معان لغوية لهذه الكلمة

ويتجلى هذا التأثر في أن تعريفاتهم لكلمة التشبيه اصطلاحاً متفقة في مدلولاتها وان اختلفت طرائق تعبيرهم باختلاف اختصاصاتهم الأساسية وتباين مشاربهم

واعل المبرد (- ٢٨٥هـ) أقدم اللغويين الذين عرفوا التشبيه اصطلاحاً، قال «واعلم أن للتشبيه حداً، لأن الأشياء تشابه من وجوه، وتتباين من وجوه فإنما ينظر إلى التشبيه من أين وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس والقمر، فإنما يراد به الضياء والرونق، ولا يراد به العظم والاحراق . قال الله جلّ وعز: «كأنّهنّ بَيْضٌ مكنونٌ».(١) والعرب تشبه النساء ببيض النعام، تريد نقاءه ورقته»(٢).

ففي هذا النص يظهر : ان المبرد العالم اللغوي يعتمد منهج استقراء شواهد اللغة العربية والذوق العربي ويستضيء بأحد المعاني اللغوية لكلمة التشبيه، وهو تقارب شيئين في وجه واختلافهما في وجه آخر، فيرى أن هذه الكلمة - اصطلاحاً - تدل على جمع أمرين في صفة دون الصفات الأخرى التي تغلبت عليها كلمة المشبه والمشبه به .

وقد تبع قدامة بن جعفر (- ٣٣٧هـ) خطى المبرد فيما ذهب اليه من حدّ التشبيه واضعاً مااقتبس منه في إطار منطقي قائلاً : - «إنّ الشيء لايشبّه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتّة ، اتحدا فصار الاثنان واحداً فبقي أن يكون التشبيه انما يقع بين

(١) الصافات ٤٩ .

(٢) الكامل ج٣ص٥٢.

شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها؛ وإذا كان الأمر كذلك فاحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد (١)».

ومعيار قدامة في تقويم التشبيه الحسن ووضع اليد عليه المابنهض على أساس عقلي ،جبره أخذ به الرماني، وهو المعتزلي، فقال: «التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل» (٢) .

والسؤال هنا يستفسر عن مدى دقة هذا المعيار وفنيته وصحته في نظر علماء البلاغة المبدعين الذين يلتقون بالشاعر بشار بن برد في وصفه لرجع حبيبته قائلاً:

وكأنَّ رَجْـعَ حديثِهـا قِطَعُ الرياضِ كُسِينَ زَهْـرا

إذ ما الصفة أو الصفات التي تجمع بين رجع الحديث وهو يدرك بالسمع وبين قطع الرياض التي تكسوها الزهور وهي تحس بالبصر ؟

فواضح أن صفات رَجْعِ الحديث من جرس موسيقي ورقة نبرات وحلاوة اداء ليست لها أية علاقة عقلية وحسية بصفات قطع الرياض من جمال الوان وطيب رائحة ، واعتدال هواء ، وعليه فإن المعيار الذي حرَّره قدامة لايستعيغ تشبيه رَجْع الحديث بقطع الرياض وقد كسين زهراً، وأمثاله في التشبيهات الفنية.

ومهما يكن فإن قدامة ومن جرى مجراه في تعريف التشبيه كالرماني وأبي هلال العسكري (٣) والباقلاني (٤) قد اعتمدوا المنهج الشكلي وأدخلوا موضوع التشبيه في دائرة النظر العقلي والمنطقي المجردين .

(١) نقد الشعر ص١٢٢.
(٢) النكت في اعجاز القرآن ص٧٤.
(٣) كتاب الصناعتين ص٢٣٩.
(٤) اعجاز القرآن ص٢٩٩.

وعلى النقيض من هذه الدائرة يقف عبد القاهر الجرجاني ليعرّف التشبيه في ضوء أسس المنهج التحليلي قائلاً: «ان هذا الشبه العقلي ربما انتزع من شيء واحد كما مضى من انتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل، وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ماكان لهما في حال الافراد لاسبيل الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما، ومثال ذلك قوله عزّ وجل: «مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يَحْمِلوها كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أسفاراً» (١)، الشبه منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم، ومستودع ثمر العقول، ثم لايحسّ بما فيها ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظ سوى انه يثقل عليه، ويكد جنبيه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض» (٢).

فنحن هنا ازاء منهج لايكتفي بتقرير الامور وانما يسوق صاحبه تعريف التشبيه ثم يستفيض في تحليل مقوماته مستشهداً بأكثر من شاهد.

يحدثنا تاريخ البلاغة العربية أنّ الخلاف بين المنهج الشكلي والمنهج التحليلي تحرير موضوعات هذا الفن وتصحيح أقسامه وضبط أبوابه قد انتهى إلى قطيعة تامة بينهما على يدي السكاكي الذي انتهى بالبلاغة إلى قواعد منطقية وأحكام عقلية ليس فيها دور للذوق الفني الرفيع والحس اللغوي المرهف، لقد وضع السكاكي للتشبيه حدّاً جامعاً مانعاً على أساس منطقي ونظر عقلي فقال: «التشبيه مستدع طرفين مشبهاً ومشبهاً به واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفان في الصفة أوبالعكس. فالأول كالانسانين إذا اختلفا

(١) الجمعة ٥.
(٢) اسرار البلاغة ص٩٠ – ٩١.

صفة طولاً وقصراً، والثاني كالطويلين إذا اختلفا حقيقة انسانًا وفرساً وإلا فأنت خبير بأن ارتفاع الاختلاف من جميع الوجوه حتى التعين يأبى التعدد فيبطل التشبيه لأن تشبيه الشيء لا يكون إلا وصفاً له بمشاركته المشبه به في أمر والشيء لا يتصف بنفسه كما أن عدم الاشتراك بين الشيئين في وجه من الوجوه يمنعك محاولة التشبيه بينهما لرجوعه إلى طلب الوصف حيث لا وصف وان التشبيه لا يصار اليه لغرض وان حاله تتفاوت بين القرب والبعد وبين القبول والرد» (١).

فهذا التعريف يقوم أساساً على مبدأ منطقي يحدد الأشياء المجموعة في التشبيه من حيث الحقيقة والجنس والنوع، ويلتمس صحة الجمع بينها من زاوية الصفة أو الصفات التي يقبلها العقل رابطة بين المشبه والمشبّه به، لذلك فهو يحدد مسائل التشبيه ويقرر أبوابه طرفين وغرضاً وما يحقق هذا الغرض من أداة ووجه شبه.

ان هذه الخطوط العامة لتعريف التشبيه عند السكاكي قد صارت سنّة اتبعها البلاغيون من بعده إما مباشرة أو عن طريق ماقام به القزويني من تلخيص (٢) كتاب السكاكي المعروف «مفتاح العلوم» ثم «ايضاحه»، إذ أن القزويني أخذ تعريف السكاكي ولملم أطرافه وضغط حواشيه وقال: «التشبيه: الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى» (٣).

ويتجلى ما نقرره من انتهاء حال تعريف التشبيه فيما جمع الاستاذ علي الجندي (٤) من تعريفاته لدى البلاغيين القدامى وتثبيت الملاحظات عليها:
فعند ابن الأثير: التشبيه أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبّه به (٥)،
وعند التنوخي: هو الاخبار بالشبه، وهو اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر (٦)،

(١) مفتاح العلوم ص١٥٧ – ١٥٨.
(٢) ينظر كتاب التلخيص في علوم البلاغة ص٢٣٨.
(٣) الايضاح في علوم البلاغة ص٢١٣.
(٤) ينظر كتاب فن التشبيه ج١ص٤٣.
(٥) المثل السائر ج٢ص١٥٣.
(٦) الاقصى القريب ص٤١.

وعند ابن رشيق : صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة (١) .

وعند المطرزي (٢) والحلبي (٣) : الدلالة على اشتراك شيئين في وصف من أوصاف الشيء الواحد في نفسه .

وعند الوطواط (٤) : أن يشبه الكاتب أو الشاعر شيئاً بشيء آخر في صفة من صفاته

وقد علّق الاستاذ علي الجندي على هذه التعريفات مقوماً إياها بقوله: «ويلاحظ أن هذه الحدود جميعاً تتفق في الجوهر، وهو اتفاق المشبه والمشبّه به في وصف يجمعها. ولكن يلاحظ كذلك أنها ليست دقيقة، فمثلا تعريف الخطيب — وهو أشملها — اعترض عليه بأنه لايمنع من دخول نحو :«قاتل زيد عَمْراً» «وجاءني زيد وعَمْرو»، مما جمع فيه بصيغة المشاركة أو واو العطف، ولا يعد مثل ذلك من التشبيه، لخلوّه من الوصف الجامع بين الطرفين» (٥).

وتعتقد أن افتقار تعريف التشبيه اصطلاحاً إلى الدقة لدى معظم العلماء الاسلاف ظلّ يلازمه في تعريفات المعاصرين إيّاه:

ومن هؤلاء المعاصرين السيد أحمد الهاشمي الذي عرّف التشبيه اصطلاحاً بقوله: «والتشبيه اصطلاحاً — عقد مماثلة بين أمرين، أو أكثر، قصد اشتراكهما في صفة، أو أكثر، بأداة: لغرض يقصده المتكلم» (٦) فهذا التعريف ربما يحقق الاحتراز من أن تكون المشاركة بين المشبه والمشبّه به عطفاً بينهما ، وذلك بالنص

(١) العمدة ج١ص١٩٤.
(٢) الطراز ج١ص٢٦٢.
(٣) حسن التوسل ص١٠٦.
(٤) حدائق السحر ص١٣٨.
(٥) فن التشبيه ج١ص٣٥.
(٦) جواهر البلاغة ص٢٤٧.

على أنّ تلك المشاركة تؤديها أداة مخصوصة تسمى مع أخوات لها« أدوات التشبيه» ومع هذا فإن طبيعة هذه المشاركة تبقى قائمة لاتحدد أحوال مقارنة المشبّه بالمشبّه به ولا تستوعبها في دقة وحصر. وآية ذلك اننا نلتقي في نصوص أدبية بتشبيهات يتساوى فيها الطرفان : المشبّه والمشبّه به في جهة التشبيه (١)، فيكون كل واحد من الطرفين مشبهاً ومشبهاً به، تفادياً لترجيح أحد المتساويين على الآخر، كقول أبي اسحاق الصابي :

تَشَابَهَ دمعي إذ جرى ومُدامتي   فمن مثْلِ ما في الكأس عيني تسكبُ

فوالله ما أدري أبالخمر أسْبَلَتْ   جفونيَ أمْ من عَبْرتي كنت أشْرَبُ

فهنا لايشرك أبو اسحاق الصابي دموعه مع خمره في صفة أو صفات تجمع بينهما من وجه لتفرق بينهما وجوه، وإنما يرى دمعه خمراً وبعد قد خمره دمعاً كل هذا ولا مراء في أن الشاعر يعتمد أسلوب التشبيه في تصوير تجربة شعورية خاصة : ولعل هذه الملاحظة لاتعني ان التعريفات التي صاغها القدامي والمعاصرون للتشبيه قاصرة جملة وتفصيلا ،بيد أنها تقر أن صياغة تعريف جامع مانع للتشبيه يضم إليه روائع تراثنا الادبي وما تجود به القريحة المبدعة مستقبلا أمر يقف دون تحقيقه حائلان :

أولهما : أن التشبيه حدث معنوي ، والحدث المعنوي ليس شيئاً مادياً محسوساً تدركه الحواس ، فتصفه وصف العيان والملامسة والتذوق والشم .

وثانيهما : أن التشبيه في جوهره ثمرة مخيلة الانسان التي يغلبها تباين النفوس وشعبها باختلاف البيئات ويلونها تجدد التجارب وما إلى ذلك من العوامل المتنوعة التي تتمنع على الحصر والتقييد .

(١) يسمي البلاغيون هذا اللون من التشبيه (تشابهاً) .
ينظر كتاب فنون بلاغية ص٦١.

طبيعة التشبيه :

لقد انتبه الاستاذ علي الجندي إلى طبيعة التشبيه هذه فأفاد من الدراسات النفسية المعاصرة وتفحص آراء علمائنا القدامى المبدعين فتحدث عن المصدر الحقيقي المتفجر بالتشبيهات الاصيلة قائلا : «إنَّ التشبيه مبنيٌّ على ما تلمحه النفوس من اشتراك بعض الأشياء في وصف خاص يربط بينها. ولذلك يقول أحد علماء النفس أن الأساس النفسي الذي يقوم عليه التشبيه وغيره من الأساليب البيانية من تأليفها وادراكها وتقديرها ، هو في الواقع عملية اساسية في التفكير ، تلك هي مابين بعض الأشياء وبعض من تشابه وعلاقات» (١) .

فالتشبيه في حقيقة امره قياس ، والقياس – كما يقول عبد القاهر – يجري فيما تعيه القلوب وتدركه العقول ، وتستفتى فيه الافهام والاذهان لا الاسماع والآذان(٢) وما يعنينا من هذا الحديث : أن المنهج التحليلي التكامل في الكشف عن اركان التشبيه وعرض جوهره وتجسيد فائدته هو الذي يستطيع أن يقدم لنا الصورة الحقيقية من هذا الفن ، بخلاف المنهج التقريري الشكلي الذي يقف بنا لدى ظاهره ويقدم لنا أجزاءه شتاتا وتفاريق : وفي المجال التطبيقي نلتقي بعبدالقاهر الجرجاني وهو يحلل شواهد فنية اصيلة من هذا المنطلق النفسي وقد ذكر هذه الأبيات لابن طباطبا :

رُبَّ ليل كأنّه أملي فيـ ـك وقد رُحْتُ عنك بالحرمـان
جُبْتُهُ والنجومُ تنعس في الأفـ ـق وتطرفن كالعيون الرواني
هارباً من ظلام فعلك في نحـ ـو ضياء الفتى الأغرّ الهجان (٣)

(١) دراسات في علم النفس الادبي ص٤١.
(٢) فن التشبيه ج١ ص٥٠.
(٣) جبته : قطعته . طرفت العين : تحركت . الهجان : ككتاب : الخيار من كل شيء، ورجل هجان : كريم الحسب.

ثم حللها قائلاً: ولما كان يقال في الأمر لايرجى له نجاح: « قد أظلم علينا هذا الأمر » «وهذا أمر فيه ظلمة» ثم أراد أن يبالغ في التباس وجه النجح عليه في أمله تخيل كأن أمله شخص شديد السواد فقاس ليله به كأنه يقول: «وتفكرت فيما أطعمه من الأشياء السود، فرأيت صورة أملي فيك زائدة على جميعها في شدة السواد فجعلته قياساً في ظلمة ليلي الذي جبته» (١).

ففي هذا النص يشير عبد القاهر الجرجاني إلى مصدر عدّ الخيبة في تحقيق الأمل ضرباً من الاظلام، وهو مايقوله الناس عادة، ثم يتحدث عن انعكاس ذلك في مخيلة الشاعر، وبعد ذلك يلتمس انفعالات الشاعر النفسية وهو يعاني من يأسه في تحقيق أمله ويعاني حتى تمخضت عن تشبيه ليله بأمله الخائب قياساً وتصوراً.

طرفا التشبيه :

حدّد البلاغيون أربعة أركان للتشبيه: هي المشبّه والمشبّه به ووجه الشبه وأداة التشبيه. كما يظهر في قوله تعالى: «وألْقِ عصاكَ، فلما رآها تَهتَزُّ كأنَّها جانٌّ ولَّى مُدْبِراً» (٢)

فالضمير في «كأنها» العائد إلى العصا مشبّه وكلمة « جان » مشبّه به والاهتزاز الذي هو شدة الاضطراب في الحركة : وجه الشبه، وكأن هي أداة التشبيه. وكما يتضح ذلك أيضاً في قول ابن الفارض :

أعوام إقباله كاليوم في قِصَرٍ ويوم إعراضه في الطول كالحِجَجِ

ففي هذا البيت تشبيهان : أولهما: «أعوام إقباله كاليوم في قصر»، ؛ أو «أعوام إقباله» مشبه و«اليوم» مشبه به و«القصر» وجه الشبه ، والكاف أداة التشبيه ، وثانيهما : هو «يوم إعراضه في الطول كالحججِ » ؛ «يوم إعراضه» مشبه و «الحجج» مشبه به «والطول وجه الشبه» والكاف أداة التشبيه.

(١) اسرار البلاغة ص٢١٤.
(٢) النمل ١٠.

ويقال في كتب البلاغة المشبّه والمشبّه به طرفي التشبيه ، وذلك لوجوب ورودهما في التشبيه وعدم جواز حذف أحدهما أو كليهما ، إذ يؤدي الحذف إلى تحول التشبيه، كما سنرى إلى الاستعارة .

وذهب الحموي في تعداد أركان التشبيه مذهباً آخر، فرأى أنها : المشبه والمشبه به ، والمشبه بالكسر – وهو المتكلم – والتشبيه – وهو الالحاق المذكور في الشبه (١). ويثير هذا المذهب مسألتين : أولاهما :هي تأكيد دور الأديب في صناعة التشبيه والتماس أثر حالته النفسية وذوقه وبيئته الخاصة في الكيفية التي أخرج عليها تشبيهه .

والملاحظ أن هذه المسألة تكاد تكون مغفلة في معظم كتب البلاغة العربية ولا سيما تلك الكتب التي يتبع اصحابها المنهج الشكلي في تحليل أركان التشبيه وبيان تعبيره وتأثيره .

وثانيتهما: تجاوز النظر إلى أداة التشبيه ووجه الشبه ركنين أساسيين بين أركان التشبيه الأربعة. والحموي في هذه المسألة لايأتي بجديد فإن البلاغيين الذين سبقوه ، وذلك لان هؤلاء يطلقون على المشبه والمشبه به اسم «طرفي التشبيه» دلالة على أنهما ركنان رئيسان في فن التشبيه، وانه لايجوز حذف واحد منهما ، لأن هذا الحذف يحول التشبيه إلى الاستعارة .

أما وجه الشبه وأداة التشبيه، فيجوز حذف أحدهما أو كليهما دون أن يغير هذا الحذف من التشبيه ويؤدي به إلى أسلوب آخر من أساليب البيان .

وقد عرّف البلاغيون المشبه بأنه الشيء الذي يراد تشبيهه وإبراز صفته وتجسيد حاله، وإن المشبه به هو الشيء الذي يشبه به وتتضح فيه تلك الصفة وهذه الحال .

وإجراء عملية التشبيه بين طرفي التشبيه في نظر أولئك البلاغيين ينهض على قاعدة تؤكد : أن المشبه والمشبه به لابد من إتحادهما في الحقيقة أو اشتراكهما في الذات ،

---

(١) خزانة الادب ص٢١٦ .

مع اختلافهما في الصفة ، أو اتحادهما في الصفة مع اختلافهما في الحقيقة أو الذات، لأن التشبيه يقتضي الإختلاف في بعض الجهة والإشتراك في بعضها إذ الإشتراك من جميع الوجوه حتى الإتحاد الذي يأبى التعدد ، أو الإختلاف من جميع الوجوه حتى التعين الذي يأبى المقاربة، لايتأتى به تشبيه البتة(١).

مثال ما اتفق فيه الطرفان في الحقيقة والذات واختلفا في صفة قول قيس بن ذريح :-

أقضّي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهمَّ بالليل جامعُ
نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزّتني اليك المضاجعُ

فتشبيه الشاعر نهاره بنهار الناس جمع بين أمرين متحدين في الحقيقة والذات، أما الاختلاف بينهما فيرجع إلى صفة مخصوصة تترادى للقارىء من معرفة حال ذلك الشاعر المتيم الذي يأتي بعد نهاره ليله المفعم بالآلام وعلمه بنهار الناس الذي ينتهي بليل يرتاحون فيه نائمين مطمئنين لايقلقهم حدث ولا يذهب عن جفونهم الكرى ألم .

ومثال ماتشابه الطرفان في صفة وتباينا في الحقيقة والذات قول أبي دلامة في الهجاء :

إذا لبس العمامة كان قِرداً وخنزيراً إذا خلع العمامــــــه

فالهجو في هذا البيت يتشابه مع القرد والخنزير في صفتي القبح واللؤم ويتباين عنهما في الحقيقة والذات. والتشبيه باعتبار الطرفين أربعة أضرب :

الأول : التشبيه الذي يكون فيه المشبه والمشبه به حسيين، والمراد بالحسي مايدرك هو أو مادته باحدى الحواس الخمس الظاهرة وهي : البصر والسمع والشم والذوق واللمس، كما في تشبيه الخد بالورد والفيل بالجبل ،في المبصرات، والصوت الضعيف بالهمس في المسموعات، والنكهة بالعنبر في المشمومات،والريق بالخمر في الملذوقات، والجلد الناعم بالحرير في الملموسات .

(١) راجع فن التشبيه ج١ص١٠٢.

الثاني: التشبيه الذي يستوي فيه الطرفان عقليين، والمقصود بالعقلي مالا يدرك واحد منهما بالحس بل بالعقل كما في تشبيه العلم بالحياة، والجهل بالموت، والفقر بالكفر.
الثالث: التشبيه الذي كان فيه المشبه معقولا والمشبه به محسوساً كما في تشبيه المنية بالسّبع، والجهل بالظلام والعلم بالنور.

الرابع: التشبيه الذي كان فيه المشبه محسوساً والمشبه به معقولا كما في تشبيه العطر بخلق كريم (١) :

وأثار التماس مادة طرفي التشبيه على أساس هذه الأضرب الأربعة مسائل خلافية بين بعض البلاغيين، وأولى هذه المسائل أن بعضهم منع تشبيه المحسوس بالمعقول وذلك بحجة أن العقل مستفاد من الحس، قال الرازي : «انه غير جائز لأنّ العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية اليها ولذلك قيل: «من فقد حسا فقد فقد علما» وإذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يكون جعلا للفرع أصلا وللأصل فرعاً، وهو غير جائز. ولذلك لو حاول محاول المبالغة في وصف الشمس بالظهور والمسك بالطيب فقال: «الشمس كالحجة في الظهور» و «المسك كأخلاق فلان في الطيب» كان سخيفاً من القول»(٢).

وفي يقيننا : أن هذا المنع لتشبيه المحسوس بالمعقول يعتمد نظراً عقليا ودليلا منطقياً ، والنظر العقلي والدليل المنطقي لايثبتان اذا لم يعدامن الشواهد الأدبية الأصيلة مايجعلهما قاعدة بلاغية مستساغة .

والحقيقة أن شواهد أدبية أصيلة جرى فيها تشبيه المحسوس بالمعقول فأقامت الحجة على أن ذلك المنع ليس من فن القول في شيء : من هذه الشواهد قول القاضي التنوخي :

---

(١) ينظر الايضاح ص٢١٩.
(٢) نهاية الايجاز ص٥٩.

وكأنَّ النجومَ بين دجاها سُنَنٌ لاح بينهن ابتداعُ

ففي هذا البيت المشبَّهُ النجوم بين دجاها، مشهد حسي تحسه العين، والمشبَّه به «سنن لاح بينهن ابتداع» مركب عقلي يلم به العقل ويتصوره الخاطر .

ومنها قول الصاحب بن عباد حين أهدى العطر إلى القاضي الجرجاني :

يا أيُّها القاضي الذي نفسي له في قُرْب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطراً مثلَ طيب ثنائه فكأنَّما أهدى له أخلاقه

فهنا شبَّه الشاعر العطر وهو من المشمومات بطيب الثناء وهو ما لايدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة .

لقد علل الرازي نفسه حسن التشبيه في هذين الشاهدين وسواهما قائلا : «واعلم أن الوجه الحسن في هذه التشبيهات أن يقدر المعقول محسوساً ويجعل كالأصل في ذلك المحسوس على طريق المبالغة وحينئذ يصح التشبيه» (١) .

ومن المعاصرين من ألمَّ بهذه المسألة البلاغية يردها إلى التخيل مصدراً لخلق الصورة التشبيهية ، «وكذلك نجد له أمثلة كثيرة حينما بدأ الشعراء العباسيون يصورون المعاني تصويراً يعتمد على الخيال » (٢) .

وثانية هذه المسائل أن هناك لوناً من التشبيه هو التشبيه الخيالي، رده بعض البلاغيين (٣) إلى التشبيه الحسي وأدخله فيه، باعتبار أن الحسي يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس كما في قول الشاعر :

وكأنَّ مُحْمَرَّ الشقيق إذا تَصوَّبَ أو تَصَعَّدْ(٤)
أعلامُ ياقوت نُشِرْ نَ على رماح من زَبَرْجَدْ (٥)

---

(١) نهاية الايجاز ص٦٠، وينظر فنون بلاغية ص٣٩.

(٢) فنون بلاغية ص٤٠.

(٣) ينظر الايضاح ص٢١٩.

(٤) الشقيق : ورد احمر مبقع بنقط سود . تصوب : مال إلى اسفل ، تصعد : اتجه إلى اعلى .

(٥) الياقوت : حجر كريم صلب رزين شفاف تختلف الوانه. والزبرجد: حجر كريم ايضاً يشبه الزمرد ، واشهره الاخضر ، وينسب البيتان للصنوبري .

وثالثة هذه المسائل أن أولئك البلاغيين عدوا أنواعاً أخر من التشبيه هو التشبيه الوهمي من التشبيه العقلي، وذلك لأن الوهمي هو ماليس مدركاً بشيء من الحواس الخمس الظاهرة، مع انه لو أدرك لم يدرك الا بها (١)، كما في قول امرىء القيس:

أيقتلني والمشرفـــيُّ مضاجعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوالِ

وعليه قوله تعالى: «طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رؤوسُ الشَّيَاطِين»(٢) وكذا مايدرك بالوجدان، كاللذة، والألم، والشَّبع، والجوع.

لقد فرّق البلاغيون بين التشبيه الخيالي والتشبيه الوهمي فقال العلوي: «والتفرقة بين الأمور الخيالية والامور الموهومة هو أن الخيال أكثر مايكون في الأمور المحسوسة، فأما الامور الوهمية فإنما تكون في المحسوس، وغير المحسوس مما يكون حاصلا في قلوبهم وداخلا فيه» (٣).

وعلى هذا الأساس كان التشبيه الخيالي هو المعدوم الذي فرض مجتمعاً من عدة أشياء، كل واحد منها يدرك بالحس، ويتوفر في الوجود وأن الصورة التي يدخل فيها مع سائر الأشياء قد نسجها الخيال :

فمحمر الشقيق في الشاهد السابق- تلتقي به العين في الطبيعة وحالته في التصوُّب والتصعُّد يرسمها الخيال وكذلك أعلام الياقوت وبساط الزبرجد يقع عليهما الانسان متفرقين في الحياة اليومية. بَيْدَ أنَّ جَمْعَهُمَا في صورة، وتأليف هذه الصورة مع محمر الشقيق متصوباً ومتصعداً في طرفي تشبيه حدث لغوي وعملية تخيلية جريا بخيال الشاعر .

أما التشبيه الوهمي فهو ما يأتلف طرفاه أو إحدهما مما لاوجود له ولا لاجزائه كلها أو بعضها في الوجود المحسوس ولو وجد لكان مدركاً بإحدى الحواس،

(١) الايضاح ص٢٢٠ .
(٢) الصافات ٦٥. طلع الشجر : مايبدو من ثمرته اول ظهورها .
(٣) الطراز ١ص٢٧٣، وينظر فنون بلاغية ص٤٠.

فأنياب الأغوال في بيت امرىء القيس لاوجود لها في نظر الانسان وقدجعلها الشاعر مشبّهاً به للسهام الزرق توهماً.

وفي الشاهد القرآني الكريم شبّه طلع شجرة تخرج في أصل الجحيم برؤوس الشياطين وذلك لأنه قد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ماصار بمنزلة المشاهد، ولذلك ربط سبحانه وتعالى بين شجر الزقوم ورؤوس الشياطين.

ورابعة هذه المسائل أن الصفة أو الصفات الجامعة بين طرفي التشبيه تكون أقوى في المشبّه به منه في المشبّه، وذلك لأن الأصل في التشبيه عند البلاغيين أن يقصد به إلحاق الناقص بالزائد في الصفة المطلوبة، إذ أن الفائدة المستنجة من التشبيه - كما يقول ابن الأثير - : أن يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة «أفعل»(١) - ، أي: يشبه بما هو أبين وأوضح، أو بما هو أحسن أو أقبح ، وكذلك يشبه الأقل بالأكثر، والأدنى بالأعلى .

وما ذهب اليه ابن الأثير هو معنى قول السكاكي: «المشبه به من حقه أن يكون أعرف بجهة الشبه من المشبه، وأخص بها، وأقوى حالا معها» (٢) ؛

وأكّد العلوي أن المشبّه به أعظم حالا من المشبه في كل أحواله (٣) ؛

وقد وردت شواهد في التشبيه تخالف هذا الأصل البلاغي وتخرج على قاعدته، منها قوله تعالى حكاية عن الكفار: «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا»(٤) في مقام: أن الربا مثل البيع ، عكسوا ذلك لايهام أن الربا عندهم أحل من البيع، لأن الغرض الربح، وهو أثبت وجوداً في الربا منه في البيع، فيكون أحق بالحل عندهم ؛

(١) المثل السائر ج١ص١٦٥.
(٢) مفتاح العلوم ص١٨٤.
(٣) الطراز ج٣ص٢٢٧.
(٤) البقرة ٢٧٥.

ومنها قول محمد بن وهيب الحميري :

وبدا الصباحُ كأنَّ غُرَّتَهُ وَجْهُ الخليفةِ حين يُمْتَدَحُ

فغرّة الصباح أتم بياضاً وإشراقاً من أي وجه، ومع ذلك جعلها الشاعر مشبهاً، جعل وجه الخليفة مشبهاً به .

ومنها قول البحتري :

في طَلْعَةِ البدرِ شيءٌ من محاسنها وللقضيبِ نَصيبٌ من تَثَنِّيها

والمتعارف تشبيه الوجوه الحسنة بالبدور، والقامات بالقضيب في الاستقامة والتثني لكنّ البحتري أخرج طرفي التشبيه على غير هذه العادة .

نقد الدارس البلاغيون (١) هذه الشواهد وأمثالها وسعوا إلى تخريجها لتوافق هذا الأصل البلاغي ولا تخرج على قاعدته فسموا التشبيه فيها تشبيهاً مقلوباً أو منعكساً ومعكوساً، وحدُّوه بأنه هو مارجع فيه وجه الشبه إلى المشبه به وذلك حين يراد تشبيه الزائد بالناقص والحاق الأصل بالفرع للمبالغة .

وفي يقيننا أن حصر البلاغيين لأضرب مادة طرفي التشبيه في تلك الأنماط الأربعة والتزمهم لهذه المسائل الخلافية حول طبيعتها انما يعود إلى اعتمادهم الدراسات العقلية النظرية من مصدر معرفة الانسان وعلمه وهو مصدر لايتعدى حواسه الظاهرة وما شاع عنها من مألوف ومعهود وجار مع العادة بين الناس خلفاً عن سلف؛ وهذا المصدر في طبيعته وحدوده ربما يغلق أمام الأديب المبدع سبيل الخلق في التشبيه كما يأخذ على يدي البلاغي المتذوق فيمنعه من التماس المنهج الأمثل لتحليل الشواهد الأصيلة في هذا الفن .

ولعل الكتب البلاغية الموروثة الأصيلة تتسع لهذه الحقيقة وتتيح لنا مجال التصور بأن التشبيه في إخراج طرفيه حدث لغوي وعملية ذهنية عمادها طريق التخييل

(١) ينظر : أسرار البلاغة ص١٨٧ وما بعدها .

في تصوير تجربة صاحب التشبيه تجاه المشبه وتحقيق غرضه من الجمع بينه وبين المشبه به

وعندما نلتقي بتصوير هذه التجربة علينا أن نكشف عن الصدق في التعبير ووضع اليد على جماله متجنبين الأحتكام إلى القواعد المقننة البعيدة في صياغتها عن استقراء النصوص الأصيلة :

فمن أقدم هذه النصوص قول امرىء القيس في تشبيه ليله المخصوص بموج البحر :

وليلٍ كموجِ البحرِ مرخٍ سدولَهُ ... عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي
فقلتُ له لما تمطّى بصُلْبِه ... وأَرْدَفَ أعجازاً وناءَ بكلكلِ
ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلي ... بصبحٍ ، وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ (1)

ينقل إلينا امرؤ القيس تجربته مع ليله الذي هو مشبه في الأبيات ، فإذا هو أمرؤ عاقل متمعن في تعذيب صاحبه والنكاية به ، يرخي عليه الستور بصنوف الهموم ليختبر صبره وجزعه ، ويستلقي على صدره ويكتم أنفاسه جسماً يمدد وسطه ليحتويه ويهم بتركه فلا يلبث في ذلك حتى يرجع اليه ضاغطاً عليه متباعداً في جرمه وهيكله :

ويحاوره الشاعر ويحادثه ويطلب اليه أن ينكشف عنه ثم يتذكر ما يأتي بعده من صباح ، فيعرف أن هذا الصباح ليس بأحسنَ منه :

والسؤال الذي يثيره البلاغي التقليدي عما اقتبس منه امرؤ القيس مشبهه هذا ، يلقي في جوابه تعداداً غير منسجم لروافده : فظلام هذا الليل المشبه مصدره حاسة البصر وإدراكه للعقلي في ارخاء السدول والابتلاء وفهم الخطاب وربما يكون

---

(1) سدوله : ستوره ، ليبتلي : اى لينظر ماعنده من الصبر والجزع ، ويبتلى بمعنى يختبر . تمطى بصلبه : تمدد بوسطه ، فأردف أعجازاً : أي رجع ، وناء بكلكل : أى تهيأ لينهض ، والكلكل : الصدر .
انجلي . انكشف ، الامثل : الاحسن .

أمراً عقلياً ووهمياً في آن واحد ، وأصوات حركته امتدادا ورجوعاً واستلقاء تلم به حاسة السمع ، ولكن بعد هذا كله أوما يبقى ليل امرىء القيس هذا متمنعا عن التصور الحسي والعقلي المعهود ؟ نحن نظن ذلك ، ومن هنا فمصدر صورة هذا الليل هو تجربة الشاعر المحسوسة وجدت أدوات تعبيرها من لون وحجم وحركه وتعقل غير معقول في ضوء مقاييسنا من وعيه ومن لا وعيه ومن شعوره واحساسه بماعاناه وكابده ؛

أما المشبّه به «موج البحر» في الابيات، فهو أمر إذا لم يكن قد ألفه العربي المتلقي لهذه الأبيات كلّ الألفة في صحرائه، فهو معروف بصفات الظلمة الكثيفة والحركة المتتابعة وانطوائه على المخاطر والمهالك؛

وهذه الصفات وإن كانت محسوسة ومعقولة في آن واحد، لاتصلح أصلا تقاس به صفات المشبه وحالاته تلك ولا تستوي صورة أوضح من صورة المشبه كما يقرره البلاغيون التقليديون للمشبه به وإذن فالجمع بينهما في نظر معظم البلاغيين إنما كان في عملية التشبيه على أساس التشبيه المقلوب ؛

والسؤال هنا هو : أيفسر هذا النظر فنيّة التشبيه ويقدم لنا كشفاً دقيقاً عن غاية الشاعر العفوية غير المستهدفة بدءاً وتحديداً من تشبيهه ؟ نحن نزعم في الجواب عن هذا السؤال : أن امرأ القيس لم يبتغ من جمعه بين طرفي التشبيه شيئاً سوى تصوير تأثره والتعبير عنه ثم التأثير في متلقيه من السامعين والقارئين، فكان موج البحر في غمرة تجربته وانفعاله ومعاناته خير مشبه به يأتلف مع ليله المشبّه؛

وربما يكون غرض شاعر آخر من الجمع بين المشبه والمشبه به هو إفهام المتلقين قبل التأثير فيهم فيأتي طرفا التشبيه مألوفين ومعهودين بدرجة تحقق ذلك الغرض وبخاصة في الموضوعات العلمية ؛

والنص الذي نختاره تطبيقاً على منهجنا في تحليل طرفي التشبيه هو قول الرصافي في التحدث عن نظرية البقاء الاصلح في معترك الحياة ؛

خليليَّ أنّ الأرض غربال قدرة ... تجمعت الأحياءُ بين إطـارِه
تميدُ به كفّ الزمان تحركاً ... لمحوِ ضعيف أو لاثبات فارِه
فيبقى به الأقوى قرينَ ارتقائه ... كما يسقط الأوهى رهين اندثارِه
فلا عيش في الدنيا لمن لم يكن بها ... قديراً على دفعِ الأذى والمكارِهِ (١)

تتجمع في عقل الرصافي وحافظته الواعية كما يظهر من هذه الأبيات معلومات ومشاهدات في الصراع بين طبقات الناس وأجناسهم فوق الأرض، وبتوثق من أن الاقوى من هذه الفئات والطبقات يتغلب على الأضعف ويمحيه عن سبيله، فيتخذ الارض التي هي مسرح هذا الصراع مشبهاً. ثم يقلب الأشياء التي يعرفها ويعهدها في الحياة اليومية ليختار منها المشبّه به القادر على نقل معرفته ومشاهداته تلك إلى المخاطبين في وضوح ودقة.

وبدهي أن الشيء الذي يريده لهذه المهمة بين تلك الأشياء لابدّ أن تتضح فيه صفة الامساك بأمور وتسريب أمور أخرى على أساس الحجم والكتلة، فكان الغربال هو هذا الشيء، ولذلك اتخذه مشبهاً به وجمع بينه وبين الأرض المشبه في صفة الاستدارة والحركة والامساك بما فيه من ذوات الحجوم الكبيرة وتسريب مايدق جرمه ويتضاءل هيكله .

ولما كان الغربال في تلك الصفات معروفاً لدى متلقي ابياته في وظيفته تمكن من تحقيق غرضه من تشبيهه وهو الافهام والتعليم. والملاحظ من هذا التحليل أن طرفي التشبيه في مادتهما إذا كانا مقتبسين من حاسة أو أكثر من الحواس الظاهرة — يحملان في الوقت ذاته في طياتهما احساس الشاعر النفسي بقساوة الحياة وبجسدان شعوره الوجداني بخيبة الأمل والاشفاق على الناس في هذا الصراع غير المتكافىء.

(١) تميد به: اي تدور به وتتحرك . والفاره : المليح النشيط . والمراد به هنا: مايقابل الضعيف ، وهو القوى . الاوهى : الاضعف . وهو مقابل للاقوى في الشطر الاول . ينظر ديوان الرصافي ص٣٦ (قصيدة معترك الحياة) .

ويتمثل هذا الشعور وذلك الاحساس في ظلال مدلولات المشبه والمشبه به، ذلك لأن الأرض على سعتها وكثرة خيراتها تضيق عن استيعاب الناس، للذين تجمعهم وشائج متنوعة، ولأن الغربال في عمله الآلي يحتفظ مثلا بالحجر الضار بجرمه الكبير ويسقط الدقيق النافع لحجمه الصغير :

وجـه الشبـه :

ان ثالث أركان التشبيه هو وجه الشبه الذي يعرف اجمالا بما يشترك فيه طرفا التشبيه، المشبّه والمشبّه به من معنى :

وقد تتبع البلاغيون والنقاد القدامى هذا الاشتراك ، فالتمس بعضهم الوانه في ضوء منهج استقرائي يعتمد اشعار العرب ومصادر تشبيهاتهم فيهامن بيئة وحياة اجتماعية وحالات نفسية ، من هؤلاء ابن طباطبا العلوي (- ٣٢٢هـ) (١) ، وابن ناقيا البغدادي (- ٤٨٥هـ) الذي حدد كيفية التشبيه قائلا : «إنّ الشيء يشبه بالشيء تارة في صورته وشكله، وتارة في حركته وفعله، وتارة في لونه ونجره، وتارة في سوسه(٢) وطبعه» (٣). وبعضهم الآخرحبس الوانه في اطار منطقي وحصرها في مصدرها الحسي كما فعل القزويني الذي جعل المعنى المشترك بين طرفي التشبيه اما تحقيقاً أو تخييلا» (٤)

والمراد بالتحقيق ما أدرك باحدى الحواس الخمس الظاهرة كتشبيه الشعر بالليل في السواد وتشبيه النكهة بالعطر في الرائحة ، وتشبيه البشرة بالحرير في الرقة، وتشبيه الريق بالسلافة في المذاق، وتشبيه الصوت باللحن في العذوبة :

أما التخييلي فالمقصود به «ألا يمكن وجوده في المشبه به إلا على تأويل كما في قول القاضي التنوخي :

---

(١) ينظر عيار الشعر ص١٠ - ١١ .

(٢) النجر : الاصل كالنجار ومنه المثل : « كل نجار أبل نجارها » أي : في كل لون من الاخلاق ولايثبت على رأي. السوس : بالضم - الطبيعة والاصل .

(٣) الجمان في تشبيهات القرآن ص٤٣ .

(٤) الايضاح ص٢٢٠ .

وكأنّ النجومَ بين دُجاها   سُنَنٌ لاحَ بَيْنَهُنّ ابتداع

فأن وجه الشبه فيه الهيئة الحاصلة من حصول أشياء مشرقة بيض في جوانب شيءٍ مظلم أسود ، فهي غير موجودة في المشبه إلاّ على طريق التخيل» (١)

وفي رأينا أن التماس وجه الشبه على هذا عند القزويني ومن شايعه والذين تقبلوه يعود إلى مباحث عقلية لاتمس الجوانب الادبية والنفسية والشعورية التي تقوم عليها الموهبة الادبية .

ومما لابد من تأكيده هنا : أن وجه الشبه الذي يلتقي عليه طرفا التشبيه لايكفي أن يكون متحققاً ، أو متخيلا بشكل آلي لكي يصبح مستساغاً في الذوق ومقبولا في الطبع فقول الشاعر :

وله طُـرَّةٌ كَـدِرنٍ وصالٍ   فوقهـا طُرَّةٌ كلون صُدُودِ (٢)

يشبه طرة حبيبته وهي شعر مقدمة الرأس بالصدود في السواد ،

والعادة جارية بوصف الصدود وسوء الطالع بالسواد ، ولكن أين جمال سواد الطرة الذي هو علامة للشباب ودليل الحيوية من سواد الحظ العاثر وظلمة الصدود الذي يورث همّاً قاتلا وحزنا عميقا ؟

وعليه فان وجه الشبه في حقيقته الأدبية والفنية ثمرة لاحساس الأديب بما يجمع مشبهه الذي له معه تجربة مخصوصة مع المشبه به الذي يثير في نفسه ووجدانه مايفيض في تشبيهه الفني تماسكا عاطفيا وتجاوبا شعوريا بين طرفيه .

أداة التشبيه :

إنّ الركن الرابع الذي اشرنا اليه في اركان التشبيه هو اداة التشبيه التي عرفها معظم البلاغيين القدامى (٣) والمعاصرين (٤) ، وانعقد رأيهم على انها الكلمة

---

(١) الايضاح ص٢٢٠ .

(٢) الغرة : بياض في الجبين .

(٣) ينظر : كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص٤٣ .
والايضاح ص٢٣٥ .

(٤) جواهر البلاغة ص٢٦٧ ، فن التشبيه ج١ص١٩٢ وفنون بلاغية ص٤٧ .

التي تفيد المماثلة والمشاركة بين المشبه والمشبه به فانضوى تحتها كل ما أفاد شبها ، كالكاف وكأن وياء النسب ومثل ومثيل وشبه،وشبيه ونحو وضريب وشكل ومضاه ومساو ومحاك ، وأخ ونظير ، وعدل وعديل ، وكفء ومشاكل وموازن ومصارع وند وصنو ، وماكان بمعناها اوكان مشتقاً منها من فعل أو اسم والأداة في مدلول استعمالها هنا عامة تشمل الحرف والأسم والفعل ، وعليه فأن أدوات التشبيه تصنف في ثلاث مجموعات :

أولاها : أدوات التشبيه «الحروف» واشهرها «الكاف وكأن»:

أما الكاف فالأصل في إستعمالها أن يليها المشبه به كقول أحمد شوقي في وصف البحر :

لجة عند لجة عند أخرى	كهضابٍ ماجت بها البيداءُ
وسفين طوراً تلوح وحينا	يتــولى أشباحهــن الخفــاءُ
نازلاتٌ في سيرها صاعـداتٌ	كالهوادي يَهُزُّهُنَّ الحُـداءُ (١)

ومجيء المشبه به بعد الكاف إما لفظاً كما في الشاهد السابق وإما تقديراً كقوله تعالى : «أو كَصَيِّبٍ من السَّماءِ فيه ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ »(٢)؛

والأصل كذوي صَيِّبٍ ، فحذف ذوي لدلالة «يجعلون أصابعهم في آذانهم» عليه، وحذف«مثل»لما دل عليه عطفه على قوله:«كَمَثَلِ الذي استوقد ناراً» (٣) إذ لايخفى أن التشبيه ليس بين مثل المستوقدين ، وهو صفتهم العجيبة الشأن وبين ذوات ذوي الصيب، وانما التشبيه بين صفة أولئك وبين صفة هؤلاء.

وأما «كأن» فهي تفيد التشبيه سواء اخففت نونها أم لا ، أو اتصلت : «ما» الكافة أم لا »

---

(١) الهوادي : اول رعيل من الأبل. الحداء : الغناء في أثر الابل.
(٢) البقرة ١٩.
(٣) البقرة ١٧.

وشاهد المخففة قوله تعالى: « كَأَنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ » (١) ومثال المشددة قول الشاعر :

كأَنَّ الثُّريا راحةٌ تشبر الدُّجى لتنظر طال الليلُ أم قد تَعَرَّضا

ومثال المتصلة بـ«ما» الكافة قول ابن نباتة في فرس ابلق أغر :

وكأنما لطم الصبـــاح جبينه فاقتص منه فخاض في أحشائه

والأصل في الأداة «كأنّ» أن يليها المشبه باتفاق البلاغيين وإن كان هؤلاء البلاغيون على خلاف في اطلاق افادتها التشبيه ، فبعضهم يرى أنها تفيد التشبيه بلا تقييد وبعضهم الآخر يزعم أنه إن كان خبرها اسماً جامداً فهي للتشبيه كقول الشاعر:

كم نعمة مُرَّتْ بنا وكأنها فَرَسٌ يُهَرْوِلُ أو نسيمٌ ساري

وإن كان جملة أو مشتقاً، فعلاً أو صفة، فهي للشك بمنزلة ظننت وتوهمت كقول عروة بن حزام العذري :

كأَنَّ قطاةً علّقت في جناحها على كبدي من شدَّة الخفقان

فمثل هذا لايكون تشبيهاً، لأن خبرها المشبه به في المعنى هو المشبه والشيء لايشبه بنفسه.

وذهب الكوفيون والزجاج إلى أنها للتحقيق في قول الشاعر :

وأصبح بَطْنُ مكّة مقشعِرّاً كأنَّ الأرضَ ليس بها هشامُ (٢)

والمتتبع – للنصوص الأدبية – وهي المعول عليها في الحكم – يدرك أن هذا الحرف يفيد التشبيه دائماً .

وثالثها : أدوات التشبيه «الأسماء»: وأسيرها في النصوص الأدبية: «شبه» كقول الشاعر :

(١) يونس ١٢.

(٢) اقشعرت الارض: أمحلت.

باشتبيه السدر في الحُسْن وفي بُعْسد المنسال
جُدْ فَقَدْ تنفجر الصخـ ـرةُ بالماءِ الزُلال

و «مثل» كقول عبيد بن العرندس الكلابي يصف قوماً نزل بهم :

لاينطقون على العَمياء إنْ نَطَقوا ولا يُمارون إنْ ماروا باكْثار
مَنْ تَلْقَ منهم تَقُلْ لاقيتَ سيدهم مثلُ النجوم التي يَسري بها السَّاري(١)

وثالثها أدوات التشبيه «الأفعال» وأكثرها دورانا على ألسنة الأدباء : -

الفعل «خال» بشتى أزمنته كقول أحمد شوقي في وصف جيف وضواحيها :
وأتاك موفورُ النعيم ، تخاله مَلَكاً تنمّ به السماءُ مُطَهّرا

وذهب ابن ناقيا البغدادي إلى أنه «ربما استغني عن هذه الأدوات بالمصدر نحو «خرّج خُروجَ القِدْح»(٢) و «طلع طلوعَ النجم» و «مرق مروقَ السهم»(٣)

وفي يقيننا أن صيغة المصدر المبين للنوع في هذين الشاهدين وما جرى مجراهما تفيد التشبيه أصالة حتى لقد قرّر ابن الأثير بهذا الصدد قائلا : «واعلم أن محاسن التشبيه أن يجيء مصدرياً كقولنا : «أقدَم إقدامَ الأسد» و «فاض فَيْضَ البحر» وهو أحسن مااستعمل في باب التشبيه» (٤).

وفي هذا الباب من النظرات الخلافية (٥) يرى بعض البلاغيين انه قد يغني عن أداة التشبيه «فعل» يدل على حال التشبيه، ولا يعدّ أداة «فإن كان الفعل لليقين» أفاد قرب المشابهة، لما في فعل اليقين من الدلالة على يقين الاتحاد وتحققه» وهذا يفيد التشبيه مبالغة نحو قوله تعالى: «فلما رأوه عارضاً مُستقبِلَ أودِيتِهِم قالوا هذا عارضٌ مُمطِرُنا بل هو مااستَعجَلتُم به ريحٌ فيها عذابٌ أليم»(٦)

(١) ينظر الكامل ج١ص٧٢ .
(٢) القدح - بالكسر - السهم قبل ان يراش وينصل .
(٣) الجمان في تشبيهات القرآن ص٤٣-٤٤ .
(٤) ينظر هامش المصدر السابق حيث ورد النص ص٤٤ .
(٥) جواهر البلاغة ص٢٦٨ .
(٦) سورة الاحقاف ٢٤.

وان كان و الفعل للشك أفاد بعدها لما في فعل الرجحان من الأشعار بعدم التحقق وهذا يفيد التشبيه ضعفاً، نحو قوله تعالى: «ويطوفُ عليهم وِلدانٌ مُخلّدون إذا رأيتهم حسِبْتَهم لؤلؤاً منثوراً» (١).

وكقول الشاعر :

قومٌ إذا لبسوا الدروعَ حسبتها ... سُحُباً مزردةً على أقمارِ

وفي رأينا : أن الكلمة إذا أفادت التشبيه وعقدت مقارنة بين المشبه والمشبه به فهي أداة تشبيه على الاطلاق أما قوة هذه المقارنة ودرجة تلك الافادة فيحتكم في تقديرها إلى أثر التشبيه في عقل المتلقي وشعوره .

---

(١) الانسان ١٩.

المبحث الثاني

أنواع التشبيه

بيّنا فيما مضى أن ركن اداة التشبيهوركن وجه الشبهيجوز حذفهمامن بين اركان التشبيه لاغراض بلاغية وفنية . وقد بنى علماء البلاغة(1) على هذا الجواز قواعد في انواع التشبيه :

التشبيه المرسل والتشبيه المؤكد :

تحدث البلاغيون عن جواز حذف اداة التشبيه وصنفوا التشبيه إلى صنفين : —

اولهما : التشبيه المرسل : وهو ماذكرت اداته كقوله تعالى : «سابقُوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عَرْضُها كعرْضِ السَّماءِ والأرض»(2) ٥

وكقول امرىء القيس :

وتعطو برَخْصٍ غيرِ شثْنٍ كأنّه أساريعُ ظبيٍ أومساويكُ إسْحِل (3)

ففي قوله تعالى : اداة التشبيه مذكورة ، وهي الكاف ، وفي الشاهد المروي لامرىء القيس أداة التشبيه ظاهرة أيضاً وهي «كأنّ» :

وثانيهما : التشبيه المؤكد وهو ماحذفت أداته مثل قوله تعالى : «ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضّة قدّروها تقديرا.» (4) يعني انها كالقوارير في صفائها ورونقها وشفيفها ورقيقها وهي من فضة (5)،

---

(1) الايضاح ص١٦٣ .

(2) الحديد ٢١ .

(3) تعطو : تتناول . رخص : لين ، وموصوفه ملاحظ وهو البنان شثن : غليظ ، الاساريع : ديدان حمر ، واحدها أسروع ، ظبى : اسم واد بتهامة.الاسحل: شجر تتخذ منه أجود المساويك .

(4) الانسان ١٥-١٦ .

(5) ينظر الجمان في تشبيهات القرآن ص٣٦٤ .

ومثل قول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - «الكمأة جُدَري الأرض»(١)،

حذف أداة التشبيه وقيمة ذلك :

تحدث عبد القاهر الجرجاني عن جواز حذف أداة التشبيه حديثاً ربما نفهم منه أنّ هذا الحذف عملية آلية لايترتب عليها أي حكم لغوي معنوي إذ قال : «فارجع إلى نحو « فإنك كالليل الذي هو مدركي» واعلم انه قد يجوز فيه أن تحذف الكاف وتجعل المجرور «الليل» خبراً فتقول: فإنك الليل الذي هو مدركي، أو أنت الليل الذي هو مدركي . وتقول في قول النبي صلى الله عليه وسلم «مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع»: المؤمن الخامة من الزرع . وفي قوله عليه الصلاة والسلام «الناس كابل مائة» : الناس ابل مائة ، ويكون تقديره على أنك قدرت مضافاً محذوفاً على حدّ «وأسأل القرية» تجعل الأصل فإنك مثل الليل ثم تحذف مثلا» (٢) .

والحقيقة أن الأمر ليس كذلك ، لأن حذف الأداة من التشبيه اعتباطاً وفي الأحوال كلها يقتضي تغيير معنى الجملة كما تنجم عنه أغراض بلاغية .

وقد نبه عبد القاهر الجرجاني نفسه على مايترتب على حذف الأداة من تغيير معنى الشاهد الذي وردت فيه أداة التشبيه فقال : «والنكتة في الفرق بين هذا الضرب الذي لابدّ للمجرور بالكاف ونحوها من وصفه بجملة من الكلام أو نحوها وبين الضرب الأول الذي هو نحو «زيد كالأسد» إنك إذا حذفت الكاف هناك فقلت : زيد الأسد ، فالقصد أن تبالغ في التشبيه فتجعل المذكور كأنّه الاسد وتشير إلى مثل مايحصل لك من المعنى إذا حذفت ذكر المشبه أصلا فقلت :

(١) الكمأة : نبات ، الجدرى : بضم الجيم وفتحها : القروح في البدن تنفط وتقيح . (القاموس المحيط) .
(٢) أسرار البلاغة ص٢٢٨ .

رأيت أسداً أو «الأسد» ، فأما في نحو «فانك كالليل الذي هو مدركي» فلايجوز أن نقصد جعل الممدوح الليل ، ولكنك تنوي أنك أردت أن تقول : فانك مثل الليل ، ثم حذفت المضاف من اللفظ وأبقيت المعنى على حاله إذا لم تحذف . وأما هناك فانه وإن كان يقال أيضاً : أن الاصل زيد مثل الأسد ثم تحذف ، فليس الحذف فيه على هذا الحد ، بل على انه جعل كأن لم يكن لقصد المبالغة . ألاتراهم يقولون : جعله الاسد وبعيد أن تقول جعله الليل ، لان القصد لم يقع إلى وصف في الليل كالظلمة ونحوها ، وانما قصد الحكم الذي له من تعميمه الآفاق وامتناع أن يصير الانسان إلى مكان لايدركه الليل فيه

وإن أردت أن تزداد علما بأن الأمر كذلك أعني أن ههنا مايصلح فيه التشبيه الظاهر ولاتصلح فيه المبالغة وجعل الأول الثاني فاعمد إلى ماتجد الأسم الذي افتتح به المثل فيه غير محتمل لضرب من التشبيه إذا أفرد وقطع عن الكلام بعده كقوله تعالى : إِنَّمَا مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناه من السَّماء» (١) لو قلت: انما الحياة الدنيا ماء أنزلناه من السماء ، او الماء يُنْزَل من السماء فتخضر منه الأرض ، لم يكن للكلام وجه غير أن تقدر حذف «مثل» نحو : انما الحياة الدنيا مثل ماء ينزل من السماء فيكون كيت وكيت ، إذ لا يتصور بين الحياة الدنيا والماء شبه يصح قصده (٢)

وإذن فحذف الأداة من التشبيه يتحكم فيه القصد من اشراك المشبه مع المشبه به في معنى ، وموضع حذفه على الإطلاق مشكل اعترف الجرجاني بأنه لايمكن القطع فيه بحكم على التفصيل ، وظل اعترافه هذا ملازماً لسائر علماء البلاغة (٣) على مدى العصور .

---

(١) يونس ٢٤ .

(٢) اسرار البلاغة ص٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٣) ينظر المثل السائر ج ٢ص١١٦ — ١١٧ .

وفي مذهبنا ان المعوّل فيه هو النص الأدبي الذى نرى اسلوب التشبيه فيه ثمرة شعورية نجمت عن الحدث الذي اقتضى عقد موازنة بين المشبه والمشبه به في صيغة مخصوصة هي صيغة حذف أداة التشبيه منها .

وأيّاً كان فإن حذف الاداة من التشبيه عند البلاغيين يحقق أغراضاً لغوية وفنية وشعورية ينعقد الرأي حولها في أن التشبيه المؤكد اوجز وأبلغ ، وأشد وقعاً في النفس اما انه أوجز فلحذف أداته وطيّ ركن من اركانه ، وأما أنه أبلغ ؛ فلتصويره المشبه في صورة المشبه به وجعلهما نظيرين ، ووقعه الشديد في النفس يرجع إلى صيغته الموجزة وربطه الوثيق بين طرفي التشبيه ؛

التشبيه المفصل والتشبيه المجمل

أما بشأن جواز ذكر وجه الشبه وحذفه فقد نبه البلاغيون إلى ان ذلك يجري في التشبيه الذي يأتي فيه المعنى المشترك بين الطرفين صفة مفردة غير مركبة ؛ ثم قسموا التشبيه على هذا الاساس إلى قسمين (١): —

أولهما: التشبيه المفصل وهو ماذكر فيه وجه الشبه لفظاً أو ألفاظاً صريحة كقول الشاعر :

أنتَ شمسٌ في رفعةٍ وسَناءِ تجتليكَ العيونُ شرقاً وَغَرْباً

ففي هذا البيت ذكر الشاعر كلمة « رفعة » وكلمة « سناء » صفتين مفردتين تجمعان بين «أنت» المشبه و«شمس» المشبه به» وجه شبه صريح ؛

وثانيهما: التشبيه المجمل ، وهو التشبيه الذي حذف منه وجه الشبه ولم يذكر في الفاظ ظاهرة كقوله تعالى: «خَلَقَ الانسانَ من صَلْصَالٍ كالفَخّارِ» (٢)

(١) راجع الايضاح ص٢٥٠
(٢) الرحمن ١٤ .

فوجه الشبه في هذه الآية الكريمة بين الصلصال المشبه والفخار المشبّه به هو اليبس ولم يأتِ صريحاً ومنصوصاً عليه.

وكقول البحتري :

ألستَ ترى مدَّ الفـرات كأنّـه جبالُ شَروري جئن في البحر عوَّما (١)

فالشاعر قد طوى ذكر وجه الشبه بين مد الفرات وبين جبال شروري ، وتقريره الضخامة والعظم .

طبيعة وجه الشبه :

ان دراسة البلاغيين لهذين القسمين من التشبيه قائمة على اساس لغوي محض لايتجاوز ذكر لفظ وجه الشبه او حذفه. وفي رأينا ان هذا الاتجاه في الدراسة لايكشف عن حقيقة وجه الشبه ولا يحدد طبيعته وإنْ كان مذكوراً في لفظ صريح ومنصوصاً عليه بعبارة ظاهرة ، ذلك لان وجه الشبه الذي يقصده الاديب وراء صفة جامعة بين طرفي التشبيه بجسد ومضات شعورية وظلالا نفسية تضيق عن ابرازها الكلمة المحددة .

وربما يستوي عبد القاهر الجرجاني أقرب إلى هذه المسألة من سائر البلاغيين حين درسها مقرراً أنَّ الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين:

أحدهما : أن يكون من جهة أمرٍ بيّنٍ لايُحتاج فيه إلى تأول .

والآخر : أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأول ، (٢)

فهذا العالم البلاغي يدين في الضرب الثاني لمتلقي التشبيه بحقه في تأول وجه الشبه، والتأول – كما هو معروف – (٣) مساحة شاسعة من التأمل والتدبر يجول فيها الفكر ويرودها التبصر بحرية ؛

---

(١) شروري : جبل مطل على تبوك في شرقيها ، وقيل : لبني سليم ، وقيل : واد بالشام

(٢) اسرار البلاغة ص٨٠–٨١ .

(٣) شرح عبد القهر الجرجاني مصطلح التأول بقوله : «حقيقة قولنا : تأولت الشيءَ» : أنك تطلبت ما يؤول اليه من الحقيقة أو الموضع الذي يؤول إليه من العقل لأن « أولت =

التشبيه البليغ وانواعه :

ومهما يكن فان الباحث يلتقي بهذه المسألة الفكرية والذوقية اكثر فأكثر في نوع ثالث من التشبيه الذي حذف منه وجه الشبه والاداة معاً وهو مايسمى « التشبيه البليغ » دلالة على انه أوجز من سائر انواع التشبيه وابلغ منها تأثيراً وإن كان في الوقت نفسه على الحد المعروف في اقامة ضرب من المشاركة بين المشبه والمشبّه به بخلاف الاستعارة القائمة على تناسي التشبيه؛

ودرجة المشاركة بين المشبه والمشبه به في التشبيه البليغ تتباين بتباين تركيب اسلوبه الذي يتنوع الى ثلاثة أنواع رئيسة :

اولها : جعل المشبه والمشبّه به مبتدأً وخبراً أوما أصله مبتدأ أو خبر على التوالي كقول الزهاوي في رثاء أخيه عبد الغني (١) :

وكُنَّـا غصوناً أنت زهـرةُ روضِها وكُنَّا نجوماً أنت من بينهـا البَدْرُ

ففي هذا البيت نجد اربعة تشبيهات بليغة : اثنان منها المشبه اسم لكان والمشبه به خبرا لها وهما :«كنا غصوناً» و«كنا نجوماً» .

والاثنان الآخران المشبه فيهما مبتدأ والمشبه به خبر وهما: «أنت زهرة روضها» و «أنت من بينها البدر»

ويبين أن المشاركة بين طرفي التشبيه في هذا النوع من التشبيه البليغ مطلقة لاتقيدها إلا المدلولات التي تتضح بها كلمات المشبه والمشبه به معاني وظلالا ؛

وثانيها : اعتبار المشبه مقصوراً على المشبه به ومحصوراً معه بين حدود مدلوله ، وذلك باسلوب القصر والحصر مثل قول الرصافي في قصيدته المشهورة إلى « ابناء المدارس (٢)» :

= وتأولت » – فعلت وتفعلت من آل الامر الى كذا يؤول اذا انتهى اليه والمآل المرجع . (اسرار البلاغة ص٨٨) .

(١) اللباب ص١٠ .

(٢) ديوان الرصافي ص ٥٢ .

إذا ماحق موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا
فان ثيابهم أكفان موتى وليس بيوتهم إلا قبورا

فالشاعر قد سلب في الشطر الثاني من البيت الثاني من بيوت الذين عقوا موطنهم صفاتها التي يمكن ان تبرز فيها من جمال وحيوية ونشاط وأقامها مطابقة للمقابر في أوصافها المعروفة ورفع بينها الحدود كافة حتى يعرفها القارىء قبوراً حقيقية فوق سطح الأرض، كل ذلك باسلوب النفي بـ«ليس» والحصر بـ «الا»، الذي هو من اساليب القصر المقررة في هذا الباب من ابواب علم المعاني

وثالثها : صياغة المشبه والمشبه به في تركيب إضافي ، نلمس فيه المشبه به مضافاً والمشبه مضافاً اليه كقول الشاعر :

والريح تعبث بالغصون ، وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء (١)

ففي هذا الشاهد نجد تشبيهين بليغين هما «ذهب الأصيل» الذي أصله : الاصيل ذهب ولجين الماء الذي كان في الأساس : الماء لجين ؛ وواضح لدى التماس درجة المشاركة بين طرفي التشبيه في هذين التشبيهين وما يجري مجراهما انهاعلى اشد ماتكون من قوة واتحاد ، اذ خص المشبه به بالأصيل المشبه وجعل منسوباً اليه مالكا لصفته وكذلك الأتيان باللجين مركباً مع الماء ومنسوباً اليه فهما يتصوران في بناء جمالي موحد ترتفع بينهما الفواصل وتزول في ساحتهما المفارقات المعنوية .

---

(١) الاصيل : ما قبل الغروب من آخر النهار .
اللجين: الفضة وقائله ابن خفاجة الاندلسي ابراهيم بن عبد الله الشاعر الوصاف المتوفي سنة ٥٣٣هـ .

المبحث الثالث

التشبيه المفرد والتشبيه المركب

تناول البلاغيون منذ المراحل الاولى للتأليف في علم تقسيمات التشبيه ومما انتهت اليه هذه التقسيمات اصطلاحات وأضرباً في العصور المتأخرة تقسيم التشبيه باعتبار طرفيه إلى التشبيه المفرد والتشبيه المركب .

وهذا التقسيم اقام التشبيه بصورة اجمالية على اربعة اضرب (١) :

الاول : تشبيه المفرد بالمفرد وهو ما طرفاه مفردان اما مطلقان غير مقيدين كقوله تعالى : «هُنَّ لِباس لكم وأنتم لباس لَهُنَّ» (٢) ففي هذه الآية الكريمة تشبيهان الطرفان «هنّ» و«لباس» و«أنتم» و«لباس» فيها مفردان غير مقيدين .

واما مفردان مقيدان (٣) كقولهم لمن لايحصل من سعيه على شيء : «هو كالقابض على الماء وكالراقم في الماء» ، فان المشبه هو الساعي ، لامطلقا ، بل مقيدًا بكون سعيه كذلك ، والمشبه به هو القابض أو الراقم لامطلقا ، بل مقيدًا بكون قبضه على الماء أو رقمه فيه ، فالقيد في هذين التشبيهين هو الجار والمجرور : «على الماء» ، «وفي الماء» على التوالي .

وكقول الشاعر :

إنـي وتزيينـي بمدحي معشرًا كمعلّقٍ دُرًّا على خنزير

فإن المشبه في هذا الشاهد هو المتكلّم بقيد اتصافه بتزيينه بمدحه معشرا ، فمعلّق التزيين قوله «بمدحي» داخل في المشبه ، والمشبه به من يعلّق درًّا بقيد أن يكون تعليقه اياه على خنزيره :

---

(١) انظر الايضاح ص٢٤٣ – ٢٤٩ . (٢) البقرة ١٨٧ .

(٣) والتقييد يكون بالاضافة أو الوصف ، أو المفعول ، أو الحال ، أو الظرف ، أو بغير ذلك ويشترط في القيد أن يكون له تأثير في وجه الشبه .

واما مختلفان والمقيد هو المشبه به كقول الراجز :

والشَّمْسُ كالمرآةِ في كَفِّ الأَشَلّ

فإن المشبه هو الشمس على الاطلاق ، والمشبه به المرآة لا على الاطلاق بل بقيد كونها في يد الاشل . أو على عكس ذلك ، كتشبيه المرآة في كف الاشل بالشمس .

الثاني : تشبيه المركب بالمركب وهو ماطرفاه مركبان من عدة أمور مجتمعة متداخلة كقوله تعالى في صفة المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يضمرون : «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً فلما أضاءت ماحَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بنورهم وتَرَكَهُمْ في ظُلُمات لايُبْصِرون »(١) . فالمشبه في هذه الآية الكريمة هو حال المنافقين المتمثلة في تركيب صفاتهم من كذب ورياء ومداهنة وخسران مايصيب غيرهم في بيئتهم المسلمة من خير .

والمشبه به هيئة رجل تتجسد اوضاعه في أنه أوقد ناراً في ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله فاتقى مايخاف وأمِنَ ، فبينا هو كذلك اذ طفئت ناره فبقي خائفاً متحيراً .

وكقول البحتري :

ترى أحْجَالَه يَصْعَدْنَ فيه صُعُودَ البرْقِ في الغَيْمِ الجَهام(٢)

فالشاعر ههنا لايريد به تشبيه بياض الحجول على الانفراد بالبرق ، بل مقصوده الهيئة المركبة من مخالطة البياض بالسواد .

الثالث: تشبيه المفرد بالمركب وهو ما يأتي فيه المشبه مفرداً ويأتلف المشبه به بعده من عدة امور مركبة كقوله تعالى: «والذين كَفَرُوا أعمالُهم كَسراب بقيعة يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذ جاءه لم يَجِده شيئاً ووَجَدَ اللهَ عنده فَوَفَّاه حسابَهُ واللهُ سريعُ الحساب» (٣) .

---

(١) البقرة ١٧ .

(٢) الاحجال : جمع حجل بالكسر. وهو البياض في رجل الفرس. الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(٣) النور ٣٩ .

فالمشبه في هذه الآية الكريمة هو أعمال الكافرين وهو مفرد ، اما المشبه به فهو مركب تتجسد هيأته من السراب (١) وهو مايرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الارض كأنه ماء يجري ، ومن كون هذا السراب بقيعة وهي المنبسط المستوي من الارض ، ومن حال الكافر وهو يرى ذلك السراب على هذه الحالة فيحسبه بالساهرة ماء وقد غلبه العطش .

وكقول الخنساء :

أغرُّ أبلجُ تأتمُّ الهداة بـه كأنّه علَمٌ في رأسه نـار

فالمشبه هنا مفرد وهو صخر أخو الشاعرة ، أما المشبه به فهو هيئة مركبة من الجبل العالي وفوقمته نار متقدة يهتدي بهاالسارون ويمشي في ضوئها الضيفان .

الرابع : تشبيه المركب بالمفرد ، وهو على العكس من النوع الثالث ، اذ مشبهه مركب والمشبه به فيه مفرد كقول ابي تمام :

ياصاحبيّ تقصّيا نظريكما تريا وجوهَ الأرض كيف تُصوَّرُ(٢)
تريا نهارا مُشمِساً قد شابَه زَهرُ الرُّبا ، فكأنما هو مُقمِرُ

فالمشبه ههنا مركب من هيئة النبات الذي صار لونه الى السواد من كثرته وتكاثفه وشدة خضرته فنقص من ضوء الشمس ، حتى صار كضوء القمر وأحال النهار الى تلك الصورة ، اما المشبه به فهو القمر بضوئه الخافت .

لقد تتبع البلاغيون المتأخرون تفرعات أضرب التشبيه المستندة الى افراد طرفيه وتركيبهما ففرعوا عليها اربعة أنواع :

أولها : التشبيه الملفوف هو جمع كل طرف منهما مع مثله ، كجميع المشبه مع المشبه ، والمشبه به مع المشبّه به بحيث يُؤتى بالمشبهات معاً على طريق العطف ،

---

(١) الكشاف ج ٣ص ٢٤٣ .

(٢) تقصيا نظريكما : اجتهدا في الرؤية والنظر ، اقصى غاية النظر .

تصور : تتصور وتتشكل ، خفف بحذف احدى تائيه . مشمس : ظاهر الشمس مكشوفها .

شابه : خالط . الربى : جمع ربوة ، وهي المكان العالي البعيد عن مستنقع الماء .

مقمر : طالع القمر .

أو غيره كقول امرئ القيس :

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً   لدى وكرها العنّابُ والحشفُ البالي (١)

ففي هذا الشاهد مشبهان لُفّا معا وأتيا متعاقبين وهما قلوب الطير الرطبة التي افترستها العقاب حديثا وقلوب الطير اليابسة التي مضى على افتراسها زمن طويل ، والمشبه بهما في الشاهد ملفوفان ومتعاقبان ايضا وهما العنّاب الذي هو مشبه به لقلوب الطير الرطبة ، والحشف البالي الذي هو مشبّه به لقلوب الطير اليابسة .

وثانيها : التشبيه المفروق ويسمى المقرون ايضا ، وهو ما اتت فيه الاطراف مقرونة كل مشبه ورد بعده المشبه به كقول المرقّش الاكبر :

النَّشْرُ مِسكٌ ، والوجوهُ دنا   نيرٌ ، وأطرافُ الاكفِّ عَنَمْ (٢)

وثالثها : المشبه المتعدد ، وهو ان يتعدد المشبه دون المشبه به كقول الشاعر :

صُدْغُ الحبيب وحالي   كلاهما كالليالي (٣)

وثغرُهُ في صفاء   وأدمعي كاللآلي

ففي البيت الاول ورد مشبهان هما «صُدْغ الحبيب وحالي» اما المشبه به فهو واحد وهو «الليالي» ، وكذلك حال التشبيه في البيت الثاني ، اذ ورد المشبهان «ثغره» و «دمعي» ومشبه به واحد هو «اللآلي» .

رابعها : تشبيه الجمع ، وهو ان يتعدد المشبه به دون المشبه كقول الشاعر :

ذاتُ حُسْنٍ لو استزادَتْ من الحُسْـ   ـن اليه لما أصابَتْ مزيدا

فهي الشمسُ بهجةً والقضيبُ اللّـ   ـدْنُ قدّاً والريمُ طَرْفاً وجيدا

فالمشبه في هذا الشاهد هو الضمير «هي» أما المشبهات بها فهي ثلاث كلمات : «الشمس» و«القضيب» و «الريم» .

---

(١) وكرها : عشها ، والضمير للعقاب التي يصفها ، العناب : ثمر احمر اللون . الحشف : أردأ التمر البالي : القديم .

(٢) النشر : الرائحة الطيبة ، أو الرائحة مطلقاً ، أو ريح فم المرأة وأعطافها بعد النوم العنم : شجر لين الاغصان ، وهو شجر له اغصان حمر يشبه بها البنان المخضوب .

(٣) الصدغ : هو هنا : الشعر المتدلي مابين العين والاذن .

المبحث الرابع

التشبيه التمثيلي

مرّ بنا في بحثنا لمعاني كلمة التشبيه لغة : ان المعجمات العربية قد قرنت بين هذه الكلمة وكلمة التمثيل وجعلتهما متحدتين في المدلول . وقد ترتب على ذلك قيام مشكلة اصطلاحية في كتب البلاغة قام حولها استفسار هو : أتترادف كلمة التشبيه والتمثيل في المدلول البلاغي أم أنهما تختلفان في هذا الوجه أو ذاك ؟

ونحن اذ نتعرض هنا لمبحث التشبيه التمثيلي ونردفه بمصطلح « تشبيه الصورة » نؤكد قبل كل شيء أن المحورَ الذي تدور عليه آراء جمهور البلاغيين عن التمثيل والصورة في التشبيه يستقر أساساً فوق ارضية متسعة من دراسة ركن وجه الشبه في التشبيه .

أقسام وجه الشبه :

لقد انتهت هذه الدراسة في كتب البلاغيين القدامى والمعاصرين إلى أن وجه الشبه من حيث الافراد والجمع والتركيب ثلاثة أقسام : (١)

أولها : الشبه المفرد ، والمراد به مايعد في العرف واحداً ، لا الذي لاجزء له أصلا ، وذلك كالحمرة في تشبيه الخد بالورد مثلا ، فانها تشتمل على مطلق اللونية والقبض للبصر ، ولكنها مع ذلك تُعد وجهاً واحدا .

وهذا الوجه المفرد قد يكون حسيا ، كقول الشاعر في الموز :

مَـــوزٌ حـــلا فــكــأنّـــه ... عَـــســـلٌ ولــكــن غــيــر جاري
ذو بــاطــنٍ مــثــل الاقــاح ... وظــاهــرٍ مــثــل الــنــضــارِ
يــحــكــي إذا قــشَّــرتــــه ... أنيابَ أفــيــالٍ صــغــارِ

ففي هذا الشاهد أشرك الشاعر المَوْز مع العسل في الحلاوة وهي وجه شبه مفرد

(١) فن التشبيه ج١ ص ١٣٩.

حسي يدرك بالذائقة ، وأشركه مع « الاقاح » ثم مع النضار وأنياب أفيال صغار في اللون والشكل .

وهذا الاشراك يكشف عن وجوه شبه مفردة حسية تلم بها الحواس ؟

وقد يكون عقلياً كقول العباس بن جرير في الصداقة .

إنّ الصديقَ هو الذي ، يرعاك حين تغيبُ عَنْهُ
مثل الحسام إذا انتضا ، أخو الحفيظة لم يَخُنْهُ

فوجه الشبه بين الصديق الغائب والحسام حين ينتضيه أخو الحفيظة هوالبقاء على حال واحدة وهذا وجه شبه مفرد عقلي .

وثانيها : وجه الشبه المركب سواء أكان مركبا تركيبااعتباريا يجعله بمنزلة الواحد ، بأن يكون حقيقة ملتئمة ، أم كان أوصافامقصوداً من مجموعها إلى هيئة واحدة . ووجه الشبه المركب إما أن يكون حسيّا ، كقول البحتري في شقائق النعمان :

شقائق يَحْمِلْنَ الندى فكأنه ، دموعُ التصابي في خدودِ الخرائدِ

فوجه الشبه بين الشقائق في تلك الحالة وبين الدموع في خدود الخرائد صورة حسّية مركبة من نقط بيض مترجرجة في فسحة حمراء .

وإما أن يكون عقليا كقول ابي الفضل الميكالي :

كم والدٍ يَحْرِمُ أولادَه ، وَخَيْرُه يَحْظَى به الأبْعَدُ
كالعينِ لاتنظر ما حَوْلَها ، ولَحْظُها يُدْرِك ما يَبْعُدُ

فوجه الشبه في هذا الشاهد مركب عقلي هو حرمان الأقرب المستحق ونيل الابعد الذي لايستحق .

وثالثها : وجه الشبه المتعدد ، وهو ماليس واحداً ولا منزلاً منزلة الواحد ، وذلك أن يذكر في التشبيه عدد من أوجه الشبه : شيئين أو أشياء على وجه الاستقلال ، فلا يتقيد بعضها ببعض ، بل كل واحد منفرد بنفسه كقول ابن الرومي :

كالدَّهْر في النفع والمضرة والـ حُنْكة لكنَّ رَيْبَهُ غَضْبَه

فالمشبه في هذا البيت أشركه الشاعر مع الدهر في صفات متعددة هي النفع . والمضرة والحُنْكة وكل صفة من هذه الصفات مستقلة عن الاخرى مختلفة عنها، والفرق بين وجه الشبه المتعدد ووجه الشبه المركب هو أن وجه الشبه المتعدد لايجب فيه الترتيب فيجوز تقديم بعضه على بعض وانه اذا أسقط بعضه لايختل التشبيه ولا يتغير حال الباقي بخلاف وجه الشبه المركب اذ لايجوز فيه التقديم أو الحذف لان ذلك يؤدي إلى اختلاله وتغيير صورته . فمثلا قول ابن رشيق :

وتفاحة من كفّ ظبي أخذتُها جناها من الغُصْن الذي مثّل قَدّه
حَكَتْ لَمسَ نهديه وطيبَ نسيمه وطعْمَ ثناياه وحُمْرَةَ خَدّه

فوجه الشبه فيه بين الطرفين متعدد من اللين والطيب والطعم واللون يمكن حذف احدها أو تقديمه وتأخيره ،ويبقى التشبيه مستقيماً غير مختل.أما قول السري الرفاء في وصف القلم :

أخرس ينبيك بـاطـراقه عن كل ما شئت من الأمْر
يُذْري على قرطاسه دمعةً تُبْدي لنا السرّ ومـا يـدري
كعاشق أخفى هواه وقـد نمَّتْ عليه عبْرة تجْري

فيجمع بين الطرفين فيه وجه شبه لو أسقطت منه جزءاً مما اعتبرت فيه الهيئة بطل التشبيه في قصد المتكلم ،لانها صورة رُوعي فيها أن تكون تامة التأليف كاملة الاجزاء ،يسودها التناسب والانسجام والتنسيق.

التمثيل اصطلاحاً :

ان البحث التاريخي الذي عرض الآراء في التمثيل وتتبعها ، في كتب النقد والفصاحة والبلاغة وفي غيرها يبين أن البلاغيين لم يتفقوا في دراسة هذا الفن، وانما تباينت آراؤهم فيه وتنازعت مواقفهم منه ، ويتضح هذا التنازع وذلك التباين كل الاتضاح إذا ما صنفنا هذه الآراء في ثلاثة اتجاهات :

اولها : اتجاه الفصل بين التمثيل والتشبيه ، وقد وضّح هذا الاتجاه أبو عبيدة (– ٢٠٨هـ) الذي تحدث عن التمثيل وعدّه نوعاً من أنواع المجاز (١) بمعناه الواسع :

ولعل قدامة بن جعفر أول من عدّ التمثيل مخالفاً للتشبيه وتحدث عنه في نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى(٢). ونستنتج من تعريفه له أنه جعله مرادفاً لمدلول ضرب المثل الذي يدخل في باب الاستعارة التمثيلية ، واتّبعه ابن سنان الخفاجي(٣) وابن أبي الاصبع المصري (٤).

والتمثيل هو المماثلة عند بعضهم كأبي هلال العسكري الذي ذكر بعض امثلة قدامة في التمثيل (٥) ، والباقلاني الذي قال «ومما يعدونه من البديع المماثلة ، وهو ضرب من الاستعارة» (٦) وعدّه ابن رشيق من ضروب الاستعارة وهو المماثلة ، وذلك أن تمثل شيئاً بشيءٍ فيه اشارة كقول امرئ القيس :

وما ذرّفت عيناك الا لتقدحي بسهميك في أعشار قلب مُقَتّل

فمثّل عينيها بسهمي الميسر يعني المعلّى وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء ، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثّل بهما عينيها ، ومثّل قلبه باعشار الجزور فتمت له الاستعارة والتمثيل ؟

وذكر أن معنى التمثيل ايضاً اختصار قولك : «مثل كذا وكذا» ثم قال : «والتمثيل والاستعارة من التشبيه الا أنهما بغير أداته وعلى غير اسلوبه» : (٧)

(١) مجاز القرآن ج١ ص ٢٦٩.
(٢) راجع نقد الشعر ص١٨٢.
(٣) سر الفصاحة ص ٢٧٣.
(٤) تحرير التحبير ص ٢١٤ ، وبديع القرآن ص ٨٥.
(٥) كتاب الصناعتين ص ٣٥٣ – ٣٥٦.
(٦) اعجاز القرآن ص ٧٨.
(٧) العمدة ج١ ص ٢٨٠.

وثانيها : الربط بين التشبية والتمثيل ، ويتجسد هذا الاتجاه في دراسة عبد القاهر الجرجاني لوجه الشبه على اساس ظهوره أو تأوله ، والقاعدة التي يحررها توطئة لشرح هذا الاساس وتفصيله ، تؤكد أن التمثيل خاص والتشبيه أعم منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا ، فأنت تقول في قول قيس بن الخطيم :

وقد لاح في الصبح الثريّا لمن رأى كعنقود مُلاّحية حين نوّرا(١)

إنه تشبيه حسن ، ولا تقول هو تمثيل . (٢)

وملاك شرح عبد القاهر لاساسه ذاك وتفصيله له يتركز في أن كل تشبيه يكون الوجه فيه حسيا مفرداً أو مركبا أو كان من الغرائز والطباع العقلية الحقيقية فهو تشبيه غير تمثيلي ، اما اذا كان وجه الشبه فيه عقلياً مفردا أو مركبا غير حقيقي ومحتاجا في تحصيله إلى تأول فهو «تشبيه تمثيلي» .

وفي يقيننا أن هذا الملاك يستمد قوامه من الدراسات التي صنفت وجه الشبه إلى ثلاثة أنواع : مفرد ومركب ومتعدد ، ويخلط فيما بينها غير قادر على أن يرسخ اساس التمييز بين التشبيه العام والتشبيه التمثيلي الخاص ، ذلك لان اساس عدم التأول ، والتأول في التماس وجه الشبه أمر نسبي يختلف من شخص إلى آخر إذ قد يكون وجه الشبه صريحا غير محتاج إلى تأول في نظر شخص، وربما يستوي وجه شبه دقيق يلزم إبرازه التمحل في التأول في نظر شخص آخر .

ويبدو أن عبد القاهر قد أحسَّ بشيء من هذا في تقويم أساسه ذاك فسعى في موضع آخر من دراسته إلى تحرير أساس آخر للتفريق بين التشبيه والتمثيل فقال : «وهذا أصل إذا اعتبرته وعرفت كل واحد منهما عليه فوجدته يجيء في التشبيه جيئا حسنا وينقاد للقياس فيه انقياداً لاتعسف فيه ثم صادفته لايطاوعك في التمثيل

---

(١) الملاحي - بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها : عنب أبيض طويل ، ونور الزرع تنويرا أدرك والثمر خلق فيه النوى .

(٢) اسرار البلاغة ص٨٥.

تلك المطاوعة ولا يجري في عنان مرادك ذلك الجري ، ظهر لك نوع من الفرق والفصل بينهما غير ماعرفت ، وانفتح منه باب إلى دقائق وحقائق ، وذلك جعل الفرع أصلاً والاصل فرعا ، وهو اذا استقريت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها ، وذلك نحو أنهم يشبهون الشيء فيها بالشيء في حال ثم يعطفون على الثاني فيشبهونه بالاول ، فترى الشيُّ مشبها مرة ومشبها به أخرى. فمن أظهر ذلك : أنك تقول في النجوم : «كأنها مصابيح » ثم تقول في حالة أخرى في المصابيح « كأنها نجوم» (١) ثم قال : «واذ قد تبين كيف يكون جعل الفرع أصلا والاصل فرعا في التشبيه الصريح فارجع إلى التمثيل ، وانظر هل تجيُّ فيه هذه الطريقة على هذه السعة والقوة ، ثم تأمل ماحمل من التمثيل عليها كيف حكمه ؟ وهل هو مساوٍ لمارأيت في التشبيه الصريح ، وحاذٍ حذوه على التحقيق أم الحال على خلاف ذلك» (٢)؛

وفي ضوء شواهد كثيرة أوردها عبد القاهر للتمثيل وحللها ملخصا فيها اطّراد هذا الاصل، يظهر ان هذه الطريقة من جعل الاصل فرعا والفرع اصلا لاتطّرد في التشبيه التمثيلي ولا تتسع امامه هذه الطريقة لقوة وسعة ، مما نستطيع أن نستنتج حقيقة هي ان هذا الاساس لايصلح للتمييز بين التشبيه الصريح والتشبيه التمثيلي؛ ولما كان عبد القاهر كما هو معروف بمنهجيته التحليلية غير مفتن بتقنين القواعد ، اعتمد المشاهدة للتمييز بين التمثيل والتشبيه فقال : «فههنا لطيفة اخرى تعطيك للتمثيل مثالا عن طريق المشاهدة وذاك أنك بالتمثيل في حكم من يرى صورة واحدة إلا انه يراها تارة في المرآة وتارة على ظاهر الامر؛ وأما في التشبيه الصريح فانك ترى صورتين على الحقيقة ؛ يبين ذلك انا لو فرضنا أن تزول عن أوهامنا ونفوسنا صور الاجسام في القرب والبعد وغيرهما من الاوصاف الخاصة بالاشياء

(١) اسرار البلاغة ص١٨٧.
(٢) اسرار البلاغة ص٢٠٧.

المحسوسة لم يمكنا تخيل شيء من تلك الاوصاف في الاشياء المعقولة، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيدا من حديث العزة والسلطان، قريبامن حيث الجود والاحسان، حتى يخطر ببالك، وتطمح بفكرك ، إلى صورة البدر وبعد جرمه عنك، وقرب نوره منك، وليس كذلك الحال في الشيئين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدر، فانك لاتفتقر في معرفة كون النرجس وقرطه واستدارته وتوسط أحمره لأبيضه إلى تشبيهه بمداهن در حشوهن عقيق، كيف وهو شيء ترعاه عليك العين وتضعه في قلبك المشاهدة، وانما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التي معك ويجتليها لكن من مكان بعيد حتى تراهما معا وتجدهما جميعا. وأما في الاول فانك لاتجد في الفرع نفس ما في الاصل من الصفة وجنسه وحقيقته، ولايحضرك التمثيل اوصاف الاصل على التعيين والتحقيق وانما يخيل اليك أنه يحضرك ذلك، فانه يعطيك من الممدوح بدراً ثانيا فصار وزانُ ذلك وزانَ ان المرأة تخيل اليك أن فيها شخصا ثانيا صورته صورة ماهي مقابلة له، ومتى ارتفعت المقابلة ذهب عنك ماكنت تتخيله فلا تجد إلى وجوده سبيلا ، ولاتستطيع له تحصيلا، لا جملةً ولاتفصيلا» (١).

ان هذه اللطيفة بلاريب – تؤكد ماقلناه عن عبدالقاهر باحثا محللا لا مقنناً ومحررا للقواعد. والسؤال ههنا يستفهم عن جدوى ميّزة هذا البلاغي العالم وهو يتصدى لمسألة خلافية تتطلب حلا مقنعا وذلك بوضع الحد الفاصل بين اسلوبين من اساليب فن التشبيه: اسلوب التشبيه الصريح ،واسلوب التشبيه التمثيلي؟

ان هذا السؤال يستوي في حد ذاته قراراً يؤكد أن عبد القاهر اذ لم يفصل التمثيل من التشبيه في قاعدة واضحة خلط بين التمثيل والاستعارة التمثيلية، فقد اورد رسالة يزيد بن الوليد إلى عامله بارمينية التي نصها: «بلغني أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاذا اتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت »، ثم ناقش أبا احمد العسكري

---

(١) اسرار البلاغة ص ٢١٨ – ٢١٩.

الذي اطلق على هذا النحو من الكلام مصطلح المماثلة فقال: «وهذه التسمية توهم انه شيء غير المراد بالمثل والتمثيل، وليس الامر كذلك، كيف وانت تقول «مَثَلك مَثَلُ من يقدم رجلا ويؤخر اخرى»، وَوِزان هذا انك تقول: «زيد الاسد» فيكون تشبيها على الحقيقة وان كنت لم تصرح بحرف التشبيه، ومثله انك تقول: «أنت ترقم في الماء» و «تضرب في حديد بارد» و «تنفخ في غير فحم» فلا تذكر مايدل صريحا على انك تشبه ولكنك تعلم أن المعنى على قولك: «أنت كمن يرقم في الماء» و «كمن يضرب في حديد بارد» و «كمن ينفخ في غير فحم»، وما اشبه ذلك مما تجيء فيه بمشبّه به ظاهر تقع هذه الافعال في صفة اسمه أو صفته» (1)؛

وأيّاً كان مانسجله على عبد القاهر في الفصل بين التشبيه والتمثيل فمما لاشك فيه أنه قد أبدع في اعتماد مصطلح «الصورة» ملتمسا وجه الشبه بين الطرفين في التمثيل قال: «ثم ان هذا الشبه العقلي ربما انتزع من شيء واحد كما مضى من انتزاع الشبه اللفظ من حلاوة العسل، وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج احدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ماكان لهما في حال الافراد لاسبيل الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما» (2).

ومصطلح الصورة ربما يصح اكثر من مصطلح التمثيل لتمييز هذا اللون من التشبيه الذي لايتميز في الواقع عن سائر ألوانه الا في أن وجه الشبه بين طرفيه محذوف دائما، يأتلف من صفات متمازجة نتزعها من المشبه والمشبه به وتتخيلها صورة تجمع بينها سواء أكانت هذه الصورة محضة أم عقلية؛

ومن هنا كما نعتقد رافق مصطلح الصورة مصطلح التمثيل واستوى مرادفاً له في كتب البلاغة المتأخرة؛

---

(1) اسرار البلاغة ص١٠٠.
(2) اسرار البلاغة ص٩٠.

وثالثها : المزج بين التشبيه والتمثيل ، وقد حكى ابن الاثير آراء الآخذين بهذا الاتجاه من أمثال الزمخشري فقال : « وجدت علماء البيان قد فرّقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا باباً مفرداً ولهذا باباً مفرداً، وهما شيءٌ واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع ، يقال : شبهت هذا الشيء بهذا الشيء ، كما يقال مثلته به» (١) .

وابن الاثير في مذهبه هذا يعتمد الاصل اللغوي لمصطلح التشبيه ومصطلح التمثيل مقتفيا أثر المعجمات العربية — كما رأينا — في الجمع بين المصطلحين ، ومع هذا فهو يرسّخ بغير قصد منه أساس اتجاه جمهور البلاغيين في جعل التمثيل مصطلحاً يبين ضربا من أضرب وجه الشبه .

ويتجلى هذا الاساس بشكله المقنن عند السكاكي الذي لم يبحث التمثيل ضربا مخصوصا من التشبيه ولم يتناوله في باب مستقل ، وانما اشار اليه من زاوية وجه الشبه قائلا : «واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقي وكان منتزعا من عدة أمور خص باسم التمثيل كالذي في قوله :

اصـبـر على مضض الحسـود فـإنّ صبـرَكَ قـاتلُـهْ
فـالنارُ تـأكـل نفسَـها إنْ لم تـجـدْ مـا تأكـلُـهْ

فان تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التي لاتمد بالحطب فيسرع فيها الفناء ليس الا في أمر متوهم وهوما توهمإذا لم تأخذ معه في المقاولة مع علمك بتطلبه اياها حسى أن يتوصل بها إلى نفثة مصدور من قيامه اذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك وأنه كما ترى منتزع من عدة أمور» (٢) ، فالتمثيل في نظر السكاكي تشبيه يمتاز وجهه بميزتين :

الاولى : أنه غير حقيقي ويتخيله قارئه توهما بين طرفيه ،

الثانية : أنه منتزع من عدة أمور .

(١) المثل السائر ج٢ ص١١٦ .

(٢) مفتاح العلوم ص١٦٤ .

وقد نحا الخطيب القزويني منحى السكاكي في المزج بين التشبيه والتمثيل ، وتجنب التحدث عن التمثيل الا من زاوية ركن وجه الشبه فقال : «وأما باعتبار وجهه أي التشبيه فله ثلاثة تقسيمات : تمثيل ، وغير تمثيل ، ومجمل ومفصّل ، وقريب، وبعيد»(١) ثم عرّف التشبيه الذي وجه الشبه فيه تمثيل بقوله: «التمثيل: ماوجهه وصف ، منتزع من متعدد ، أمرين أو أمور» .

فهذا التعريف يكاد يكون تعريف السكاكي،اللهم الا ً مالاحظه عليه من هجر تعبير «غير حقيقي» الذي ورد في عبارةالسكاكي .

وربما يعني ذلك أن القزويني لم يشأ أن يقيد وجه الشبه التمثيلي بأي قيد من القيود التي تقررت بعبارات الحسي والعقلي والوهمي والحقيقيوغير الحقيقي ، بل اطلقه مقررا ميزته الرئيسة التي هي الانتزاع من أمرين أو أكثر .

تشبيه الصورة :

مرّ بنا أنّ التعبير عن وجه الشبه المنتزع من عدة أمور يكون إما بمصطلح المركب أو بمصطلح الصورة ، وهذان المصطلحان في اصل دلالتهما يؤديان مدلولاً واحداً هو المنتزع من صفتين أو أكثر تمازجت وتداخلت فسحة تنبض بما يجمع بين أوصاف طرفي التشبيه .

ويظهر من هذا أن اسلافنا البلاغيين لم يتفقوا كل الاتفاق على مفهوم التشبيه التمثيلي وإن كانوا في الوقت نفسه يلتقون على خطوطه العامة ويدورون في دائرته الاسلوبية .

ولما كانت الدراسة التعليمية تقتضي أساساً موحَّداً لبحث أي فن بلاغي ، فاننا نتجنب المسائل الخلافية ونستقصي بتلك الخطوط العامة مقررين أن مصطلح تشبيه الصورة اقرب من مصطلح التشبيه التمثيلي للدلالة على طبيعة وجه الشبه

(١) الايضاح ص ٢٤٩.

المخصوص في هذا اللون من التشبيه ، ذلك لان الصفات التي لنتزعها من طرفي التشبيه لتجمع بينهما تلتقي خطوطاً وألواناً وهيئةً وحركةً لتشكل صورة مشتركة جديدة لاهي محضة المشبه ولاهي خالصة المشبه به ، وعليه فإننا نرى ايضاً أن نصنف التشبيه من حيث وجه الشبه إلى ضربين :

الأول: التشبيه المفرد الذي جاء وجه الشبه فيه صفة غير مركبة سواء أكانت صفة واحدة أم متعددة .

الثاني : تشبيه صورة وهو الذي يستوي فيه وجه الشبه صورة منتزعة من عدة اوصاف متمازجة في كيان موحد .

إنّ ما نقرره هنا يختزل الضرب الثالث من أضرب التشبيه وهو الضرب الذي رأينا البلاغيين يسمونه «التشبيه المتعدد» في وجهه ، وهذا الاختزال في حدّ ذاته يتيح لنا مجال الموازنة بين التشبيه المفرد وتشبيه الصورة لنحدّد اهمية كل واحد منها فنحيي بذلك تراثا من الآراء ، البلاغية التي تحدثت باسهاب عن موقع تشبيه الصورة وتأثيره في النفس ، والتمست علل هذا التأثير ومقوماته .

المبحث الخامس

التشبيه الضمني

فكرته :

ان الفكرة الرئيسة التي ينهض عليها التشبيه الضمني هي أن هذا اللون من التعبير لايأتي فيه الطرفان في اسلوب من اساليب التشبيه التي مرت بنا، وانما يلمح المشبّه والمشبّه به، ويفهمان من المعنى، ويكون المشبّه به دائماً برهاناً على امكان ماأسند اليه المشبّه .

ولعل عبدالقاهر أول عالم بلاغي أشار إلى التشبيه الضمني بلانص صريح على مصطلحه،وفرزه عن سائر ألوان التشبيه بالفكرة الرئيسة التي نوهنا بها.

وتبدو اشارته هذه في بحثه المعاني التي يجيء التمثيل في عقبها فبيّن في هذا المبحث أن من هذه المعاني ضرب « غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه واستحالة وجوده وذلك نحو قوله :

فإن تفق الأنامَ وأنت منهم فانَّ المسْكَ بعضُ دمِ الغزالِ

وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام وفاتَهم إلى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كأنه أصل بنفسه ، وجنس برأسه ، وهذا أمر غريب وهو أن يتناهى بعض اجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس، وبالمدعي له حاجة إلى أن يصحح دعواه في جواز وجوده على الجملة إلى أن يجيء إلى وجوده في الممدوح فاذا قال: «فان المسْكَ بعض دم الغزال» فقد احتج لدعواه ، وأبان أن لما ادعاه اصلا في الوجود، وبرأ نفسه من ضعة الكذب وباعدها من سفه المقدم على غير بصيرة ، والمتوسع في الدعوى من غير بينة، وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته حتى لايعد في جنسه إذ لايوجد في الدم

شيء من اوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه لاماقل ولا ماكثر ولافي المسك شيء من الاوصاف التي كان لها الدم دما البتة »(١)؛

خصائصه :

ويتضح من هذه الاشارة أنّ من انواع التشبيه نوعاً يمتاز عن سواه بخمس خصائص مجتمعة :

اولاها : ان المشبه والمشبه به كليهما يلمحان ويستنتجان بلا ترابط نحوي مباشر فيما بينهما بخلاف أنواع التشبيه التي يأتي فيها الطرفان في بناء لغوي تتحكم بتوجيهه قواعد انشاء الجملة العربية كأن يكون المشبه مبتدأ أو مافي حكم المبتدأ ويكون المشبه به خبراً أو ماهو في حكم الخبر وكأن يكون المشبه به مضافاً والمشبه مضافاً اليه ، او يكون المشبه فعلامسنداً والمشبه به مصدراً مبيّناً لنوعه ؛

وثانيتها : ان المشبه جملة او مجموعة جمل مستقلة منفصلة عن المشبه به الذي يجيء جملة او طائفة من الجمل ايضاً ؛

وثالثتها : أن المشبه يثير فكرة فيها غرابة وادعاء فلا يسلّم بها القارىء تسليماً مبادراً وانما يحتاج في القبول بها إلى دليل يقنعه ويرسخ اعترافه بها .

ورابعتها : ان المشبّه به يستوي مثلاً وشاهداً تقربه العقول بداهةً وتطمئن القلوب إلى صحته سليقةً كأنّ يكون مستقراً في الطباع او جارياً مجرى السنّة والقانون في الحياة والمشاهدة ؛

وخامستها :ان حال المشبه وحال المشبّه به اللذين يلمحهما القارىء تتكافآن وتتساويان بلا زيادة لاحداهما على الاخرى وبلا نقصان لطرف عن سواه ؛

تحليل التشبيه الضمني :

وفي ضوء هذه الخصائص يحلل البلاغيون المتأخرون شواهد التشبيه الضمني من ذلك قول المتنبي :

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٠٩ - ١١٠.

مَن يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه ... مالجُرْحٍ بميّتٍ إيلامُ

اي : ان الذي يصار إلى الهوان ، يسهل عليه تحمله ، ولا يتألم له ، وليس هذا الادعاء باطلا ، لان الميت اذا جرح لايتألم ؟

وفي ذلك تلميح بالشبيه في غير صراحة ، وليس على صورة من صور التشبيه المعروفة ، بل انه «تشابه» يقتضي التساوي ، وأما « التشبيه» فيقتضي التفاوت (١) ومن ذلك قول ابي تمام ؟

لاتُنْكِري عَطَلَ الكريم من الغنى ... فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكان العالي

ففي هذا البيت ندرك ان الاديب قد ينحو منحىً من البلاغة يوحي فيه بالتشبيه من غير ان يصرّح به في صورة من صوره المعروفة يفعل ذلك نزوعاً إلى الابتكار، واقامةً للدليل على الحكم الذي أسنده ، ورغبةً في اخفاء التشبيه ، لان التشبيه كلما دقّ وخفي كان أبلغ وأفعل في النفس : وأبو تمام في هذا البيت يقول لمن يخاطبها : لاتستنكري خلوّ الرجل الكريم من الغنى فان ذلك ليس عجيباً لان قمم الجبال وهي أشرف الاماكن وأعلاها لايستقر فيها ماء السيل ؟ فنحن نلمح هنا تشبيهاً يشبه الرجل الكريم المحروم الغنى ضمناً بقمة الجبل وقد خلت من ماء السيل ولكن الشاعر لم يضع ذلك صريحاً بل اتى بجملة مستقلة وضمنها هذا المعنى في صورة برهان ؟ (٢)؟

(١) راجع جواهر البلاغة ص ٢٧٤.
(٢) راجع البلاغة الواضحة ص ٤٥-٤٦.

أغراض التشبيه وبلاغته

أغراضه :

التشبيه لون من ألوان التعبير الجميل المؤثر ، تعتمده النفوس البشرية بالفطرة حين يدعوها إلى ذلك غرض أو آخر من أغراضه التي رصدها البلاغيون القدامى[1]، والمعاصرون [2] فرسخوا بخصوصيتها وغناها آفاقه الرحبة التي اتسعت لفئات الامة وطبقاتها في تحقيق مآربهم الفكرية وخلجاتهم الشعورية ومقاصدهم اليومية.

وفيما يتعلق بهذه الاغراض التي جرت بها نصوص ادبية عربية في شتى بيئاتها وأزمانها ، أكّد علماء البيان العربي أن هذه الاغراض تعود بمجملها إلى الامر الحامل على انشائه وابداعه وأنه لابد لكل تشبيه من غرض وإلاّ كان وقوعه في الكلام عبثاً وان هذه الاغراض تتعلق في أصولها بركن المشبه إلاّ في حال قلب التشبيه فانه يعود إلى المشبّه به.

وهذه الاغراض هي :

الاول : بيان حال المشبه ، ويتمثل هذا الغرض حين تكون صفة المشبه بمعلومة لدى المخاطب وتكون صفة المشبه مجهولة فيساق التشبيه تمكيناً للمخاطب من ادراك حال المشبه وتمثله، كقول المتنبي :

وما الموتُ إلاّ سارِقٌ دَقّ شخصُهُ يصول بلاكفٍ ويسعى بلا رِجْلِ

فحال المشبه الذي هو ا[illegible]ت مجهول وأراد الشاعر أن يشخصه لقرائه فأتى بمشبه به معروف لدى الناس وهو السارق وفصّل اوصافه المخصوصة من دقة شخصه وصولاته وسعيه بلا رجل،

---

(١) ينظر المثل السائر ج٢ ص ١٢٤، الايضاح ص ٢٣٦.

(٢) ينظر فن التشبيه ج١ ص ٢١٨، وفنون بلاغية ص ٦٧.

الثاني : بيان مقدار حال المشبه ، ويتحدد هذا الغرض في تجسيد قوة المشبه وضعفه وزيادته ونقصه وسموه وانخفاضه واتساعه وضيقه ومالى ذلك من الصفات التي تخضع للمقاييس وتستجيب للتحديد ؛ وملاك هذا الغرض أن يكون المشبه معروفاً لدى المخاطب في صفته بشكل عام ويأتي المشبه به لتحديد هذه الصفة : مثال ذلك قوله تعالى : « ولِلّهِ غَيْبُ السماواتِ والأرضِ ، وما أمْرُ الساعةِ إلاّ كلمحِ البَصَرِ أو هو أقربُ » « (1)

فالمخاطب المسلم يعرف أمر الساعة في قربها معرفة عامة ؛ اذ ان للساعة آتية لاريب فيها ؛ وقد جاء المشبه به « لمح البصر» وحدد مقدار هذا القرب ودرجته وبيّن أن إتيانه أقرب من القريب في سرعة حصوله ودنو وقوعه ، وكقول عنترة .

فيها اثنتـان وأربعـون حلـوبـة ً سُوداً كخافيةِ الغرابِ الأسْحَمِ

فقد بيّن الشاعر مقدار سواد تلك النياق بجعلها مشبها لخافية الغراب التي يكون سوادها على أشدّ الدرجات وأعمقها ؛

الثالث : بيان إمكان حصول المشبه المقصود من هذا الغرض : أن المشبه أمر جائز الوقوع على صفة مخصوصة ، وذلك في وجه غريب لايظهر امكان حدوثه، فيقرن بمشبه به حاله مسلم بوقوعه فيأتي دليلا على صحة صفة المشبه وبرهانا يدفع الممارين فيما نسب اليه ، وذلك كقول ابن الرومي :

قالوا أبـو الصَّقْـر مـن شيبان قُلْتُ لـهـم كـلاّ لعمـري ولكـن منـه شيبـانُ

كَمْ من أبٍ قد علا بابن ذُرا شَرَفٍ كما عَلَتْ برسول اللّهِ عدنانُ

فابن الرومي في هذين البيتين زعم أن بني شيبان من ممدوحه أبي صقر وانهم قد سموا به وارتفعوا مجداً وشرفاً وأن الآباء الذين نالوا السؤدد والعزة بأبنائهم كثرة؛

---

(1) النحل ٧٧.

وهذا الامر لايسلم بامكان حصوله الناس فجعله مشبها لمشبه به متحقق وهو علو عدنان برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فجاء هذا المشبّه به الحاصل تاريخاً وواقعاً ليستوي حجة على مانسبه إلى ممدوحه من صفات وقطع بها ألسنة المجادلين المنكرين له قبل سماع تشبيهه والوقوف على حال المشبه به فيه ؛

الرابع : تقرير حال المشبه ، ويتحقق هذا الغرض بتوضيح حال المشبه في ذهن السامع ، وترسيخها في نفسه وتمكينها من خاطره ؛ ويتم ذلك بابراز المشبّه في صورة أقوى وأظهر وذلك عندما تشبّه الامور المعنوية المجردة بالاشياء الحسيّة المشاهدة عياناً والمتخيلة تحققاً ، كقول الشاعر :

إنَّ القلوبَ اذا تنافرَ وِدُّها مِثْلُ الزجاجة كَسْرُها لايُجبَرُ

فتنافر القلوب بسبب ما يعكر صفاء الود أمر معنوي لايدرك الذهن تمنعه على التلاؤم ، لذلك شبهه الشاعر بصورة الزجاجة المكسورة التي كسرها لايجبر وهي صورة محسوسة تدركها للعين وتلمسها اليد ، فقررت حال المشبه المتوهم وأخرجتها في قالب منظور متحقق ؛

الخامس : تحسين حال المشبه والترغيب فيه ، والطريق إلى تحقيق هذا الغرض هو الموازنة بينه وبين مشبه به يستحسنه المخاطب ويميل اليه ، فتسري منه الى ذلك المشبّه صفاته التي يتعلق بها القلب وتأخذ بها المشاعر كقول النابغة الذبياني في مدح النعمان :

كأنّكَ شَمْسٌ والملوكُ كواكبٌ اذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

فالشاعر قد حسن حال ممدوحه المشبه ورغب فيه وأجرى الالسنة بتعظيمه ، وذلك بربطه بالشمس مشبها به تجله النفوس ويدرك الانام عظمته وفوائده وسموه على سائر الاجرام المنيرة في السماء ؛

السادس : تقبيح حال المشبه والتنفير منه ، والطريق إلى حصول هذا الغرض هو نقيض طريق تحسين حال المشبه والترغيب فيه ، اذ يقرن المشبه بمشبه به تستقبحه

النفوس ولا ترغب فيه فيكتسب صفاته الموجبة للاستقباح والتنفير ، كقول ابن الرومي في الهجاء :

وإذا أشــارَ محــدثــاً فكأنــه قــردٌ يُقهْقِه أو عجوزٌ تلطِمُ

ففي هذا البيت يقبح المشبه في نظر القاريء الذي لم يعرفه وتميل عنه نفسه وتشمئز من أوصافه لا لذنب اقترفه غير ربط الشاعر له بالقرد في أقبح حالاته وبالعجوز في شرّ أوضاعها ؟

٧ بلاغته :

ان اغراض التشبيه هذه وسواها لاينبغي أن تؤخذ على أنها مقاصد في ذواتها وأن محققيها من الادباء لايعنون الا بالوصول اليها دون العناية ببلاغة صيغها والتوسل لجمال تعابيرها وقد انتبه السلف من علمائنا البلاغيين الى هذه الحقيقة واسهبوا القول في تفصيلها وتتبع مظاهر بلاغة التشبيه وعللوا لها في ضوء شواهد من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والآثار والاشعار ومما انعقد الرأي عليه بهذا الصدد ان العقلاء يتفقون على شرف قدر التشبيه وفخامة أمره في فن البلاغة .وان تعقيب المعاني به ـ لاسيما قسم التمثيل منه ـ يضاعف قواها في تحريك النفوس الى المقصود بها مدحا كانت أم ذما ، أوافتخارا ،أو غير ذلك؛

ويتحقق ذلك بتلمس الفرق بين قولنا : «أرى قوما لهم منظر وليس لهم مخبر» وتقطع الكلام ،وأن نتبعه نحو قول ابن لنكك :

في شجرِ السَّرْوِ منهم مثَلٌ له رُواءٌ ،وماله ثمرُ

ولننظر في جميع ذلك الى المعنى في الحالة الثانية كيف يتزايد شرفه عليه في الحالة الاولى ؟

ولذلك أسباب ،منها :مايحصل للنفس من الانس باخراجها من خفيٍّ الى جليٍّ كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة ،الى مايعلم بالفطرة ، أو باخراجها مما لم تألفه الى

ما ألفته أو مما تعلمه الى ماهي به أعلم ، كالانتقال من المعقول الى المحسوس فنحن ربما نقول : فلان اذا هم بالشيء لم يزل ذاك عن ذكره وقصر خواطره على امضاء عزمه فيه ، ولم يشغله عنه شيء ، فلا يصادف السامع له أريحية حتى اذا سمع قول الشاعر .

اذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانبا(١)

امتلأت نفسه سرورا ، وادركته هزة لايمكن دفعها عنه .

وقد جسد القزويني هاتيك الاسباب بقوله : « ومن الدليل على أن للاحساس من التحريك النفس وتمكين المعنى ماليس لغيره ، أنك اذا كنت أنت وصاحب لك يسعى في أمر ، على طرف نهر ، وأنت تريد أن تقرر له أنه لايحصل من سعيه على طائل ، فادخلت يدك في الماء ، ثم قلت له : انظر ، هل حصل في كفي من الماء شيء ؟ فكذلك انت في أمرك ، كان لذلك ضرب من التأثير في النفس وتمكين المعنى في القلب زائد على القول المجرد » (٢) .

ومن فضائل التشبيه ومظاهر بلاغته وتفنن اساليبه أنه يأتي من الشيء الواحد بأشباه عدة ، نحو أن يعطي من القمر الكمال عن النقصان ، كما قال أبو تمام :

لهفي على تلك الشواهد فيهما	لو أمهلت حتى تصير شمائلا
لغدا سكونهما حجى ، وصباهما	حلماً ، وتلك الاريحية نائلا
ولأعقب النجم المرذ بديمة	ولعاد ذاك الطل جوداً وابلا

(١) هم : عزم . ألقى بين عينيه عزمه : تصوير لعنايته بعقيدة ماعزم عليه، حيث وضعه وضعاً لا يغيب فيه عن عينيه . نكب عن ذكر العواقب : عدل وتنحى وقائله . سعد بن ناشب وهو شاعر أموي ، من شعراء الحماسة .

(٢) الايضاح ص ٢١٧ .

نَّ الهلالَ اذا رأيت نمــوه أيقنت أنْ سيصيرُ بـدراً كاملا (١)

والنقصان عن الكمال ، كقول ابي العلاء المعرّي :

وإن كنت تبغي العيشَ فابغِ توسطا فعند التناهي يَقْصُرُ المتطاولُ

تُوقّى البدورُ النقصَ وهي أهلّةٌ ويُدْرِكها النقصانُ وهي كواملُ(٢)

وتتفرع من حالتي كماله ونقصه فروع لطيفة ، كقول ابن بابك :

وأعرتَ شطرَ المُلْكِ ثوبَ كماله والبدرُ في شطرِ المسافةِ يَكْمُلُ(٣)

وكذا ينظر إلى بعده وارتفاعه ، وقرب ضوئه وشعاعه ، وإلى ظهوره في كل مكان كما في قول أبي الطيب :

كالبدر من حيثُ التفتَّ وجدتَه يُهْدي إلى عينيك نوراً ثاقبا (٤)

إلى غير ذلك من المعاني التي يبدعها الاديب بألوان تخيله أوجها من المشابهة والتشابه بين طرفي التشبيه ، فيبلغ من خلال ذلك إلى التأثير في سامعيه والتعبير عما في ضميره .

والتشبيه مثل أي اسلوب بياني ليس على درجة واحدة من البلاغة في انواعه كافة ، كما انه ليس بمستوى رفيع من الجمال في انواعه جمعاء ، وانما يتفاوت ويتباين وفق مقاييس نقدية سمى عبدالقاهر إلى تحريرها وترسيخها فقال إنّ كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً ، فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته ،

الحيي : الحقل . المرذ : المسقط الرذاذ وهو المطر الخفيف . الديمة : المطر في سكون دون رعد أو برق ، الطل : المطر الضعيف . الجود - بفتح الجيم وسكون الواو - المطر الغزير . الوابل : المطر الشديد .

توقى النقص : تسلم منه وتنجو ، أهلة : جمع هلال .

أعرت : أعطيت . شطر الملك : نصفه .

(٤) راجع الايضاح ص ٢١٧ - ٢١٩ .

فالتشبيه المردود اليه غريب نادر بديع ، ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء وسط هذين الطرفين بحسب حالها منهما فما كان منها إلى الطرف الاول أقرب ، فهو أدنى وأنزل وما كان إلى الطرف الثاني أذهب ، فهو أعلى وأفضل ، وبوصف الغريب أجدر » (١):

وواضح أنّ هذه المقاييس تعود في جوهرها إلى ركن وجه الشبه الجامع بين الطرفين ومن منطلق تقسيمات هذا الركن على أساس الحسي والعقلي ، فهي من هذه الناحية تعتمد معايير فكرية لابدّ أن نضيف اليها في مجال التطبيق معايير ذوقية وجمالية ابداعية تستمد احكامها من مدى ابتكار الاديب في التشبيه ونقل تجربة صادقة له مع المشبّه من خلال مقارنته بالمشبّه به وخلق علاقة جديدة بينهما لم تَلُكْها ألسنة الادباء قبله ، ولم تتكرر في المخاطبات اليومية عبارات أقصى غاياتها الافهام والتعليم ٥

---

(١) اسرار البلاغة ص ١٥١.

الفصل الثالث
الحقيقة والمجاز
المبحث الاول
تعريفهما

اذا جمعنا المباحث التي تناولت المجاز في كتب اللغة ومصنفات البلاغة قادنا ذلك الى نتيجة تؤكد ان ملاك المجاز يبتدىء بدراسة المعنى السابق على مدلول اللفظة المجازية.

واللفظة في معناها السابق هذا يطلق عليها مصطلح «الحقيقة».

الحقيقة لغة:

ان هذا المصطلح في اصل اشتقاقه «إمّا «فَعيل» بمعنى «مفعول»، من قولك: حَقَقْتُ الشيء احقه «اذا أثبتُه» أو «فَعيل» بمعنى فاعل من قولك: حق الشيء يحق، اذا ثبت أي المثبتة أو الثابتة في موضعها الاصلي (١).

والتاء فيها في – رأي الجمهور – للتأنيث وفي ضوء هذا المنحى من التماس اشتقاق المصطلح وبيان اصله بادر اللغوي المعروف ابن فارس الى تعريفه قائلا: «الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل، ولا تقديم فيه ولا تأخير» (٢).

وجاء ابن جني في ميدان اللغة ايضا واعطى تعريف الحقيقة ذاك حداً متميزاً فقال: «الحقيقة ما أُقِرّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة» (٣).

---

(١) الايضاح ص ٢٦٩.
(٢) الصاحبي ص ١٩٧.
(٣) الخصائص ج٢ ص٤٤٢.

واعلنا نلاحظ أن مصطلح الحقيقة في الدراسات اللغوية ينهض تعريفه على اساسين متلازمين .

أولهما :تأكيد انقطاع التعبير الحقيقي عن أية دائرة غير لغوية،

وثانيهما : القطع بان اللفظة الحقيقية باقية على اصل وضعها الذي حدده الاستعمال .

الحقيقة اصطلاحا :

لقد استضاء البلاغيون بهذين الأساسين وسعوا إلى أن يضعوا للحقيقة في الدراسات البلاغية تعريفا جامعا مانعا ، ويأتي عبد القاهر الجرجاني في مقدمة هؤلاء البلاغيين ، إذ عرّف الحقيقة في اللفظة المفردة قائلا : «كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وَضْع واضع ، وان شئت قلت : في مواضعة ، وقوعا لايستند فيه إلى غيره فهي حقيقة . وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول وما تأخر عنه كلغة تحدث في قبيلة من العرب أو في جميع العرب أو في جميع الناس مثلا أو تحدث اليوم . ويدخل فيها الاعلام منقولة كانت كزيد وعمرو ، أو مرتجلة كغطفان ، وكل كلمة استؤنف بها على الجملة مواضعة أو ادعي الاستئناف فيها » (١) .

وفي يقيننا ان عبدالقاهر كان مشغول الذهن بحدّ المجاز حين ساق تعريفه هذا ، ذلك لانه لم يشترط للكلمة الحقيقية سوى شرط واحد هو ان لاتستند إلى غيرها في الدلالة على معناها .

وهذا الشرط - بلاريب - يؤكد أبرز خاصة للكلمة المجازية وهو الدلالة على مدلولها بالاستناد إلى قرينة لفظية أو معنوية .

ثم أنه حين لم يقيد الكلمة الحقيقية بالوضع الأول الذي خصت به وأطلقها لتشتمل على الوضع الآخر استئنافا لمعنى جديد حصل اليوم وبعد معناها الذي وضع له أولا ، أراد أن يوسع من دائرتها لتضم اليها معاني حقيقية أخرى فرعها

---

(١) اسرار البلاغة ص ٣٢٤.

فيما بعد البلاغيون الآخرون . ومن هذا المنطلق ايضا عرّف الحقيقة في الجملة بقوله : « فكل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ماهو عليه في العقل وواقع موقعه فهي حقيقة ولن تكون كذلك حتى تعرى من التأول ، ولا فصل بين أن تكون مصيبا فيما افدت بها من الحكم أو مخطئا وصادقا أو غير صادق» (١)،

واذن فهو لايتقيد كل التقيد بمسألة الوضع الاول الذي أقره اللغويون ركناً أساسا للحقيقة ، وانما يعتمد معيار العقل الذي يتخذه فيصلا بين الحكم الحقيقي والحكم غير الحقيقي المؤول والمجازي .

وفي ملاحظتنا أن هذا المعيار يستمد مقومه من النظرة الدينية ، وآية ذلك أنه ساق ما يوضح تعريفه ذاك قائلا : فمثال وقوع الحكم المفاد موقعه من العقل على الصحة واليقين والقطع قولنا: «خلق الله تعالى الخلق وانشأ العالم وأوجد كل موجود سواه »؛ فهذه من أحق الحقائق وأرسخها في العقول ، واقعدها نسبا في المعقول ، واما مثال أن توضع الجملة على أن الحكم المفاد بها واقع موقعه من العقل وليس كذلك الا أنه صادر عن اعتقاد فاسد وظن كاذب فمثل ما يجيء في التنزيل من الحكاية عن الكفار نحو : «وما يُهلكُنا إلاّ الدهرُ» (٢) فهذا ونحوه من حيث لم يتكلم به قائله على أنه متأول بل أطلقه بجهله وعماه اطلاق من يضع الصفة في موضعها ، لا يوصف بالمجاز ولكن يقال عندقائله أنه حقيقة، وهو كذب وباطل»(٣).

أنواع الحقيقة :

ولعلنا نتبين من هذا التعريف أن مبحث الحقيقة يأخذ على يدي عبدالقاهر لونا فكريا اعتقاديا بالاضافة إلى أساسية اللغويين ، وقد ترتب على هذا كله نتيجتان: أولاهما: أن مبحث المجاز قد اختلط بالدراسات العقدية والغلوات المذهبية

(١) اسرار البلاغة ص ٣٥٥ .
(٢) الجاثية ٢٤.
(٣) اسرار البلاغة ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

فظهر من الباحثين من رأى ان النصوص الدينية خالية من المجاز وأن لغة القرآن الكريم وأحاديث النبي الشريف لم تأت فيها إلاّ الحقائق من الكلم المفردة والتراكيب؛

وثانيهما : اعتبار الكلمات الشرعية التي لم ترد على اصولها الأول في المواضعة حقائق ، ومن هنا فان جلّ البلاغيين يذهبون إلى أن الحقيقة لغوية ، وشرعية، وعرفية : خاصة ، أو عامة ؛ لان واضعها ان كان واضع اللغة فلغوية ، وان كان الشارع فشرعيّة وإلاّ فعرفيّة ، والعرفيّة إنْ تعيّن صاحبها نسبت اليه ، كقولنا: كلامية ، ونحوية ، وإلاّ بقيت مطلقة :

مثال اللغوية لفظ «اسد» اذا استعمله المخاطب بعرف اللغة في السبع المخصوص، ومثال الشرعية لفظ «صلاة» اذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في العبادة المخصوصة ومثال العرفية الخاصة لفظ «فعل» اذا استعمله المخاطب بعرف النحو في الكلمة المخصوصة ، ومثال العرفية العامة لفظ «دابة» اذا استعمله المخاطب بالعرف العام في ذي الاربع (١).

إنّ هذا المذهب يجعل الكلمة الحقيقية أربعة انواع هي الحقيقة اللغوية ،والحقيقة الشرعية ،والحقيقةالعرفية الخاصة أي الاصطلاحية ثم الحقيقة العرفية العامة، وفي ميدان دراسة حياة الكلمة العربية وتتبع خطوات نمو مدلولاتها يوصد الباب امام الباحثين ويمنعهم من تلمس تاريخ هذه الكلمة ورصد تقلبها على اكثر من معنى بحكم عوامل اجتماعية وفكرية وحضارية وذوقية وغير ذلك .

الحقائق بين المعنى الوضعي والمدلول المجازي :

ويدهي ان هذا المذهب لايمثل رأي العلماء الاسلاف أجمعين ،فقد قال ابن برهان مثلا في الاسماء الشرعية أي الحقائق الشرعية : «اختلف العلماء في الاسامي هل نقلت من اللغة الى الشرع ؟فذهبت الفقهاء والمعتزلة الى ان من الاسامي مانقل

(١) الايضاح ص ٢٦٨.

كالصوم والصلاة والزكاة والحج (١) :وعليه فلاضير في أن تتمسك بالوضع الاول للكلمة ونعدها على ذلك المعنى حقيقة ، ثم نعد أي معنى آخر تقلبت عليه مدلولاً مجازياً لها فتتيح بذلك للباحثين مجال وضع المعجم التاريخي للغتنا ورسم الخط البياني لحياة الكلمة العربية ، فنتمكن بذلك من دراسة أسس انتقال الكلمات العربية في النصوص الشرعية الى مدلولات مجازية اقتضاها تطور الفكر العربي بعد ظهور الدين الاسلامي الحنيف ، وتبيين مدى دقة المصطلحات العلمية والثقافية والسياسية التي يستوجب وضعها التعبير عن شؤون الحياة ، ونكتشف الحقائق التي تنبض بها الكلمات في لغتنا اليومية وهي تزدهر في خضم الحياة وتستوجبها الأعراف الاجتماعية بشتى مصادرها .

المجاز لغة :

إن كلمة المجاز قد تقلبت في المعجمات على معان لغوية متقاربة ، وقد حكى لنا الخليل بن احمد الفراهيدي بعضها في تعرضه لمادة (جوز) قائلا : « وتقول : جزت الطريق جوازاً ومجازاً وجئواراً ، ... ، والمجاز المصدر والموضع » (٢) ؛ إن الفراهيدي صاحب معجم العين الذي يعد أول معجم عربي وصل الينا يرصد لكلمة المجاز معنيين لغويين أساسين :

أولهما : قطع الطريق وسلوكه . ثانيهما : الموضع المقطوع والمسلوك .

لقد تقبّل واضعو المعجمات العربية (٣) خطى الفراهيدي في تحديد المعاني اللغوية لكلمة المجاز ، فلم يقدموا للباحث في مدلول هذه الكلمة الاصطلاحي مادة تمكنه من متابعة تطور معاني هذه الكلمة قبل أن تستوي مصطلحا بلاغيا :

أما اشتقاقها في صورتها الاصطلاحية فالرأي معقود على أنها «مَفْعَل» وأصله مجوز وقد نقلت فيه حركة الواو الى الساكن قبلها فقلبت ألفاً لتحريكها حسب الاصل

---

(١) المزهر ج١ ص ١٧٤ .

(٢) العين، النصف الثاني ص ١٣٧ مخطوط، مكتبة الآثار تحت رقم ٥٠٩ .

(٣) راجع مقاييس اللغة ولسان العرب مادة (جوز) .

والفتاح ماقبلها بحسب حالها الآن ، تقول : جاز المكان جوازا ومجازا وهذا مجاز القوم ، فالمجاز إذنْ اسم للمكان الذي يجاز فيه ومصدر ميمي لفعله .

يمكن أن نشير إلى أن المدلول الاصطلاحي لكلمة المجاز في هذه أوضح صوره مقتبس من اسم المكان ، فجعل ذلك لنقل الالفاظ من محل إلى محل .

اذا سعى الباحث إلى أن يؤرخ لورود هذا المدلول في النصوص العربية يستطيع أن يؤكد أن اصحاب الفرق والملل والنحل (١) هم أول من أداروه واعتمدوه في مناقشاتهم العقدية والفلسفية .

فقد نُقل عن أبي اسحق النظام حديث ورد فيه اصطلاح المجاز إذ رُوي أنه كان يخطئ المتفلسفين ، في قولهم أن الحرارة تورث اليبس ، لان الحرارة انما ينبغي أن تورث السخونة وتولد مايشاكلها ولا تولد ضربا آخر ليس منها في شئ ، ولو جاز أن تولد من الاجناس التي تخالفها شكلا واحدا لم يكن ذلك بأحق من كلام آخر إلا أن يذهبوا إلى سبيل المجاز ، فقد يقول الرجل انما أبليتك لأنتي التفت ، وهو انما راه لطبع في البصر الدارك عند ذلك الالتفات» (٢) ؟

واذن فسبيل المجاز في هذا النص هو دلالة اللفظ على مدلول جديد ، لعلة تستوجب شيئا من الملابسة بين هذا المدلول الجديد ومعنى اللفظ الدائر على ألسنة الناس . وقد اعتمد الجاحظ المعتزلي الذي كان على صلة وثيقة بالفرق والنحل مدلول مصطلح المجاز ذاك ، فدرس تقلب كلمة «أكل» على معناها الحقيقي ومدلولات مجازية فقال : قول الله عز وجل : «إنّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلما» (٣) وقوله تعالى : «أكالون للسحتِ» (٤) .

(١) ينظر كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل ج ٤ ص١٥٣ حيث أورد نصاً لجعد ابن درهم القدري المتوفى سنة ثماني عشرة ومائة للهجرة فيه مصطلح المجاز .

(٢) الحيوان جـ ٥ ص١٢ .

(٣) النساء ١٠ .

(٤) المائدة ٤٢ . السحت بالضم : ماخبث من المكاسب .

وقد يقال لهم ذلك وان شربوا بتلك الاموال الانبذة ، ولبسوا الحلل ، وركبوا الدواب ، ولم ينفقوا منها درهماً واحداً في سبيل الاكل ؛ وقد قال الله عزّ وجل: «إنما يأكلون في بطونهم ناراً» (١) وهذا مجاز آخر .

وقال الشاعر (٢) في اخذ السنين من أجزاء الخمر :

أكَلَ الدهْرُ ما تجسّم منها وتبقّى مُصاصها المكنونا (٣)

قال الشاعر :

مرت بنا تختال في أربع يأكل منها بعضها بعضا (٤)

وهل قول : « وقد أكلت أظفاره الصخر »الا كقوله :

كضبِّ الكدي (٥) أفنى براثنه الحفر

واذ قالوا : «أكله الاسد » وانما يذهبون الى الاكل المعروف : واذ قالوا: «أكله الأسْوَدُ » فانما يعنون النهش واللدغ والعض فقط : وقد قال الله عزّ وجل : «أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ لحم أخيه ميْتاً » (٦) ؛ ويقال هي لحوم الناس ؛ وقال قائل لاسماعيل بن حماد : «أي اللحمان أطيب ؟ قال : لحوم الناس ، هي والله اطيب من الدجاج ، ومن الفراخ ، والعنوز الحمر ؛

ويقولون في باب آخر : «فلان يأكل الناس » وان لم يأكل من طعامهم شيئا ؛

---

(١) النساء ١٠.

(٢) هو ابو نواس من خمرية له.

(٣) تجسم بالسين اي صار جسماً ، تبق: اي ابق وترك. والمصاص بالضم خالص كل شيء.

(٤) أي اربعون من صواحها.

(٥) الكدي ، جمعه كدية بالضم: هي الارض الغليظة.

(٦) الحجرات ١٢.

وأما قول أوس بن حجر :

وذو شطّبات قده ابن مجدع له رونق ذريّه يتأكــل (١)

فهذا على خلاف الاول ، وكذلك قول دهمان النهري :

سألتني عن أناس أكلــوا شرب الدهر عليهم وأكـل

فهذا كله مختلف ، وهو كله مجاز » (٢)

ففي هذا النص نستقبل كلمة أكل ، وقد انتقلت في آيات قرآنية ونصوص شعرية وأحاديث توحي عن معناها اللغوي الحقيقي المعروف الذي هو التناول بالفم الى مدلولات جديدة سماها الجاحظ مجازات . وهو في هذا كله يضع بين أيدينا أسس منهجه لدراسة الكلمة العربية :

أولها : اعتماد موضوع محدد وجمع النصوص التي دارت فيه بمعاني كلماتها الحقيقية ومدلولاتها المجازية ؛

وثانيها : بيان المدلول المجازي للكلمة بالموازنة بينه وبين المدلولات المجازية الاخرى التي خالفتها ثم الاشارة إلى معناها المعروف ؛

وثالثها : التنوع في النصوص التي تدرس الكلمة المجازية في مضانها بين آيات قرآنية و شواهد واقوال شعرية واقوال معاصرة وامثال ، وفي اعتقادنا أن هذا المنهج الذي يبدو عليه الطابع المعجمي لو راعى فيه الجاحظ الترتيب التاريخي لما سرد فيها من المعاني الحقيقية لكلمة أكل ، وما أوضح من مدلولاتها المجازية لكان هو باسسه تلك السبيل القويم الذي نستطيع اعتماده في دراسة حياة الكلمة العربية

(١) الشطبات ، بضم الشين والطاء ، جمع شبطة بالضم ، وهي الطريقة من طرائق السيف أي الخط فيه وقد عني به السيف ، قده : صنعه ، ابن مجدع : أحد صناع السيوف ، الرونق : ماء السيف وصفاؤه وحسنه . وذرى السيف : كالمنسوب إلى الذر : ماؤه وفرنده.

(٢) الحيوان ج٥ ص٢٥ – ٢٩.

ابتداء من معناها الوضعي الاول ومروراً بمدلولاتها المستجدة لها والتي رأينا معظم البلاغيين يسمونها حقائق لغوية وشرعية وعرفية عامة وخاصة ، في حين انها في ضوء منهج الجاحظ مجازات يمكن أن نفرق فيما بينها بمصطلحات المجازات الشرعية دلالة على الحقائق الشرعية والمجازات الاصطلاحية دلالة على الحقائق العرفية الخاصة والمجازات العرفية دلالة على الحقائق التي اكتسبت مدلولاتها من الاستعمال اليومي في لغة الحياة اليومية ؛

وأياً كان ما ندعو اليه في وقفتنا مع مصطلح المجاز في مدلوله ذاك فان علم البلاغة قد تلقف هذا المصطلح واقامه على حد وتعريف مخصوص .

ولعل عبد القاهر الذي يعدّ بحق مبتدع هذا العلم بموضوعاته المفصلة ومنهجيته المتميزة أول من بحث المجاز بحثاً متكاملا فحدّه في المفرد والجملة وبيّن شرائطه وفصّل ما قد يلتبس به من الاسماء المشتركة والاعلام وتتبع طائفة من علاقاته المرسلة والقائمة على التشبيه ؛

ومما يتعلق بهذا البحث أن المجاز يذكر بوزنه « مَفْعَل » ويحلل اشتقاقه على ماورد في المعجمات العربية فيقال : «المجاز مَفْعَل من جاز الشئ يجوزه إذا تعداه . واذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الاصلي ، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً» (١) .

وفي موضع آخر يسوق تعريف المجاز اصطلاحا فيبين أن المجاز « كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والاول » ؛ ويتحدث عن مسألة الملاحظة بين معنى الكلمة الحقيقية ومدلولها المجازي التي ضمنت فيما بعد بعلاقة المجاز فقال : «ومعنى الملاحظة هو انها تستند في الجملة الى غير هذا

(١) اسرار البلاغة ص ٣٦٥ .

الذي تريده بها الآن الا" ان هذا الاستناد يقوى ويضعف ، بيانه ما مضى من انك اذا قلت : «رأيت أسداً» تريد رجلا شبيها بالاسد لم يشتبه عليك الامر في حاجة الثاني الى الاول اذ لايتصور أن يقع الاسد للرجل على هذا المعنى الذي أردته على التشبيه على حد المبالغة وايهام أن معنى من الاسد حصل فيه الا بعد أن تجعل كونه اسماً للسبع ازاء عينيك ، فهذا اسناد تعلمه ضرورة ولو حاولت دفعه عن وهمك حاولت محالا فمتى عقل فرع من غير اصل ومشبّه من غير مشبَّه به ؟ وكل ما طريقة التشبيه فهذا سبيله ، أعني كل اسم جرى على الشيء للاستعارة ، فالاستناد فيه قائم ضرورة .

واما ما عدا ذلك فلا يقوى استناده هذه القوة حتى لو حاول محاول أن ينكره أمكنه في ظاهر الحال ، ولم يلزمه به خروج الى المحال ، وذلك كاليد للنعمة ، لو تكلّف متكلف فزعم انه وضع مستأنف أو في حكم لغة مفردة لم يمكن دفعه إلا برفق وباعتبارخفي وهو ما قدمت من أنا رأيناهم لايوقعون هذه اللفظة على ماليس بينه وبين هذه الجارحة التباس واختصاص ؛ ودليل آخر وهو ان اليد لاتكاد تقع للنعمة إلا وفي الكلام إشارة الى مصدر تلك النعمة والى المولي لها » (١).

ومن هذا التحليل الذي يستفيض فيه شرحاً للشواهد وبَسْطاً للقواعد ثم اظهاراً للنكت البلاغية ، نستنتج أن مدلول المجاز اصطلاحا لدى عبد القاهر على اساس العلاقة بين ما نقلت منه الكلمة وما نقلت اليه يشمل ضربين من المجاز :

المجاز بالاستعارة ، وهو ما علاقته المشابهة ، والمجاز المرسل وهو ما علاقته ملابسات متنوعة غير المشابهة .

مقومات المجاز :

يعنى عبد القاهر بمسألة العلاقة في المجاز عناية كبيرة فيتتبع الكلمات التي ربما يتوهم في أنها مجاز بدعوى أنها منقولة فيقول : «ولوجوب اعتبار هذه النكتة في

(١) أسرار البلاغة ص٣٢٥ –٣٢٦.

وصف اللفظ بأنه مجاز لم يجرِ استعماله في الالفاظ التي يقع فيها اشتراك من غير سبب يكون بين المشتركين كبعض الاسماء المجموعة في الملاحن مثل ان الثور يكون اسما للقطعة الكبيرة من الاقط والنهار اسم لفرخ الحبارى والليل لولد الكروان » (١) كما قال :

أكلتُ النهارَ بنصفِ النهــار وليـلاً أكلت بليـل بهيم

وذلك ان اسم الثور لم يقع على الأقط لامر بينه وبين الحيوان المعلوم ولا النهار على الفرخ لامر بينه وبين ضوء الشمس أداه اليه وساقه نحوه »

والغرض المقصود بهذه العبارة — أعني قولنا المجاز — أن تبين أن للفظ أصلاً مبدوءاً به في الوضع ومقصوداً، وان جريه على الثاني إنما هو على سبيل النقل الى الشيء من غيره ، وكما يعبق الشيء برائحة ما يجاوره ، وينصبغ بلون مايدانيه ، ولذلك تراهم لايطلقون المجاز في الاعلام اطلاقهم لفظ النقل فيها .... وان حجراً حقيقة في الجماد ومجاز في اسم الرجل ، وذلك أن الحجر لم يقع اسما للرجل لالتباس كان بينه وبين الصخر على حسب ما كان بين اليد والنعمة ؛؛؛؛ ولا كما كان بين الظهر الحامل وبين المحمول في نحو تسميتهم المزادة راوية وهي اسم للبعير الذي يحملها في الاصل وكتسميتهم البعير حَقَبَاً وهو اسم لمتاع البعير الذي يحمل عليه » (٢).

ان عناية عبد القاهر بتتبع ما ليس من المجاز ورصد علاقاته وترسيخ مقوماته المميزة استهدفت تحقيق غرضين :

أولهما : اقامة مبحث المجاز في البلاغة العربية على أسس ذوقية وعقلية وفنية تتجاوز به النظرة الجزئية والتعثر في التناول واختلاط المفاهيم الى مرحلة الدراسة العامة المنظمة المحددة ؛

(١) الاقط بفتح الهمزة : الجبن المتخذ من اللبن الحامض ، والحبارى : طائر يضرب به المثل في البلاهة ، والكروان : طائر طويل الرجلين وله صوت حسن .

(٢) اسرار البلاغة ص٣٦٥ — ٣٦٦ .

وثانيهما: الاخذ على أيدي متأولي النصوص الدينية الذين اعتمدوا بدعة المجاز في تحميل آي الذكر الحكيم والاحاديث النبوية مالا تتحمل من مدلولات مذهبية وترسيخ القواعد التي يمكن التماس المجاز وفقها في هاتيك النصوص . وفي يقيننا أن بحث المجاز بتفاصيله تلك على يدي عبد القاهر في القرن الخامس للهجرة سيبقى تراثاً متجدداً في كل عصر نستطيع أن نحتكم اليه في منع من يتجاوز بألفاظ لغتنا الى مدلولات اعتباطاً وبلا اساس وتقليداً لمدارس الادب الاوربي التي تستمد مقوماتها الفكرية والفنية من ثقافة غير ثقافتنا ويصدر المنتمون اليها عن رسالة غير رسالتنا كالرمزية والسريالية واللامعقول .

وبدأ مصطلح المجاز يأخذ صورة جامدة على يد البلاغيين المتأخرين ، «كان السكاكي إمام هؤلاء ورائدهم في هذا الاتجاه ، وقد حدّ المجاز قائلا : «فهي الكلمة المستعملة في غيرما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالا في الغير بالنسبة الى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن ارادة معناها في ذلك النوع ، وقولي «بالتحقيق» احتراز أن لاتخرج الاستعارة التي هي من باب المجاز نظراً الى دعوى استعمالها فيما هي موضوعة له ، وقولي «استعمالاً في الغير بالنسبة الى نوع حقيقتها» احتراز عما اذا اتفق كونها مستعملة فيما تكون موضوعة له بالنسبة الى نوع حقيقتها، كما اذا استعمل صاحب اللغة لفظ الغائط مجازاً فيما يفضل عن الانسان من منهضم متناولاته، أوكما اذا استعار صاحب الحقيقة الشرعية الصلاة للدعاء أو صاحب العرف الدابة للحمار ، والمراد بنوع حقيقتها اللغوية إنْ كانت اياها أو الشرعية أو العرفية أية كانت ، وقولي «مع قرينة مانعة عن ارادة معناها في ذلك النوع » احتراز عن الكناية » (1):

نلتقي في هذا النص ببحث عبد القاهر للمجاز مقننا ، فنستنتج أن للمجاز اربعة أركان أولها : المعنى الحقيقي للكلمة ، وثانيها : مدلولها المجازي ، وثالثها : العلاقة بين المدلول المجازي والمعنى الحقيقي ، ورابعها : القرينة التي تدل على أن الكلمة مجاز في استعمالها وأنه لايراد بها معناها الحقيقي .

(1) مفتاح العلوم ص ١٧٠.

وفي ضوء أركان المجاز هذه وما جرى فيه ، أهو كلمة أو جملة قسّمه المتأخرون اقساما لخصها السكاكي قائلا : واعلم أنّ المجاز عند السلف من علماء هذا الفن قسمان .

لغوي ، ويسمى مجازاً في المفرد ، وعقلي ويسمى مجازاً في الجملة ، واللغوي قسمان : قسم يرجع الى معنى الكلمة ، وقسم يرجع الى حكم لها في الكلام ، والراجع الى معنى الكلمة قسمان . خال عن الفائدة ومتضمن لها ، والمتضمن للفائدة قسمان : خال عن المبالغة في التشبيه ومتضمن لها ، وأنه يسمى الاستعارة»(١).

وبدهي أن لكل قسم حدّه وقيوده وتفريعاته ، ونحن نتحدث فيما تبقى من هذا الفصل عن قسمين من أقسام المجاز هما : المجاز المرسل والمجاز اللغوي .



(١) مفتاح العلوم ص ١٧٢ .





المبحث الثاني

المجاز المرسل

لقد ثبت في تاريخ البلاغة العربية (١) أن السكاكي هو أول من أطلق مصطلح المرسل على هذا النوع من المجاز موازنا بينه وبين الاستعارة التي تندرج معه في ضرب المجاز اللغوي أو المجاز المفرد ، اذ قال : «وغير معناها — أي معنى الكلمة — أما أن يقدر قائما مقام معناها بوساطة المبالغة في التشبيه أولايقدر، والاول هو الاستعارة والثاني المجاز المرسل » (٢) ؟

تعريفه :

وفي ضوء هذه الموازنة عرّف القزويني المجاز المرسل مستفيداً من جملة الآراء التي أدارها عبد القاهر في بحثه للمجاز فقال : «هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه ، كاليد اذا استعملت في النعمة ، لانّ من شأنها أن تصدر عن الجارحة ، ومنها تصل إلى المقصود بها ، ويشترط أن يكون في الكلام شارة إلى المولي لها ، فلا يقال : اتسعت اليد في البلد ، أو اقتنيت يداً ، كما يقال : اتسعت النعمة في البلد ، أو : اقتنيت نعمة ، وإنما يقال . جلت يده عندي وكثرت ايادبه لديّ» (٣) .

ومصطلح الارسال في اللغة يعني الاطلاق وعدم التقييد، ولما كان هذا المصطلح قد جاء للتمييز بين الاستعارة وبين هذا النوع من المجاز فان البلاغيين قد التمسوا علّة هذه التسمية على اساس طبيعة العلاقة بين المعنى الحقيقي والمدلول المجازي في الكلمة ، وهذه العلة تتجه اتجاهين :

(١) ينظر كتاب فنون بلاغية ص١١٠ .
(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٥ .
(٣) الايضاح ص ٢٧٠

أولهما : أن المجاز الاستعاري مقيّد بادعاء أن المشبّه من جنس المشبّه به ، والمرسل مطلق من هذا القيد .

وثانيهما : انه سمي مرسلاً لارساله عن التقييد بعلاقة مخصوصة بل ردّد بين علاقات بخلاف المجاز الاستعاري فانه بعلاقة واحدة وهي المشابهة (١) .

علاقاته :

علاقات المجاز المرسلة غير محددة ولامقيّدة بعدد معيّن من الملابسات وانما تتسع وتتلون في معجم اللغة العربية الذي له القدرة على استيعاب المدلولات المتجددة في خضم الحياة لتبقى لغته أبد الدهر لغة الحضارة والثقافة والعلم .

وبدهيّ أن هذا لايعني أن الكلمة العربية مهملة في هذا المجال ترك حبلها على غاربها بلا ضابط ، ذلك لان الملابسة بين معاني الكلم الحقيقية ومدلولاتها المجازية ركن لايمكن إغفاله بل لابد أن يوطد دائما وفق العرف اللغوي والذوق السليم والحس العربي المرهف .

لقد انتبه اللغويون والبلاغيون منذ أول العهد بالتأليف إلى توسع العرب في استعمال الكلمات بأكثر من معنى ، فرصدوا طائفة من العلاقات التي سوغت ذلك التوسع وثبتوها ، وتقيّل خطاهم المتأخرون فانتهوا إلى وضع اليد على طائفة من هذه العلاقات التي نظمها الشيخ أحمد السجاعي المتوفي (١١٧٩هـ) في منظومة نستخلص منها أنها بلغت على أيامه (٢) عشر علاقات عدّاً وحصراً ، وواضح أن هذا العدد أقل بكثير مما بسطه جلال الدين السيوطي (٣) (- ٩١١هـ) :

(١) راجع حاشية الدسوقي في شروح التلخيص ،ج٤ ص ٤٢٩ وفنون بلاغية ص١١٠

(٢) انظر إلى منظومة الاعواز في بيان علاقات المجاز ، ورقة ٨ مخطوطة في مكتبة جامعة الازهر .

(٣) راجع الاتقان في علوم القرآن ج٢ ص ٣٦ - ٤٠ .

واشهر هذه العلاقات وأسيرها في النصوص القرآنية والأدبية ، ما يأتي :

الاولى : الجزئية وهي أن يذكر جزء الشيء ويراد كله ، كقوله تعالى : «فتحرير رقبة مؤمنة» (١) فقد ذكر الرقبة في الآية والمقصود بها العبد ، وكقول الشاعر :

وكم علّمته نظْمَ القوافي فلمّا قال قافيةً هجاني

فذكر الشاعر القافية ومقصده القصيدة كلها التي تأتي القافية جزءاً من نظمها .

الثانية : الكلية وهي على عكس الجزئية بذكر الكل ويراد به مدلول جزئه كقوله تعالى : «يجعلون أصابعهم في آذانهم» (٢) ؟

فالمقصود بالاصابع في الآية الكريمة هو الانامل التي هي رؤوس الاصابع فقط .

الثالثة : السببية وهي ان يطلق السبب ويراد به نتيجته ومسببه ، كقوله تعالى : «ما كانوا يستطيعون السَّمْعَ» (٣) : فالمراد القبول والعمل بالقرآن الكريم اذ أن هذا العمل والقبول نتيجة لسمع القرآن ومسببة عن وعيه .

وكقول الرصافي :

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشي وقد أثقل الاملاقُ ممشاها

فالشاعر هنا ذكر الاملاق وأراد المرض الذي هو نتيجة للاملاق ومسبب عن الفقر .

الرابعة : المسببية التي هي بخلاف السببية اذ يذكر المسبب والنتيجة والمراد سببه الذي كان علّة في ذلك كقوله تعالى : «ويُنَزِّل لكم من السماء رزقا» (٤) فالمذكور ههنا المسبَّب والمقصود هو المطر الذي يسبب الرزق من زرع وما يعتاش على هذا الزرع من أنعام .

الخامسة : اعتبار ما كان في الماضي وما سبق من الزمان ، كقوله تعالى : «وآتوا اليتامى أموالَهم» (٥) أي الذين كانوا يتامى فيما مضى ، أما حين يحق لهم أخذ ميراثهم فانهم يكونون قد تجاوزوا السن التي يسمون فيها يتامى .

---

(١) النساء ٩٢.
(٢) البقرة ١٩.
(٣) هود ٢٠ .
(٤) غافر ١٣.
(٥) النساء ٣.

السادسة : اعتبار ما سيكون في المستقبل ، كقوله تعالى : « إنّي أراني أعْصِرُ خمْراً » (١) ، فالخمر لايُعْصَرُ وانما يعصر العنب الذي سيؤول الى الخمر في المستقبل .

السابعة : المكانية والمحلية وهو ان يذكر مكان الشيء ومحل الكائن فيه والمراد من هذا الكائن وذلك الشيء كقوله تعالى : «فلْيَدْعُ ناديه» (٢) والمقصود من النادي في هذه الآية الكريمة ، القوم الذين يقيمون في النادي لان النادي مكان جلوسهم ومحل مشاورتهم .

الثامنة : الحاليّة ، وهو ان يذكر ما يحل في المكان ويستقر بمحل والمراد به المحل والمكان كقوله تعالى : « وأما الذين ابيضّتْ وجوهُهم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » (٣) ، فالمذكور هنا كلمة الرحمة ، والمقصود الجنة التي هي مكان الرحمة ومحلها يوم الآخر .

التاسعة : تسمية الشيء باسم آلته ، كقوله تعالى : « واجْعَلْ لي لسانَ صدْقٍ في الآخرين » (٤) أي ذِكْراً حسنا ، واللسان أداة الذكر .

العاشرة : تسمية الشيء باسم ضده ، كقوله تعالى : « فبَشِّرْهُمْ بعذاب أليم » (٥) والبشارة حقيقة في الخبر السار واطلق على ضده مجازاً .

الحادية عشرة : اللزومية : وهي اطلاق اسم الملزوم على اللازم ، كقوله تعالى : « أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يُشْرِكون » (٦) ، أي أنزلنا برهانا يستدلّون به وهو يدلّهم ، سمّى الدلالة كلاما ، لانها من لوازم الكلام ؛

---

(١) يوسف ٣٦ .
(٢) العلق ١٧ .
(٣) آل عمران ١٠٧ .
(٤) الشعراء ٨٤ .
(٥) آل عمران ٢١ .
(٦) الروم ٣٥ .

الثانية عشرة : الخصوص : وهي اطلاق اسم الخاص ، والمراد به العام كقوله تعالى : « هم العدوُّ فاحذَرْهم » (١) أي : الاعداء .

الثالثة عشرة : العموم : وهي اطلاق اسم العام ، والمراد الخاص ، كقوله تعالى : « الذين قال لهم الناسُ » (٢) ، فالمقصود بالناس في هذه الآية الكريمة – كما تذكر كتب أسباب النزول – شخص واحد هو نعيم بن مسعود الاشجعي .

تبيّن لنا هذه العلاقات وسواها مما تتبعها القدامى والمعاصرون (٣) ، أن المجاز المرسل فن متسع رحب ينبسط بين يدي الاديب البليغ ليعبّر عما يستجد في حياته من مدلولات وليجسد مشاعره وأفكاره بلا عائق من قيد لغوي غير الذوق السليم والاسلوب العربي الاصيل الذي ترسم شواهده الفنية أسس التعبير وسبيل التفنن .

---

(١) المنافقون ٤.

(٢) آل عمران ٧٣.

(٣) راجع كتاب فنون بلاغية ص١١١ –١١٨ حيث حلل الدكتور أحمد مطلوب احدى وعشرين علاقة عدا التفرعات الثمانية للعلاقة الحادية والعشرين علاقة إقامة صيغة مقام أخرى .

المبحث الثالث

المجاز العقلي

يتعلق المجاز العقلي في صورته العامة بالتركيب والجملة ،ويخرج عن دائرة الكلمة .ويحدثنا تاريخ (١) البلاغة العربية : ان القدامى من اللغويين والمشتغلين في دراسة فن القول قد انتبهوا الى هذا الضرب من المجاز وأوردوا بعض شواهده من آي الذكر الحكيم والشعر العربي وان لم يسموه بهذا الاصطلاح ولم يحرروا حده أو يحللوا أركانه ، وان عبد القاهر هو الرائد في هذا الميدان ،اذ أنه قد تناوله بالتفصيل ورسم حدوده وافاض في شرح المقصود منه .

بين المجاز العقلي واللغوي :

تبدأ الصورة التفصيلية للمجاز العقلي لدى عبد القاهر بتفريقه بينه وبين المجاز اللغوي قائلاً : «واعلم ان المجاز على ضربين ، مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمعقول ، فاذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا : «اليد» مجاز في النعمة ، «والاسد» مجاز في الانسان وكل ماليس بالسبع المعروف كان حكماً جريناه على ماجرى عليه من طريق اللغة لأنا اردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة اصلها الذي وقعت له ابتداءً في اللغة وأوقعها على غير ذلك اما تشبيهاً ، واما لصلة وملابسة بين مانقلها اليه ومانقلها عنه .

ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة وذلك ان الاوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل لايصح ردها الى اللغة ولا وجه لنسبتها الى واضعها ، لان التأليف هو اسناد فعل الى اسم ، أو اسم الى اسم وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم فلا يصير «ضرب» خبراً عن

(١) راجع : فنون بلاغية ٩٥ .

زيد بواضع اللغة بل بمن قصد اثبات الضرب فعلاً له (١) . وفي ضوء هذا النص وماتحدثنا عنه فيما مضى من حد ّ المجاز واقسامه يظهر أن ّ المجاز اللغوي الذي يجري في الكلمة ينقسم على اساس طبيعة العلاقة بين معنى الكلمة الحقيقي ومدلولها المجازي الى مجاز بالاستعارة إذا كانت تلك العلاقة مشابهة والى مجاز مرسل اذا كانت العلاقة ملابسة وصلة من الصلات التي حددنا طائفة منها في المبحث السابق :

اركان الجملة :

اما المجاز العقلي فهو يستمد مقوماته من الجملة ، ومن هنا حلل عبد القاهر بناء الجملة ، ونفهم من تحليله أن مدار الفائدة من الجملة يكون على الاثبات والنفي:

ان الخبر أول معاني الكلام وأقدمها ، والذي تستند سائر المعاني اليه وتترتب عليه وهو ينقسم الى هذين الحكمين. واذا ثبت ذلك فان الاثبات يقتضي مثبتا ومثبتا له، نحو أنك اذا قلت: «ضرب زيد» أو «زيد ضارب»، فقد اثبت الضرب فعلاً أو وصفاً ، وكذلك النفي يقتضي منفيا ومنفياً عنه فاذا قلت: «ماضرب زيد» و«مازيد ضارب» فقد نفيت الضرب عن زيد وأخرجته عن أن يكون فعلا له ؛ فلما كان الامر كذلك احتيج الى شيئين يتعلق الاثبات والنفي بهما فيكون احدهما مثبتا والاخر مثبتا له ، وكذلك يكون أحدهما منفيا والاخر منفيا عنه ، فكان ذانك الشيئان المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، وقيل للمثبت والمنفي «مسند» و«حديث» وللمثبت له والمنفي عنه «مسند اليه» و«محدث عنه» (٢) واذن فالجملة سواء أكانت اسمية أم فعلية مثبتة أم منفية تتألف من ثلاثة اركان متحدة في العقل:

أولها : الاثبات في الجملة المثبتة وهو الترابط بين المثبت والمثبت له ، والنفي في الجملة المنفية ، وهو نفي الترابط وسلبه عن المثبت والمثبت له ؛

وثانيها : المثبت في الجملة المثبتة والمنفي في الجملة المنفية ؛

(١) اسرار البلاغة ص ٣٧٦ .
(٢) اسرار البلاغة ص ٣٣٨ .

وفي هذه المساحة التي تقوم عليها اركان الجملة اثباتا ونفيا التمس عبد القاهر والبلاغيون الذين تقبلوه موضوع المجاز العقلي الذي تعاورته في تحليلات عبد القاهر. أربعة اصطلاحات هي المجاز العقلي ، والمجاز الحكمي ، والمجاز في الاثبات ، والاسناد المجازي .

وعلل ابن يعقوب المغربي تسميات هذه الاصطلاحات فقال: «ومن الاسناد مطلقاً مجاز عقلي ، لان حصوله بالتصرف العقلي ، ويسمى مجازاً حكمياً لوقوعه في الحكم بالمسند اليه ، ويسمى ايضاً مجازاً في الاثبات لحصوله في اثبات أحد الطرفين للآخر والسلب حقيقته ومجازه تابع لما يحقق في الاثبات ، ويسمى ايضاً اسناداً مجازياً نسبة إلى المجاز بمعنى المصدر ، لان الاسناد جاوز به المتكلم حقيقته وأصله إلى غير ذلك (١):

وأياً كان فان اعتماد اصطلاح المجاز العقلي دون سواه من تلك الاصطلاحات يجسد الفرق الرئيس الذي نوهنا به بين هذا الضرب من المجاز والمجاز اللغوي.

حد المجاز العقلي :

ويتجلى حد المجاز العقلي الذي تعرضنا له في مطلع هذا المبحث اذا ما وقفنا مع عبد القاهر وهو يحلل شواهده التي منها قوله تعالى : «فما ربحت تجارتُهم»(٢)؛ فالمجاز في هذه الآية الكريمة ليس في «ربحت» ولكن في اسنادها إلى التجارة. ومنها قول الفرزدق :

سقاها خروقٌ في المسامع لمْ تكُنْ عِلاطاً ولا مخبوطةً في الملاغم (٣)

فقوله : «سقاها خروق ليس التجوز في كلمة «سقاها» ولكن في ان اسندها إلى الخروق .

(١) مواهب المفتاح- شروح التلخيص -ج١ص ٢٣١، وفنون بلاغية ص ٩٦.
(٢) البقرة ١٦ .
(٣) علط الناقة : وسمها بالعلاط وهي صفحة العنق أو حبل يجعل في عنق البعير. الملغم : الفم والانف وما حولهما. والجمع : ملاغم.

أفلا ترى انك لاترى شيئاً منها الاّ وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته فلم يرد بـ«ربحت» غير الربح ولا بـ«سقت» غير السقي كما أريد في قوله: «وسالت بأعناق المطي الاباطح» (١) غير السيل.

ركنا المجاز العقلي :

والمجاز العقلي – شأنه شأن سائر اضرب المجاز – ينبغي ان يتوفر فيه رُكنان اساسيان هما : القرينة الدالة على ان في الجملة مجازاً والعلاقة التي تسوّغ ذلك المجاز في العقل والذوق .

اما القرينة فقد تكون لفظية كقول أبي النجم :

قد اصبحت أمّ الخيار تدّعي عليّ ذنباً كله لم أصنع
من أن رأت رأسي كرأس الاصلع ميز عنه قنزعاً عن قنزع (٢)
جذب الليالي : أبطئي أو أسرعي

فهذا مجاز بدليل قوله بعده :

أفناه قيلُ الله للشمس اطلعي حتى اذا وافاك أفق فارجعي

فهو قد اسند تمييز شعر رأسه واسقاطه إلى جذب الليالي على سبيل المثال بقرينة قوله :

أفناه قيلُ الله للشمس اطلعي حتى اذا وافاك أفق فارجعي

وقد تكون غير لفظية تتجلى في استحالة صدور الفعل من المسند اليه كقوله: «أتى بي الشوقُ إلى لقائك» و«سار بي الحنينُ إلى رؤيتك» و«بنى الإميرُ المدينة» (٣) .

ففي هذه الجمل لانصدق عقلاً أن «الشوق» فاعل للفعل «أتى»، وان «الحنين» هو الذي اجرى الفعل «سار»، وان «الأمير» هو الذي قام وحدة ببناء المدينة.

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٢٧.
(٢) القنزع: الشعر حوالي الرأس .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٢٨–٢٢٩.

أما العلاقة في المجاز العقلي فمتنوعة أشهرها (١) :

الاولى : المفعولية : فيما بُني للفاعل واسند إلى المفعول به الحقيقي نحو قوله تعالى : « عيشة راضية » (٢) فالراضية مبنية للفاعل وحقيقتها مرضية : وكقوله تعالى : « ماء دافق » (٣) أي مدفوق »

الثانية : الفاعلية : وهي على خلاف الاولى ، اذا بُني للمفعول وأسند للفاعل الحقيقي مثل « سَيْلٌ مُفْعَمٌ » لان السيل هو الذي يفعم ويملأ .

الثالثة : المصدرية : فيما بُني للفاعل واسند إلى المصدرمجازاً كقول أبي فراس الحمداني :

سيذكرني قومي اذا جَدّ جدُّهم وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البَدْرُ

فقد اسند « جدّ » إلى المصدر « الجد » وهو ليس بفاعل له ، بل فاعله الجادُّ »

الرابعة : الزمانية : فيما بُني إلى الزمان مثل « نهارُه صائمٌ وليلُه قائمٌ » ، اذ ان النهار لايصوم والليل لايقوم وانما يُصام في النهار ويُقام في الليل والفاعل الحقيقي هو الصائم والقائم ، وكقول الشاعر :

لقد لمتنا ياأُمَّ غيلانَ في السرى ونمْتَ وما ليل المطيِّ بنائمِ

فليل المطي لاينام وانما يُنام فيه :

الخامسة : المكانية : فيما بني للفاعل واسند للمكان ، كقوله تعالى : « وجعَلْنا الأنهارَ تجري من تَحْتهم » (٤) لانه مكان جري الماء وانما يجري مافيه وهو الماء ،

(١) راجع الايضاح ص٢٢، وفنون بلاغية ص ١٠٥ .
(٢) القارعة ٧
(٣) الطارق ٦.
(٤) الانعام ٦.

السادسة : السببية : فيما بني للفاعل واسند للسبب كقول الشاعر :

إني لمن معشر أفنى أوائلهم قيلُ الكماة : ألا أين المحامونا

والقيل لم يُفْنِ ، وانما الذي أفنى هو الشجعان ، وذكر القيل لانه السبب في دفع الكماة إلى المقاتلة والنزال بلا تردد .

أقسام المجاز العقلي :

صنف المجاز العقلي باعتبار طرفيه – المسند والمسند اليه – أربعة اقسام (1):

أولها : المجاز العقلي الذي طرفاه حقيقيان ، كقول الشاعر :

وشيّب أيامُ الفراق مفارقي وأنشزن نفسي فوق حيث تكون

الثاني : ما طرفاه مجازيان ، كقولنا : « أحيا الأرضَ شبابُ الزمان » .

الثالث : ما المسند فيه مجاز والمسند اليه حقيقة ، كقول الرجل لصاحبه : « أحياني رؤيتُك » أي : آنستني وسرّتني ، فقد جعل الحاصل بالرؤية من الانس والمسرّة حياة ، ثم جعل الرؤية فاعلة له ، ومثله قول أبي الطيب :

وتُحيي له المالَ الصوارمُ والقنا ويقتل ما تحيي التبسّمُ والجدا (2)

جعل الزيادة والوفور حياة المال ، وتفريقه في العطاء قتلا له ، ثم أثبت الاحياء فعلا للصوارم ، والقتل فعلا للتبسم ، مع ان الفعل لايصح منهما .

الرابع : ما يكون فيه المسند حقيقة والمسند اليه مجازاً كقولهم : « أنبتَ البقلَ شبابُ الزمان » فاسند إنبات البقل وهو حقيقة إلى شباب الزمان الذي هو مجاز .

---

(1) الايضاح ص٢٦.

(2) الصوارم : السيوف ، والقنا : جمع قناة ، وهي الرمح ، والجدا : العطاء.

الفصل الرابع
المجاز بالاستعارة
المبحث الاول
تعريفها واركانها

تعريفها :

إنّ كلمة الاستعارة لغةً مأخوذة من قولهم : « استعار المال : طلبه عارية »
أما اصطلاحاً فان تعريفها قد تقلب (١) على أيدي اللغويين والمصنفين للكتب العامة وعلماء البلاغة بين السعة لتشمل المجاز المرسل وبين القصور والفساد وعدم الدقة .

ولعل الجاحظ أول من عرف الاستعارة في ميدان الدراسات العامة بقوله : « الاستعارة تسمية الشئ باسم غيره اذا قام مقامه» (٢)؛
يستمد هذا التعريف مقوماته من المعنى اللغوي لكلمة الاستعارة ولا يوضح اركانها وخصائصها توضيحاً دقيقاً ؛

وتناول ابن المعتز الاستعارة لاول مرة في كتاب بلاغي متخصص وجعلها الباب الاول (٣) من ابواب البديع ، وأورد لها شواهد من آي الذكر الحكيم وأحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكلام الصحابة والعرب ؛
والاستعارة عنده هي : « استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء عرف بها»؛
وهذا التعريف على غموضه واتساعه يجمع في النصوص التي ساقها ابن المعتز

(١) فنون بلاغية ص١٢٢ .
(٢) البيان والتبيين ج١ص١٥٣ .
(٣) البديع ص٣ .

شتى التعبيرات التي مالت عن معانيها الحقيقية إلى مدلولات جديدة ، فضمت اليها المجاز بعض الوانه التي وضع البلاغيون بعده اليد عليها .

ويظهر هذا من أنه أورد قول الطائي يخاطب منزلا :

يامنزلاً أعطى الحوادثَ حُكْمَهَا لامَطْلٌ في عِدَةٍ ولا تسويفا
أرسى بناديك النـدى وتنفَّسَتْ نَفَسَاً بعقوتك الرياحُ ضعيفا
ولئن ثوى بك مُلْتَقِياً بجـيرانه ضيف الخطوب لقد أصاب مضيفا

ثم علّق عليها قائلاً : « المعنى انه أصاب موضعاً يضيف اليه فيه أي يميل اليه لان اهله قد فارقوه ومضيف محال لان البلد لايضيّف ولان الزمان لايحتاج وانما المعنى ان الزمان مال عليك فأصاب موضع محل ومنزل » (١) .

فهو في هذا النص يتحدث عن كلمة مضيف التي استعملها الشاعر فيما لم يعرف به من مدلول وهي مجاز مرسل علاقته المكانية في حين انه اوردها في باب الاستعارة مبيناً قرينتها التي من اجلها انصرف الذهن إلى أنها لم تستعمل في المعنى الذي عرفت به .

إن ابن المعتز لم يعرف الاستعارة تعريفاً دقيقاً يميزها عن المجاز بشتى انواعه ، وانما كان ذلك منه لطبيعة منهجه الادبي التاريخي الذي سعى في ضوئه إلى البرهان على أن فنون البديع لم يبتدعها الشعراء المحدثون من امثال بشار (٢) ومسلم وابي نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم بل جرت به افانين اللغة العربية منذ سالفات عهودها .

وتتجلى قيمة تعريف ابن المعتز للاستعارة على اساس منهجه ذاك في أنه نبّه على طائفة من النصوص أدار فيها اصحابها كلمات فيما لم تعرف به من قبل، فبين أنهم قد خرجوا على الذوق والسليقة العربية الاصيلة في صياغة الكلام فقال : « وهذا

(١) البديع ص٢٢.
(٢) البديع ص١.

وامثاله من الاستعارة مما عيب من الشعر والكلام وانما نخبر بالقليل ليعرف فيتجنب».

قال المهلب لرجل من الازد متى أنت ؟ قال : أكلت من حياة رسول الله صلى الله عليه ستين . فقال أطعمك الله لحمك . وقال عبيدالله بن زياد يوما ، وكانت فيه لكنة : افتحوا سيفي ، يريد سلّوه » (١) .

فذلك الازدي في قوله : «أكلت من حياة رسول الله صلى الله عليه ستين» شطّ بتعبيره هذا وخالف الحس اللغوي السليم فيما أثر عنه من التعبير عن المعاصرة والمصاحبة .وكذلك عبيد الله بن زياد لم يتقيل سنن العربية في التعبير عن المنازلة بالسيوف فعبّر عن جردها للقتال بما عرف عن غيرها من الاشياء التي تغلق ويوضع عليها الغطاء .

فان ابن المعتز قد وضع لاستعمال الكلمة فيما لم يعرف بها من مدلول قيوداً من العرف اللغوي والذوق السليم والاصالة العربية ، فرسم بذلك للاستعارة مدارها تعريفا واستعمالا وأتى عبد القاهر في ميدان الدراسات البلاغية فعرف الاستعارة تعريفا مميّزا به عن المجاز المرسل فقال : «الاستعارة ان تريد تشبيه الشيء بالشيء وتظهره وتجيء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه» (٢) .

فهو ههنا يقيم الاستعارة على اساس التشبيه ويضع الحد الفاصل بينها وبين المجاز المرسل الذي علاقته بالمعنى الحقيقي هي غير المشابهة فتصبح معه من المجاز اللغوي .

ان تعريف عبد القاهر الجرجاني هذا ليس جامعا شاملا ، وآية ذلك أنه حصر الاستعارة في المشبّه به الذي حذف من تشبيهه ركن المشبّه ، فقصر بذلك الاستعارة على احد ضربيها الذي هو الاستعارة التصريحية وأبعد عن التعريف الاستعارة المكنية التي هي تشبيه حذف منه المشبه به ، وقصور هذا التعريف وبما يعود الى ان صاحبه

---

(١) البديع ص٢٣ .
(٢) دلائل الاعجاز ص٥٣ .

كان يتردد فيها، فجعلها مجازاً عقلياً مرة ومجازاً لغوياً أخرى. وجعلها إياها من المجاز العقلي أو مما هي أقرب اليه يستند الى انه نظر الى تعريف ابن المعتز للاستعارة فرآها ليست «نقل اسم عن شيء الى شيء، ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء» (١) ؟

وأيا كان شأن هذا التعريف فان ربطه بين الاستعارة والتشبيه قد رسم له دائرة ضيقة وضع للسكاكي ومن تقيله (٢) من البلاغيين في اطارها حداً راسخاً للاستعارة لم تخرج عن مداه حتى ايامنا هذه فأصبحت تعرف بأنها: «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبّه في جنس المشبه به دالاً على ذلك باثباتك للمشبّه مايخص المشبّه به» (٣).

فهذا التعريف يجري في دائرة تعريف عبد القاهر ذاك متسعا بعض الشيء ليتلاقى قصوره ويضم اليه الاستعارة بضربيها المذكورين.

أركانها :

ان للاستعارة في تعريفاتها المختلفة أربعة أركان :

أولها : المستعار منه ، وهو المشبه به .

وثانيها : المستعار له ، وهو المشبّه .

وثالثها : المستعار ، وهو اللفظ المنقول والمستعمل فيما لم يعرف به من معنى .

ورابعها : القرينة اللفظية أو المعنوية التي تمنع أن يكون المقصود بالاستعارة معناها الذي ورد به المستعار منه .

---

(١) دلائل الاعجاز ص٣٣٣.

(٢) الايضاح ص٢٨٠.

(٣) مفتاح العلوم ص١٧٤.

ففي قوله تعالى : « حتى تأتيهم الساعةُ بَغتةً أو يأتيهم عذابُ يوم عقيم »(١) ، كلمة « عقيم » مستعارة ، والمستعار منه التي لاتجيء بولد ، والمستعار له هو إن ذلك اليوم لم يأتِ بمنفعة حين جاء ، ولم يبق خيراً حين مرّ ، والقرينة معنوية ذلك لان العقم من صفات المرأة .

وفي قول الرسول الكريم (ص) : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلّما سمع هيعة طار اليها » : فلفظ طار مستعار ، والمستعار منه الطيران ، والمستعار له الاسراع بقرينة أن الرجل لايطير .

وفي قول الافوه الأوديّ :

مُلّكنا مُلْكَ لَقاحٌ أوّلٌ وأبونا من بني أَوْدٍ خيارْ

لفظ «اللقاح» مستعار ، والمستعار منه لقاح الابل ، والمستعار له هو الاستغناء بما عندهم من العزّ عن غيرهم ، والقرينة معنوية .

بين التشبيه والاستعارة :

ان الجمع بين التشبيه والاستعارة في الكتب البلاغية وجعلهما بمثابة الاصل والفرع نتج عنه خلط بينهما لدى بعض علماء البلاغة ، وقد حكى ابن الاثير هذا الخلط قائلا : « على أن أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدي كان أثبت القوم قدماً في فنّ الفصاحة والبلاغة ، و ... وما أعلم كيف خفي عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الاداة ؟

من ذلك قول امريء القيس :

فقلت له لمّا تمطّى بصُلْبه وأردَفَ أعجازاً وناءَ بكلكلِ

وهذا البيت من التشبيه المضمر الاداة ، لان المستعار له مذكور — وهو الليل »(٢)،

---

(١) الحج ٥٥.

(٢) المثل السائر ج ٢ص١١٠.

وقد انبرى لفيف من علماء البلاغة لازالة دواعي ذلك الخلط وإقرار المفارقات العقلية والذوقية بين التشبيه والاستعارة ، من هؤلاء العلماء عبدالقاهر (١) والقاضي أبو الحسن الجرجاني (٢) والفخر الرازي (٣) :

وهذه المفارقات التي استقرت بصورة رئيسة على يدي عبدالقاهر تناولت الاستعارة التصريحية وتجنبت الاستعارة المكنية لعله ربما تعود إلى انه رآها لاتشابه منها التشبيه مثل التصريحية وانما تقوم على التوهم والتخييل :

ونحن اذ نعدّ الاستعارة المكنية تشبيها حُذف منه المشبه به وأقيم المشبه مقامه، نستطيع أن نطبق عليها تلك المفارقات التي هي :—

أولا : في الاستعارة يسقط ذكر المشبّه حتى لايعلم من ظاهر الحال أنك أردته مثل « عنّت لنا ظبية » والمقصود امرأة . أما التشبيه فهو أن تذكر كل واحد من المشبّه والمشبّه به ، مثل قول ابي نواس :

والحبُّ ظهرٌ أنتَ راكبه فإذا صرّفتَ عنانه انصرفا

فهذا البيت ليس فيه استعارة لان معناه أن الحب مثل ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت اذا ملكت عنانه .

ثانيا : ان حقيقة الاستعارة في اللغة والعادة بوضع الفرق بين اللفظين وذلك ان من شرط المستعار أن يحصل للمستعير منافعة من الحد الذي يحصل للمالك، اما في التشبيه فلا يقع ذلك الموقع ففي قولنا : « عنّت ظبية »يعقل من اطلاقه انا قصدنا الجنس المعلوم من الحيوان ولكن استعرناه للمرأة ، ولا يقع مثل هذا في قولنا « زيد أسد».

ثالثا : ان الحالة التي يختلف في الاسم اذا وقع فيها أيسمى استعارة أملا يسمى هي الحالة التي يكون الاسم فيها خبرمبتدأ أومنزلا منزلته كخبر «كان»أو

(١) راجع اسرار البلاغة ص٣١٩ ومابعدها وص٢٩٩ ومابعدها.
(٢) راجع الوساطة ص٤١.
(٣) راجع نهاية الايجاز ص٨٩.

المفعول الثاني لباب « علمت » أو الحال . والاسم في هذه المواضع يكون لإثبات معناه في مثل : « زيد منطلق » فالاسم هنا لإثبات الانطلاق لزيد ، في حين لا يكون مثل ذلك في « زيد أسد » لأننا لا نستطيع أن نثبت الجنسية لزيد على حقيقته .

ان هذه المفارقات اذا ما ضممنا اليها مفارقة عدم جواز ذكر اداة التشبيه وطرفي التشبيه معاً في الاستعارة وذكر الاداة وجواز حذفها ووجوب ذكر المشبّه والمشبّه به في التشبيه تشكل قواعد علمية منطقية للتمييز بين الاستعارة والتشبيه ، بيد ان اساس هذا التمييز كما نوّه به ابن الأثير ينبغي أن يؤسس على قضية ذوقية فنية ، ذلك إنك اذا أظهرت الاداة والمستعار له في الكلام ذهب حسنه ، ألا ترى إننا اذا أوردنا هذا البيت الذي هو :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسَقَتْ وَرْداً وعضَّت على العُنّاب بالبَرَدِ

وهو بيت فيه استعارة وقلت : وامطرت دمعاً كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، وسقت خداً كالورد وعضَّت على أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبرد صرنا إلى كلام غثٍّ لا طلاوة عليه .

أقسام الاستعارة :

لقد قسم البلاغيون (١) المتأخرون الاستعارة إلى اقسام كثيرة استهلها عبد القاهر **بتقسيمها** على اساس الافادة الى استعارة مفيدة واستعارة غير مفيدة(٢) ويريد بالمفيدة ماكان لنقلها فائدة ، ويريد بغير المفيدة مالا يكون لها فائدة في النقل ، وموضعها **حيث** يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق اريد به التوسع في اوضاع **اللغة والتنوّق** في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها كوضعهم للعضو **الواحد أسامي** كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان نحو وضع الشفة للانسان **والمشفر** للبعير والجحفلة للفرس .

(١) المثل السائر ج٢ص٧٥.

(٢) اسرار البلاغة ص٢٩.

وقسمت باعتبار مايذكر من الطرفين الى استعارة تصريحية واستعارة مكنية ،
وباعتبار تحقق المستعار لحسا وعقلا وعدم تحققه الى استعارة تحقيقية واستعارة تخييلية،
وصنفت باعتبار اللفظ المستعار الى استعارة اصلية وتبعية تصريحية وتبعية مكنية اذا كان المستعار اسما مشتقا ، أو اسما مبهما : وباعتبار مايتصل بها من الملائمات وعدم اتصالها الى استعارة مطلقة ومرشحة ومجردة . وبوبت باعتبار الجامع بين المستعار منه والمستعار له الى خمسة اقسام هي :

الاول : استعارة حسي لحسي بوجه حسي .

الثاني : استعارة حسيّ لحسيّ بوجه عقلي .

الثالث : استعارة معقول لمعقول والجامع أمر عقلي:

الرابع : استعارة محسوس لمقول بوجه عقلي :

الخامس : استعارة معقول لمحسوس لاشتراكهما في أمر عقلي :

وواضح من هذه التقسيمات أن معظمها يرجع الى المباحث التي عقدها علماء البلاغة لفن التشبيه متناولين مادة طرفيه أهي حسية أم عقلية أم وهمية والى طبيعتهما أهي جامدة مشتقة كما تعود الى الالوان وجه الشبه الجامع بين الطرفين تحققا وتخيلا وتوهما .

ونحن في المباحث القادمة سوف نتطرق من بين هذه التقسيمات الى مايتعلق بالمنهج المقرر متوخين إلقاء الضوء على التقسيمات الرئيسة التي لم يردلها ذكر في هذا المنهج :

المبحث الثاني

الاستعارة التصريحية

التصريح لغة واصطلاحا :

التصريح لغة :

مصدر منه الفعل صرّح بكذا (١) اذا اظهره . واصطلاحا يأتي صفة لأحد ضربي الاستعارة وهو الاستعارة التصريحية التي حدّها البلاغيون بقولهم : هي ما صرّح فيها بلفظ المشبّه به دون المشبّه .

وقد تسمّى هذه الاستعارة مصرحة أو تحقيقية ، ولفظ المصرحة هو من مادة التصريح ويدل على ما تدل عليه من أن المستعار مذكور ومنصوص عليه : اما الحقيقة : «فمن تحقق معنى المستعار حسّاً أو عقلاً أي : التي تتناول أمراً معلوماً يمكن أن ينص عليه ويشار اليه اشارة حسيّة أو عقلية ، فيقال : ان اللفظ نقل من مسمّاه الاصلي ، فجعل اسما له على سبيل الاعارة للمبالغة في التشبيه .

اما الحسي فكقولك «رأيت أسداً» وأنت تريد رجلا شجاعا ، وعليه قول زهير :

لَدَى أسَدٍ شاكي السلاح مُقَذَّفٍ له لِبَدٌ أظفاره لم تُقَلَّمِ (٢)

واما العقلي : فكقولك : « أبديت نوراً » وأنت تريد «حجة» فان الحجة مما يدرك بالعقل من غير وساطة حس" ، اذ المفهوم من الالفاظ هو الذي ينوّر القلب ويكشف عن الحق ، لا الالفاظ أنفسها ؛ وعليه قوله تعالى : «اهدنا الصراط المستقيم» (٣) أي : الدين الحق (٤) :

---

(١) اساس البلاغة (صرح)

(٢) شاكي السلاح :قويه، مقذف : شجاع. لبد: جمع لبدة بين كتفي الاسد. أظفاره لم تقلم :عزيز منيع قوي، بطريق الكناية.

(٣) الفاتحة ٦.

(٤) الايضاح ص٢٧٨.

قسما الاستعارة التصريحية :

قسّم المتأخرون الاستعارة التصريحية باعتبار طرفيها — المستعار والمستعار له — أو المشبّه والمشبّه به الى قسمين :

اولهما: الاستعارة التصريحية الوفاقية وهي التي يمكن اجتماع طرفيها في شيءٍ واحد لعدم التنافي ، مثل : اجتماع الحياة والهداية في كلمة «أحياء» التي جاءت في قوله تعالى : «أوَ مَنْ كان مَيْتاً فأحييناه ؟» (١) فالمراد بـ«أحييناه» هديناه أي : أو من كان ضالا فهديناه ؟ والهداية والحياة لاشك في جواز اجتماعهما في شي (٢).

وثانيهما : الاستعارة التصريحية العنادية وهي التي لايمكن اجتماع طرفيها في شي واحد لتنافيهما كاجتماع الموت والضلال كما في الآية السابقة : «أو من كان ميتا فاحييناه» أي ضالا فهديناه . فكلمة «ميتا» استعارة تصريحية عنادية اذ شبّه الضلال بالموت ، بجامع ترتب نفي الانتفاع في كل ، واستعير الموت للضلال ، واشتق من الموت بمعنى الضلال ، «ميتا» بمعنى «ضالا» ، وهي عنادية ، لانه لايمكن اجتماع الموت والضلال في شيءٍ واحد ؟

والاستعارة العنادية في ضوء السياق والقرينة ربما تكون تمليحية ، أي المقصود منها التمليح والظرافة . وقد تكون تهكمية — أي المقصود منها التهكم والاستهزاء — بأن يستعمل اللفظ الموضوع لمعنى في ضده ونقيضه : نحو قولك للذميم تمدحا رأيت بدراً ، ونحو قوله تعالى : «فبشّرهم بعذاب أليم» (٣) أي : انذرهم فاستعيرت البشارة التي هي الخبر السار ، للانذار الذي هو ضده بادخال الانذار في جنس البشارة على سبيل التهكم والاستهزاء

(١) الانعام ١٢٢.

(٢) راجع الايضاح ص٢٨٩.

(٣) آل عمران ٢١.

المبحث الثالث
الاستعارة المكنية

المكنية لغة واصطلاحا :

المكنية لغةً : اسم مفعول من كنى بمعنى أخفى وستر ، واصطلاحاً هي صفة مميزة للضرب الثاني من الاستعارة الذي سمّاه القزويني الاستعارة بالكناية ايضا وحدّه قائلا : « قد يضمر التشبيه في النفس ، فلا يصرّح بشيء من اركانه سوى لفظ المشبّه ، ويدل عليه (١) بأن يثبت للمشبّه أمر مختص بالمشبه به ، من غير أنّ يكون هناك أمر ثابت حسّاً أو عقلا أجري عليه اسم ذلك الامر فيسمى التشبيه استعارة بالكناية ، أو مكنيّا عنها ، واثبات ذلك الامر للمشبه استعارة تخييلية والعلم في ذلك قول لبيد :

وغـداةِ ريـحٍ قـد كَشَفْتُ وقِرّةٍ اذ أصبحت بيد الشمال زمامُها (٢)

فانه جعل للشمال يداً ، ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حسا أو عقلاً تجري اليد عليه ، كاجراء الاسد على الرجل الشجاع ، ولكن لما شبّه الشمال - لتصريفها لقرّة على حكم طبيعتها في التصريف - بالانسان المصرّف لما زمامه بيده ، أثبت لها يداً على سبيل التخييل ، مبالغة في تشبيهها به ، وحكم الزمام في استعارته مقرّة - حكم اليد في استعارتها للشمال ، فجعل للقرّة زماما ، ليكون أتمّ في اثباتها مصرّفة ، كما جعل للشمال يداً ، ليكون أبلغ في تصييرها مصرّفة فوفّى المبالغة حقّها من الطرفين (٣) ».

---

(١) عليه: أي على التشبيه المضمر في النفس .

(٢) كشفت :هزمت وأزلت وتغلبت عليها .

قرة :قر : برد. الشمال: الريح الهابة من جهة الشمال. وهي أبرد الرياح .

زمامها: قيادها .

(٣) الايضاح ص٣٠٩ .

لازم الاستعارة المكنية :

لقد اعتمد المعاصرون حدّ القزويني ذاك للاستعارة المكنية وتحليله لشواهده ، فاستخلصوا تعريفا قوامه حذف طرف المشبه به من التشبيه مؤكدين أن الاستعارة المكنية أو بالكناية : « هي التي اختفى فيها لفظ المشبه به واكتفي بذكر شيء من لوازمه دليلا عليه » (١) :

ومن هنا فان استكمال صورة الاستعارة المكنية لدى القزويني ألزمه بتتبع لازم المشبه به المحذوف وعلاقة هذا اللازم بعملية التشبيه فقال : «واعلم أن الامر المختص بالمشبّه به المثبت للمشبه ، منه مالا يكمل وجه الشبه في المشبه به بدونه ، كما في قول أبي ذؤيب الهذلي :

وإذا المنيّةُ أنشبَتْ أظفـارَهـا ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لاتنْفَعُ (٢)

فانه شبّه المنية بالسبع ، في اغتيال النفوس بالقهر والغلبة ، من غير تفرقة بين نفّاع وضرّار ، ولا رقة لمرحوم ، ولابقيا على ذي فضيلة ، فأثبت للمنية الاظفار التي لايكمل ذلك في السبع بدونها ، تحقيقا للمبالغة في التشبيه .

ومنه مابه يكون قوام وجه الشبه في المشبه به ، كما في قول الاخر :

ولئن نطقتُ بشكرِ برّكَ مُفْصِحاً فلسانُ حالي بالشكاية أنْطَقُ

فانه شبّه الحال الدالة على المقصود بانسان متكلم في الدلالة ، فأثبت لها اللسان الذي به قوام الدلالة في الانسان (٣) »

ان ماجعله القزويني استعارة تخييلية ينبغي أن يرافق الاستعارة المكنية ويأتي معها ويبرز في سياقها ، ذلك لانه يكمل وجه الشبه في المشبه به وينتصب قواما له في كيانه ، وهو يرتبط من خلاله بالمشبه :

---

(١) فنون بلاغية ص١٣٣.

(٢) التميمة : الخرزة وشبهها يستدفعون بها الآفات ويتعوذون بها من شر العين.

(٣) الايضاح ص٣١٠.

السكاكي والاستعارة التخييلية :

ان هذه النتيجة منطقية مادامت الاستعارة المكنية هي أحد طرفي التشبيه المضمر بيد أن السكاكي نظر الى الاستعارة التخييلية نظرة أخرى وفسرها وبما استعمل في صورة وهمية محضة قدّرت مشابهة لصورة محققة هي معناه كلفظ الاظفار في قول الهذلي ، فانه لمّا شبّه المنية بالسبع في الاغتيال على ماتقدم ، أخذ الوهم في تصويرها بصورته ، واختراع مثل مايلائم صورته ويتم به شكله لها ، من الهيئات والجوارح ، وعلى الخصوص مايكون قوام اغتياله للنفوس به ، فاخترع للمنية صورة مشابهة لصورة الاظفار المحققة ، فأطلق عليها اسمها (١) .

حقيقة الاستعارة التخييلية :

ردّ القزويني على تفسير السكاكي هذا بوجوه عقلية ومنطقية أقنعت معظم الباحثين المعاصرين برأيه ، ولكننا نستند إلى ما انعقد عليه رأي جمهور البلاغيين من أن الاستعارة المكنية والاستعارة التصريحية كلتيهما تشبيه مختصر ، ونستذكر مابيّناه من أن الاستعارة التخييلية عند هؤلاء الجمهوريين لازم المشبه به المحذوف من التشبيه الذيهو اساس الاستعارةالمكنية فنقرر مطمئنين أن الاستعارة التخييلية ليس لها كيان مستقل وانها قرينة الاستعارة المكنية (٢) .

وعليه فلا داعي في رأينا من اقامة الاستعارة التخييلية ضَرْباً ثالثا نضيفه إلى ضربي الاستعارة : التصريحية والمكنية وتفرّع ونصحّح الاقسام بلا اساس من حقيقة الشواهد الادبية والفنون التعبيرية .

غرض الاستعارة المكنية :

ان النصوص التي جرت بالاستعارة المكنية قد اعتمدتْها أداة فنية لتحقيق أحد غرضين حسب طبيعة المشبه به المحذوف ولازمه المثبت للمشبه :

---

(١) الايضاح ص٣١٣.

(٢) راجع فنون بلاغية ص١٣٨.

أول هذين الغرضين هو تجسيد الامور المعنوية وابرازها للحس في كيان مادي ملموس من ذلك قوله تعالى في تجسيد ذل الولد لوالديه : « واخْفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ من الرحمة وقُلْ ربِّ ارْحمهما كما ربياني صغيرا » (١) .

فالذُّل في هذه الآية الكريمة يتجسد في هيئة ماله جناح خفيض ويبرز للعيان في أضعف صورة ارتضاه الله تعالى للولد تعبيراً للطاعة والبر .

ومنه قول الامام علي (رضي) في كتابه إلى ابن عبّاس وهو عامله على البصرة في بعض كلامه : «أرغب راغبَهم واحلل عقد الخوف عنهم » (٢) .

فالخوف في هذه الرسالة استعارة مكنية ، اذ شبهت بما ينعقد من المواد ويلتف حول الاعناق ثم حذف هذا المشبه به ورمز اليه بكلمة العقد التي هي من لوازمه وثبتت هذه العقد إلى الخوف فتجسد في هيئة قيد يغل الاعناق والايدي ويمنع الناس عن الحركة ، واذن فلا بدّ أن تحل هذه العقد ليعود اولئك الناس إلى التجاوب والعمل .

وثاني الغرضين : هو تشخيص الجمادات وبث الحياة فيها ومنحها الحركة بشتى مظاهرها ، من ذلك قول أشجع :

وجاريةٍ لم تَسْرِقِ الشمسُ نظرةً اليها ولم يَعْبَثْ بأيامها الدَّهْرُ

فالشمس التي هي من الجمادات تتشخص في حركات من له نظر ، ومع ذلك فهي لم تستطع أن ترى تلك الجارية وتكحل عينيها بجمالها .

---

(١) الاسراء ٢٤ .

(٢) البديع ص٤ .

المبحث الرابع

الاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة

أولع البلاغيون المتأخرون (١) بتقسيمات الاستعارة وتفريع أنواعها ، فتعقبوها في خارج اركانها الاربعة التي هي المستعار منه والمستعار والمستعار له والقرينة ، ووقفوا بها مع الملائمات التي تذكر للمستعار منه أو للمستعار له أو لكليهما أو يهمل ذكره فقسموها في ضوء أحد هذه الاعتبارات الى ثلاثة أضرب :

اولها الاستعارة المرشحة :

ان الترشيح لغةً يعني التعضيد والتقوية ، واصطلاحا هو أن يقرن اللفظ المستعار بملائم المستعار منه «أي المشبّه به» كقوله تعالى : «أولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهدى فما ربحتْ تجارتُهم » (٢) ، فكلمة «اشتروا» استعارة بقرينة الضلالة اذ ان الضلالة ليست مما يباع ويشترى ، والمستعار له هو الاستبدال والاختيار ، ثم رشحت هذه الاستعارة وقويت بذكر ما يلائم المستعار منه من الربح والتجارة .

ثانيها : الاستعارة المجردة :

المجردة لغةً اسم مفعول من الفعل جرّد بمعنى قشّر ونزع وسلب (٣) .
واصطلاحا هو أن يقرن اللفظ المستعار بوصف المستعار له أي المشبه وملائمه وذلك لتجريده عن بعض المبالغة ، وسلبه ما يجعل المشبه به متحداً مع المشبه كما هو أساس الاستعارة المرشحة والمطلقة ، من ذلك قول كثير :

غَمْرُ الرداء ، اذا تبسّم ضاحكاً غلقتْ لضحكته رقابُ المال (٤)

فإنه استعار الرداء للمعروف ، لانه يصون عرض صاحبه كما يصون الرداء ما يلقى عليه ،

---

(١) راجع الايضاح ص٣٠٠ .
(٢) البقرة ١٦ .
(٣) القاموس المحيط (جرد) .
(٤) غمر : كثير ، أو واسع . الرداء : العطاء الشبيه بالرداء في صون العرض وستر العيوب غلقت : انتقل ملكها إلى ايدي السائلين ، كما ينتقل ملك الرهن إلى المرتهن اذا غلق ، أي عجز صاحبه عن افتكاكه .

ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف لا الرداء ، فنظر الى المستعار له ؛ وعليه قوله تعالى : «فأذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ» (١) حيث قال : «أذاقها» ولم يقل «كساها» فإن المراد بالإذاقة اصابتهم بما استعير له اللباس ، كأنه قال : فأصابها الله بلباس الجوع والخوف (٢) :

ثالثها : الاستعارة المطلقة :

والمطلقة لغة اسم مفعول من الفعل أطلق بمعنى ارسل ولم يقيد : واصطلاحا صفة للاستعارة التي لم تقترن بما يلائم المستعار منه أو بما يلائم المستعار له ، كقوله تعالى : «قال ربِّ إني وَهَنَ العظمُ مني واشتعل الرأسُ شيباً» (٣) فلفظ اشتعل مستعار والمستعار له الشيب الذي شبهه بشواظ النار في بياضه وانارته وانتشاره في الشعر وفشوّه فيه واخذه منه كل مأخذ باشتعال النار (٤) . وكلمة الشيب قرينة الاستعارة «اشتعل» واذ لم يذكر في الآية ما يلائم المستعار منه الذي هو الاشتعال وملائم المستعار له الذي هو انتشار الشيءُ عــلى ذلك النحو فإن هذه الاستعارة مطلقة : واذا ذكر ملائم المستعار منه وملائم المستعار له معاً ، فان تلك الاستعارة تعدّ مطلقة ايضا كقول زهير بن أبي سلمى :

لدى أسدٍ شاكي السلاحِ مقذّفٍ   له لبدٌ أظفارُه لم تُقلَّمِ

فكما مرَّ بنا استعار الشاعر لفظه الاسد للرجل الشجاع وقد ذكر ما يلائم المستعار له في قوله «شاكي السلاح مقذف» فجرده ثم ذكر ماينا سب المستعار منه في قوله «له لبد أظفاره لم تقلم» فرشحه ، واجتماع التجريد والترشيح يؤدي الى تعارضهما وتناقضهما فكأن الاستعارة لم تقترن بشيءٍ ، وتكون في صورة المطلقة ورتبتها من قوة المبالغة .

---

(١) النحل ١١٢ .
(٢) الايضاح ص٣٠١ .
(٣) مريم ٤ .
(٤) الكشاف ج٣ص٤ .

المبحث الخامس

الاستعارة التمثيلية

يتخذ مبحث الاستعارة التمثيلية مقومات موضوعة بالموازنة مع الاستعارة المفردة التي تقع في غير الصورة المركبة من متعدد والمنتزعة من أمور في، هيئة ، وقد تعددت في كتب البلاغة المصطلحات الدالة عليه ، فذكر منها القزويني (١) « المجاز المركب » والتمثيل على سبيل الاستعارة والتمثيل مطلقا ونصّ على أنه متى فشا استعماله كذلك سمي مثلاً .

تعريفها :

حد الاستعارة عند القدماء والمعاصرين (٢) هو اللفظ المركب المستعمل فيما شبّه بمعناه الاصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالاخرى ، ثم تدخل المشبّهة في جنس المشبّه بها، مبالغة في التشبيه ، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه : كقوله تعالى : « والارضُ جميعاً قبضتُهُ يومَ القيامة (٣) » اذ المعنى — والله اعلم — أن مثل الارض في تصرفها تحت أمر الله تعالى وقدرته مثل الشيء يكون في قبضة الآخذ له منّا ، والجامع يده عليه » (٤).

ففي بيان معنى تلك الآية الكريمة شبهت صورة ثم حذفت صورة المشبّه وأداة التشبيه وبقيت صورة المشبه به على سبيل الاستعارة التمثيلية وكقول الرسول الكريم رواية عن أبي هريرة : « إنَّ أحدكم اذا تصدق بالتمرة من الطيّب — ولا يقبل الله الا الطيّب — جعل الله ذلك في كفه ، فيربّيها كما يربّي أحدكم فلوه ، حتى يبلغ بالمرة مثل أحد » (٥) ؛

(١) راجع الايضاح ص٣٠٤.

(٢) الايضاح ص٣٠٤، فنون بلاغية ص١٤٣.

(٣) الزمر ٦٧.

(٤) الايضاح ص٣٠٥.

(٥) فلوه : مهره على وزن «شلو» أو «عدو» أو «سمو» .

والمعنى في المثلين على انتزاع الشبه من المجموع . (١)

مضان الاستعارة التمثيلية :

ان الاستعارة التمثيلية كثيرة الجريان في الامثال نحو: « الصيف ضيعتَ اللبن » يضرب لمن فرّط في تحصّيل أمر في زمن يمكنه الحصول عليه فيه ، ثم طلبه في زمن لايمكنه الحصول عليه فيه .

وكما يقال لمن يعمل في غير معمل : «أراك تنفخ في غير فحم ، وتخطّ على الماء » والمعنى : انك في فعلك كمن يفعل ذلك ، وكما يقال لمن يعمل الحيلة حتى يميل صاحبه الى ما كان يمتنع منه «ما زال يفتل منه في الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد » والمعنى أنه لم يزل يرفق بصاحبه رفقا يشبه حاله فيه حال مَنْ يجيءُ الى البعير الصعب ، فيحكّه، ويفتل الشعر في ذروته وغاربه حتى يسكن ويستأنس(٢):

وفي قول الشاعر :

متى يبلغُ البنيانُ يوماً تمامَهُ اذا كُنْتَ تبنيه وغيرُكَ يَهْدِمُ

استعارة تمثيلية ايضاً اذ شبهت حال المصلح يجهد نفسه في الاصلاح ثم يأتي غيره فيبطل ثمار جهده بحال البنيان ينهض به حتى اذا اوشك أن يتم جاء من يهدمه ، ووجه الشبه بين هاتين الحالتين هو الحالة الحاصلة من عدم الوصول الى الغاية لوجود ما يفسد على المصلح جهوده الاصلاحية ثم حذف المشبه واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبّه وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية :

---

(١) الايضاح ص٣٠٧ .

(٢) راجع الايضاح ص٣٠٥.

المبحث السادس
بلاغة الاستعارة وسرّ جمالها

تحدث السلف من البلاغيين والباحثون المعاصرون عن بلاغة الاستعارة وسرّ جمالها ، وحديث القوم في هذا الجانب النقدي البلاغي من جوانب موضوع الاستعارة ربما يأتي عاما مطلقا مادام مدبجوه يستقبلون الاستعارة أداة فنية للتصوير ويلمسونها لغة مجنحة للتخييل .

مدار بلاغة الاستعارة وجمالها .

ويتقيد هذا الاطلاق ويتخصص ذلك العموم لدى بعض البلاغيين والنقاد القدامى في موضوعين :

اولهما : تقسيم الاستعارة باعتبار الجامع بين المستعار منه والمستعار له الى قسمين هما : الاستعارة العامية والاستعارة الخاصية ، فالعامية المبتذلة لظهور السامع فيها ، كقولك : «رأيتُ أسداً » ، ووردتُ بحراً» . والخاصية الغريبة التي لايظفر بها إلاّ من ارتفع عن طبقة العامة كقول طفيل الغنوي :

وجعلت كُوري فوق نـاجيـة يقتاتُ شحْمَ سنامِها الرحلُ (١)

وموضع اللطف والغرابة منه أنه استعار الاقتيات لاذهاب الرحل شحم السنام، مع ان الشحم مما يقتات (٢)؛

وعلى اساس هذا التقسيم فان الاستعارة العامية التي يدنو فيها وجه الشبه من الطالب حتى يلمسه في أحاديثه اليومية وعباراته العابرة لايمكن أن تكون بليغة مؤثرة وأن البلاغة واسرار الجمال تكمن في الاستعارة التي يصعد وجه الشبه على أجنحتها في مراقي التخييل ويبعد عن المألوف المبتذل ؛

(١) الكور: الرحل، الناجية :الناقة السريعة تنجو براكبها.
(٢) راجع الايضاح ص٢٩٢.

ثانيهما : ترسيخ الاسس الفنية من الذوق السليم والحس اللغوي المرهف والاستعمال العرفي الاصيل :وهذا الموضع ربما يبدو معاكسا في نتائجه وأهدافه للموضع الاول لان الذين كتبوا فيه لم يروا الاستعارة المنطلقة بلا قيود وبلا حدود بليغة ؟

أسس الاستعارة البليغة الجميلة :

والحقيقة ان تقويم هذه الاسس في تحديد الاجواء التي تحلّق فيها الاستعارة مسألة تاريخية ترجع بجذورها الى حركة شعر المولّدين والمحدثين التي أثمرت صوراً بيانية واساليب تعبيرية خرجت على عمود الشعر العربي فتحزّب ازاءها علماء اللغة والنقاد والبلاغيون فريقين ، فريق يناصرها ويشد من أزر متقبليها وفريق يندد بها وينتقص من ملكات مبتدعيها . وفيما يتعلق الامر من هذه المسألة ببلاغة الاستعارة فقد تصدّى الآمدي لاستعارات أبي تمام المفرطة في الانطلاق والاغراب مرجماً وسامياً بتصديه الاسس الذوقية واللغوية والعرفية للاستعارة البليغة الجميلة :

ومن صور تصديه هذا أنه أورد قول ابي تمام :

لم تُسْقَ بعد الهوى ماءً أقلّ قذًى من ماءِ قافيةٍ يسقيكه فَهِمُ

ثم علّق عليه قائلا : «فجعل للقافية ماء على الاستعارة فلو أراد الرونق لصلح ولكنه قال : «يسقيكه » فسد معنى الرونق.، لانك اذا قلت : «هذا ثوب ماء » فاللفظ له ماء، لم تجعل الماء مشروبا على الاستعارة فتقول : «ما شربت ماء أعذب من ماء ثوب شربته عند فلان» و« رأيته على فلان »وكذلك لا تقول : «ما شربت ماء اعذب من ماء قفا نبك»أو «أعذب من قصيدة كذا » ، لانَّ للاستعارة حداً تصلح فيه فاذا جاوزته فسدت وقبحت » (1) ؟

ففي هذا النص يرى الآمدي حدّاً للاستعارة التي تصلح ذوقاً ولا تفسد لغة وعرفا .

---

(1) الموازنة ج١ص٢٥٩ .

سر بلاغة الاستعارة وجمالها :

ولعل عبد القاهر هو البلاغي القديم الذي تمكن أن يرسم لبلاغة الاستعارة وجمالها مضمارها الحقيقي بالتماس هذا المجال وتلك البلاغة في النظم الذي يجمع الاستعارة بناءً فنياً متكاملا مع سائر الالفاظ التي وردت في تركيبها فقد اشار إلى ضربي الاستعارة العامي المبتذل والخاصي النادر وأكّد على أن الضرب الثاني لايوجد إلاّ في كلام الفحول ، ولا يقوى عليه الاّ افراد الرجال كقول الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت باعناق المطيّ الاباطحُ

أراد انها سارت سيراً حثيثا في غاية السرعة ، وكانت سرعة في لين وسلامة كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الاباطح فجرت بها ، ومثل هذه الاستعارة في الحسن واللطف وعلو الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول الآخر :

سالت عليه شِعابُ الحيِّ حين دعا أنصارَهُ بوجوه كالدنانير

أراد انه مطاع في الحي ، وأنهم يسرعون إلى نصرته ، وانه لايدعوهم لحرب أو نازل خطب ، الاّ أتوه وكثروا عليه ، وازدحموا حواليه ، حتى تجدهم كالسيول تجيء من ههنا وههنا ، وتنصب من هذا وذلك حتى يغص بها الوادي ويطفح منها.

ومن بديع الاستعارة ونادرها ــ الاّ ان جهة الغرابة فيه غير جهتها في هذا قول يزيد بن مسلمة بن عبدالملك يصف فرسا له ، وأنه مؤدب ، وأنه اذا نزل عنه والقى عنانه في قربوس سرجه وقف مكانه إلى ان يعود اليه :

عوَّدتُه فيما أزورُ حبائبي إهمالَه ، وكذاك كلُّ مخاطِرِ

واذا احتبى قَرَبُوسَه بعِنانه علكَ الشكيمَ إلى انصراف الزائرِ

فالغرابة ههنا في الشبه نفسه ، وفي ان استدرك أن هيئة العنان في موقعه من

قربوس السرج ، كالهيئة في موقع الثوب من ركبتي المحتبي (١). وليست الغرابة في قوله : «وسالت باعناق المطي الاباطح» على هذه الجملة ، وذلك انه لم يغرب لان جعل المطي في مرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الابطح ، فان هذا شبه معروف ظاهر ، ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها بأن جعل «سال» فعلا للاباطح ثم عداه بالباء ، ثم بأن ادخل الاعناق في البيت فقال «بأعناق المطي» ولم يقل بالمطي ، ولو قال : «سالت المطي في الاباطح» لم يكن شيئاً .

وكذلك الغرابة في البيت الآخر ، ليست في مطلق معنى سال ، ولكن في تعديته بعلى والباء ، وبأن جعله فعلا لقوله «شعاب الحي» . ولولا هذه الامور كلها لم يكن هذا الحسن (٢) .

ففي هذا النص يتجلى لنا في ضوء منهج تحليلي موازن أن الاستعارة لن تكون بليغة جميلة بذاتها وبلفظها المفرد وأن ما يعد منها عاميا مبتذلا اذا ما تناوله الشاعر الفنان في نظم دقيق وبناء رصين استوى خاصيا نادراً

وعلى هذا الاساس فانه رأى أن اللفظ المستعار بعينه يبدو بليغا آخذاً بمجامع القلوب في بيت من الابيات ثم يظهر قبيحاً سمجا ينبو عنه الذوق في بيت آخر .

وفي يقيننا أن ما ذهب اليه عبد القاهر في تقويم بلاغة الاستعارة وبيان سر جمالها يمثل دعوة نقدية اساسها النظر الشامل في النص الادبي وتلمس وشائج اللفظ المستعار الممتدة في نفس مبدعها والمتداخلة مع الالفاظ المتكاتفة في سياقها لرسم الصورة بالخطوط والالوان والاشكال والحجوم .

شروط حسن الاستعارة:

ان المؤرخ للبلاغة العربية لايكاد يلمس صدى هذه الدعوة العلمية الفنية بشكل واضح فيمن جاء بعد عبد القاهر من البلاغيين بل ان بعض هؤلاء البلاغيين من امثال

(١) التشبيه هنا واقع بين مفردين باعتبار ماتضمنه كل منهما من الهيئة لا أنه واقع بين هيئتين وفي «احتبى» استعارة تبعية من اطلاق الاحتباء على القاء العنان .

(٢) دلائل الاعجاز ص٥٩ – ٦٠ .

السكاكي ومن تتبع خطاه قد حولوا دراسة بلاغة الاستعارة وسر جمالها الى وصايا ونصائح مقننة في قواعد .

فقد تصدى السكاكي نفسه لهذه المسألة الذوقية الفنية بقوله : «فاعلم ان الاستعارة لها شروط في الحسن ان صادفتها حسنت وإلاّ عَرِيت عن الحسن ، وربما اكتسبت قبحا وتلك الشروط رعاية جهات حسن التشبيه ... بين المستعار له والمستعار منه في الاستعارة بالتصريح التحقيقية والاستعارة بالكناية وأن لاتشمها في كلامك من جانب اللفظ رائحة من التشبيه ولذلك نوصي في الاستعارة بالتصريح أن يكون الشبه بين المستعار له والمستعار منه جليا بنفسه أو معروفا سائراً بين الاقوام والاّ خرجت الاستعارة عن كونها استعارة ودخلت في باب التعمية والالغاز كما اذا قلت : « رأيت عوداً مسقيا أوان الغرس» وأردت انسانا مؤدبا في صباه أو قلت: «رأيت ابلا مائة لاتجد فيها راحلة»وأردت الناس ، واما حسن الاستعارة التخييلية فبحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت تابعة لها كما في قولك فلان بين أنياب المنية ومخالبها ثم اذا انضم اليها المشاكلة كما في قوله عزّ اسمه : « يَدُ اللّهِ فوقَ أيديهم»(١) كانت احسن وأحسن وقلما تحسن الحسن البليغ غير تابعة لها ولذلك استهجنت في قول الطائي :

لاتَسْقِني ماءَ الملامِ فانني صبٌّ ، قد استعذبْتُ ماءَ بكائي (٢)

المظاهر الحقيقية لبلاغة الاستعارة وجمالها :

ولعلنا نلاحظ هنا ان قواعد بيان حسن الاستعارة بالاضافة إلى ما قدمنا تغفل قضية الابداع في صياغة الاستعارة وتهمل دور الخيال في اتخاذها وسيلة للتعبير بالتصوير والتأثير بشحناتها النفسية ومومضاتها الحسية والفكرية النابعة عن التجربة الصادقة .

والاستعارة (٣) بعد ذلك تفيد شرح المعنى وتفعل في النفس مالا تفعل الحقيقة ، وتفيد تأكيد المعنى والمبالغة فيه والايجاز وتحسين المعنى وابرازه ، ثم هي إلى جانب ذلك كله طريق للتوليد والتجديد ، لانها تكشف عن صور جديدة ومعان بديعة .

---

(١) الفتح ١٠.

(٢) مفتاح العلوم ص١٨٣.

(٣) راجع فنون بلاغية ص١٦٠.



الفصل الخامس
الكناية والتعريض
المبحث الاول
الكناية وأنواعها

الكناية لغة :

الكناية : هي مصدر وفعله ثلاثي جاءت لامه ياء وواوا ، فقيل كنى يكني وكنا يكنو : وذكر ابن منظور في كنى (١) ثلاثة اوجه :

أحدها : أن يكنى عن الشيء الذي يستفحش ذكره .

والثاني : أن يكنى الرجل باسم توقيراً وتعظيما :

والثالث : أن تقوم الكنية مقام الاسم فيعرف بها :

وتلتقي هذه الاوجه الثلاثة في مادة كنى معنى لغويا رئيسا هو أن لانعبر عن الشيء بظاهر ماوضع له من تعابير : وقد ادار العلماء الاسلاف (٢) مصدر هذه الذي هو الكناية في مؤلفاتهم بمدلولات متقاربة :

الكناية اصطلاحاً :

ولعل ابن المعتز أول من عقد لهذا الفن عنوان«التعريض والكناية»(٣) في الكتب البلاغية المتخصصة وساق له شواهد من النثروالشعر :ومما يلاحظ على عمله هذا انه لم يعرف الكناية ، ولم يفرق بينهما وبين التعريض كما انه لم يوجه شواهدها ولم يجرها على حدّ مقرر ، وانما ساقها سوقا بلا شرح وتبيين : ويبدو أنّ للكناية بقيت على هذه الحالة حتى العقود ... القرن الرابع للهجرة وظلت وجوه معانيها اللغوية الثلاثة تتحكم ... تخلط به وتبرز هذه الحقيقة في دراسة المبرّد لشواهد الكناية وامثلتها واقوال الفقهاء في النصوص القرآنية

(١) راجع لسان العرب (كنى) .
(٢) راجع فنون بلاغية ص١٦٤.
(٣) راجع البديع ص٦٤.

التي أوّلوها على غير ظواهر معانيها ، وإن كان له فضل في ذلك على أبن المعتز البلاغي ، ذلك لانه لم يترك مواضع الاستشهاد بلا تبيين وشرح بل حلّلها ووجّه معانيها حسب المراد منها فقد أورد قوله تعالى في المسيح وامه مريم : « كانا يأكلان الطعام» (١) ، ثم شرح الكناية في هذه الآية قائلا : «كناية باجماع عن قضاء الحاجة ، لان كل من أكل الطعام في الدنيا أنجى ، يقال : نجا وأنجى اذا قام لحاجة الانسان »(٢) . وربما يلتمس العذر للمبرد في ذلك بما عرف عنه من اشتغاله بالدراسات اللغوية والنحوية ، ولكن هذا العذر لايتمثل لابي هلال العسكري الذي تجرد في كتابه الصناعتين لمباحث بلاغية ونقدية صرفة . فلقد خلط بين الكناية والتعريض كما فعل ابن المعتز وأدار مصطلح الارداف مدار الكناية ، واعتمد مصطلح المماثلة في شرح ماهو من الكناية قائلا : وهي «أن يريد المتكلم العبارة عن معنى فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر ، إلا أنه ينبيء اذا أورده عن المعنى الذي أراده كقولهم : «فلان نقي الثوب» يريدون أنه لاعيب فيه : وليس موضوع نقاء الثوب البراءة من العيوب وانما استعمل فيه تمثيلا» (٣) .

فتعبير «فلان نقي الثوب » كناية عن النسبة ويدل على معنى لازم له هو البراءة عن العيوب ، ولكن أبا هلال - كما يظهر - من ذلك كله لم يكن على بيّنة من مدلول مصطلح الكناية كما لم تستقر لديه مدلولات اصطلاح التعريض والارداف والمماثلة .

وقد كان هذا شأن ابن رشيق القيرواني ايضا ، ذلك لانه قد ادخل الكناية في باب الاشارة وعدّ من انواعها : الوحي والتفخيم والايماء ، والتعريض ، والتلويح ، والتمثيل ، والرمز ، واللغز ، واللحن ، والمحاجاة ، والتعمية ، والحذف ، والتورية (٤) وسواها مما استوى بعضها أنواعاً من الكنايات واستقل بعضها الآخر عن علم البيان وانضوى تحت موضوعات من علم البديع كما سنرى .

---

(١) المائدة ٧٥.

(٢) الكامل ج٢ص١٣١ .

(٣) كتاب الصناعتين ص٣٥٣.

(٤) راجع العمدة ج١ص٢٧١.

تعريف الكناية :

اتخذت الكناية طابعها المميز ومدلولها الاصطلاحي العلمي وترسخت شواهدها على يدي عبدالقاهر الذي عرّفها بقوله : « الكناية أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومىء به اليه ويجعله دليلا عليه .

مثال ذلك قولهم : « هو طويل النجاد » يريدون طويل القامة ، « وكثير رماد القدر » يعنون كثير القرى ، وفي المرأة « نؤوم الضحى » والمراد : انها مترفة مخدومة ، لها من يكفيها أمرها. فقد أرادوا في هذا كله ـ كما ترى ـ معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا اليه بذكر معنى آخر ، من شأنه أن يردفه في الوجود وان يكون إذا كان : أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد؟ وإذا كثر القرى كثر رماد القدر؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها امرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى »(١) .

وبعد عبدالقاهر عاش معظم البلاغيين على ماكتبه عن الكناية مستبيرين بتعريفه اياها ومكررين شواهده. ومن بين هؤلاء البلاغيين يبرز السكاكي (٢) منظراً بتعريف الكناية ضمن مبحث دلالات الالفاظ ، كما يأتي القزويني ليجسد ذلك التعريف في قالبه المنطقي قائلا : « الكناية : لفظ أريد به لازم معناه مع جوازارادة معناه حينئذ »(٣).

الفرق بين الكناية والمجاز :

وفي ضوء هذا التعريف فرّق مابين الكناية والمجاز بقوله : « الفرق بينها وبين المجاز من هذا الوجه ، أي من جهة ارادة المعنى مع ارادة لازمه ، فان المجاز ينافي ذلك فلا يصح في نحو قولك : « في الحمام أسد » أن تريد معنى الاسد من غير تأول ، لأن المجاز ملزوم قرينة معاندة لارادة الحقيقة ، وملزوم معاند الشيء معاند لذلك الشيء.

(١) دلائل الاعجاز ص٥٢.

(٢) راجع مفتاح العلوم ص١٨٩.

(٣) الايضاح ص٣١٨.

وفرّق السكاكي وغيره بينهما بوجه آخر أيضاً ، وهو أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم، ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم.

وفيه نظر ، لأن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن ينتقل منه إلى الملزوم ، فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلى اللازم .

ولو قيل : اللزوم من الطرفين من خواص الكناية دون المجاز أو شرط لها دونه اندفع هذا الاعتراض ، لكن اتجه منع الاختصاص والاشتراط(١) ؟

ان هذه الاوجه من التفريق بين الكناية والمجاز في أحدها وردها لاتستوي حدوداً فاصلة في ضوء الشواهد؛ وذلك لأن الكناية والمجاز في جوهرهما من أساليب البيان وعليه فلايمكن أن تدل الكناية مثلا على ظاهر معناها ولا يمكن أن تكون كذلك دائماً والاّ فانها تفقد قيمتها الفنية وتضيع ميزتها البيانية وتصبح لفظاً ظاهرَ المعنى حقيقيَّ المدلول ؟

ومن هنا فان محاولات بعض البلاغيين فيما بعد انتهت بهم إلى اكمال تعريف الكناية واقامته حداً جامعاً مانعاً لها .

اركان الكناية :

تتألف الكناية في بنائها التعبيري من ثلاثة أركان :

اولها : المكنى به، وهو دلالة اللفظ الظاهرة التي تقوم دليلا على مراد المتكلم.

وثانيها : المكنى عنه ، وهو المعنى اللازم للمكنى به الذي يرمي اليه الناطق بالكناية .

وثالثها : القرينة العقلية التي يبرزها سياق الكلام لترشد إلى المكنى عنه وتمنع ارادة المعنى المكنى به .

---

(١) الايضاح ص٣١٩.

اقسام الكناية :

قسم البلاغيون الكناية أنواعاً متعددة نستطيع أن نبوبها في مجموعتين :

اولاهما : مجموعة انواع الكناية على أساس طبيعة المكنى عنه وتشمل على ثلاثة أنواع هي الكناية عن الصفة والكناية عن الموصوف والكناية عن النسبة .

وثانيتهما : مجموعة أنواع الكناية في ضوء السياق والوسائط التي توصلنا إلى المكنى عنه ، وابرزها أربعة أنواع ، هي التعريض والتلويح والرمز والايماء .

انواع الكناية :

التمس البلاغيون المتأخرون (١) انواع الكناية وفق المكنى عنه ، وفي ضوء ماهيته وطبيعته فقسموها على ثلاثة انواع متميزة :

اولها : الكناية عن الموصوف: وهو المراد به غير صفة ولا نسبة، فمنها ما هو معنى واحد كقولنا: « المضياف» كناية عن زيد ، ومنه قوله كناية عن القلب :

الضاربيــنَ بكــلِّ أبيضَ مخذمٍ والطاعنينَ مجامعَ الأضغانِ (٢)

ونحوه قول البحتري في قصيدته التي يذكر فيها قتله الذئب .

فأتْبَعْتُها أُخرى، فأضْلَلْتُ نَصْلَها بحيثُ يكونُ اللبُّ والرعبُ والحقدُ (٣)

فقوله: « بحيث يكون اللب، والرعب ، والحقد» ثلاث كنايات لا كناية واحدة، لاستقلال كل واحد منها بافادة المقصود .

ومنها ماهو مجموع معانٍ ، كقولنا كناية عن الانسان : « حيٌّ مستوي القامة عريض الاظفار ». وشرط كل واحدة منها أن تكون مختصة بالمكنى عنه لا تتعداه ليحصل الانتقال منها اليه (٤) .

---

(١) راجع مفتاح العلوم ص١٩٠ ، والايضاح ص٣١٩ .

(٢) أبيض :سيف ابيض .مخذم :قاطع .الاضغان : الاحقاد .

(٣) أضللت :دفنت وغيبت .النصل: حديدة الرمح والسهم ...
اللب :العقل الذكي.

(٤) راجع الايضاح ص٣١٩.

والملاحظ أن ماكني عنه في هذه الشواهد : زيد والقلب والانسان، وكل واحد منها موصوف يمكن نعته . وعليه قوله تعالى كناية عن النساء : «أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحِلْيَةِ وهو في الخِصامِ غيرُ مبين» (١)

ثانيها : الكناية عن الصفة : والمراد الصفة المعنوية ،كالجود، والكرم ، والشجاعة، وأمثالها ، لا النعت كقوله تعالى : «ولاتَجْعَلْ يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ» (٢) . فجعل اليد مغلولة إلى العنق في هذه الآية الكريمة كناية عن البخل وجعلها مبسوطة كل البسط كناية عن الاسراف ،والبخل والاسراف كلاهما صفتان معنويتان ؛ ومن ذلك قول ابن الدمينة :

أَبِيني أَفي يُمنى يديكِ جعلتني فأفرحَ أَمْ صَيَّرتِني في شمالِكِ؟

فقوله : «في يمنى يديك جعلتني» كناية عن إكرام المنزلة ، وقوله« جعلتني في شمالك» كناية عن هوان المنزلة . والماكان المكنى عنهماالاكرام المنزلة وهوانها صفتين معنويتين فنوع الكناية فيهما : كناية عن الصفة وكقول الشاعر .

وَلَسْنا على الأعقابِ تَدْمَى كلومنا ولكنْ على أقدامنا تَقْطُرُ الدِّما

ففي هذا البيت كناية عن الصفة لان المكنى عنه هو الثبات في المعركة ومواجهة الاعداء وجها لوجه ، وعدم الفرار والتعبير الدال عليه هو قوله «ولسنا على الاعقاب تَدْمَى كلومنا» .

وثالثها : الكناية عن النسبة ، وهي أن يأتي بالمراد منسوباً إلى أمر يشتمل عليه من هي له حقيقة والغاية (٣) منها تخصيص صفة أو مجموعة صفات بموصوف كقول زياد الاعجم :

إنَّ السماحةَ والمروءةَ ، والنَّدى في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحشرجِ

فانهُ حين أراد أن لايصرح بإثبات هذه الصفات لابن الحشرج جمعها في قبة ،

---

(١) الزخرف ١٨.
(٢) الاسراء ٢٩.
(٣) راجع البرهان في وجوه البيان ص١٠٥.

تنبيهاً بذلك على أن محلّها ذو قبة ، وجعلها مضروبة عليه ، لوجود ذوي قباب في الدنيا كثيرين ، فأفاد اثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية (١) .

وإذا كانت المكنّيات عنها صفات اتصف بها الممدوح عن طريق نسبتها إلى قيته كانت تلك الكناية على هذا الاساس كناية عن نسبة . ومنها قول الشنفرى في وصف امرأة بالعفة :

يَبيتُ بمنجاةٍ عن اللوم بَيْتُها إذا ما بيوتٌ بالمَلامة حلّتِ

فالشاعر هنا وصف بيت تلك المرأة بالنجاة عن الملامة ،وكان مراده أن يبرئ المرأة نفسها بهذه الصفة على سبيل الكناية عن النسبة .

وقسّم البلاغيون المتأخرون الكناية في ضوء السياق الذي يفهم منها، وفي ضوء الوسائط التي توصل القارىء اليها على أربعة أنواع :

اولها : التعريض :

والتعريض لغة هو خلاف التصريح ، والمعاريض جمع معراض من التعريض وفي حديث ابن عباس:«ماأحب بمعاريض الكلام حمر النعم» أما اصطلاحاً فهوأن يطلق الكلام ، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق ومن ظرف القول ، وعند السكاكي : متى كانت الكناية عرضيّة كان اطلاق اسم التعريض عليها مناسبا(٢) .

وقد فصّل ابن رشيق بين الكناية والتعريض وجعلهما نوعين مستقلين من باب الاشارة ، فقال : ومن انواعها أي انواع الاشارة التعريض كقول كعب بن زهير ، لرسول الله صلى الله عليه وسلّم :

في فتيةٍ من قريشٍ قال قائلهم ببطنِ مكّةَ لمّا أسلموا زُولوا

---

(١) راجع الايضاح ص٣٢٤.

(٢) راجع مفتاح العلوم ص١٩٤.

تعريض بعمر بن الخطاب – وقيل: بأبي بكر رضي الله عنهما – وقيل: برسول الله صلى الله عليه وسلم – تعريض مدح ثم قال:

يمشون مشي الجمال الزُّهْر يعصمُهم ... ضَرْبٌ إذا عرَّد السُّودُ التنابيلُ

فقيل: انه عرض في هذا البيت بالأنصار، فغضبت الانصار، وقال المهاجرون: لم يمدحنا [illegible] حتى صرح بمدحهم في أبيات يقول فيها:

من سره كرم الحياة فلا يزل ... في مِقنب من صالحي الأنصار

ومن التعريض قول ايمن بن خريم الأسدي لبشر بن مروان يمدحه ويعرض بكثير [illegible] عبد العزيز حين لقاه من مصر على يدي نصيب الشاعر مولاه:

كأن التاج تاج بني هِرَقْلٍ ... جلوه لأعظم الأعياد عيدا

يصافح خد بشر حين يُمسي ... اذا الظلماء باشرَتِ الخدودا

فهذا من خفي التعريض، لانه أوهم السامع أنه أراد المبالغة بذكر الظلماء لاسيما وقد قال – حين يمسي – وانما أراد الكلف.

ومن التعريض العجيب مما يجل عن جميع الكلام قول الله عزَّ وجل: «ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم» (١) أي: الذي كان يقال له هذا أو يقوله، وهو أبو جهل لانه قال: ما بين جبليها – يعني مكة – أعز مني ولا أكرم، وقيل: بل ذلك على معنى الاستهزاء به» (٢).

يتضح من هذه الشواهد من تعليقات ابن رشيق عليها، أن التعريض قد يكون مدحاً وقد يكون ذماً، وأن القارئ لايدرك منه المعنى المكنى عنه الا اذا كان ملما بالسياق الذي ورد فيه، وأن هذا السياق يظهر بوسائل تتنوع بين ظرف القول ومناسبته كما هو الحال مع أبيات كعب بن زهير وبين الحدث التأريخي كما هو أمر بيتي ايمن بن خريم الأسدي وبين اسباب النزول ودواعيه كما هو شأن الآية الكريمة.

---

(١) الدخان ٤٩.

(٢) العمدة ج١ص٢٧٢.

ومع هذا فإن مدلول مصطلح التعريض شبلاعي لا يتحدد عند ابن رشيق ، ولا يحتوي في نصه ذلك تعريفا محدداً مميزه عن سائر ضروب الكناية .

وقد انتبه ابن الأثير إلى هذه الحقيقة وأكد أن البلاغيين قد خلطوا بين الكناية والتعريض وأوردوا لهما شواهد متداخلة في الفنين ، ومن هنا عرف التعريض بقوله . وأما التعريض : فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم — لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي — فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : « والله إني لمحتاج ، وليس في يدي شيء ، وأنا عريان والبرد قد آذاني » ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعا في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً ، إنما دل عليه من طريق المفهوم ، وإنما سمي التعريض تعريضا لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أي من جانبه ، وعرض كل شيء جانبه» (١) .

وبهذا التعريف الموازن بين الكناية والتعريض وضع الحد الفاصل لهذا الفن وميّزه نوعاً من أنواع الكناية الذي يستخلص منه المكنى عنه بوساطة السياق ومناسبة القول .

ثانيها : التلويح :

والتلويح لغة : هو أن تشير إلى غيرك من بعد .

واصطلاحاً : هو الكناية التي بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط كما في كثير الرماد »(٢) .

فالمكنى عنه في هذا الشاهد هو الكرم ويتوصل القارئ اليه بخمس وسائط :

اولاها : اعداد مايطبخ من جزور وسواه .

وثانيتها : ايقاد النيران ،

وثالثتها : الطبخ واستهلاك الوقود ،

ورابعتها : دعوة الضيفان .

(١) المثل السائر ج٣ص٥٦ .

(٢) الايضاح ص٣٢٧ .

وخامستها : ترك الرماد الكثير الذي يستدل منه على المكنّى عنه صفة للممدوح .
ونحو قول الشاعر :

وما يكُ فيَّ من عَيْبٍ فإنّي جبانُ الكَلْبِ مهزولُ الفَصيلِ

فقد كنّى عن كرم الممدوح بأنه جبان الكلب ، مهزول الفصيل ، فان الفكر ينتقل إلى جملة وسائط .

وثالثها : الرمز :

والرمز لغة : أن تشير إلى قريب منك خفية - بنحو شفة - أو حاجب - وأصله الكلام الخفي الذي لايكاد يفهم، ثم استعمل حتى صار الاشارة .... وقال الفراء : الرمز بالشفتين خاصة» (١) .

واصطلاحاً : هو الكناية التي قلّت وسائطها إلى المكنّى عنه مع خفاء نحو : « فلان عريض القفا » أو « عريض الوسادة » كناية عن بلادته وبلاهته . فالمكنّى عنه خفي غير ظاهر ويتوصل اليه السامع بواسطة واحدة هي عرض القفا وكبر الرأس وهما صفتان تعارفت العرب على أن المتصف بهما ليس من الاذكياء.وكقول أحد القدماء يصف امرأة قتل زوجها وسبيت:

عقلْتُ لها من زوجها عَدَدَ الحصى مع الصبح أو مَعْ جُنْحِ كلّ أصيلِ

يريد أني لم أعطها عقلا ولا قوداً بزوجها، إلاّ الهمّ الذي يدعوها إلى عدّ الحصى (٢) .

---

(١) العمدة ج١ص٢٧٥.
(٢) العمدة ج١ص٢٧٤.

رابعها : الايماء او الاشارة :

والايماء لغة : أن تشير إلى قريب منك اشارة واضحة :

واصطلاحا: هو الذي قلّت وسائطه ، مع وضوح اللزوم، كقول أبي تمام(1) :

أَبَيْنَ ، فما يَزُرْنَ سوى كريمٍ وَحَسْبُكَ أَنْ يَزُرْنَ أبا سعيدِ

فانه في افادة أن أبا سعيد كريم غير خاف، وكقول البحتري:

أَوَ ما رأيْتَ المجدَ ألقى رَحْلَهُ في آلِ طَلْحةَ، ثُمَّ لم يَتَحَوَّلِ ؟

فانه في إفادة أن آل طلحة أماجد ظاهر.

(1) راجع الايضاح ص٣٢٨.

ميادين البلاغة :

رصد البلاغيون القدامى المواطن التي تستعمل الكناية للتعبير عن مستقبحات [illegible] والذوقية من شؤون الحياة والاخلاق والمجتمع . ومن هؤلاء البلاغيين ابن أبي الاصبع المصري الذي قال بهذا الصدد : « الكناية هي عبارة عن تعبير المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن ، وعن النجس بالطاهر ، وعن الفاحش بالعفيف ، هذا إذا قصد المتكلم نزاهة كلامه عن العيب ، وقد تقصد بالكناية عن ذلك ، وهو أن يعبر [illegible] بالسهل ، وعن التبسط بالايجاز أو يأتي للتعمية والالغاز أو للستر والصيانة » (1) .

فالكناية بشتى أنواعها التي مرّ بها تفاصيل أساليبها تحقق اهدافاً لغوية وفنية وفكرية يمكن تجسيدها بعبارة تؤكد ان هذا الفن القولي يمتاز بحسن التعبير وعمق التأثير .

سر بلاغة الكناية :

كشف عبد القاهر عن السر في قدرة الكناية على ذلك كله وعلل لبلاغتها، فبيّن قبل كل شيء : أنه « قد اجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح ، والتعريض أوقع من التصريح » (2) ثم فصل ما أجمع عليه الجميع وأورد شواهد من الكناية والمجاز والاستعارة التشبيهية موازناً بينها وبين معانيها الحقيقية، وطرح السؤال الذي يستفسر عن علّة بلاغة هذه الشواهد ومثيلاتها ، وأجاب عنه بقوله:

« اعلم ان سبيلك .

اولا : أن تعلم أن ليست المزيّة التي تثبتها لهذه الاجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تدعي لها في نفس المعاني التي يقصد المتكلم اليها بخبره ، ولكنها

(1) بديع القرآن ص٥٣ .
(2) دلائل الاعجاز ص٥٥ .

في طريق إثباته لها وتقريره اياها : تفسير هذا : ان ليس المعنى إذا قلنا إن الكناية
أبلغ من التصريح انك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى [illegible]
زدت في اثباته ، فجعلته أبلغ وآكد واشد ؛ فليست المزية في قولهم [illegible]
انه دل على قرى اكثر ، بل انك اثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ [illegible]
ايجابا هو اشد ، وادّعيته دعوى بها أنطق ، وبصحتها أوثق » (١).

وبعد هذا أوضح رأيه في أن مزية الكناية وسر بلاغتها [illegible]
تعبير واسلوب افادة معنى ، فربط الامر بنظريته في النظم وقال [illegible]
يقولون : ان من شأن هذه الاجناس ان تكسب المعاني نبلا وفضلا [illegible]
شرفاً ، وأن تفخمها في نفوس السامعين وترفع اقدارها عند المخاطبين [illegible]
لايريدون الشجاعة والقرى ، واشباه ذلك من معاني الكلم المفردة [illegible]
إثبات معاني هذه الكلم لمن تثبت له ويخبر بها عنه:

هذا ماينبغي للعاقل أن يجعله على ذكر منه ابدا وأن يعلم أن ليس لنا إذا نحن
تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل ، ولا هي [illegible]
وانما نعمد إلى الاحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب » (٢).

والكناية في ضوء هذا النص ليست مجرد أداء معنى بألفاظ [illegible]
مدلولها ، وانما هي صياغة فكرة تنبع من وجدان صاحبه [illegible]
تعبيرا لكل لفظ منه مكانة ووشيجته التي تربطه بما اتى قبله وبما يرد بعده [illegible]
بالمعاني وظلال المعاني والاحاسيس إيماضاً لو تزعزع ذلك اللفظ أو سواه عن
موقعه لعجز التعبير كله عن أداء مهمته البلاغية .

تأثير الكناية في المخاطب :

هذا من جانب الكناية تعبيراً وأداةً تؤدي عن صاحبها ، اما من [illegible]
تأثيرها في المخاطب وخلق موقف له مما يسمع فان عبد القاهر قد قال : « و[illegible]

(١) دلائل الاعجاز ص٥٦.
(٢) دلائل الاعجاز ص٥٧.

عرفت مكان هذه المزية والمبالغة التي لاتزال تسمع بها ، وانها في الاثبات دون المثبت فان لها في كل واحد من هذه الاجناس سبباً وعلّة .

أما الكناية : فان السبب في أن كان للاثبات بها مزية لاتكون للتصريح ان كل عاقل يعلم — اذا رجع إلى نفسه — أن اثبات الصفة باثبات دليلها وايجابها بما هو شاهد في وجودها آكد وابلغ في الدعوى من أن تجئ اليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلا : وذلك أنك لاتدعي شاهد الصفة ودليلها إلاّ والامر ظاهر معروف ، وبحيث لايشك فيه ، ولا يظن بالمخبر الجوز والغلط » (١) ؟

ويبدو من هذا التحليل أن عبدالقاهر يقيم بلاغة الكناية على اساسين متلازمين:

اولهما : أساس لغوي فني ينهض على رأية في أن الكناية اسلوب ، ونظم وصورة ، وانها ليست كلمات مفردة وجمل متفككة واجزاء ملفقة .

وثانيهما : أساس نفسي عقلي يمتد مابين الاديب المنشيء للكناية والمبدع لأفانينها وبين المخاطب السامع لها ، ويتمثل فيما تصطحب معه الكناية من دليل وشاهد يختاره الاديب عن وعي أو عن غير وعي فيكون رسولا منه لاقناع مخاطبه وسامعه . وعلى هذين الاساسين تتولد من الكناية معانيها المسترسلة المتتابعة المتجددة التي تصل من وجدان مدبجها وفكره إلى عقل متلقيها وقلبه .

بلاغة الكناية بين القدامى والمعاصرين :

يحدثنا تاريخ البلاغة العربية بالشواهد والنصوص ، ان البلاغيين الذين أتوا بعد عبد القاهر واستلموا راية البحث البلاغي من يده ، لم يزيدوا على ماقاله في بلاغة الكناية وانما لخصوه وكرروا شواهده أو أطالوا فيه ونسجوا على منوال أمثلته ، فتركوا لنا بعد ذلك كله الموضوع في أثناء كتابه « دلائل الاعجاز»

---

(١) دلائل الاعجاز ص٥٧.

وآية ذلك أن القزويني الذي بعد وارث علم البلاغة عن السكاكي بتلخيص آرائه واذاعة تلخيصه ايضاحاً تلقفه مع تلخيصه الشرّاح ومنتقدوه لم يزد في الكلام على بلاغة الكناية عن ايراد آراء عبد القاهر وتلخيص علله بقوله : « والسبب في ذلك (بلاغة الكناية) أن الانتقال في الجميع من الملزوم إلى اللازم ، فيكون اثبات المعنى به كدعوى الشيء بيّنة ، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ في اثباته دعواه بلابينة »(١) .

وأياً كان الامر فان الدراسات المعاصرة في الكناية وسائر اساليب البيان العربي لم تفتح بابا جديداً على مسألة بلاغة الكناية ، وان كان بعض الباحثين المعاصرين قد ربط بين الموضوع وبين تداعي المعاني (٢) والرمز إلا أنّ هذا الربط ينبغي الا يتخذ على علاّته ولا سيما اذا كان يؤكد الصلة الوثيقة بين الرمز الادبي المعاصر والكناية العربية الاصيلة ، ذلك لان مفهوم الرمز في البلاغة العربية لايمكن أن يدخل في الالغاز والمعميات التي أولع بها طائفة من أدبائنا المعاصرين الذين تجرجوا لتقليد مدرسة الشعراء السرياليين الذين ظهروا في اوربا ، وانما هو فن من القول وفرع في دوحة الكناية يدل على المكنّى عنه دلالة خفية تكشف عنها اللوازم والوسائط ويدل عليها السياق المعقول والمفهوم .

---

(١) الايضاح ص٣٢٩.
(٢) راجع كتاب دراسات في علم النفس الادبي ص٤٦، وفنون بلاغية ص١٩١.



تطبيقات عامة

(١)

ذاعت آثار ورويت نصوص في البلاغة العربية مجسدة أثر البيان في المجتمع ومبينة سلطانه على النفوس

ناقش من هذا المنطلق رأي عبد القاهر الجرجاني (١) في أن البيان يعرض المعاني المختلفة، فيجد من السامعين رضا وقناعة

(٢)

عقد سيبويه أساليب بيانية مستقيمة في التركيب كذبا في المدلول فقال في تصنيف الكلام: «أما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه (٢)» وشاع في الدراسات النقدية والبلاغية نتيجة قولهم: «خير الشعر أكذبه» وقال البحتري في مشاحنة له مع المتفلسفين والمناطقة:

كلفتمونا حدود منطقكم ... في الشعر يكفي عن صدقه كذبه

وعلى النقيض من هذا قول بعضهم «وخير الشعر أصدقه»؛ وروي قول الشاعر في هذا المنحى:

وإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا

واحسبه أن هذه القضية البلاغية والنقدية التي أثارها سيبويه على ذلك النحو ووجدت لها صدى في مواقف الشعراء والبلاغيين (٣) والنقاد – تقوم أساسا على نظرية صدق التجربة الأدبية في تقويم الأساليب البيانية.

---

(١) يراجع كتاب أسرار البلاغة ص٢١٨ وما بعدها للوقوف على هذا الرأي

(٢) الكتاب ج١ ص٧.

(٣) يراجع أسرار البلاغة ص٢٤٩

اعرض الخطوط العامة لهذه النظرية مقوما نصين أدبيين : أحدهما من عصر ماقبل ظهور الاسلام ، وثانيهما من العصر الحديث ؟

(٣)

ممّا يدل على أن نظرية البيان في البلاغة العربية أصيلة في نشأتها بعيدة عن التأثير الاجنبي في تطورها ، أنّ عبد القاهر الجرجاني ربط بين مصطلح البيان وآي من الذكر الحكيم (١).

تتبع في ضوء هذا الربط مادة «بين» ومشتقاتها في القرآن الكريم (٢) ؟

وفي الحديث النبوي الشريف(٣)محللا النصوص التي وردت فيها لتجسيد أصالة نظرية البيان العربي وملامحها الفكرية والفنية .

(٤)

الملاحظ :

أن للبلاغيين (٤) مذاهب مختلفة في حصر موضوعات البيان وترتيب مباحثه ، اعرض ابرز هذه المذاهب مثبتا رأيك فيما تستحسنه خطة لدراسة البيان العربي؟

(٥)

تعرّض المبرد لتشبيهات في ضوء منهج لغوي تقريري تبين اسسه نصوص منها قوله :

ومن تمثيل امرئ القيس العجيب قوله :

كأنّ عيونَ الوحش حول خبائنا وأرحُلنا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ (٥)

(١) يراجع اسرار البلاغة ص٢.
(٢) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
(٣) يراجع المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي الشريف.
(٤) يراجع اسرار البلاغة ص٢٨.
(٥) الجزع : خرز فيه بياض وسواد.

ومن ذلك قوله :

اذا ما الثريا في السماء تعرَّضتْ تعرُّضَ أثناء الوشاح المفصّل(١)

وقد اكثروا في الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ولا بما يقارب سهولة هذه الالفاظ.

ومن عجيب التشبيه قول ذي الرمة :

وَرَدْتُ اعتسافاً والثريا كأنها على قِمَّةِ الرأسِ ابنُ ماءٍ مُحلِّقُ(٢)

وقوله :

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه على عَصَوَيها سابريٌّ مُشَبْرَقُ(٣)

وتأويله أنه يصف ماءً قديماً لا عهد له بالورّاد ، فقد اصفرّ واسودّ ، فقال :

وماءٍ قديم العهد بالناس آجن كأنَّ الدَّبا ماء الغضا فيه يَبْصُقُ(٤)

وقد اجاد علقمة بن عبدة الفحل في وصف الماء الآجن ، حيث يقول :

اذا وردتْ ماءً كأنَّ جِمامَهُ من الأجْنِ حنّاءٌ معاً وصَبيبُ(٥)

فقال ذو الرمة في وصف هذا الماء ، فقرن بتغيّره بعد مطلبه فقال :

فأدلى غلامي دَلْوَهُ يبتغي بها شفاءَ الصدى والليلُ أدْهَمُ أبلقُ

يريد ان الفجر قد نجم فيه ، فجاءت – يعني الدلو – بنسج العنكبوت كأنه على عصويها سابري مشبرق والسابري : الرقيق من الثياب والدروع . والمشبرق : الممزق .

وانشد ابو زيد .

---

(١) تعرضت أي: أرتك عرضها ، أي ناحيتها. والوشاح المفصل: الذي جعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة والاثناء: جمع ثني.

(٢) الاعتساف: السير على غير هدى. وابن الماء : طير من الطيور محلّق على مرتفع.

(٣) العصوان : عرقوبا الدلو، والعرقوبان : خشبتان.

(٤) آجن : متغير الطعم واللون ، والدبا : الجراد. والغضا: شجر له هدب ، إذا اكلته الابل اشتكت بطونها.

(٥) الجمام: اجتماع الماء. الصبيب: الدم ، عصار العندم ، والعندم : خشب نبات يصبغ به ، ويقال له ايضا دم الاخوين.

لمونا بسربال الشبابِ مُلاوةً ... فأصبحَ سربالُ الشبابِ شارقا (١)

وفي هذه القصيدة من التشبيه المصيب :

بيضاء في دَعَجٍ صفراء في نَعَجٍ ... كأنّها فضةٌ قد مسّها ذَهَبُ (٢)

ومن التشبيه المستحسن قول علقمة بن عبدة :

كأنّ إبريقَهم ظَبْيٌ على شَرَفٍ ... مُفَدّمٌ بسبا الكَتّانَ مَلْثومُ (٣)

فهذا حسن جداً .

ومن التشبيه المتجاوز قول الخنساء :

وإنّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ بهِ ... كأنّه عَلَمٌ في رأسهِ نارُ

فجعلت المهتدي يأتمّ به ، وجعلته كنار في رأس علم ، والعلم : الجبل،

ومن تشبيه المحدثين المستطرف قول بشار :

كأنَّ فؤاده كُرةٌ تنزّى ... حِذارَ البين إنْ نَفَعَ الحِذارُ

يُرَوِّعه السِّرارُ بكل أمرٍ ... مخافة أنْ يكونَ به السِّرارُ (٤)

فالمبرد (٥) – كما يظهر – من هذه النصوص يعتمد منهجا نستطيع أن نثبت له أربعة أسس :

أولها : بيان مدلولات الكلمات الغريبة وشرح بعض الشواهد وتأويل مقاصدها .

وثانيها : اصدار احكام مطلقة في استحسان التشبيهات بخمسة مصطلحات

---

(١) الملاوة : الحين من الدهر .

(٢) الدعج : سواد العين . والنعج : البيض الخالص .

(٣) الشرف : ما ارتفع من الارض وأشرف على ما حوله . مفدم : مغطى بالفدام ، وهو من وصف الابريق . وسبا الكتان : يريد سبائب الكتان ، والسبائب : جمع سبيبة ، وهي شقة بيضاء . ملثوم : من اللثم ، وهو ما يوضع على الفم واستعاره للابريق .

(٤) السرار : آخر ليلة من الشهر ، وهي التي يستتر فيها القمر ويختفي .

(٥) راجع كتاب الكامل ج٣ ص٣٣ – ٤٧ .

هي : «عجيب ، واجادة ، ومصيب ، ومستحسن ، ومستطرف، وادارتها بلا ضابط وبلا تعليل واعتماده مصطلح تجاوز ومفرط في الاستهجان .

وثالثها : ادارة تشبيهات شعراء في موضوع موحد كما فعل في اشارته الى اكثار الشعراء في وصف الثريا تعليقا على بيت امرىء القيس وروايته لابيات في وصف الماء الآجن .

ورابعها : تجنب تحليل أركان التشبيه واستعمال مصطلحاته من المشبّه، والمشبّه به ووجه الشبه ، واداة التشبيه .

وتناول ابن الاثير تشبيهات في ضوء منهج آخر فقال :

قول بعضهم :

ملا حاجبيكَ الشيبُ حتى كأنّه ظباءٌ جرَتْ منها سنيحٌ وبارحُ (١)

وكذلك قول الآخر يصف السهام :

كساها رطيب الريش فاعتدلت له قداحٌ كأعناقِ الظباء الفوارقِ

فانه شبّه السهام باعناق الظباء ، وذلك من ابعد التشبيهات ، وعلى نحو منه قول الفرزدق :

يمشون في حَلَقِ الحديد كما مشت جُرْبُ الجمال بها الكُحَيْلُ المُشْعَلُ (٢)

فشبّه الرجال في دروع الزرد بالجمال الجرب ، وهذا من التشبيه البعيد ، لانه ان اراد السواد فلا مقاربة بينهما في اللون ، لان لون الحديد ابيض ومن اجل ذلك سميت السيوف بالبيض ، ومع كون هذا التشبيه بعيداً فانه تشبيه سخيف .

ومن التشبيهات الباردة قول ابي الطيب المتنبي :

وجَرى على الوَرَقِ النجيعُ القاني فكأنه النـارنجُ في الأغصانِ (٣)

---

(١) السانح : أي يأتي من جانب اليمين ، ويقابله البارح وهو الذي يأتي من جانب اليسار ، والعرب تتيمن بالسانح وتتشاءم بالبارح.

(٢) الكحيل : القطران، وحلق الحديد : الدروع. والمشعل : الجديدة التي يحرق بها الجلد ويروى« كأنهم» موضع « كما مشت».

(٣) النجيع : الدم ، والقني : الاحمر الشديد الحمرة .

وهذا تشبيه ينكره أهل التجسيم ، واذا قسّمت التشبيهات بين البعد والود حاز طرفي ذلك التقسيم .

وأبشع من هذا قول أبي نواس في الخمر :

كأن بواساراً رواكد حولها وزُرقٌ سنانير تُدير عيونَها (١)

والعجب انه يقول مثل هذا الغث الذي لاملاءمة بينه وبين ما شبّه به ، ويقرنه بالبديع الذي أحسن فيه وابدع ، وهو :

كأنا حُلولٌ بين أكناف روضة إذا ما سلبناها معَ الليل طينَها

فانظر كيف قرّن بين وردة وسَعْدانة ، لابل بين بعرة ومرجانة .

وقد اكثر في تشبيه الخمر ، فأحسن في موضع وأساء في موضع ، ومن اساءته قوله ايضا في أبيات لامية :

وإذا ما الماءُ واقعَها أظهرَتْ شكلاً من الغَزَلِ
لؤلؤاتٍ يَنْحَدِرْنَ بها كانحدار الذَّرِّ من جَبَلِ

فشبّه الحبيب في انحداره بنمل صغار ينحدر من جبل ، وهذا من البعد على غاية لايحتاج الى بيان وايضاح (٢) .

ففي هذا النص يتضح لنا ان ابن الأثير لايقرر احكامه تقريراً ولا يغفل الاشارة الى بعض اركان التشبيه كل الاغفال كما فعل المبرد ، وانما يسعى جاهداً أن يعلل لاحكامه ويبرر تفريعه لما حكم عليه من الشواهد بعد بيان طرفي التشبيه ، كما انه يورد اكثر من شاهد لأبي نواس في موضع وصف الخمرة فينوه باساس منهجي له صلة بأحد أسس منهج المبرد وهو اساس جمع الشواهد في موضوع محدد .

---

(١) هكذا في الاصل، ولم اقف لهذه الكلمة على معنى،ولكني رأيت في القاموس (١ ,٣٧٢) أن البياسرة جيل بالسند تستأجرهم النواخذة لمحاربة العدو.الواحد بيسري . والنواخذة : هم أهل السفن ، فلعل البواسار منها.

(٢) المثل السائر ج٢ص١٥٦ – ١٥٨ .

ومن هنا يمكننا ان نميز منهج ابن الاثير هذا بصفة المنهج التعليلي الموضوعي لما فيه من تعليل للاحكام البلاغية والنقدية واتساعه لشرح الشواهد في موضوع بعينه ولشاعر بعينه .

وفي ضوء هذين المنهجين وملاحظاتنا عليهما نستطيع ان ندعو الى منهج متكامل في تحليل التشبيهات يقوم على أربعة اسس :

أولها : اعتماد المصطلحات البلاغية بدقة في تحليل اركان التشبيه .

ثانيها : تحليل التشبيه جزءاً متلحماً مع سائر أجزاء النص الادبي الذي ورد فيه ، وتجنب الاكتفاء به شاهداً قائماً بذاته .

ثالثها : الاستضاءة بالقضايا النفسية والاشارات البيئية في تتبع مصدر مادة المشبّه والمشبّه به والتماس انعكاسهما عن وجدان المنشئ وتأثيرها في شعور التلقي .

ورابعها : تقويم التشبيه على اساس ما حقق من اغراض مضمونية وشكلية. حلل في ضوء هذا المنهج النصوص الآتية :

١ — قال ابو نواس في وصف الخمرة (١) :

فــإذا مــا لــمستهــا فهبــاءٌ	تمنع اللمس مــا تبيح العيونا
دَرَسَ الدهــرُ ما تجسّم منها	وتبقى لبابهـــا المكنونا
فهي بكر كأنها كل شيءٍ	يتمنى مخيّرٌ أن يكونا
في كؤوس كأنهنَّ نجومٌ	جاريات بروجها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا	فإذا ما غربن يغربن فينا

٢ — قال أحمد شوقي في المسلمين :

لو لم يسودوا بدين فيه منبهة	للناس كانت لهم أخلاقُهم دينا (٢)
لم تُسْر من حرم إلاّ إلى حَرَمٍ	كالخمر من بابل سارت لداريْنا(٣)

---

(١) الكامل ج٣ص٤٧ .

(٢) منبهة : شرف ورفعة .

(٣) بابل وداريْنا : مدينتان مشهورتان بجودة الخمر .

٣ – قال ابن المعتز :

ظللت بملهى خير يوم وليلة تدور علينا الكأس في فتية زُهْرِ
بكف غزال ذي عذار وطرّة وصدغين كالقافين في طرّتي سطر
لدى نرجس غضّ وسرو كأنه قدود جوارٍ ملن في أزُر خضر

٤ – قال الزهاوي :

أشدُّ يا طير لاتعداك خير صوتك القصد وحده غير
لاتخف ما عليك مني ضير أنا ايضا ياطير مثلك طير
قلبي في شدو الهوى منقاري

٥ – قال شاعر يصف كومة من الفحم تتأجج في داخلها النار :

كأنما النار في تلهبها والفحم من فوقها يغطيها
زنجية شبكت انامـلها من فوق نارنجة لتخفيها

(٦)

قال تعالى : «إنَّها ترمي بشَرَرٍ كالقصْر ،كأنه جِمالةٌ صُفْرٌ» (١)

وجاء في التفسير : أن القصر واحد القصور ، وقيل : القصر جمع قصرة وهو الغليظ من الشجر .وقوله: «كأنه جمالة صفر» بكسر الجيم ، جمع «جمال» كما تقول : «بيوت وبيوتات»،وهو جمع الجمع ، ويقال للابل السود التي تضرب الى الصفرة «هي ابل صفر».

والشرر : قطع من النار تطاير في الجهات وأصله : للظهور ،من قولك : «شررت الثوب» اذا اظهرته للشمس. وشبّه الشرر بالقصور في العظم. ثم قال : «كأنه جمالة صفر» ، أي : سود فشبهه في اللون وفي العظم. والعرب تشبّه الابل بالقصور ذهابا الى تمام خلقها وحسن صورتها •

---

(١) المرسلات ٣٢–٣٣.

وفي ضوء هذا البيان اللغوي لكلم الآيتين علق ابن ناقيا البغدادي على تشبيه الشرر بالقصر تارة وبالجمالة الصفر تارة اخرى بقوله : «وانما ظاهر في تشبيه الشرر تأكيداً للتخويف من النار التي ترامى بها وتعظيما لشأنها وارهابا للكافرين من سطوتها والتشبيه على هذا النحو بغير حرف العطف آكد في صفة الموصوف ، وأبلغ في نعته من التشبيه المعطوف» (١) .

ودرسنا فيما مضى بيان حالات طرفي التشبيه من وجوه كافة وأكدنا أثر المشبه به في تصوير المشبه في ضوء اعتبارات تعود إلى طبيعته ومصدرمادته وبنائه اللغوي .

حلل في ضوء ذلك طرفي التشبيه في النصوص الآتية شارحا دور كل مشبه به في تصوير المشبه ومبينا الغرض منه : —

١ — قال طرفة :

وفي الحي أحوى ينفضُ المَرْدَ شادنٌ مظاهرُ سمطي لؤلؤٍ وزبرجدِ (٢)
خذولٌ تُراعي ربرباً بخميلةٍ تناول اطراف البَرِيرِ وترتدي (٣)

في هذين البيتين تشبيه للمرأة بالغزال في عنقها ، وبالبقرة في حسن عينيها .

٢ — قال ابو القاسم الشابي :

عذبةٌ أنت كالطفولة كالأحلام كاللحنِ كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليـــد
أنت مَنْ أنت ؟ أنت رسـم جميل عبقري من فن هذا الوجودِ

---

(١) الجمان في تشبهات القرآن ص٢٧٤

(٢) الاحوى : الذي في شفتيه سمرة . الشادن . الغزال الذي قوي واستغنى عن امه. السمط : الخيط الذي نظمت فيه الجواهر والجمع سموط .

(٣) خذول : قد خذلت اولادها . الربرب : القطيع من الظباء وبقر الوحش . البرير : شجرة الاراك .

٣ – قال دريد بن الصمة :

ولما رأيت الخيل قبلاً كأنها جراد يباري وجهة الريح مغتدي
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

• • •

دعاني أخي والخيل بيني وبينه فلما دعاني لم يجدني بقعدد

• • •

فجئت اليه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممدد
وكنت كذات البو ريعت ، فأقبلت الى قطع من جلد بو مجلد (١)

(٧)

نبه عبد القاهر الجرجاني الى ان مجرد التقاء طرفي التشبيه في صفة لايجعل التشبيه مستساغاًفي الذوق مقبولا في العقل ساريا في العرف والعادة :
فثبت قول البحتري :

وبياض البازي أصدق حسناً ان تأملت من سواد الغراب

ثم علق عليه قائلا :

«وليس اذا كان البياض في البازي آنق في العين وأخلق بالحسن من السواد في الغراب ، وجب لذلك أن لايذم الشيب ولا تنفرمنه طباع ذوي الالباب ، لانه ليس الذنب كله لتحول الصبغ وتبدل اللون ، ولا أتت الغواني ما أتت من الصد والاعراض لمجرد البياض ، فإنهن يرينه في قباطي (٢) مصر فيأنسن ، وفي أنوار

---

(١) الخيل: اسم جنس للافراس ، ويطلق على الفرسان . قبلا : بضم القاف أي مقابلة وعيانا ، منعرج اللوى : منعطفه ، واللوى : الموضع . قعدد : جبان لئيم يقعد عن الحرب والمكارم . الصياصي: جمع صيصاة وصيصة بالتخفيف وهي الشوكة التي يسدي بها النساج خيوط نسيجه الممدودة امامه. ذات البو : كناية عن الناقة أو البقرة يذبح ولدها أو يموت فيحشى جلده تبناً ويجعل لديها فتراه امه وتعطف عليه وتدر اللبن. والبو : هو هذا الجلد المحشو .

(٢) القباطي بالضم جمع قبطية، وهي ثياب من كتان تنسج بمصر.

الارض وأوراق النرجس الغض فلا يعبس ، فما انكرن ابيضاض شعر الفتى
لنفس اللون وذاته ، بل لذهاب بهجاته ، وادباره في حياته ، وانك لترى الصفرة
الخالصة في اوراق الاشجار المتناثرة عند الخريف واقبال الشتاء وهبوب الشمال
فتكرهها وتنفر منها ، وتراها بعينها في اقبال الربيع في الزهر المتفتق ، وفيما ينشئه
ويشيه من الديباج المونق ، فتجد نفسك على خلاف تلك القضية ، وتمتلئ من
الاريحية ، ذاك لانك رأيت اللون حيث النماء والزيادة ، والحياة المستفادة ،
وحيث ابشرت أرواح الرياحين وتبشرت أنواع التحاسين (١) ، ورأيته في
الوقت الآخر حين ولّت السعود ، واقشر العود (٢) ، وذهبت البشاشة والبشر ،
وجاء العبوس والعسر ، .... كذلك لم يحسن سواد الشعر في العيون لكونه سواداً
فقط ، بل لانك رأيت رونق الشباب ونضارته ، وبهجته وطلاوته ورأيت بريقه
وبصيصه يعدانك الاقبال ، ويريانك الاقبال (٣) ، ويُحضرانك الثقة بالبقاء ،
ويبعدان عنك الخوف من الفناء » (٤) .

وفي ملاحظاتنا أن عبد القاهر في تعليقه هذا وفي تنبيهه ذاك يدعو بمقاييسنا
النقدية والبلاغية المعاصرة الى وجوب توفير الجو النفسي المنسجم في التشبيه واشاعة
وحدة عاطفية ملائمة لخلق التجاوب الشعوري مع النفس الادبي ، كما يدعو الى
قاعدة بلاغية تؤكد أنه لايكفي في التشبيه أن يتلاقى طرفاه في وجه الشبه المادي ،
بل ينبغي ان يخلق جواً نفسياً ملائماً لذلك .

قوّم في ضوء هذه الدعوة النصوص الآتية :

---

(١) يقال ابشرت الارض اذا اخرجت بشرتها أي ماظهر من نبتها واما بشر الثلاثي فهو
من بشر في فلان أي لقني وهو حسن البشر طلق الوجه . والتحاسين. الاشياء
الحسنة جمع تحسين.
(٢) اقشر العود : أي تخشن وتغير لونه لعدم الري .
(٣) الاقبال : استئناف الامر وتجدده .
(٤) اسرار البلاغة ص٢٤٧ – ٢٤٨.

١ ــ قال دعبل بن علي في صفة المصلوب :

لم أرَ صفّاً مثل صفّ الزُّطّ تسعين منهم صُلّبوا في خطّ (١)
من كلّ عالٍ جِذْعُه بالشّطّ كأنه في جِذْعِه المُشْتَطّ (٢)
أخو نُعاس جَدّ في التمطّي قد خامر النومَ ولم يَغُطّ (٣)

٢ ــ قال احمد شوقي في القصور التي طغى عليها فيضان النيل فغرقت منها أجزاء وعامت أجزاء :

قِفْ بتلك القصور في اليمّ غَرْقَى مُمْسِكاً بعضُها من الذعرِ بَعْضا
كعذارى أخفين في الماء بَضّاً سابحاتٍ به وأبدين بَضّا

٣ ــ قال شاعر حسبه المبرد توبة بن الحميّر وروى ابو الحسن انه لمجنون بني عامر وهو الصواب .

كأن القلبَ ليلةَ قيل يُغْدَى بليلى العامريّة او يُراحُ
قطاةٌ غَرّها شَرَكٌ فباتت تُجاذبه وقد عَلِقَ الجَناحُ
لها فرخان قد غلقا بوكرٍ فَعُشُّهما تصفّقه الرياحُ (٤)

٤ ــ قال ابن وكيع التنيسي :

وسحاب إذا همى الماءُ منه ألهبَ الرعدُ في حشاه البروقا
مثل ماء العيون لم يَجْرِ إلاّ ظلّ يذكي على القلوب حريقا

(٨)

لقد برع عبد القاهر في تحليل شواهد كثيرة من تشبيه الصورة ، فتتبع اضربها والوانها وأسهب في بيان الترابط بين المشبه والمشبه به مُنَوّهاً بأسس هذا الترابط الحسية والعقلية والنفسية

---

(١) الزط : جيل اسود من السند او الهند .
(٢) المشتط : الطويل .
(٣) الغطيط : صوت نفس النائم .
(٤) غلق : من الغلق ، وهو الحبس .

ولعلّ المثال الذي يصح تطبيقا في هذا الميدان قوله : «ان مما يزداد به التشبيه دقةً وسحراً أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات وهذه الهيئة قد تقترن بغيرها من الاوصاف كالشكل واللون ونحوهما ، مثال ذلك قول الشاعر :

والشمس كالمرآة في كسف الاشـــل

أراد أن يريك مع الشكل الذي هو الاستدارة ومع الاشراق والتلألؤ على الجملة الحركة التي تراها للشمس اذا انعمت التأمل ثم مايحصل في نورها من اجل تلك الحركة ، وذاك أن للشمس حركة متصلة دائمة في غاية السرعة ولنورها بسبب تلك الحركة تموجٌ واضطرابٌ عجيبٌ ، ولا يتحصل هذا الشبه الا بأن تكون المرآة في يد الاشل ، لان حركتها تدور وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد حتى ترى المرآة لاتقر في العين وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب الذي كأنه يسحر الطرف وتلك حال الشمس بعينها حين تحد النظر وتنفذ البصر ، حتى تتبين الحركة العجيبة في جرمها وضوئها فانك ترى شعاعها كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ثم يبدو له فيرجع في الانبساط الذي بدأه الى انقباض ، كأنه يجمعه من جوانب الدائرة الى الوسط ؛ وحقيقة حالها في ذلك مما لايكمل البصر لتقريره وتصويره في النفس ، فضلا عن أن تكمل العبارة لتأديته ويبلغ البيان كنه صورته (1) .

١ – قال تعالى : «مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أسفاراً»(2) .

٢ – قال الرصافي في قصيدته معترك الحياة :

وليس الغنى إلاّ غنى العلم انه   لنور الفتى يجلو ظلامَ افتقاره
ولا تحسبنّ العلمَ في الناس منجياً   اذا نكبت أخلاقُهم عن مناره

(1) اسرار البلاغة ص١٦٤ – ١٦٥ .
(2) الجمعة ٥ .

٣ – قال أبو نؤاس :

والماء يفصل بين روض الز هـر في الشطين فصلا
كبساط وشي جرّدت أيدي القيون عليه نصلا (١)

٤ – قال فوزي المعلوف من قصيدته « شاعر في طيارة » :

هو في ميعة الشباب ولكن ضمّ في بردتيه شيخاً هزيلا
شارد الطرف ، تائه الفكر يحكي مُدْلجاً في الظلام ضلّ السبيلا
ذو جبين ألقت عليه شجون الـ نفس ظلا من العبوس ظليلا

(٩)

يزعم المستشرق غارثيا غومث في فصل عقده للكلام على ابن قزمان أحد الشعراء الاندلسيين المتأخرين :

« إن الصناعة اللفظية هي موضع العناية الكبرى في الادب العربي ، بين نثر مقيد بالاسجاع وبين ألوان من المجازات والاشباه ، والطلاوات واللوازم ، تعوزها الحرارة والشعور ، وكأنما هي كلها عرَضٌ من العروض المقنعة بالبراقع حيث البسمات لآلئ والعيون ازهار بنفسجيات ، والرياحين ، والجداول سيوف ، وان القارئ ليجهد اجتهاده بين ترجمات بير peres أوشاك Sehack فيثوء ذهنه بما يطبق عليه من النسق المتفق المتواتر . خصور كالاغصان تنبثق من آكام الرمال ، او شاعر يشبه نفسه بالطير الذي أثقل ندى الممدوح جناحيه فأعياه ان يطير ، أو برق يومض بين الغمام كأنه ضرام العشق في قلب الشاعر ، يتوهج من خلل دموعه ، ونصفها – أو أكثر من نصفها – قوالب منقولة يحكيها الناظمون من وحي الذاكرة ».

وقد فسر الاستاذ عباس محمود العقاد المجاز العربي بخاصة وأساليب البيان بعامة فقال : والمجاز هو الاداة الكبرى من أدوات التعبير الشعري ، لأنه تشبيهات

(١) القيون : جمع قين وهو الحداد .

وأخيلة وصور مستعارة واشارات ترمز إلى الحقيقة المجردة بالاشكال المحسوسة، وهذه هي العبارة الشعرية في جوهرها الاصيل ،

ولا تسمى اللغة العربية - فيما نرى - بلغة المجاز لكثرة التعبيرات المجازية فيها ، لان هذه التعبيرات قد تكثر في لغات عديدة من لغات الحضارة . وانما تسمى اللغة العربية بلغة المجاز لأنها تجاوزت بتعبيرات المجاز حدود الصور المحسوسه الى الحدود والمعاني المجردة . فيستمع العربي إلى التشبيه فلا يشغل ذهنه باشكاله المحسوسة الا ريثما ينتقل منها إلى المقصود من معناه . فالقمر عنده بهاء ، والزهرة نضارة ، والغصن اعتدال ورشاقة ، والطود وقار وسكينة » (١) .

ان هذا التفسير - بلا شك - هو ردّ على آراء المستشرق بيين لماذا أخطأ هذا المستشرق وغيره من المستشرقين في فهم أساليب البيان العربي .

وفي اعتقادنا أن هناك علة اخرى لهذا الخطأ تكمن في أن معظم المستشرقين الذين درسوا الادب العربي تشبعت عقولهم بالاسس المنطقية العقلية التي اقام عليها ارسطوطاليس منهجه في دراسة المجاز اذ عرّف المجاز وبين العلاقات بين المدلولات المجازية والمعاني بقوله : والمجاز نقل اسم يدل على شيء إلى شيء آخر : والنقل يتم اما من جنس إلى نوع ، أو من نوع إلى جنس، او من نوع إلى نوع او بحسب التمثيل . واعني بقولي : من جنس إلى نوع ما مثاله « هنا توقفت سفينتي » ، لان « الارساء ضرب من التوقف (٢) وأما من النوع إلى الجنس فمثاله : « أجل ، لقد قام أودوسوس بآلاف من الاعمال المجيدة (٣) » ، لان «آلاف » معناها كثير والشاعر استعملها مكان « كثير» . ومثال المجاز من النوع إلى النوع قوله : « انتزع الحياة بسيف من نحاس »و« عندما قطع بكأس متين من نحاس ::: »لان « انتزع»

---

(١) اللغة الشاعرة ص٣٧.

(٢) التوقف : جنس ، من انواعه المندرجة تحته «الارساء»

(٣) كثير : جنس من انواعه «الآلاف»

ههنا معناها «قطع»، و« قطع » معناها «انتزع» ، وكلا القولين يدل على تصرّم الاجل (الموت) .

واعني بقولي . « بحسب التمثيل » — جميع الاحوال التي فيها تكون نسبة الحد الثاني إلى الحد الاول كنسبة الرابع إلى الثالث ، لان الشاعر سيستعمل الرابع بدلا من الثاني والثاني بدلا من الرابع ، وفي بعض الاحيان يضاف الحد الذي تتعلق به الكلمة المبدل بها المجاز . ولايضاح ماأعني بالامثلة أقول أن النسبة بين الكأس وديونوس، هي نفس النسبة بين الترس وأرس، ولهذا يقول الشاعر عن الكأس انها «ترس ديونوس» ، وعن الترس انه «كأس أرس» .

وكذلك : النسبة بين الشيخوخة والحياة هي بعينها النسبة بين العشية والنهار ، ولهذا يقول الشاعر عن العشية ماقاله أنبادقليس انها « شيخوخة النهار » وعن الشيخوخة انها « عشية الحياة » أو « غروب الشمس » .

وفي بعض احوال التمثيل لايوجد اسم ، ولكن يعبر عن النسبة ، فمثلا نثر الحب يسمى « البذر » ولكن التعبير عن فعل الشمس وهي تنثر اشعتها لايوجد لفظ ، ومع ذلك فان نسبة هذا الفعل إلى اشعة الشمس هي بعينها نسبة « البذر » إلى الحب ، ولهذا يقال : « تبذر نوراً إلهياً » .

ويمكن ايضاً استعمال هذا الضرب من المجاز بطريقة أخرى : فبعد الدلالة على شيّ باسم يدل على آخر ، ننكر صفة من الصفات الخاصة بهذا الاخير ، فمثلا بدلاً من أن نقول عن الترس انه «كأس أرس» نقول عنه أنه «كأس بلا خمر» (1)

وبدهي ان منهج ارسطوطاليس باسمه المنطقية هذه يقف على طرفي نقيض من المنهج العربي الاصيل الذي يعتمد استقراء النصوص لترسيخ أسسه المتنوعة المتلونة في تجدد واتساع لرصد علاقات المجاز واجرائه في شتى أضربه : المجاز المرسل والمجاز العقلي والمجاز بالاستعارة ، فلا ينتهي بهذه العلاقات إلى انواع

(1) فن الشعر ص٥٨.

محددة ولا يحصر طريقة الانتقال والجواز بالكلمة الحقيقية في أطر محصورة وانما يقرر القواعد والضوابط العامة ثم يترك للاديب المبدع حرية صياغة مجازاته.

ومن المجازات العربية الاصيلة :

١ – قال تعالى : « واسأل القرية التي كنا فيها » (١)

٢ – قال المتنبي واصفاً احاطة جيوش سيف الدولة باعدائه :

والاعوجيةُ ملءُ الطرق خلفهمُ والمشرفيةُ ملءُ اليوم فوقهمُ (٢)

«ملء اليوم» يراد به ملء الفضاء الذي يشرق عليه النهار ، فالمجاز مرسل علاقته الحالية .

٣ – قال أبو تمام في المديح :

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوّذها برقية طالب (٣)

فقوله : « تكاد عطاياه يجن جنونها » اسند فيه المصدر « جنون » إلى فعله « يجن» فهو إذن مجاز عقلي علاقته المصدرية .

أجْرِ في ضوء هذه الامثلة المجازات المرسلة والمجازات العقلية التي وردت في النصوص الآتية :

١ – قال تعالى: « وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم» (٤) .

٢ – قال تعالى : «ينزع عنهما لباسهما» (٥) .

٣ – قال رجل من بني تميم :

إنَّ الذين يسوغ في أعناقهم زادٌ يُمَنُّ عليهم لَلِئامُ

لعَنَ الالهُ تعِلَّةَ بنَ مُسافرٍ لَعْناً يُشَنُّ عليه من قُدّامُ

---

(١) يوسف ٨٢.

(٢) الاعوجية : الخيل المنسوبة الى اعوج وهو فرس كريم لبني هلال . والمشرفية : السيوف .

(٣) يعوذها : يحصنها ، والرقية : العوذة حصنها رقي .

(٤) فصلت ٢٣ .

(٥) الاعراف ٢٧ .

٤ ـ قال أبو نواس :

فامْضِ لا تَمْنُنْ عليَّ يداً مَنُّكَ المعروفَ مــن كَــدَرِهْ

٥ ـ قال أحمد شوقي في لبنان :

السِحرُ من سُودِ العيون لقيته والبابِـــليِّ بلحظهــن سُقيتــه

٦ ـ وقال أحمد شوقي :

وإذا أرادَ اللهُ إشقاءَ القرى جعلَ الهُداةَ بهـا دعاةَ شقاقِ

٧ ـ قال طرفة :

ستبدي لك الايامُ ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبارِ مَنْ لم تُزوِّدِ

٨ ـ قال الشاعر :

يُغَنّي كمـا صدَحَتْ أيكةٌ وقــد نبَّــه الصُبْحُ أطيارَها

٩ ـ قال المتنبي :

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانـا وعناهُمْ مِـن أمرِه ما عنانـا

وتولوا بغصـةٍ كلهـم منـه وإنْ سَـرَّ بعضَهـم أحيانـا

ربمـا تحسِن الصنْعَ ليالِيه ولكــن تُكَــدِّرُ الاحسانـا

وكأنـا لم يَرْضَ فينا بريْـب الدهرِ حتى أعانـه مَنْ أعانـا

كلمـا أنبَتَ الزمـانُ قنـاةً ركَّبَ المرءُ في القناة سنانـا

١٠ ـ قال الشاعر :

تسيل على حدِّ الظُّبَاتِ نفوسُنا وليست عـلى غيرِ الظُّبَاتِ تسيل

١١ ـ قال المتنبي :

إني نَزَلْتُ بكذّابين ضيفهـم عن القرى وعـن التَّرحالِ محدود

١٢ ـ قال عنترة :

فَشكَكْتُ بالرمحِ الأصمِّ ثيابَه ليس الكريمُ على القنا بمحرَّمِ

أجرى البلاغيون المتأخرون الاستعارات في ضوء المصطلحات التي وضعوها تصحيح أقسامها وتفريع فروعها ووفق قواعد مرّ بعضها ونجمل بعضها الآخر فيما يأتي :

١ — إذا كان اللفظ المستعار « اسماً جامداً للذات» كالبدر إذا استعير للجميل « أو اسماً جامداً لمعنى » كالقتل إذا استعير للضرب الشديد ، سميت الاستعارة « اصلية في كل من التصريحية والمكنية» وقد سميت اصلية لعدم بنائها على تشبيه آخر معتبر أولا ».

٢ — إذا كان اللفظ المستعار « فعلاً » أو اسم فعل ، أو اسماً مشتقاً ، أو اسماً مبهماً أو حرفاً » ، فالاستعارة« تصريحية تبعية » ».

٣ — إذا كان اللفظ المستعار اسماً مشتقاً ، أو اسماًمبهماً» دون باقي أنواع التبعية المتقدمة « فالاستعارة « تبعية مكنية» « وسميت «تبعية» ، لان جريانها في المشتقات ،والحروف تابع لجريانها أولا في الجوامد ، وفي كليات معاني الحروف».

يعني أنها سميت تبعية لتبعيتها لاستعارة أخرى ، لانها في المشتقات تابعة للمصادر ، ولانها في معاني الحروف تابعة لمتعلق معانيها ،اذ معاني الحروف جزئية لاتتصور الاستعارة فيها الا" بواسطة كلي مستقل بالمفهومية ، ليتأتى كونها مشبّهاً ومشبّهاً بها أو محكوماً عليها ، أو بها ».

أجْرِ الاستعارات في النصوص الآتية معتمداً المصطلحات التي تبين أنواعها وتوضح علاقاتها :

١ — قال تعالى : «ولأُصلِّبَنَّكُمْ في جُذوعِ النَّخْلِ» (١) ».

٢ — قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « رب تقبل توبتي واغسل حوبتي» ».

---

(١) طه ٧٤.

٣ – قال البحتري :

يُسْؤدون التحية من بعيد   إلى قَسْر من الايوان بادِ

٤ – نظر أعرابي إلى رجل جيّد الكدنة (١) فقال : ياهذا، إني لأرى عليك قطيفة محكمة من نسج أضراسك؛ :

٥ – قال الرصافي :

دعوت غرّ القوافي وهي شاردة   فأقبلت وهي تمشي مَشْيَ مُعْتَذِرِ
وسلمتني عن طوع مقادتها   فرحت فيهن أجري جَرْيَ مقتدرِ

٦ – قال أبو ماضي من قصيدته (الفراشة المحنطة) :

ياروضةً في سماء الروض طائرةً   وطائراً كالاقاحي ذا شذا ذاكي
مضى مع الصيف عَهْدٌ كنتِ لاهيةً   فيه على رَفْرَفٍ بالزهر ضحّاكِ
فراشة الحقل في روحي كآبته   مما عراه ومما قد تولاكِ
خلت أرائكُ كانت أمس آهلةً   غنّاء فاليوم لاشادٍ ولا شاكي
أرضٌ خلاءٌ وجوٌ غير ذي ألقٍ   بلى هناك ضباب فوق أشواكِ

(١٢)

رأينا في دراستنا للتشبيه التمثيلي والاستعارة التمثيلية : ان معظم الباحثين البلاغيين تعثر أقلامهم بمشكلتين :

أولاهما : الخلط بين التشبيه التمثيلي والاستعارة التمثيلية وجعلهما فنين مترادفين يقوم أحدهما مقام الآخر ويؤدي عنه في الاسلوب البلاغي .

ثانيتهما : تعدد المصطلحات التي سميت بها الاستعارة التمثيلية؛

ولو وقفنا بين يدي القرآن الكريم لنحسم بآياته البينات هاتين المشكلتين ونستقر على ملحب لا حب في هذا الامر العظيم بقوله تعالى: « لو أنزلنا هذا القرآنَ على

(١) كدنة : قوة الجسم ، قال ابن القوطية في الافعال كدنت الشفة كدونا : اسودت، كدن البعير : كثر شحمه .

جَبَل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خَشْيَة الله وتلك الامثالُ نضربُها للناس لعلهم يتفكرون » (١) لقد فسر الزمخشري هذه الآية قائلاً:

« هذاتمثيل وتخييل ::: وقد دل عليه قوله « وتلك الامثال نضربها للناس » والغرض توبيخ الانسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره » (٢) :

ويبدو من هذا التفسير ان الزمخشري على رأيه من خلط بين التمثيل والاستعارة التمثيلية ، وأنه يؤثر مصطلح التمثيل على مصطلح المثل الذي ورد في الآية الكريمة جمعاً .

وفي رأينا أن هذه الآية الكريمة تضيء لنا الدرب لاستخلاص ثلاث قواعد من نصها الصريح الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

اولاها : ان التشبيه التمثيلي غير الاستعارة التمثيلية ، ففي الآية الكريمة لم يرد ذكر المشبّه الذي هو الانسان في حالته تلك كما لم تذكَر أداة التشبيه ، ولم ينص على وجه الشبه ، وعليه فان تصوير الجبل على وضعه ذلك مشبّه به في تشبيه حذف منه طرف هو المشبّه ، فهو إذنْ استعارة تمثيلية وليس بتشبيه تمثيلي .

ثانيتها : ان المصطلح الذي نص عليه القرآن الكريم دالا على هذا الفن التعبيري هو المثل ، ومن هنا فان المصطلحات الاخرى التي ذكرها علماء البلاغة لم تحررها هذه الآية الكريمة .

ثالثتها : ان الغرض من ضَرْبِ الامثال هو حمل الناس على التفكر والتدبر ، وإذن فإن هذا الفن التعبيري ليس غاية بنفسه ، وانما هو وسيلة لتحقيق أهداف وأهداف .

---

(١) الحشر ٢١.

(٢) الكشاف ج٤ص٥٠٩.

ادرس في ضوء هذه القواعد النصوص الآتية مميزاً التشبيه التمثيلي من الاستعارة التمثيلية وعللا سر بلاغتها وجمالها:

١ - قال تعالى: «اعلموا أنّما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولَهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بَيْنَكم وتكاثرٌ في الاموالِ والأولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفَّارَ نباتُه ثم يَهيجُ فتراه مُصْفَرّاً ثم يكونُ حُطاماً» (١) .

٢ - قال الشاعر:

اذا جاء موسى وألقى العصا فقد بَطَلَ السحرُ والساحرُ

٣ - قال المتنبي:

ومن يَكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرّاً به الماءَ الزُلالا

٤ - قبل الرمي يُراش السهم:

٥ - قال الشاعر:

اذا بسط الزمانُ يَدَيّ لئيمٍ فَصَبْراً للذي فَعَلَ الزمانُ
فقد تعلو على الرأس الذنابى كما يعلو على النار الدخانُ

(١٢)

مرّ بنا في المباحث التي عقدناها لتعريف الاساليب البيانية من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية وتحديد انواعها أن بينها مفارقات تميز كل واحد منها عن الآخر. وقد حرص البلاغيون القدامى على التحدث عن هذه المفارقات، وتصدى الرازي للذين عدّوا الكناية مجازاً وردّ عليهم بقوله: «وبيانه أن الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى ثانيا هو المقصود، واذا كانت تفيد المقصود بمعنى اللفظ ويجب ان يكون معناه معتبراً، واذا كان معتبراً، فما نقلت اللفظة عن موضوعها فلايكون مجازاً، مثاله اذا قلت: «كثير الرماد» فأنت تريد أن تجعل

(١) الحديد ٢٠.

حقيقة كثرة الرماد ،بيلا على كونه جوادا، فأنت قد استعملت هذه الالفاظ في معانيها الاصلية، ولكنَّ غرضك في افادة كونه كثير الرماد معنى ثان يلزم الاول وهو الجود، واذا وجب في الكناية اعتبار معانيها الاصلية لم تكن ملزم أصلا»(١)؛

ثم ان للفظة المجازية قرينة لفظية أو معنوية تمنع ارادة معناها الحقيقي؛

وتناول ابن الاثير مايميز الكناية عن التعريض فقال: «التعريض أخفى من الكناية، لان دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، ;;;; واعلم أنَّ الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا، فتأتي على هذا تارة، وعلى هذا اخرى، واما التعريض فانه يختص باللفظ المركب، ولايأتي في اللفظ المفرد البتة»؛

والدليل على ذلك أنه لايفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وانما يفهم من جهة التلويح والاشارة ،وذلك لايستقل به اللفظ المفرد، ولكنه يحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب »(٢)؛

اعتمد مادرست من المفارقات بين الاساليب البيانية ومايميز انواع كل اسلوب عن بعض ثم حدد الاسلوب البياني في النصوص الآتية ذاكراً اسمه ومحللا أركانه؛

١ - قال تعالى :«هو الذي أنزل عليك الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابهات (٣) »

٢ - قال تعالى :«قالوا: أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا ياابراهيمُ؟ قال :بل فَعَلَه كَبِيرُهم هذا فاسألوهم إنْ كانوا يَنْطِقُون»(٤) ؛

---

(١) نهاية الايجاز ص١٠٣ .

(٢) المثل السائر القسم الثالث ص٥٧ .

(٣) آل عمران ٧.

(٤) الانبياء ٦٢-٦٣.

٣ – ويُروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم، والمرء كثير بأخيه».

٤ – يروى عن لقمان الحكيم انه قال لابنه : يابني اذا أتيت مجلس قوم فارمهم بسهم الاسلام، ثم اجلس، فان افاضوا في ذكر الله فأجِلْ سهمك مع سهامهم وإنْ افاضوا في غيره فخلّهم وانهض.

٥ – وكان الحجاج بن يوسف يقول على المنبر : « أيها الناس ، اقدعوا هذه الانفس فانها أسأل شيء اذا أعطيت ، وأمنع شيء اذا سئلت ، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها (١) إلى طاعة الله ، وعطفها بزمامها عن معصية الله ، فاني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه » .

٦ – قال ابو الهندي ، وهو عبد المؤمن بن عبد القدوس :

مقدمة قسزاً كـأنَّ رقـابَها رقابُ بناتِ الماء أفزعها الرَّعـْـدُ

٧ – قال عمران بن حطّان في الحجاج :

هلا برزْتَ إلى غزالَةَ في الوغى بل كان قلبك في جناحيْ طائر

٨ – قال بشار بن برد يذكر عبيد الله بن قزعة :

فقل لابي يحيى متى تُدْرِكُ العلا وفي كل معروفٍ عليك يمينُ
اذا جئته في حاجة سدّ بابَه فلم تَلْقَهُ إلاّ وأنت كـمينُ

٩ – قال أحمد شوقي :

ضحكت إليّ من السرور ، ولم تزل بِنْتُ الكروم كريمةَ الأعراقِ

١٠ – وقال ايضاً في عمر المختار :

وافاه مرفوعَ الجبيـن كأنّه سقراطُ جـرّ إلى القضاة رداءا

(١) اقدعوا : امنعوا. الخطام : حبل من ليف او شعر او كتان يثنى طرفه على مخطم البعير ليقاد به ، والزمام: حبل دقيق يجعل في انفه .

١١ – وقال ايضاً من قصيدته – اندلسية – :

فان يك الجنس يابن الطلح فرّقنا إنَّ المصائبَ يَجْمَعْنَ المُصابينا

١٢ – قال الرصافي في قصيدته « العالم شعر » :

أسكانَ بطن الارضِ هلا ذكرتم عهوداً مضت منكم ولنتم على الظَّهْرِ

رضيتم باكفان للبلى حُللاً لكم وكنتم أولي الديباج والحُلَلِ الحُمْرِ

١٣ – كان عروة بن الزبير اذا اسرع اليه انسان بسوء لم يجبه ويقول إني لاتركك رفعاً لنفسي عنك فجرى بينه وبين علي بن عبدالله بن عباس كلام فاسرع اليه عروة بسوء فقال اني اتركك لما تترك الناس له .

١٤ – قال شاعر في مهنة رجل :

أبوك أبٌ مازال للناس مُوجعاً لاعناقهم نَقرٌ كما يَنْقُرُ الصَّقْرُ

اذا عوّج الكُتّابُ يوماً سطورهم فليس بمعوّج له أبداً سَطْرُ

• • •

الباب الرابع

علم البديع



الفصل الاول

البديع

المبحث الاول

نشأته وتطوره

يقتضي معرفة مدلول البديع اصطلاحاً مؤدياً عن علم مخصوص من علوم البلاغة أن نلمّ بالمعاني اللغوية التي تقلبت عليها هذه الكلمة في المعجمات .

البديع لغة :

من يطالع في هذه المعجمات يدرك أن كلمة البديع «فعيل» من الفعل «بدع» الذي ورد بمعان(1) ، منها «بدع الشيء يبدعه بدعاً وابتدعه: انشأه وبدأه» وبدع الركية : استنبطها وأحدثها، وابتدعت الشيء : اخترعته لاعلى مثال.

وعلى هذه المعاني اللغوية لتلك الافعال دارت كلمة البديع ، ففي القرآن الكريم: البديع من أسماء الله تعالى لابداعه الاشياء واحداثه اياها ، وذلك في قوله تعالى: «بديعُ السماوات والارض واذا قضى امراً فانما يقول له كُنْ فيكون»(2) وفي قوله جلّ اسمه: «بديعُ السماوات والارض أنّى يكون له وَلَدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخَلَقَ كلَّ شيءٍ وهو بكل شيء عليم»(3) »

وركي بديع: حديثة الحفر، والبديع: المحدث العجيب ، والبديع: المبدع، وحبل بديع: جديد.

وعلى هذا فان لكلمة البديع لغة ثلاثة معان متقاربة تستمد مفاهيمها من الاختراع والحداثة والجدة في أمور مادية ومعنوية.

(1) لسان العرب (بدع) .
(2) البقرة ١١٧.
(3) الانعام ١٠١.

تاريخ مصطلح البديع :

لقد تتبع المؤرخون المعاصرون (١) للبلاغة العربية تطور كلمة البديع ودخولها ميدان الدراسات البلاغية اصطلاحاً مخصوصا ،فنبهوا على ان بين القدامى خلافا في النص على الذين استعملوا مصطلح البديع أول مرة ؛

فقد ذكر الجاحظ (٢) (– ٢٥٥ هـ) ان الرواة هم الذين اطلقوا مصطلح البديع اول مرة على المستطرف الجديد من الفنون الشعرية وعلى بعض الصور البيانية التي يأتي بها الشعراء في اشعارهم فتزيدها حسنا وجمالا ؛ في حين ان ابا الفرج الاصفهاني (٣) ذكر ان الشاعر العباسي مسلم بن الوليد (– ٢٠٨ هـ) كان أول من اطلق هذا المصطلح ؛

وأيا كان فان مصطلح البديع قد ولد في أوائل القرن الثالث للهجرة واعتمده الرواة والباحثون من النقاد والبلاغيين واللغويين ليدلوا على ما اتصف به الشعراء المولدون من أمثال كلثوم بن عمرو ومنصور النمري وبشار بن برد ومسلم بن الوليد ، وابي تمام ، الذين أكثروا من الاساليب البيانية في قصائدهم وأفرطوا فيمازينها من المحاسن والملح ؛

فنون البديع :

ولعل عبد الله بن المعتز (– ٢٩٦ هـ) هو أول من صنّف في هذا الميدان كتابا سماه «البديع» ، فهو يقول : «وما جمع فنون البديع ولا سبقني اليه أحد وألفته سنة اربع وسبعين ومائتين» (٤)

والمؤلف في كتابه هذا لايعرف البديع ولا يسعى الى تحديد فنونه وابوابه بما يجعله موضوعا راسخ المعالم منغلق الملامح متميز الاركان ، وغاية مايقرره

---

(١) راجع البلاغة تطور وتاريخ ٣٥٨ وكتاب فنون بلاغية ص١٩٦.
(٢) راجع البيان والتبيين ج٤ص ٥٥ .
(٣) راجع الاغاني ج١٩ ص٣١ .
(٤) البديع ص٥٨ .

بهذا الصدد ، بعد أن يذكر أبوابه الخمسة التي هي : الاستعارة ، والتجنيس والمطابقة وردّ اعجاز الكلام على ماتقدمها ، والمذهب الكلامي قوله : «قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال البديع أكثر من هذا، وقال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها فيقل من يحكم عليه لان البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ماهو» (١) ،

ثم يعطف على ذكر بعض محاسن الكلام والشعر ويعلن ان محاسنها كثيرة لاينبغي للعالم أن يدّعي الاحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره ثم يقول: «وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا الى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره» (٢) ،

ومحاسن الكلام والشعر التي ذكرها ثلاثة عشر وهي: الالتفات، واعتراض كلام في كلام لم يتمم معناه ثم يعود اليه فيتممه في بيت واحد ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد مدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، وهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين، والتعريض والكناية ، والافراط في الصفة وحسن التشبيه ، وإعنات الشاعر نفسه في القوافي وحسن الابتداءات ،

ويتضح من هذا ان ابن المعتز الى جانب ما قدمنا من تجنبه تعريف البديع وتحديد أبوابه ، ينسب الى ابواب البديع ثلاثة فنون من ابواب علم البيان وهي : التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، وبذلك سنّ للذين صنفوا في هذا الباب من بعده سنّة

(١) البديع ص٥٨ .
(٢) البديع ص٥٨ .

التوسع في معنى البديع ليقوم في معناه مقام البلاغة حتى بعد أن استقلت فيها علوم البيان والبديع والمعاني ؛

وعلى هذه السنّة جرى المصنفون في إعجاز القرآن والمؤلفون في علم البلاغة والمتحدثون في موضوعات الادب منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فأخذوا يضيفون الى ما اكتشف ابن المعتز من فنون البديع ومحاسن الكلام والشعر ما رأوه سبقا توصلوا اليه وكشفوا عنه اذ لم يلبث أن نقد قدامه بن جعفر الى زيادة ثلاثة عشر محسنا ، ثم تلاه أبو هلال العسكري فعدّ من المحسنات خمسة وثلاثين ، وكذلك صنع ابن رشيق في كتابه «العمدة» (١) .

وقد ظل مصطلح البديع على هذا النحو من إغفال تعريفه وإقامة حدوده وتركه شاملا متسعا حتى لدى الذين اخذوا لفظه وأقاموه عنوانا لمصنفاتهم ، فأسامة بن منقذ (– ٥٨٤هـ) سمّى احد كتبه «البديع في نقد الشعر» جمع فيه خمسة وتسعين فنا بلاغيا ، لم يعرّف البديع أو يتحدث عنه وانما اشار الى أنه جمع في كتابه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين المصنّفة في نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ليكون مغنيا عن تلك الكتب لتضمنه أحسن ما فيها (٢) .

وكذلك فعل ابن أبي الاصبع المصري (– ٦٥٤هـ) في كتابه «بديع القرآن» اذ جعل همّه الاشارة الى مصادره ونقد من سبقه والتنويه بما انتهى اليه فذكر : أن شرف الدين التيفاشي جمع في كتابه البديع مالم يجمع غيره ، لولا مواضع نقلها كما وجدها ولم ينعم النظر فيها ثم روى قصة جهوده مع البديع في مصنفاته فقال : « غير اني توخيت تحرير ما جمعته جهدي ، ودققت النظر حسب طاقتي ووسعي ، فتجنبت التداخل ، وتحرّست من التوارد ، ونقحت ما يجب تنقيحه ، وصححت ما قدرت على تصحيحه ، ووضعت كل شاهد في موضعه ، وربما أبقيت اسم الباب وغيّرت مسمّاه ، اذا رأيت اسمه لايطابق معناه ، إلى ان

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص٣٥٨ .

(٢) راجع البديع في نقد الشعر ص٨ .

جمعت من ذلك خمسة وتسعين باباً اصولا وفروعا ، فالاصول منها ما ابتكر المخترعان الاولان تدوينه ، وهما قدامة بن جعفر الكاتب وابن المعتز ، وعدتها ثلاثون بابا بعد حذف ما توارد عليه منها ، وما تداخل عليهما فيها ، وخمسة وستون بابا لمن جاء بعدهما ، إلى زمني هذا على ما قدّمت من الشرائط ، ورأيت أن أضيف إلى ذلك الاصل والمضاف فذلكة أنا مخرج اسمائها ، ومستخرج شواهدها فاستنبطت واحداً وثلاثين بابا لم أسبق في غلبة ظني إلى شيء منها ، إلا ان يوجد في زوايا الكتب شيء من ذلك لم أقف عليه ، فأكون انا ومن سبقني متواردين عليه ، وما اخال ذلك أن شاء الله تعالى ».

فأضفت ما استنبطت الى الاصل والمضاف الذي جمعت فصارت الفذلكة مائة باب وستة وعشرين بابا كلها في كتابي الجامع لبديع جميع الكلام الموسوم بتحبير التحرير ، ولما فتح علي بعمل الكتاب الذي جمعته وسمته ببيان البرهان في اعجاز القرآن، وعلمت أنه لابدّ له من تتمة تتضمن ما في الكتاب العزيز من أبواب البديع فأفردت ما يختص بالقرآن . فكان ذلك مائة باب وثمانية أبواب » (١) .

ثم يشرع في سوقه الابواب مبتدئا اياها بباب الاستعارة كما فعل ابن المعتز قبله بثلاثة قرون من غير ان يعرف البديع ويقصر من اطرافه ويفرّق ما بينه وبين البلاغة بل أدخل فيه بعض ابواب المعاني مثل الاطناب والتكرار والتذييل والاستقصاء والايضاح والبسط والايجاز .

البديعيات :

وبعد هذا دخل البديع في دائرة التقريض فتجرد طائفة من الشعراء لنظم فنونه وترصيع قصائدهم بألوانه وفق طراز مخصوص،ويحدثنا تاريخ البلاغة (٢) العربية بهذا الشأن أن علي بن عثمان الاربلي (— ٦٧٠هـ) ،نظم قصيدة في مديح

(١) بديع القرآن ص١٣—١٥.
(٢) راجع البلاغة تطور وتاريخ ص٣٦٠ .

بعض معاصريه مضمناً كل بيت منها محسنا من محسنات البديع ، وبازاء كل بيت المحسن الذي يشير اليه .

ونظم صفي الدين الحلي (– ٧٥٠ه) قصيدة في مديح الرسول – صلى الله عليه وسلّم – على غرار بردة البوصيري المشهورة ، وقد امتدت الى مائة وخمسة وأربعين بيتا وضمن كل بيت فيها محسناً من محسنات البديع ،بحيث ضمت مائة وخمسين محسنا وسماها «الكافية البديعية في المدائح النبوية » وألف عليها شرحا سماه «النتائج الالهية في شرح الكافية البديعية » .

ثم اخذ العلماء يتبارون في نظم قصائد بديعيات على غرار بديعية صفي الدين الحلي يمدحون بها الرسول الكريم ويضمنون كل بيت فيها محسنا بديعيا ؛ ومن هذه البديعيات بديعية ابن جابر الاندلسي (– ٧٨٠ه) المسماة «الحلة السيرا في مدح خير الورى » ، وبديعية الشيخ عز الدين الموصلي (– ٧٨٩ه) وبديعية ابن حجة الحموي (– ٨٣٧ه) وبديعية عائشة الباعونية الدمشقية (– ٩٢٢ه) وبديعية صدر الدين بن معصوم الحسيني المدني (– ١١١٧ه) التي صنف عليها ناظمها شرحا سماه «أنوار الربيع في أنواع البديع » وهي من طراز بديعية ابن حجة وعز الدين الموصلي .

ولعبد الغني النابلسي الصوفي (– ١١٤٣ه) بديعيتان : اولاهما على مثال بديعية صفي الدين الحلي وعائشة الباعونية ، أي أنَّ أبياتها لاتتضمن اسماء المحسنات البديعية واختار لها اسم «نسمات الاسحار في مدح النبي المختار » .

وثانيتهما من طراز بديعية عز الدين الموصلي وابن حجة الحموي أي أن ابياتها تتضمن اسماء المحسنات البديعية .

وجرى شعراء معاصرون في هذه الحلبة فنظموا بديعيات تلتقي مع البديعيات التي قلدوها في انها تأخذ شكل مختصرات مجملة تكاد تكون رموزاً ، ولذلك كان ناظمها أو غيره يعمد الى شرحها ، فوصلنا مع علم البديع في هذه البديعيات الى ،

وصلنا اليه مع البلاغة العربية كلها عند السكاكي ومن جاء بعده . فالمؤلف يعمد الى التلخيص الشديد ، ويحتاج عمله الى الشرح ، وتوضع الشروح ، وقلما يظفر البديع نفسه بدراسة غنية سوى الافراط والتفريط في تصنع أنواع البديع واختلاقها وتسميتها بهذا المصطلح أو ذاك من المصطلحات التي كان الشغل الشاغل لناحتيها أن يكثروها عدداً ويزيدوها احصاءً حتى ولو لم تكن مسمياتها من البديع في شي . لذلك امتد البديع ليشمل الصور البيانية وكثيراً من صور علم المعاني ، وأخذ المؤلفون فيه يضيفون أشياء واسماء لايمكن أن تدخل في المحسنات كالتقسيم والاستدراك والتفريق ، وذكر أوصاف عدة لموصوف والبسط والاعتراض ، والتكرار ، وتوعوا في تسمية صوره ، وعموم الخطاب مثل: « يا ايها الناس» والتغليب والتسليم والالجاء الى غير ذلك (١) ، مما احال الكلام في البديع ومحسناته الى صورة غثة ، ضررها اكثر من نفعها ، لانها خلطت بديعا مزيفا بالبديع الحقيقي (٢) .

اهمية البديع

ان هذه الحقيقة التاريخية لاتغفل أهمية البديع في البلاغة العربية ولا تنكر دور فنونه المبتكرة في بناء الاسلوب الفني للادب العربي ، ذلك لان هذه الفنون أصلية في هذا الادب جرت في أوصاله منذ أقدم عصوره وفي شتى موضوعاته واغراضه وانها لم تكن بدعة شكلية اصطنعها الشعراء المولدون في العصر العباسي الاول وفرضوها فرضاً على اللغة العربية .

وقد انتبه ابن المعتز الى هذه المسألة واعتمدها منهجا تاريخيا في تأليف كتابه الذي هو باكورة المصنفات في البديع فقال . «قد قدمنا في ابواب كتابنا هذا بعض ماوجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والاعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سمّاه المحدثون

(١) راجع البلاغة تطور وتاريخ ص٣٦٦.

(٢) انظر فنون بلاغية ص٢١١ وما بعدها .

البديع ليُعْلِمَ « أنّ » بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيَّلَهُمْ وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن » (١) .

أصالة فنون البديع :

لقد سعى عبد القاهر الجرجاني الى ترسيخ معايير تطبيقية لتمييز فنون البديع الاصيلة عن التزويق اللفظي والصناعة الشكلية مقرراً بذلك اهمية هذه الفنون وعدداً سبيل تحقيقها وتجنب الافراط فيها فقال متحدثاً عن البديع عامة وفن التجنيس والسجع خاصة : « ان مايعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان بالفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به .... ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، ولزموا سجية الطبع ،أمكن في العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذوي التحصيل ، وأسلم من التفاوت وأكشف عن الاغراض ، وانصر للجهة التي تنحو نحو العقل ، وأبعد من التعمد الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق ، والرضى بأن تقع النقيصة في نفس الصورة وذات الخلقة اذا اكثر فيها من الوشم والنقش ، واثقل صاحبها بالحلي والوشي ، قياس الحلى على السيف الدّدان (٢) والتوسع في الدعوى بغير برهان ، كما قال :

اذا لم تشاهِدْ غير حُسْنِ شياتها وأعضائها فالحُسْنُ عنكَ مغيَّبُ (٣)

وقد نجد في كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع الى ماله اسم في البديع الى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل اليه أنه اذا جمع بين اقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ماعناه في عماء وأن

---

(١) البديع ص١٠ .

(٢) الددان بالفتح : الكليل فهو كالكهام وزنا ومعنى ويطلق على ضده وهو القطاع .

(٣) الشيات : جمع شية كعدة وعدات ، وهو كل لون في الشيء يخالف معظم لونه الاصلي وهو من الوشي . والكلام في الخيل .

يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء وربما طمس بكثرة مايتكلفه على المعنى وافسده ، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى ، حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها» (١) .

فهنا يذكر عبد القاهر اربعة معايير لبيان دور فنون البديع ووضع اليد على عاقبة التفريط فيها :

أولها : ملاءمة في البديع للمعنى وانسجامه معه والتحاقه به .

وثانيها : صدوره عن الطبع وانبثاقه عن السليقة والامساك به اذا ماجاء عن تصنع وتكلّف .

وثالثها : توظيفه من اجل الافهام والابانة .

ورابعها : تجنبه للاكثار والتراكم بلا طائل وبلا هدف .

ان هذه المعايير — بلا ريب — تصبح في ميدان التطبيق مؤشرات لتمييز البديع الاصيل عن المزيف ووضع حدّ للاكثار من فروعه وشعبه حتى يضيع معها دوره الاصيل في اشراقة الاسلوب العربي ووضوحه وبيانه وتأثيره .

(١) أسرار البلاغة ص ٨-٩.

المبحث الثالي

المحسنات المعنوية واللفظية

رأينا فيما مضى ان مصطلح البديع ولد في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة ليدل على مفهوم عام اتسع لموضوعات من علم البيان والمعاني ، وانه ظل كذلك طوال العصور المختلفة حتى كاد يقوم في مدلوله مقام علوم البلاغة كلها ويضم اليه فنون القول وألوان التعبير المتعددة .

السكاكي وتقسيم البديع :

وفي هذا الخضم من تقلب مصطلح البديع تصدى السكاكي (-٦٢٦هـ) لطائفة من فنونه فتناولها بمنهجه الكلامي وأولع بتقسيماتها وتفريعاتها ، ومما يلاحظ بهذا الصدد أنه لم يُسَمِّ ما تناول من فنون البديع بديعا ولم يعتمد مصطلحه ، كما انه لم يدخلها في البلاغة وانما سمّاها محسنات ورآها وجوها (١) مخصوصة كثيراً ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام ، وذكر منها ستة وعشرين لونا وترك باب التنبيه على المزيد منها مفتوحا للباحثين والمتأملين . والسكاكي في تصديه لانواع البديع تلك صنفها إلى قسمين: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ.

فمن الضرب الاول : المطابقة ، والمقابلة ، والمشاكلة ، ومراعاة النظير ، وهو الجمع بين المتشابهات كقوله :

وحرف كنون تحت راء ولم يكن بدال يؤم الرسم غيَّره النقط

والمزاوجة وهي أن تزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء ، كقوله :

اذا ما نهى الناهي فلجَّ بيَ الهوى أصاخ إلى الواشي فَلَجَّ بِي الهَجْـرُ

واللف والنشر ، وهو أن تلف بين شيئين في الذكر ثم تتبعهما كلاماً مشتملاً على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد كلاً منهما إلى ماهو له كقوله عزّ وعلا : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » (٢) »

---

(١) راجع مفتاح العلوم ص٢٠٠.

(٢) القصص ٧٣.

والجمع هو أن تدخل شيئين فصاعداً في نوع واحد كقوله :

إنَّ الفراغَ والشبابَ والجِدَه   مَفْسَدَةٌ للمرءِ أيّ مفسده

والتفريق ، وهو أن تقصد إلى شيئين من نوع فتوقع بينهما تبايناً كقوله :

ما نوالُ الغمامِ وقتَ ربيعٍ   كنوالِ الأميرِ وقتَ سخاءِ
فنوالُ الاميرِ بَدْرَةُ عينٍ   ونوالُ الغمامِ قطرةُ ماءِ

والتقسيم : وهو أن تذكر شيئاً ذا جزأين أو اكثر ثم تضيف إلى كل واحد من اجزائه ما هو له عندك كقوله :

أديبانِ في بلخٍ لا يأكلان   اذا صحبا المرءَ غيرَ الكَبِدْ
فهذا طويلٌ كظلِّ القناةِ   وهذا قصيرٌ كظلِّ الوتِدْ

والجمع مع التفريق : وهو أن تدخل شيئين في معنى واحد وتفرق جهتي الادخال كقوله :

قد اسودَّ كالمسك صُدْغاً   وقد طاب كالمسك خُلْقا

فانه شبَّه الصُدْغَ والخُلُقَ بالمسك ثم فرّق بين وجهي المشابهة كما ترى ،

والجمع مع التقسيم : وهو أن تجمع اموراً كثيرة تحت حكم ثم تقسم ، أو تقسم ثم تجمع ، مثال الاول قول المتنبي :

الدهرُ معتذرٌ والسيفُ منتظرٌ   وأرضُهُمْ لك مصطافٌ ومُرْتَبَعُ
للسبي ما نكحوا والقتلِ ماولدوا   والنهبِ ماجمعوا والنارِ مازرعوا

فانه جمع في البيت الاول أرض العدو وما فيها في كونها خالصة للممدوح وقسم في الثاني ، ومثال الثاني قول حسان رضي الله عنه :

قومٌ اذا حاربوا ضرّوا عدوهم   أوحاولوا النفعَ في اشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلكَ منهم غيرُ محدثةٍ   إنَّ الخلائق فاعلم شرُّها البِدَعُ

فانه قسم في البيت الاول حيث ذكر ضرهم للاعداء ونفعهم للاولياء ثم جمع في الثاني فقال : «سجية تلك» ،

والجمع مع التفريق والتقسيم ، كما اذا قلت :

فكالنار ضوءً وكالنار حرّاً   محيّا حبيبي وحرقة بالي
فذلك من ضوئه في اختيال   وهذا لحرقته في اختلال

والايهام ويقصد به التورية ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم .

والتوجيه : وهو ايراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين ؛

وسوق المعلوم مساق غيره ، كقوله تعالى : «وإنّا او إياكم لعلى هُدىً أو في ضلال مبين » (١) ؛

والاعتراض : ويسمى الحشو ، والاستتباع ، وهو المدح بشيءٍ على وجه يستتبع مدحا آخر كقوله :

نَهَبْتَ من الاعمار ما لو حويته   لهنّئت الدنيا بأنك خالدُ

والالتفات ، وتقليل اللفظ ولا تقليله ؛

ومن القسم الثاني : التجنيس ورد العجز الى الصدر ، والقلب ، والاسجاع ، والفواصل القرآنية ، والترصيع ، وهو ان تكون الالفاظ مستوية الاوزان متفقة الاعجاز او متقاربتها كقوله عز اسمه : «إنّ الينا ايابهم ثم إنّ علينا حسابهم » (٢)؛

وواضح من هذا : أن السكاكي(٣) يقسم لأول مرة فنون البديع الى ضربين :

اولهما : المحسنات المعنوية .

ثانيهما : المحسنات اللفظية .

---

(١) سبأ ٢٤.

(٢) الغاشية ٢٥ – ٢٦.

(٣) راجع مفتاح العلوم ص٢٠٠ – ٢٠٤.

وعندما لخص بدر الدين بن مالك (–٦٨٦هـ) القسم الثالث من «مفتاح العلوم» للسكاكي في كتابه «المصباح في علم المعاني والبيان والبديع» اطلق مصطلح «البديع» على القسم الثالث من البلاغة (١)،

وخلطه بالفصاحة، اذ مهد له بقوله: «وهو معرفة توابع الفصاحة فلا بد للخوض فيه من تقديم ذكرها فنقول: «الفصاحة هي صوغ الكلام على وجه له توفية بتمام الافهام لمعناه وتبيين المراد منه، وهي نوعان: معنوية ولفظية» (٢).

وبعد ان ذكر طائفة من شروط الفصاحة اللفظية والفصاحة المعنوية استرسل في حديثه عما يتعلق بفنون البديع فقال: «وقد ظهر من هذا ان لابدَّ من تكميل الفصاحة من إبانة المعنى باللفظ المختار وهي من متممات البلاغة ومما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين، ويتفرع منها وجوه كثيرة يصار اليها في باب تحسين الكلام، فلنتعرض لذكر الاهم منها في ثلاثة فصول لأنها اما راجعة الى الفصاحة اللفظية واما راجعة الى المعنوية، والراجعة الى المعنوية اما مختصة بالافهام والتبيين، واما مختصة بالتزيين والتحسين» (٣).

وذكر مما يتعلق بالفصاحة اللفظية اربعة وعشرين نوعاً، ومما يخص الفصاحة المعنوية تسعة عشر نوعاً، ومما يرجع الى الفصاحة المختصة بتحسين الكلام وتزيينه الدالة على قوة عارضة المتكلم وتمكنه خمسة عشر نوعاً، فهذه ثمانية وخمسون نوعاً من فنون البديع اقتبس اربعة وعشرين فناً من كتاب «مفتاح العلوم» وتلقف سائرها من الكتب الاخرى التي رأينا تتفنن منذ ايام ابن المعتز في الاكثار منها وزيادة عددها.

---

(١) ينظر البلاغة عند السكاكي ص٣٧٠ وفنون بلاغية ص٢٠٥، ومصطلحات بلاغية ص٨٨ ومناهج بلاغية ص٣٢٢.
(٢) المصباح ص٧٥.
(٣) المصباح ص٧٦.

اما قسمته هذه الثلاثية فليس لها أي اساس موضوعي وان تمييزه بين المحسنات المعنوية وتفريعها الى قسمين لايتضح ولا يستقيم ثم انه قد خالف البلاغيين بادخاله المطابقة والمقابلة في المحسنات اللفظية وهو في مخالفته هذه لايكاد يستند الى شيء ذلك لانه لايشك أحد في أن هذين الفنين البديعيين يتعلقان بالمعاني ولا يمتان الى الالفاظ بصلة فنية . ومهما يكن فان عمل بدر الدين بن مالك مظهر لما وصلت اليه البلاغة العربية لدى اتباع المدرسة الكلامية من الجمود والولع بالتقسيمات والتفريعات .

فنون البديع بين محسنات معنوية ومحسنات لفظية:

لقد التزم الخطيب القزويني (– ٧٣٩هـ) بقسمة السكاكي لفنون البديع الى محسنات معنوية ومحسنات لفظية ، مضيفاً الى ما أورد السكاكي فنونا جديدة ذلك لانه ذكر من المحسنات المعنوية اثنين وثلاثين نوعا ومن المحسنات اللفظية تسعة أنواع وفصله عن البلاغة فصلا تاما » اذ عد البلاغة علمين هما : علم المعاني وعلم البيان »

ومن هنا فقد حد البديع بقوله : «علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة » (١) .

وفي ضوء هذا التعريف أقصى عن البديع ماعده بعضهم من فنونه نحو ما يرجع في التحسين الى الخط دون اللفظ مع انه لايخلو من التكلف ، ككون الكلمتين متماثلتين في الخط ، وكون الحروف منقوطة او غير منقوطة ، ونحو ما لا أثر له في التحسين ، كما يسمى الترديد »

أو لعدم جدواه ، نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخرين مما هو داخل فيما ذكرناه ، كما سماه الايضاح ، فانه في الحقيقة راجع الى الاطناب او خلط فيه ، كما سماه حسن البيان » (٢) »

(١) الايضاح ص٣٣٤ .
(٢) الايضاح ص٤٠١ .

ان البلاغيين بعد القزويني لم يأتوا بشيء ذي بال في قسمة المحسنات البديعية الى محسنات معنوية ومحسنات لفظية وغاية ما انتهوا اليه انهم علقوا المحسنات المعنوية بما يدخل في التحسين المعنوي وتزيين الكلام من حيث مضمونه .

اما المحسنات اللفظية فقد جعلوها خاصة بالمسموع من ظواهر الالفاظ وأجراسها فاصلين بذلك بين اللفظ والمعنى في بنية النص الادبي الذي لايمكن تصور ذلك الفصل فيه إلا فرضاً وتوهماً ؟

الفصل الثاني

المحسنات المعنوية

المبحث الاول

التورية

التورية لغة :

التورية لغة (١) : مصدر وريت الحديث : اذا أخفيته وأظهرت غيره ، قال أبو عبيدة : لا أراه إلاّ مأخوذاً من وراء الانسان ، فاذا قال : وريته فكأنه جعله وراءه بحيث لايظهر .

التورية اصطلاحاً :

اما في الاصطلاح (٢) : فهو أن يذكر لها معنيان ، أما بالاشتراك ، أو التواطؤ ، أو الحقيقة والمجاز أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية ، فيقصد المتكلم المعنى البعيد ، ويورّي عنه بالقريب ، فيتوهم السامع أنه يريد للقريب من أول وهلة ، ولهذا سمي ايهاما : كما سمي توجيها وتخيلا ، والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى ، من ذلك قوله تعالى : « قالوا تالله إنّك لفي ضَلالك القديم » (٣) ، فانظر إلى كون الضلال ههنا يحتمل الحب وضد الهدى ، وكيف استعمله أولاد يعقوب عليه السلام ضد الهدى ، فوروا به عن الحب ليعلم ان المراد ما أهملوا لا ما استعملوا (٤) .

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري :

وحرفٍ كنونٍ تحت راءٍ ولم يكن بدالٍ يؤم الرسم غيَّرهُ النقط

فمن سمع هذا البيت توهم انه يريد براءٍ ودالٍ حرفي الهجاء لانه صدّرَ بيته

---

(١) راجع خزانة الادب ص٢٣٩ وانوار الربيع ج٥ص٥ .

(٢) السابقان والايضاح ص٣٥٤ .

(٣) يوسف ٩٦ .

(٤) راجع بديع القرآن ص١٠٢ .

بذكر الحروف واتبع ذلك بالرسم والنقط ، وهذا هنا هو المعنى القريب المتبادر أولا إلى ذهن السامع ؟

والمرادغيره وهو المعنى البعيد المورّى عنه بالقريب لانمراده بالحرف الناقةوبحرف النون تشبيه الناقة به في تقويسها وضمورها وبراء اسم الفاعل من رأى اذا ضرب الرئة وبدال اسم الفاعل من دلا يدلو اذا رفق في المسير ، وبالرسم : أثر الدار ، وبالنقط : المطر (١) ومعنى هذا البيت : ان هذه الناقة لضعفها وانحنائها مثل نون تحت رجل يضرب رئتيها ولم يرفق بها في السير فهو غير دال وقد تقدم ان الدالي هو الرفيق ويؤم بها داراً غيّر المطر رسمها ؟ واجتماع هذه الاوصاف دليل على ضعف الناقة لانها لو كانت قوية لما احتاجت إلى ضرب رئتها والى الرفق بها مع شدة شوقه إلى ديار أحبابه وذلك باعث على شدة السير .

ركنا التورية :

ويظهر من تعريف التورية وتحليل ذينك الشاهدين أن لهذا الفن من فنون البديع ركنين معنويين :

أولهما : المورَّى به وهو المعنى القريب للفظة الذيلايقصد اليهالمتكلم ويستر به سواه .

ثانيهما : المورَّى عنه وهو المعنى البعيد المستور الذي يعنيه المتكلم ء

أقسام التورية :

لقـد قسّم القزويني التورية (٢) على اساس ما يذكر معها إلى ضربين هما : المجردة والمرشحة، ثم زاد في هذين الضربين المتأخرون فأوصلوها الى أربعة باضافة المبينة والمهيأة الى النوعين الاولين؟

(١) راجع خزانة الادب ص٢٣٩ .
(٢) راجع الايضاح ص٣٥٣ .

أما المجردة : فهي التي تتجرد عما يلائم كلا من المعنيين ، أي الموَرَّى به والمورَّى عنه : مثال ذلك قوله تعالى : « الرحمنُ على العرش استَوَى » (١).

فان الاستواء يطلق على معنيين هما الاستقرار في مكان ، والقدرة .

والتورية في الاية الكريمة لم تجامع شيئا يلائم المورّىبهولا المورّى عنه ؛ واعترض بعض المحققين بان فيه مايلائم المورّى به وهو على العرش ، لانه ملائم للاستقرار.

ومنه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - في خروجه الى بدر ، وقد قيل له : من أنتم ؟ فلم يرد أن يعلم السائل فقال : من ماء ، أراد أنامخلوق من ماء فورى عنه بقبيلة من العرب . ومن ذلك قول القاضي عياض :

كأنَّ كـانون أهدى مـن ملابسه لشهر تموز أنواعاً مـن الحُلَل
أو الغزالة من طول المدى خرفت فما تفَرِّق بين الجَدْي والحَمَل

يعني كأن الشمس من كبرها وطول مدتها صارت خرفة قليلة العقل فنزلت في برج الجدي في أوان الحلول ببرج الحمل . والشاهد في الغزالة ، فانه لم يذكر معها شيء من لوازم الغزالة الوحشية ، وهو المورى به كطول العنق ، وحسن الالتفات وسرعة النفور ، وسواد العين . ولا شيء من لوازم الغزالة الشمسية ، كالاشراق ، والطلوع ، والأفول .

وليس لقائل أن يقول : ان الغزالة قد ترشحت بالجدي والحمل ، وهي مرشحة لهما ، لانه يشترط في لوازم التورية ان لايكون لفظا مشتركا ، والغزالة هنا مشتركة ، وكذا الجدي والحمل فانهما يطلقان على الحيوان المعروف وعلى بعض البروج .

واذا اتي في التورية بلازم لكل من المعنيين فتكافآ ولم يترجح أحدهما على الآخر فكأنك لم تذكر شيئا من اللازمين ، وصار المعنى القريب والمعنى البعيد

(١) طه ٥ .

بذلك في درجة واحدة فتلحق هذه التورية بالمجردة ، وتعد منها قسما ثانيا وتصير مجردة بهذا الاعتبار .

كقول ابن الوردي :

قالت اذا كُنْتَ تَهْـوَى وَصْـلي وتخشى نُفُـوري
صِفْ ورد خـدّي وإلاّ أجور ناديت جـوري

فقوله : «ورد خدّي» يلائم ان يراد بقوله : جوري اسم نوع من الورد ، وهو المعنى البعيد المورى عنه وهو المقصود ، وقوله : « وإلاّ أجور » يلائم لان يراد به فعل الامر المسند الى ضمير الواحدة ، وهو المعنى القريب المورى به .

وأما المرشحة : فهي التي تجامع ملائما للمعنى القريب المورى به وهي قسمان :

أولهما : ما جامع ملائما قبل التورية ، كقول الشاعر :

حملناهُمْ طُراً على الدُّهْم بعدما خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

الشاهد في كلمة «الدُّهْم» ، فانه يحتمل الخيل للدهم وهو المعنى القريب المورى به ، وقد تقدم لازمه المرشح له وهو لفظ الحمل ، لانه من لوازم الخيل .

ويحتمل القيود وهو المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد ، لانه أراد تقييد العدى .

وثانيهما : ما جامع ملائما بعد التورية ، كقول الصاحب عطاء الملك في امرأة اسمها شجر :

ياحبَّذا شجر وطيب نسيمها لو أنها تسقى بماء واحد

الشاهد في «شجر» فانه يحتمل ماله ساق من النبات وهو المعنى المورى به ، وقد رشحه بعد التورية بما يلائمه وهو طيب النسيم والسقي بماء واحد ، ويحتمل اسم المرأة وهو المعنى المورى عنه وهو المقصود .

أما المبينة : فهي التي تجامع ملائما للمعنى البعيد المورى عنه اما قبلها او بعدها . فهي ايضاً قسمان :

الاول : ما جامع ملائما قبل التورية كقول الشيوخ بحماة :

قالوا أما في جدّق لسزهة تتسلى من أنت به مُغْرى
يا عاذلي دونك مَن لحظه سهماً ومن عارضه سطرا

الشاهد هنافي السهم والسطر فان المعنى البعيد المورى عنه هما الموضعان المشهوران من متنزهات دمشق ، وقد جامعا ما يلائمهما قبلهما وهو ذكر النزهة ، واما المعنى القريب فسهم اللحظ ، وسطر العارض.

الثاني : ماجامع ملائما بعد التورية ، كقول ابن سناء الملك :

أما والله لولا خوف سخطك لهان عليّ ما ألقى برهطك
ملكت الخافقين فتهت عجبا وليس هما سوى قلبي وقرطك

فانه اراد بالخافقين قلبه وقرط محبوبته ، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه ، وقد بينه بالنص عليه في المصراع الاخير . ويحتمل أن يريد المشرق والمغرب ، وهذا هو المعنى القريب المورى به .

أما المهيأة : فهي التي تفتقر الى ذكر شيء يهيؤها لاحتمال المعنيين اما قبلها ، أو بعدها ولا لم تتهيأ التورية ، او تكون بلفظين أو أكثر لولا كل منهما لم تتهيأ التورية في الآخر ، فهي بهذا الاعتبار ثلاثة اقسام :

الاول : ماتهيأت بلفظ قبلها كقول الشيخ احمد بن عيسى المرشدي في شداد ناقة لشريف مكة المشرفة ، والشداد في عرف أهل الحجاز الرحل :

أفق الشداد بدت به شمس الخلافة والهلال
ومن العجائب جمعه ليث الشرافة والغزال

الشاهد في الهلال والغزال ، فانهما يحتملان أن يكونا بمعنى القمر وولد الظبي ، وهذا هو المعنى القريب المورى به ويحتمل أن يراد به جزآن من الرحل ، فان الهلال في اصطلاحهم منفرج مقدم الرحل ، والغزال للرحل كالقربوس للسرج ،

وهذا هو المعنى البعيد الموري عنه : ولولا ذكر الشداد قبلهما ما تهيأت التورية فيهما

الثاني : ماتهيأت بلفظ بعدها كقول ابن الربيع :

لولا التطيرُ بالخلاف وانهم قالوا مريض لايعود مريضا
لقضيت نَحْبي في جنابك خدمة لأكونَ مندوباً قضى مفروضا

فان المندوب يحتمل ان يكون اسم مفعول من ندب الميت ، اذا بكاه ، وهو المعنى البعيد الذي قصده الناظم وورى عنه ، ويحتمل أن يكون خلاف المفروض وهذا هو المعنى القريب الموري به ، وذكر المفروض بعده هو الذي هيأه للتورية ، ولو لم يكن ما كان فيه تورية البتة .

الثالث : ما وقعت فيه التورية بلفظين أو أكثر ، لولا كل منهما لم تتهيأ التورية في الآخر ، كقول عمر بن أبي ربيعة في ثريا بنت عبدالله بن الحارث بن أمية الاصغر ، وقد تزوجها سهيل بن عبدالرحمن بن عوف :

أيُّها المنكحُ الثريا سُهيلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقيان
هي شامية اذا ما استقلّت وسُهيلٌ اذا استقلّ يماني

فان كلا من الثريا وسهيل هيأ صاحبه للتورية ، فلفظ الثريا هيأ سهيلا لاحتمال ان يراد به الكوكب المعروف ، ولفظ سهيل هيأ الثريا لاحتمال أن يراد بها المنزلة المعروفة ، لكون احدهما شماليا والآخر جنوبيا ، وهذا هو المعنى القريب الموري به ، ومراد الشاعر انما هو صاحبته الشامية الدار والقبيلة ، لانها من بني أمية الاصغر بن عبد شمس ، وسهيل اليماني الدار لا القبيلة ، وهذا هو المعنى البعيد الموري عنه ، فتم له ما أراد من الانكار على من جمع بينهما بألطف وجه .

ومنه قول المعري :

إذا صدق الجدّ افترى العم للفتى مكارم لاتكرى وان كذب الخال

فان كلا من الجد والعم والخال يهيء صاحبه للتورية بظاهر معناه ، ومراده بالجد : الحظ ، وبالعم : الجماعة ، وبالخال : المخيلة .

المبحث الثاني

حسن التعليل

لعل عبد القاهر الجرجاني هو أول بلاغي درس موضوع حسن التعليل واضعاً(١) له حده وتعريفه ووراءياً شواهده وأمثلته ومنوهاً بأنواعه وأضربه، وذلك في أثنا بحثه التخييل وأضرب من تشبيه الصورة وسوق العلل. فقد تحدث عنه بصورة مباشرة قائلاً: «وهو ان يدعي في الصفة الثابتة للشيء انه انما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها، اما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أو تعظيم امر من الامور »(٢). ومثل لما يدخل في هذا الفن بقول المتنبي:

لم يَحْكِ نائلك السحاب ،وانما حُمَّتْ به، فصبيبُها الرُحَضاءُ(٣)

ثم حلله موازناً بين اسلوبه وبين التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث فانه وضع المعنى وصوّره في صورة خرج معها إلى مالا أصل له في التشبيه فهو كالواقع بين الضربين وقريب منه في أن أصله التشبيه ثم باعده بالصنعة في تشبيهه ،وخلع عنه صورته خلعا صورته قوله:

وما ربح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الترب طيبا

ومن لطيف هذا النوع قول أبي العباس الضبي:

لاتركنـــن إلى الفـــرا ق وإن سكنــت إلى العـــناق
فالشمــس عنــد غـروبها تَصْفَرُّ من فَرَقِ الفـــراق

ادعى لتعظيم الفراق أن مايرى من الصفرة في الشمس حين يرق نورها بدنوها

---

(١) اسرار البلاغة ص٢٥٦ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص٢٥٦ .

(٣) الرحضاء : العرق في اثر الحمى ، أي المصبوب من السحاب هو عرق الحمى . فنزول القطر من السحاب وصف ثابت لها لا يظهر له في العادة علة وقد علله بانه عرق حماها الحادثة بسبب نائل الممدوح وتفوقه عيه .

من الارض انما هو لانها تفارق الافق الذي كانت فيه أو الناس الذين طلعت عليهم، وأنست بهم وأنسوا بها وسرتهم رؤيتها (١) ».

ثم عقد عنوان فصل وهذا نوع آخر في التعليل، وقال:

«وهو أن يكون للمعنى من المعاني والفعل من الافعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ثم يجيء الشاعر فيمنع ان يكون لتلك المعروفة ويضع له علة اخرى»(٢)؛ وأورد لهذا النوع شواهد كثيرة حلل معانيها ووازن بين عللها المخترعة وَبَيَّنَ عللها الحقيقية التي يتعارف عليها الناس وانتقد بعضا منها لاغراقها في المبالغة وضعف أسبابها وتمكن النظر الدقيق من الأخذ عليها؛ ومن الشواهد التي ارتضاها في هذا الباب قول أبي طالب المأموني في المديح:

مغرم بالثناء صبٌّ بكسب الـ ... مجد يهتز للسماح ارتياحا
لايذوق الاغفاء إلاّ رجاء ... أن يرى طيف مستميح رواحا

ثم علق عليه بقوله: «وكأنه شرط الرواح على معنى أن العفاة والراجين انما يحضرونه في صدر النهار على عادة السلاطين فاذا كان الرواح ونحوه من الاوقات التي ليست من اوقات الاذن قلّوا فهو يشتاق اليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم»(٣)؛

ويظهر من هذا كله ان عبد القاهر الجرجاني درس حسن التعليل ضمن موضوعات البيان وفي معرض النقد التحليلي عارضا العلل المخترعة على الذوق السليم مميزاً فيها مايلائم هذا الذوق مما يخالفه؛

تعريف حسن التعليل :

وتلقف علماء البلاغة المتأخرون دراسة عبد القاهر وأدخلوها في انواع البديع مقررين له حداً جامعا مانعا وجاعلين اياه من المحسنات المعنوية متتبعين أضربه وأقسامه من اشاراته وفي ضوء شواهده؛

---

(١) المصدر السابق ص٢٥٦ - ٢٥٧ .
(٢) المصدر السابق ص٢٧٣ .
(٣) المصدر السابق ص٢٧٤ .

وملاك الامر عندهم حداً وتعريفا: أن حسن التعليل هو أن ينكر الاديب صراحة، أو ضمناً، علة الشيء المعروفة، ويأتي بعلّة اخرى ادبية طريفة، لها اعتبارلطيف، ومشتملة على دقة النظر، بحيث تناسب الغرض الذي يرمي اليه: وعليه فالاديب في هذا الفن يدعي لوصف علة مناسبة غير حقيقية، ولكن فيها حسناً وطرافة، فيزداد بها المعنى المراد الذي يرمي اليه جمّالاً وشرفا .

اضرب حسن التعليل :

أما اضربه فهي عندهم اربعة اقسام (١) ، لان الوصف الذي أدعي له علّة مناسبة، أما ثابت أريد اثباته أو غير ثابت، والاول اما أن لايظهر له في العادة علّة أو يظهر له علة غير المذكورة والثاني اما ممكن أو غير ممكن .

اما الأول: وهو الذي لايظهر له في العادة علة فكقول الشيخ جمال الدين الحلي:

ولما نضـا وجـه الربيع نقابـه	وفاحت بأطراف الرياض النسائمُ
فطارت عقول الطير لما رأينه	وقد بهتت من بينهنّ الحمائمُ
تخشين جنوناً بالرياض وحسنها	فرحن وفي أعنا قهن التمائمُ

واما الثاني: وهو الذي يظهر له في العادة علة غير المذكورة ، فكقول الشاعر:

أتتني تؤنبني بالبكـا	فاهـلاً بهـا وبتأنيبهـا
تقـول وفي عينهـا حشـمة	أتبكي بعين تـراني بهـا
فقلت اذا استحسنت غيركـم	أمـرت الدموع بتأديبهـا

فان العادة في دمع العين أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب واعتراض الرقيب ونحو ذلك من الاسباب الموجبة للاكتئاب ،لاماجعله من التأديب على الاساءة باستحسان غير الحبيب .

---

(١) راجع انوار الربيع ج٦ ص١٣٦.

واما **الثالث**: وهو الوصف غير الثابت الذي أريد اثباته وهو ممكن، فكقول الشاعر:

ولقد هممت بقتلها من حبّها كيما تكون خصيمتي في المحشّر
حتّى يطول على الصراط وقوفُنا فيلذّ عيني من لذيذ المنظر

لما ادعى أمراً غير ثابت ولامعتاد، وهو همّ العاشق بقتل محبوبته، علّله بطول الوقوف معها للمخاصمة يوم المحشر على الصراط، لتلتذ عينه بالنظر اليها.

وأما **الرابع**: وهو الوصف المذكور غير الممكن، فكقول الشاعر:

لولم تكن نيّةُ الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقدَ مُنْتَطِقِ

فنية الجوزاء خدمة الممدوح وصف غير ممكن، أراد الشاعر اثباته، فجعل الانتطاق علة له. وإلى جانب هذه الاضرب الاربعة ألحق بحسن التعليل مابني على الشك، وانما الحق به ولم يجعل منه، لان حسن التعليل فيه ادعاء واصرار والشك ينافيه، ومثاله قول أبي تمام:

رُبّى شفعت ريح الصبا بنسيمها إلى المزن حتى جادها وهو هامع
كأنّ السحاب الغر غيّبن تحتها حبيباً فما ترقى لهن مدامع

فعلل على سبيل الشك نزول المطر من السحاب بأنها غيبت حبيبا تحت تلك الربى فهي تبكي عليه.

طبيعة حسن التعليل وأثره:

لقد لاحظ باحثون معاصرون (١) أن الاسس التي أقام عليها البلاغيون القدامى قسمة حسن التعليل إلى تلك الأضرب الاربعة لاتتعدى النظر العقلي ومسألة الممكن وغير الممكن المنطقية، في حين ان هذا الفن مرده إلى التمثيل الذي ربما لايكون ممكناً. ومن هنا فانهم رأوا أن التعليل الادبي الذي سمّاه البلاغيون «حسن التعليل» أساسه الخيال والعاطفة، والغرض منه التأثير في الوجدان وادخال السرور على السامع بمدحه او التخفيف من وقع مصيبة أصابته أو شدة ألمّت به. ثم وازنوا بينه وبين

(١) راجع دراسات في علم النفس الادبي ص٤٩ – ٥١، وفنون بلاغية ص٢٩٢

التعليل العلمي مبينين أن التعليل مرده التعقل والتدبر العقلي والبحث في طبائع الاشياء ثم انه تعليل واقعي موضوعي يرجع فيه العالم إلى الواقع والحقيقة ، وان التعليل الأدبي تعليل ذاتي نفسي يرجع فيه الاديب إلى ذوقه الفني وخياله الادبي وعاطفته الجمالية .

المبحث الثالث

الطباق

الطباق لغة:

الطبق ويقال له المطابقة والتطبيق لغة — على رأي الفراهيدي — من قولهم: « طابقت بين الشيئين اذا جمعتهما على حذو واحد» (١) ؟

وقيل بل هو في اللغة أن يضع البعير رجله في موضع يده فاذا فعل ذلك قيل طابق البعير، وقال الاصمعي: المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد في مشي ذوات الاربع.

الطباق اصطلاحاً:

اما اصطلاحا فهو الجمع بين الضدين في كلام أو بيت شعر كالايراد والاصدار والليل والنهار والبياض والسواد (٢) •

ولاحظ بعض البلاغيين أنه لامناسبة بين معنى المطابقة لغة، ومعناها اصطلاحا فانها في اللغة الموافقة، والجمع بين الضدين ليس موافقة •

وذهب ابن ابي الحديد إلى ايجاد صلة بين المعنى اللغوي للطباق وبين مدلوله الاصطلاحي فقال: للطبق بالتحريك في اللغة: هو المشقة •

قال الله سبحانه: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عن طَبَقٍ»(٣) أي: مشقة بعد مشقة • فلما كان الجمع بين الضدين على الحقيقة شاقاً بل متعذراً، ومن عادتهم أن تعطى الالفاظ حكم الحقائق في أنفسها توسعاً، سموا كل كلام جمع فيه بين الضدين مطابقة وطباقا (٤) •

(١) البديع ص٣٦ .
(٢) راجع خزانة الادب ص٦٥.
(٣) الانشقاق ١٩ .
(٤) راجع انوار الربيع ج٢ص٣٢.

نصوص من فن الطباق :

وأيا كان وجه المناسبة بين المعنى اللغوي والمدلول الاصطلاحي لكلمة الطباق ، فان نصوص اللغة العربية قد زخرت بالشواهد التي حملت الينا هذا الفن من البديع .

فقد نقل الينا ابن المعتز في ضوء منهجه التأريخي طائفة من هذه النصوص التي منها قوله تعالى: «ولكم في القصاص حياة يأولي الألباب» (١) إذ جاء الطباق بين القصاص والحياة ، وقول الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – للانصار «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع» فالطباق في هذا الحديث الشريف بين «تكثرون» و «تقلّون» وبين «الفزع» و «الطمع» .

وقول عيسى بن طلحة لعروة بن الزبير حين ابتلي في رجله «ان ذهب أهونك علينا فقد بقي أعزّك علينا» فالطباق هنا بين «ذهب» و «بقي» وبين «أهون» و«أعزّ» (٢) .

أقسام الطباق :

لقد قسم البلاغيون الطباق قسمتين رئيستين :

اولاهما : قسمته على اساس الاثبات والنفي ، وصنفوا الطباق على هذا الاساس صنفين :

اولهما : طباق إيجاب وهو الجمع بين لفظين مثبتين متضادين مثل : لفظة «أيقاظ» و «رقود» في قوله تعالى : «وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود» (٣) .

وثانيها : طباق سلب وهو الجمع بين لفظ ومنفيه نحو «لايعلمون» و«يعلمون» في قوله تعالى : «ولكنّ اكثر الناس لايعلمون ،يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا» (٤) .

---

(١) البقرة ١٧٩ .
(٢) راجع البديع ص٣٦ .
(٣) الكهف ١٨ .
(٤) الروم ٦ – ٧ .

وثانيهما : قسمته في ضوء نوع اللفظين المتضادين ، وبهذا الاعتبار لاحظوا أن الطباق ثلاثة أقسام :

اولها : الطباق الذي يأتي فيه اللفظان المتضادان اسمين نحو « الحي » و « الميت » في قوله تعالى : « يُخْرِجُ الحيَّ من الميت ويُخْرِجُ الميتَ من الحيّ »(١)، ونحو « ساهرة » و « نائمة » في قول الرسول الكريم : « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » .

وثانيها : الطباق الذي يكون فيه اللفظان المتضادان فعلين مثل : «تؤتي» و« تنزع » و« تعز » و « تذل » في قوله تعالى: « تُؤْتِي المُلْكَ من تشاء وتَنْزِعُ المُلْكَ من تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء »(٢) .

وثالثها : الطباق الذي استوى اللفظان المتضادان فيه حرفين : كالحرفين : « لها » و « عليها » في قوله تعالى: « لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت » (٣) .

بين الطباق والمقابلة :

لقد ادخل لفيف من علماء البلاغة في الطباق المقابلة ومن هؤلاء القزويني الذي قال: « ودخل في المطابقة مايخص باسم المقابلة ، وهو : أن تؤتى بمعنيين متوافقين ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب ، والمراد بالتوافق خلاف التقابل .

وقد تتركب المقابلة من طباق وملحق به . مثال مقابلة اثنين باثنين قوله تعالى : فليَضْحكوا قليلا وليبكوا كثيرا»(٤)، وقول النبي – عليه السلام – « ان الرفق لايكون في شيء إلاّ زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه » ومثال مقابلة ثلاثة بثلاثة قول أبي دُلامة :

(١) الروم ١٩ .
(٢) آل عمران ٢٦ .
(٣) البقرة ٢٨٦ .
(٤) التوبة ٨٢ .

ومثال مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى: «فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى: فَسَنُيَسِّرُه لليُسْرى. وأما من بَخِلَ واستغنى. وكذّب بالحُسنى فَسَنُيَسِّرُهُ للعُسْرى» (١).

ومثال مقابلة خمسة بخمسة قول المتنبي:

أزورُهمْ وسوادُ الليل يَشْفَعُ لي وانثني وبياض الصُبْحِ يُغْرِي بي(٢)

وردَّ بعض الباحثين(٣) على اولئك البلاغيين الذين أدخلوا المقابلة في الطباق مقررين أن المقابلة أعم من المطابقة وهي التنظير بين شيئين فأكثر وبين ما يخالف وما يوافق فيما يوافق صارت المقابلة أعم من المطابقة فان التنظير بين مايوافق ليس بمطابقة وهذا مذهب ابن أبي الاصبع(٤) فانه قال صحة المقابلات عبارة عن توخي المتكلم بين الكلام على ما ينبغي فاذا اتى بأشياء في صدر كلامه اتى بأضدادها في عجزه على الترتيب بحيث يقابل الاول بالاول والثاني بالثاني لايخرم من ذلك شيئاً في المخالف والموافق . . . . ثم أن المطابقة لاتكون إلا بالجمع بين ضدين والمقابلة تكون غالباً بجمع بين أربعة أضداد، ضدان في صدر الكلام ، وضدان في عجزه وتبلغ إلى الجمع بين عشرة اضداد خمسة في الصدر ، وخمسة في العجز .

وإلى جانب ذلك فان المطابقة لاتكون إلا بالاضداد والمقابلة بالاضداد وغير الاضداد ولكن بالاضداد أعلا رتبة واعظم موقعا .

ولعلنا نلاحظ بجلاء أنَّ أوجه التفريق بين المقابلة والطباق على ذلك النحو لاتستقيم حدوداً فاصلة تقطع مايصل بين الفنين كل القطع ، وآية ذلك أن اولئك

---

(١) الليل ٥ – ١٠ .

(٢) على ان المقابلة الخاصة بين لي وبي فيه نظر ، لان اللام والباء فيهما صلتا الفعلين. فهما من تمامهما . (راجع الايضاح ص٣٤١).

(٣) راجع انوار الربيع ج١ص٢٩٨ .

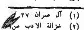
(٤) راجع بديع القرآن ص٣١،٧٣.

الباحثين انفسهم اقروابأن المقابلة أعظم من الطباق ، ومعنى هذا أنهما يتلازمان تلازم العام والخاص ، كما أن حصرهم للطباق في لفظين متضادين واطلاق هذا العدد للمقابلة إلى العشرة أمر شكلي لايغير من وحدة طبيعة الفنين ه

زدْ على هذا أنهم حين رأوا المقابلة تكون بالاضدادوغير الاضداد ، عادوا فأكدوا أن مايكون بالاضداد أعلا رتبة ، وهذا يدل على أنّ المقابلة اذا كانت أعلا رتبة فينبغي أنّ تكون بالاضداد مثل الطباق ، واذن فلا ضير أن توحد مصطلح المقابلة والطباق وندخل الفنين في نوع واحد نسميه الطباق وتجنب بحث هذا الموضوع كثرة الخلافات بين البلاغيين الاسلاف .

ترشيح الطباق :

أكد بعض البلاغيين أنه لايكفي أن يؤتى بالطباق بعيداً عن أي هدف ومجرداً من كل تأثير ، وانما ينبغي أن يأتي مرشحاً بنوع من البديع لكي يكتسب جمالاً وبهاء . ومن هؤلاء البلاغيين ابن حجة الذي قال بهذا الصدد : «إن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر ونهاية ذلك أن يطابقَ الضد بالضدوهو شيءٌ سهل اللهم إلاّأن تترشح بنوع من أنواع البديع تشاركه في البهجة والرونق كقوله تعالى: «تُولج الليلَ في النهار وتولجُ النهارَ في الليل وتُخرجُ الحي من الميت وتُخرجُ الميتَ من الحي وترزق من تشاء بغير حساب» (١)، ففي العطفِ بقوله تعالى: «وترزق من تشاء بغير حساب» دلالة على أن قدر تلك الافعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة الرب سبحانه وتعالى فانظر إلى عظم كلام الخالق هنا فقد اجتمع فيه المطابقة الحقيقية والعكس الذي لايدرك لوجازته وبلاغته ومبالغة التكميل التي لاتليق بغير قدرته» (٢) ه



(١) آل عمران ٢٧
(٢) خزانة الادب ص

تأثير الطباق :

إن للطباق – فنا بديعاً خالصاً – تأثيره الخاص المتميز ، ويتجلى هذا التأثير في أنه بجمعه بين الاضداد يخلق صوراً ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارئ ووجدانه فيتبين ماهو حسن منها ويفصله عن ضده

ومن هنا فان هذا الفن البديعي يستوي بحدّ ذاته معرضا للمعاني الذهنية والنفسية والعقلية المتنافرة فتترك في الشعور آثاراً عميقة بأسلوبها الموازن المقارن،

المبحث الرابع
المشاكلة

المشاكلة لغة واصطلاحا :

ان المشاكلة في اللغة هي المشابهة والموافقة (١)، وفي الاصطلاح البلاغي هي ذكر الشيء بلفظ غيره ،لوقوعه في صحبته كقوله تعالى: «وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها»(٢). فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غيرسيئة والاصل وجزاء سيئة عقوبة مثلها، وقداستبدلت كلمة «عقوبة» بكلمة سيئة لمشاكلة كلمة سيئة في صدر الآية.

ومثله قوله تعالى: «تَعْلَمُ ماني نفسي ولاأعلم ماني نفسك»(٣) والاصل تعلم مافي نفسي ولا اعلم ماعندك فان الحق تعالى وتقدس لايستعمل في حقه لفظ النفس الا انها استعملت هنا مشاكلة لما تقدم من لفظ النفس.

ومن ذلك ماحُكي عن بعضهم أنّ اصحابا له ارسلوا يدعونه إلى الصبوح في يوم بارد، ويقولون له، ماذا تريد أن نصنع لك طعاما؟ وكان فقيراً ،ليس له كسوة تقيه البرد، فكتب اليهم يقول:

أصحابنا قصدوا الصبوح بسحرةٍ ... وأتى رسولُـهم إليَّ خصيصا
قالوا اقترحْ شيئا نُجِدْ لك طبخه ... قلت: اطبخوا لي جُبَّةً وقميصا

أي: خيطوا لي جبة وقميصا، فذكر الخياطة بلفظ الطبخ لوقوعه في صحبة طبخ الطعام . والمقرر في هذا الفن أنه لايلزم تقديم الصاحب لمجيئه متأخراً، كقول النبي الكريم: «أحب الاعمال إلى الله أدومها وإنْ قلّ» فعليكم من الاعمال بما تطيقون فان الله لايمل حتى تملوا ،فعبر عن قطع الثواب بالملل لوقوعه في صحبته وهو متأخر عنه.

---

(١) راجع خزانة الادب ص٣٩٦ ، وانوار الربيع ج٥ص٢٨٤.
(٢) الشورى ٤٠.
(٣) المائدة ١١٦.

ضربا المشاكلة:

ان المشاكلة ضربان:

أولهما: المشاكلة التي وقعت تحقيقا كما في الشواهد التي مرت بنا.

ثانيهما: المشاكلة التي وقعت تقديرا وهذا كما تقول لمن يغرس الأشجار «اغرس كما يغرس فلان» تريد رجلا يصطنع الكرام ويحسن اليهم، فتعبرّ عن الاصطناع بلفظ الغرس للمشاكلة، وقرينة الحال، حيث كان مشغولا بالغرس وان لم يكن له ذكر في المقال؛

المبحث الخامس
تأكيد المدح بما يشبه الذم
وتأكيد الذم بما يشبه المدح

يتناول البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح في معرض واحد ، ذلك لان الموضوعين مبنيان على اسلوب بلاغي واحد هو بناء حكم معنوي موهم خلاف المقصود ثم الاستثناء منه بما يثبت غرض المتكلم .

تسميات موضوع تأكيد المدح بما يشبه الذم :

لقد تعددت تسميات موضوع تأكيد المدح بما يشبه الذم منذ ان استخرجه ابن المعتز وعدّه مُحَسِّناً من محاسن الكلام (١) ، فقد سمي «المدح في معرض الذم» و«النفي والجحود» (٢) كما سمي «الاستثناء» ، لان حسنه المعنوي من أثر اداة الاستثناء التي يبنى عليها .

حدّ تأكيد المدح بمايشبه الذم :

وحده قائم على نفي صفة ذم أو صفة مدح ثم يستثنى صفة مدح كقوله تعالى : «لايسمعون فيها لَغْوًا ولا تأثيماً ، إلا قيلاً سلاماً سلاماً» (٣) .

ففي هاتين الايتين نفيت صفة ذم في قوله تعالى : «لايسمعون فيها لَغْواً ولا تأثيما» ثم ذكرت أداة الاستثناء «إلاّ» وبعدها وردت صفة مدح في قوله تعالى «سلاما سلاما» ، فتأكد بذلك مدح ماينتاهى الى الاذن في الجنة من عدم سماع اللغو والتأثيم وذلك بايراد صفة مدح أخرى هي القول «سلاما سلاما» .

(١) البديع ص٦٢.
(٢) انوار الربيع ج٦ص٢٧ .
(٣) الواقعة ٢٥ — ٢٦. ومثل اداة الاستثناء في ذلك ، اداة الاستدراك في قول الشاعر :
وجـوه كأظهار الرياض نضارة ولكنها يوم الهياج صخور

ضربا تأكيد المدح بما يشبه الذم :

ويستنتج من ذلك الحد أن تأكيد المدح بما يشبه الذم ضربان :

الاول :أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها كقول النابغة الذبياني :

ولا عَيْبَ فيهم غير أنَّ سيوفَهم بهن فلولٌ من قِراع الكتائب

ففي هذا البيت نفى الشاعر عن ممدوحيه صفة ذم هي العيب فيهم ثم استثنى باداة الاستثناء «غير» صفة مدح هي أن سيوف أولئك الممدوحين فيها فلول من قراع الكتائب ومنازلتها فدخلت صفة المدح هذه فيصفة المدح السابقة مؤكدة اياها ومثبتة حكمها .

الثاني : أن يثبت لشيء صفة مدح ، ثم يؤتى بعدها بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى كقول النابغة الجعدي :

فتىً كَمَلَتْ أخلاقُهُ غيرَ أنَّهُ جوادٌ فما يُبْقي من المال باقيا

فالشاعر قد اثبت لممدوحه صفة مدح هي كمال اخلاقه ثم أتى باداة الاستثناء «غير» فوهم أنه سيأتي بصفة ذم ، ولكنه أورد صفة مدح ثانية هي أنه جواد فما يُبقي من المال باقيا ، فتأكد مدحه وترسخ .

طبيعة تأكيد الذم بما يشبه المدح :

أما تأكيد الذم بما يشبه المدح فهو مثل تأكيد المدح بما يشبه الذم قائم على الاستثناء وهو ضربان : (١) .

الاول: أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم بتقدير دخولها فيها نحو قوله :

خَلا من الفضل غير أنـي أراه في الحُمْق لايُجارى

(١) راجع الايضاح ص٣٧٤ .

فهنا نفى عن المهجو صفة مدح هي خلوه من الفضل ثم ذكرت أداة استثناء «غير» وأعقب بصفة ذم هي عدم مجاراته في الحمق ، فأكدت صفة الذم هذه صفة المدح المنفية فثبت ذم المهجو بصفتين متداخلتين .

الثاني : أن يثبت لشيء صفة ذم ، ويعقّب باداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له ، نحو قول الشاعر :

لئيمُ الطباع سوى أنّـــه جبانٌ يهون عليه الهـوان

فالشاعر في هذا البيت أثبت لمهجوه صفة ذم هي لؤم الطباع ثم بنى عليهاباداة الاستثناء «سوى» صفة ذم ثانية : الجبن وهوان الهوان عليه ، فالتقت الصفتان الذميمتان لتأكيد ذمه .

بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم ونقيضه :

تقوم بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح في الاصل على مباغتة السامع بخلاف مايتوقعه ، ذلك لان المتكلم عندمايسوق صفة مدح ثم يورد اداة استثناء يتوقع السامع ان يسمع منه صفة ذم بحكم هذه الاداة التي تفيد أن مابعدها يأتي خلاف ماقبلها حكما ومفهوما .

اما حينما يسمع مدحا آخر فانه يباغت ويقع في حالة الشعور بما طلع عليه من أمر توقع نقيضه وخلافه . وكذلك عندما يتلقى صفة ذم بعدها أداةاستثناء يتوقع أن يسمع صفة مدح ترشحها اداة الاستثناء وتقتضيها ، ولكنه حين يسمع صفة ذم أخرى يشعر بخيبة توقع ويباغت بخلاف ما تَهيأ له يقينا (١) ؟

(١) ينظر فنون بلاغية ص٣٠٨-٣٠٩ .

الفصل الثالث
المحسنات اللفظية
المبحث الاول
الجناس

يبدو أنّ الجناس من أقدم الموضوعات البلاغية التي صنّف فيها اللغويون كتباً، وخصص له علماء البلاغة مباحث من مصنفاتهم ، فقد ألف فيه الاصمعي كتاباً سمّاه الاجناس (١) وصنف فيه ابو عبيد القاسم بن سلام كتاب « الاجناس من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى » ذكر فيه الالفاظ المتفقة في الشكل والمختلفة في المعنى .

كما بحث عبدالله بن المعتز في الباب الثاني من كتابه (٢) البديع التجنيس وحدّه لغةً واصطلاحاً وأورد له شواهد ثم تلقفه المؤلفون في علم البديع وناظمو البديعيات وشراحها فافرطوا في انواعه والتفريع على هذه الانواع .

الجناس اشتقاقاً ولغة :

والباحث المعاصر اذ يريد ان يقدم عن الجناس صورة واضحة منسقة لابدّ قبل كل شيء — من أن يلمّ به اشتقاقاً ويحدد معناه لغة .

والمقرر في كتب البديع أنّ الجناس والتجنيس والمجانسة والتجانس كلها ألفاظ مشتقة من الجنس ، فالجناس مصدر جانس ، والتجنيس تفعيل من الجنس ، والمجانسة مفاعلة منه ، لأنّ إحدى الكلمتين اذا شابهت الاخرى وقع بينهما مفاعلة ، والتجانس مصدر تجانس الشيئان اذا دخلا تحت جنس واحد (٣) ؛ وقال الخليل : « الجنس لكل ضرب من الناس ، والطير والعروض والنحو(٤) ، كما حكي عنه قوله : « بهذا يجانس هذا أي يشاكله » (٥) ؛

(١) واجع كتاب الصناعتين ص٣٢١، وانوار الربيع ج١ص٩٧.
(٢) واجع البديع ص٢٥ .
(٣) واجع انوار الربيع ج١ص٩٧.
(٤) البديع ص٢٥.
(٥) انوار الربيع ج١ص٩٧.

الجناس اصطلاحاً:

لقد بنى البلاغيون (١) وعلماء البديع (٢) على ما حُكي عن الخليل حدّ الجناس اصطلاحاً فقرروا أن الجناس بين اللفظين هو تشابهُهما في اللفظ أي في التلفظ وفي ضوء هذا الحد يعد الجناس عند جمهور البلاغيين من المحسنات اللفظية بَيْدَ أنّ عبدالقاهر أكد دور هذا النوع في تصوير المعنى وتمكينه من العقل تعبيراً وتأثيراً فقال : «أما التجنيس فانك لاتستحسن تجانس اللفظين إلاّ اذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله :

ذَهَبَتْ بِمذهبه السماحةُ فالتوت   فيه الظنونُ أمَذْهَبٌ أم مَذْهَبُ ؟

واستحسنت تجنيس القائل «حتى نجا من خوفه وما نجا» (٣) ،وقول المحدث :

ناظراه فيما جنى ناظراه   أو دعاني أمت بما أودعاني

لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لانك رأيت الفائدة ضعفت عن الاول وقويت في الثاني ؟ ورأيتك لم يزدك «مُذْهَب» و «مَذْهَب» على ان اسمعك حروفاً مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلاّ مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد اليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها . فبهذه السريرة صار التجنيس – وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة – من حلى الشعر ومذكوراً في اقسام البديع» (٤) ؟

يضيف هذا التأكيد إلى حد الجناس ذاك مسألة معنى اللفظين المتجانسين ، وتتضح هذه المسألة في أن حقيقة الجناس هي أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً(٥).

(١) راجع الايضاح ص٣٨٢ .
(٢) انوار الربيع ج٦ص٩٧.
(٣) نجا الاولى بمعنى : احدث ، والثانية بمعنى : خلص .
(٤) اسرار البلاغة ص٦ – ٨.
(٥) راجع المثل السائر ج١ص٢٤٦.

أو بعبارة العلوي: «أن تتفق اللفظتان في وجه من الوجوه ويختلف معناهما»(١).

أنـــواع الجناس :

لقد تبارى بعض البلاغيين وعلماء البديع في تلمس انواع الجناس وانهوا في ذلك الى الغاية القصوى في التقسيم والتفريع ، واقرب التقسيمات الى حقيقة الموضوع هو أن الجناس ضربان رئيسان :

اولهما : الجناس التام : وهو أن تتفق الالفاظ في أربعة أمور هي : أنواع الحروف ، وأعدادها ، وهيئاتها ، وترتيبها ، نحو قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعةُ يُقْسِمُ المجرمونَ مالبثوا غير ساعة » (٢) ؛ فلفظة « الساعة » الاولى معناها يوم القيامة ولفظة « الساعة » الثانية معناها وحدة قياس الزمن ، واللفظتان متفقتان في انواع الحروف إذ أنَّ كل واحدة منهما مؤلفة من السين والالف والعين والتاء . وفي عدد الحروف ، فبنية كل واحدة منهما اربعة اصوات ، وهيئاتهما الحركات والسكنات غير الاعرابية متحدة ، كما ان اصواتهما متساوية في الترتيب، ذلك لان الصوت الاول فيهما هو السين والصوت الثاني هو الالف والصوت الثالث هو العين والصوت الرابع هو التاء .

ثانيهما : الجناس غير التام : وهو أن يختلف اللفظان في أمر واحد من الامور التي بنت الجناس التام ويتفقا في سائرها وهو بذلك على أربعة أنواع :

اولها : اختلاف اللفظين في الهيئة ويسمى جناسا محرفا . ثم ان الاختلاف من هذا القبيل قد يكون في الحركة فقط نحو قوله تعالى : « ولقد أرسلنا فيهم مُنْذِرين فانظرْ كيف كان عاقبة المنْذَرين » (٣) .

ففي هذه الآية الكريمة اللفظتان المتجانستان « منذرين» و«المنذرين » اختلفا في

(١) راجع الطراز ج٢ ص٣٥٦.
(٢) الروم ٥٥.
(٣) الصافات ٧٢ – ٧٣.

حركة (١) حرف الذال اذ هو مكسور في اللفظ الاول لانه اسم فاعل ، ومفتوح في اللفظ الثاني لانه اسم مفعول .

وقد يكون الاختلاف في الحركة والسكون نحو قول ابي العلاء المعري :

والحسن يظهر في بيتين رونقه   بَيْتٌ من الشِعْرِ أو بيتٌ من الشَّعَرِ (٢)

الشاهد في لفظي « الشعر » و « الشعر » اذ حرف العين في اللفظ الاول ساكن وحرف العين في الثاني متحرك بالفتح .

ثانيهما : اختلاف اللفظين في أعداد الحروف وهو ما يسمى جناسا ناقصا ، ويكون ذلك على وجهين :

احدهما : ان يختلفا بزيادة حرف واحد في الاول كقوله تعالى : « والتفّت الساقُ بالساق إلى ربك يومئذ المساق » (٣)، فاللفظان « الساق » و « المساق » اختلف فيهما عدد الحروف فالاول مؤلف من ثلاثة حروف والثاني من أربعة حروف بزيادة حرف الميم في أوله . أو تكون زيادة الحرف في الوسط كقولهم : « جدّي جهدي » فاللفظان « جدّي » و « جهدي » يختلف فيهما عدد الحروف بزيادة حرف الهاء في وسط اللفظ الثاني . أو تكون زيادة الحرف في الآخر ، كقول البحتري :

لئن صدفت عنّا فربّتَ أنفس   صواد إلى تلك الوجوه الصوادف (٤)

الشاهد في اللفظين « صواد » و « الصوادف » إذ زاد اللفظ الثاني على اللفظ الاول بحرف الفاء في آخره (٥) .

---

(١) والمشدد في هذا الباب يقوم مقام المخفف نظرا إلى الصورة. (الايضاح ص ٣٨٥).

(٢) رونقه : طلاوته ، وحسنه ، واشراقه .

(٣) القيامة ٢٩ – ٣٠ .

(٤) صدفت أعرضت وانصرفت ، وربت : رب ولحقتها التاء لتأنيث اللفظ وهي في الاصل للتقليل . صواد : جمع صادية أي عطشانة. الصوادف : جمع صادفة أي مائلة منصرفة .

(٥) وربما سمي ما اختلف فيه اللفظان المتجانسان في الحرف الاخير جناسا مطرفا (الايضاح ٣٨٦) .

الوجه الثاني : ان يختلفا بزيادة اكثر من حرف واحد (١) نحو قول الخنساء:
إنَّ البكاءَ هو الشفاءُ من الجوى بين الجوانح (٢)
فلفظ الجوانح الذي يجانس لفظ الجوى يزيد عليه بحرفين هما النون والحاء .

ثالثها : اختلاف اللفظين في انواع الحروف (٣) ويشترط ان لايقع الاختلاف باكثر من حرف . والحرفان المختلفان نوعاً إما ان يكونا في اول اللفظين كقول الحريري : « بيني وبين كنّي ليل دامس وطريق طامس » (٤) ؛ الشاهد في اللفظين « دامس » و « طامس » ، اذ اختلف فيهما الحرفان الاولان الدال والطاء .

واما في الوسط كقوله تعالى : « وهم يَنْهَوْن عنه ، ويَنْأَوْن عنه »(٥) . فاللفظان المتجانسان « ينهون » و « ينأون» قد اختلف فيهما حرف الهاء وحرف الهمزة المتوسطين ، واما في الآخر ، كقول النبي — صلى الله عليه وسلم: — « الخيل معقودٌ بنواصيها الخير إلى يوم القيامة »(٦) . الشاهد في لفظ « الخيل » ولفظ « الخير » المختلفين نوعاً في الحرفين الأخيرين اللام والراء ؛

(١) وربما سمي هذا الضرب مذيلا (الايضاح ص٣٨٦) .

(٢) الجوى : شدة الوجد من الحزن او العشق ، الجوانح : الضلوع فوق الترائب واحدها جانحة .

(٣) الحرفان المختلفان ان كانا متقاربين في المخرج سمي الجناس مضارعاً نحو قولهم: «البرايا اهداف البلايا » فاللفظان المتجانسان البرايا والبلايا قد اختلفا في حرف الراء وحرف اللام وهما حرفان متقاربان في المخرج .وان كانا غيرمتقاربين في المخرج سمي جناسا لاحقا نحو قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة» (الاية ١ من سورة الهمزة) والحرفان الهاء واللام المختلفان نوعا في لفظ همزة ولمزة متباعدان في المخرج .

(٤) كني : بيتي .

(٥) الانعام ٢٦ .

(٦) معقود : مربوط ومنوط . النواصي : جمع ناصية ، وهي مقدم الرأس.

رابعها : اختلاف اللفظين في ترتيب الحروف ويسمى جناس القلب ، وهو ضربان :

اولهما : قلب الكل، كقولهم : «حسامه فتحٌ لاوليائه حتْفٌ لاعدائه» ، «فاللفظ «حتف» قد اختلف ترتيب حروفه الحاء والتاء والفاء اختلافاً كلياً عن ترتيب حروف اللفظ «فتح» اذ جاء فيه حرف الحاء في الاول وحرف الفاء في الاخير ، وجاء حرف الفاء في لفظ «فتح» في الاول وحرف الحاء في الاخير :

وثانيهما : قلب البعض كما جاء في الخبر «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا» ففي اللفظين المتجانسين «عورات» و«روعات» تبدل مكان حرف العين فقط اذ انتقل من الحرف الاول في اللفظ الاول الى الحرف الثالث في اللفظ الثاني ، اما سائر الحروف فقد بقيت في مواضعها .

سر جمال الجناس:

لعل السؤال الذي لابد منه هنا بعد أن أوردنا بعض أضرب هذا الفن هو : ماسر جمال الجناس وما عسى ان تكون اهميته في النص الادبي ؟

لقد أجاب عبد القاهر عن هذا السؤال بصورة غير مباشرة ، فقال : «وعلى الجملة فانك لاتجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لاتبتغي به بدلا ولا تجد عنه حولا ، ومن هنا كان احلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ماوقع من غير قصد من المتكلم الى اجتلابه وتأهب لطلبه ، أو ماهو لحسن ملاءمته ـ وان كان مطلوباً ـ بهذه المنزلة وفي هذه الصورة»(1) .

ففي هذا الجمال يحرر عبد القاهر اربعة معايير لبلاغة الجناس وشروط حسنه **اولها :** ان يكون المعنى مقتضيا اياه وموجبا لايراده ؛ وفي ضوء هذا المعيار يرفض

(1) اسرار البلاغة ص١٠.

كل جناس جيء به زخرفاً صوتياً وصناعة لفظية ، ذلك لانه في هذه الحالة لايتداعى مع المعاني ولا يسهم في اداائها بقصد التعبير والتأثير .

ثانيها : أن يستوي في بناء النص الفني ركناً لايُستغنى عنه ولايستبدل بسواه ، ومعنى هذا المعيار أن الجناس اذا كان مقحماً على التعبير دخيلا بين الفاظه بدا غريبا متكلفا ، وهو في هذا الوضع لايثير في النفس أحساسا ولا يجد في الذوق استجابة .

ثالثها : أن يطلع في كلام المتحدث عن سليقة وفطرة ، وعلى اساس هذا المعيار فإن الجناس الذي يتكلف له مجنسه ويأتي به عن ارادة لايحمل بين طياته أية شحنة شعورية ولا يؤدي عن أية فكرة .

رابعها : ان يتساوق مع سائر ألفاظ النص متلائما معها في موسيقى أجراس الحروف ومتجاوبا في تعاطف مع اصداء أبنيتها .

ولعل هذا المعيار يؤكد بجلاء اهمية الجناس في خلق الموسيقى الداخلية في النص الادبي وبناء ما بين الفاظها من وشائج التناغم .

لقد سعى بعض المعاصرين الى الاجابة عن ذلك السؤال ايضا ، فتحدث الدكتور ابراهيم سلامة عن جمال هذا الفن قائلا : انه لايخرج عن نظرية تداعي الالفاظ وتداعي المعاني في علم النفس ، فهناك ألفاظ متفقة كل الاتفاق أو بعضه في الجرس وهناك ألفاظ متقاربة أو متشابكة في المعنى بحيث تذكر الكلمة اختها في الجرس واختها في المعنى ، كما يولد المعنى الاول معنى ثانيا وثالثا ، وهذه الناحية النفسية هي التي تشرح لنا كيف يقع التجنيس للشاعر دون معاناة اذا كان ملما بلغته ، محسا بذوقها ، عالما بتصاريفها وأشتقاقها (1).

وردّ الاستاذ علي الجندي جمال الجناس الى ثلاثة اسباب :

---

(1) راجع بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص١١٧، وفنون بلاغية ص٢٣٣ — ٢٣٢.

الاول : تناسب الالفاظ في الصورة كلها أو بعضها ، وهو مما يطمئن اليه الذوق ويرتاح له .

الثاني : التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلا كاملا أو ناقصا فيطرب الاذن ويونق النفس ويهز أوتار القلوب .

الثالث : التلاعب الاخاذ الذي يلجأ اليه المجنّس لاختلاب الاذهان واختداع الافكار (١) .

وما قاله عبد القاهر قبل الدكتور ابراهيم سلامة وعلي الجندي يوضح هذا الفن(٢) ، ولا يكاد كلامهما يخرج عما ذهب اليه ، وان كان الدكتور ابراهيم سلامة قد استخدم المصطلحات الحديثة كتداعي الالفاظ وتداعي المعاني وغير ذلك مما لم يكن معروفاً عند القدماء .

---

(١) فن الجناس ج١ص٢٩.

(٢) راجع فنون بلاغية ص٢٣٦ .

المبحث الثاني
الاقتباس والتضمين

لقد أدار علماء البديع المتأخرون مصطلح الاقتباس ومصطلح التضمين بصورة عامة يأخذين مايورده الأديب في انتاجه مما ليس من انشائه .

الاقتباس لغة واصطلاحاً :

والمتفق عليه ان الاقتباس في اللغة : مصدر اقتبس اذا اخذ من معظم النار شيئاً، وذلك المأخوذ قَبَسٌ - بالتحريك - أما في الاصطلاح فجمهور البلاغيين يحدونه على أنه تضمين النظم أو النثر بعض القرآن لاعلى انه منه ، بان لايقال فيه : قال الله أو نحوه ، فان ذلك حينئذ لايكون اقتباسا (1) .

الاقتباس بين المنع والجواز :

لقد اختلفت المذاهب الفقهية الاسلامية في مسألة الاقتباس من آي الذكر الحكيم، فذهب المالكية الى تحريمه وتشديد النكير على فاعله ولم يتعرض المتقدمون من الشافعية المتأخرين منهم له مع شيوعه في أعصارهم ، واستعمال الشعراء له قديماً وحديثا ، وقد تعرض له جماعة من الفقهاء المتأخرين ، فَسُئل عنه الشيخ عزالدين بن عبد السلام فأجازه ، واستدل بما ورد عن النبي الكريم في قوله في الصلاة وغيرها : «وجهت وجهي» وقوله : «اللهم فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا اقض عني ديني واغنني من الفقر» وفي سياق كلام أبي بكر : «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» وفي آخر حديث لابن عمر : «قد كان لكم في رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (2) .

فهذه النصوص المحررة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وبعض الصحابة - رضي الله عنهم - تقوم أدلة على جواز الاقتباس من القرآن الكريم في مقام المواعظ والثناء والدعاء في النثر ، ولا دلالة فيها على جوازه في الشعر .

(1) راجع انوار الربيع ج٢ص٢١٧

(2) المصدر السابق ج٢ص٢١٧ .

ويقين ان هذه القضية تستوي - بلا ريب - وجهة نظردينية واجتهاداً مذهبياً. ولما كانت نصوص ادبية تستفيض بهذا الفن البديعي نثراً ونظماً وتنبني عليه فان بعض علماء البديع حاولوا ان يوفقوا بين الامرين فقسموا (١) الاقتباس من القرآن على ثلاثة اقسام : محمود مقبول ومباح مبذول ومردود مرذول ، فالاول ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك .
والثاني ما كان في الغزل والرسائل والقصص . والثالث على ضربين : أحدهما ما نسبه الله تعالى الى نفسه ، ونعوذ بالله ممن ينقله الى نفسه كما قيل عن احد الولاة ، أنه وقع على مطالعة فيها شكاية من عماله « إنّ الينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهم » (٢) والآخر تضمين آية كريمة في معرض هزْلٍ أو سُخْف .
وأضاف الشيخ بهاء الدين السبكي الى القسم الثالث ما اذا أخذ شيء من القرآن وجعل بيتاً او مصراعاً كقول الشاعر

كتب المحبوبُ سطراً	في كتاب الله موزونْ
لن تنالوا البِرّ حتى	تُنفقوا ممّا تُحبّونْ

أضرب أساليب الاقتباس :

لقد حرر علماء البديع قاعدة تنص على أنّ المقتبس ليس بقرآن حقيقة بل كلام يماثله ، وهم بهذه القاعدة انما ارادوا اطلاق ايديهم في دراسة اساليب الاقتباس ما دام حقيقة واقعة لا سبيل الى انكارها ودفعها : وعليه فإنّهم قد صنفوا هذه الأساليب الى ثلاثة اضرب :

أولها : ضرب لاينقل المقتبس فيه عن معناه الاصلي ، كقول الشاعر ، وقد طلب من بعض اصحابه الذين بمكة حبّاً فاعتذروا منه :

طلبنا منكم حَبّاً	أجبتم فيه بالمَنْع
عَذَرْناكم لأنكم	بوادٍ غير ذي زرْعِ

(١) راجع خزانة الادب ص٤٤٢، وانوار الربيع ج٢ص٢١٨ .
(٢) الغاشية ٢٥ - ٢٦ .

فالمراد بواد غير ذي زرع مكة المشرفة كما في قوله تعالى : «رَبّنا إني أسكنْتُ من ذُريتي بوادٍ غيرِ ذي زَرْعٍ » (١) .

ثانيهما : ضرب ينقل عن معناه الاصلي بناء على أنه ليس بقرآن حقيقة كقول ابن الرومي :

لئن أخطأت في مدحك ما أخطأت في منعي
لقد أنزلت حاجاتي بوادٍ غير ذي زرعِ

فانه قد كنّى بقوله تعالى في الآية المذكورة عن الرجل الذي لانفع لديه :

ثالثها : ضرب تغير فيه المقتبس بزيادة أو نقصان ، أو تقديم أو تأخير ، أو ابدال الظاهر من المضمر ، أو نحو ذلك بناء على القاعدة التي تؤكد أن المقتبس هو غير القرآن ؛ ومثاله قول أبي تمام في قصيدة يرثي بها ابنا له :

كان الذي خفت أن يكونا إنّا إلى الله راجعونا
أمسى المرجّى أبو علي موسّداً في الثرى يمينا
حين استوى وانتهى شباباً وحقق الرأي والظنونا
كنت عزيزاً به كثيراً وكنت صبّاً به ضنينا
دافعت إلا المنون عنه والمرء لا يدفع المنونا

فقوله : «إنّا إلى الله راجعونا» اقتباس لكنه زاد الالف في راجعون على جهة الاشباع ،واتى بالظاهر مكان المضمر في قوله : «إنا لله وانا اليه» ومراده آية الاسترجاع وهي قوله « انا لله وانا اليه راجعون »(٢).

الاقتباس من الحديث الشريف :

لقد تباين علماء البديع في جعل الأخذ من الحديث النبوي الشريف اقتباساً ، إذ حصره فريق منهم في القرآن الكريم وذهب فريق آخر إلى أن الاخذ من الحديث النبوي الشريف اقتباس ايضاً. أما الخلاف المذكور في الاقتباس من القرآن الكريم زعمه فلا يجري في الحديث، وذلك لتجوز روايته بالمعنى وغير ذلك مما لا يجوز في القرآن(٣).

(١) ابراهيم ٣٧.
(٢) البقرة ١٥٦ .
(٣) راجع انوار الربيع ج٢ص٢٢٢ .

واما كان فمثال الاقتباس من الحديث ،في النثر قول الحريري : «كتمان الفقر زهادة وانتظار الفرج بالصبر عبادة ». ومثاله من الحديث في الشعر قول الشاعر :

قال لي : ان رقيبي سيّئ الخُلُق فداره
قلت : دَعْني وجهك «الجنة حُفَّت بالمكاره»

التضمين لغة واصطلاحاً:

لم يفرق معظم علماء البديع في الاستعمال بين مصطلح الاقتباس والتضمين وانما أداروهما لفظين مترادفين (١) ، ذلك لان معنى التضمين لغة هو مصدر الفعل ضمن الذي من معانيه أن «ما جعلته في وعاء فقد ضمنته اياه » (٢) .

فالتضمين مثل الاقتباس يلتقي معه في ادراج شيءٍ في شيءٍ ، بَيْدَ أنَّ بعض من كتب في فنون البديع من المتأخرين(٣) عرّف التضمين في الاصطلاح بقوله: « هو أن يضمن الشاعر كلامه شيئاً من مشهور شعر الغير مع التنبيه عليه ان لم يكن مشهوراً لدى نقاد الشعر » ، وذوي اللسن كقول الصاحب بن عباد :

إذا ضاق صدري وخفت العدا تمثلت بيتاً بحالي يليق
(فبالله أبلغ ما أرتجي وبالله أدفع ما لا أطيق)

فقوله في الشطر الثاني من البيت الاول تمثلت بيتاً تنبيه على ان البيت الثاني تضمين . اما اذا كان مشهوراً لدى القوم فيجوز ألاّ ينبه عليه كقول الشاعر :

قد قلت لما اطلعت وجناته حول الشقيق الغض روضة آس
اعذاره الساري العجول ترفقا ما في وقوفك ساعةً من باسِ

فالمصراع الاخير مطلع قصيدة مشهورة لابي تمام :

ما في وقوفك ساعةً من باس تقضي حقوقَ الأربع الأدراس

(١) انوار الربيع ج٢ص٢١٧ - ٢١٨ .
(٢) القاموس المحيط (ضمن) .
(٣) راجع الايضاح ص٤١٩ .

أهمية الاقتباس :

وفي رأينا أنه لابدّ من تخصيص مصطلح الاقتباس بما يؤخذ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وجعل مصطلح التضمين قاصراً على ماينتزع من فنون الادب شعراً ونثراً ، وذلك دفعا للالتباس بينهما وحسما لاهمية كل منهما في ميدان البلاغة

ومن هنا فان للاقتباس أهميةً مشهودة في السمو بأساليب المقتبسين ورفعة فنون قولهم ، لان المقتبس من القرآن الكريم الذي هو أعلى رتبة من البلاغة والآخذ من أحاديث النبي الكريم وهو أفصح العرب يزيد قدر ثمار قريحته ويزينها بأجمل العبارات وأبلغ الصياغات ، اما الذي يضمن كلامه بضاعة غيره ويحاكي اسلوب سواه من الادباء فان في قيمة عمله نظراً لابدّ من تقريره والوصول به إلى قاعدة .

حسن التضمين :

لقد ذهب بعضهم (١) بهذا الصدد إلى أن أحسن التضمين أن يزيد المضمن في كلامه نكتة لاتوجد في الاصل كالتورية والتشبيه، كما في قول ابن ابي الاصبع مضمنا :

إذا الوهم أبدى لي لماها وثغرها   تذكرت مابين العذيب وبارق
ويذكرني من قدها ومدامعي   «مجرى عوالينا ومجرى السوابق»

فالمصراعان الاخيران مطلع لابي الطيب المتنبي :

تذكرت ما بين العذيب وبارق   مجرى عوالينا ومجرى السوابق

يريد المتنبي انهم كانوا نزولا بين هذين الموضعين ، يجرون الرماح عند مطاردة الفرسان ، ويسابقون على الخيل ، اما الشاعر المضمن فاراد بالعذيب تصغير العذب وعنى به شفة الحبيبة . وأراد ببارق ثغرها الشبيه بالبرق، وبما بينهما ريقا، وهذه تورية بديعة نادرة في بابها، وشبه تبختر قدها بتمايل الرماح، وتتابع دموعه بجريان الخيل السوابق .

اما المضمن الذي لايزيد في كلامه نكتة لاتوجد في الأصل فانه مقلد يحاكي تجارب غيره وينقل عن ابداع سواه ، فلا يقدم بذلك شيئاً جديداً بل ربما يشوّه ماضمنه ويتزل به عن رتبته إلى مستوى التكرار الممل والمجوج

---

(١) الايضاح ص٤١٦ .

المبحث الثالث
حسن الابتداء

درس البلاغيون وعلماء البديع بناء النص الادبي وترابط اجزائه وتعاطف موضوعاته ،فانتهوا إلى جملة قواعد تحدد أوجه الحسن في ثلاثة مواضع هي : حسن الابتداء وبراعة المطلع والتخلص» فقد ذكر ابن المعتز مصطلح «حسن الابتداءات»(١) في محاسن الكلام، واختار مطالع القصائد من عصر ماقبل الاسلام وعصر صدر الاسلام وغيرهما، ومن هذه المطالع قول النابغة الذبياني :

كليني لهمّ يااُميمة ناصـب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكـب

وقول بعضهم :

كأن اللـواتي قلن لي أتسيـر ... غصون رمـال فوقهن بـدور

وقول ابي تمام:

بأبي وغير أبي وذاك قـليـلُ ... ثاو عليه ثرى النياج مهيـلُ

ان ابن المعتز لم يبين مقصده من هذا المحسن البديعي ولم يشر إلى خصائص المطالع التي اختارها وانما ثبتها تحت ذلك المصطلح بلاتعليق.

شروط حسن الابتداء :

وتلقف علماء البلاغة (٢) وشرّاح البديعيات (٣) مصطلح حسن الابتداءات وأوردوه مفرداً «حسن الابتداء» وعقدوا في دباجة التحدث عنه فصولا تعرضت لتأنق المتحدث في أول كلامه مؤكدين فيها أنه ينبغي ان يأتي بأعذب الالفاظ ، وأجزلها وأرقها وأسلسها ،وأحسنها، نَظْماً وسبكاً، وأصحها مبنى ،وأوضحها معنى وأخلاها من الحشو، والركة والتعقيد.

---

(١) راجع البديع ص٧٥ .
(٢) راجع الايضاح ص٤٢٨ .
(٣) راجع خزانة الادب ص٣، وانوار الربيع ج١ص٣٤ .

وبينوا ان جميع فواتح السور من القرآن المجيد أتت على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها ،كالتحميدات، وحروف الهجاء، والنداء وغير ذلك (١) .

وعللوا لما بسطوه من تلك الشروط قائلين: لانه أول مايقرع السمع، فان كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام ،فدعي جميعه، وان كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه وان كان في غاية الحسن (٢) :

براعة الاستهلال:

ويبدو أن تلك الشروط التي بسطها علماء البلاغة وشراح البديعيات عامة تتناول ابتداءات المنثور والمنظوم، لذلك فان بعضهم (٣) قد خصّ مصطلح براعة الاستهلال بالمنظوم وذهب إلى أن أحسن الابتداءات ماناسب المقصود، ويسمى براعة الاستهلال كقول ابي تمام يهنيء المعتصم بالله بفتح عمورية، وكان أهل التنجيم زعموا أنها لاتفتح في ذلك الوقت:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ   في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

براعة المطلع :

واعتمد بعضهم الآخر مصطلح «براعة المطلع »(٤) بدلا من حسن الابتداء وأداره مرادفاً لمصطلح حسن الاستهلال وخصه بابتداءات القصائد ومطالعها، وعرّفه بانه عبارة عن طلوع المعاني واضحة في استهلالها وأن لايتجافى بجنوب الالفاظ عن مضاجع الرقة وان يكون التشبيب بنسيبها مرقصاً عند السماع وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن. وعرض في ضوئه شروطاً اضافية ينبغي توفرها في مطالع القصائد إلى جانب الشروط العامة التي لابدّ أن تتوفر في ابتداءات فنون المنثور ومن هذه الشروط : ألاّ يكون مطلع القصيدة متعلقاً بمابعده من الابيات ،وان يناسب بين قسميه أتم المناسبة، بحيث لايكون أحد الشطرين أجنبياً عن الآخر لفظاً ومعنى،

(١) راجع انوار الربيع ج١ص٣٤.
(٢) راجع الايضاح ص٤٢٨ .
(٣) الايضاح ص٤٣١ .
(٤) راجع خزانة الادب ص ٣.

وسائل اجادة مطالع القصائد :

لقد تعمق مشايخ البديع في الوسائل التي يتوسل بها الشاعر إلى اجادة مطالع قصائده فنبهوا على يقظة الناظم في حسن الابتداء وبينوا انه يتعين عليه ان ينظر في احوال المخاطبين والممدوحين ويتفقد مايكرهون سماعه ويتطيرون منه ليتجنب ذكره ويختار لاوقات المدح مايناسبها وخطاب الملوك في حسن الابتداء هو العمدة في حسن الادب.

ورووا تجسيداً لهذه التوصيات أن ذا الرمة أنشد هشام بن عبد الملك قصيدته البائية:

مابالُ عينك منها الماءُ ينسكبُ؟ كأنه من كُلًى مفرّية سَرِبُ(١)

فقال هشام: بل عينك:

وحكوا أنَّه لما بنى المعتصم بالله قصره بالميدان ، وجلس فيه، أنشده اسحق الموصلي :

يادارُ غَيَّرك البلى، ومحـــاك ياليت شِعْري مــاالــذي أبلاك؟

فتطيَّرَ المعتصم بهذا الابتداء، وأمر بهدم القصر.

ولذلك قرروا انه من أراد ذكر الديار والاطلال في مديح فليقل مثل قول القطاميّ:

إنّا محيّوك فاسلَمْ أيُّها الطَّلَلُ وإنْ بليت،وإنْ طالت بك الطِيَلُ(٢)

أو مثل قول اشجع السلمي:

قَصْرٌ عليه تحيةٌ وســـــلام خَلَعَتْ عليه جمالها الأيامُ

---

(١) كلى : اسم جنس واحدته كلية بضم اوله . وهي العضو المعروف في حشا الانسان مفرية : متقطعة مشققة . سرب : سائل .

(٢) الطلل : الاثر الشاخص من آثار الديار ، الطيل : آماد الدهر ، واحدها طيلة.

المبحث الرابع
حسن التخلّص

اعتمد ابن المعتز مصطلح «حسن الخروج» وأداره توطئة لشواهده وبيّن مقصده منه قائلاً: «ومنها أي من — محسنات الكلام — حسن الخروج من معنى إلى معنى(١)»، من هذه الشواهد قول أبي العتاهية :

وأحببْتُ من حبها الباخلين ... ن حتى ومقت ابْنَ سَلْمٍ سعيدا
إذا سيل عرْفاً كسا وجهه ... ثياباً من المنع صُفْراً وسودا
يغير على المال فعل الجواد ... وتأبى خلائقه أن يجودا

لم يبين ابن المعتز وجه حسن الخروج في هذا الشاهد وفي سائر شواهده التي تنوعت في أعصرها وبيئاتها العربية بيد أن صحة استشهاده ذلك واضحة لان أبا العتاهية قد انتقل في الشطر الاول من البيت الاول من التغزل إلى الهجاء في الشطر الثاني منه متوسلا ببخل صاحبته لبيان بخل سعيد بن سلم وهجوه .

تعريف حسن التخلّص :

لقد تناول علماء البلاغة(٢)وشراح البديعيات (٣) مقصد ابن المعتز من مصطلحه ذاك وفصّلوا القول فيه معتمدين مصطلح حسن التخلص الذي حدّوه بقولهم: هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاساً رشيقاً دقيق المعنى بحيث لايشعر السامع بالانتقال من المعنى الاول إلاّ وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد .

وبدهي أنه لايشترط أن يتعين المتخلص منه في غرض محدد بل يجري ذلك في أي معنى كان فالشاعر ربما يتخلص من نسيب أو غزل أو فخر أو وصف روض أو

---

(١) البديع ص٦٠ .
(٢) راجع الايضاح ص٤٣٢ .
(٣) خزانة الادب ص١٤٩ ، وانوار الربيع ج٣ص٢٤٠ .

م/٣٠/ب

وصف طلل بال أو ربع خال أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجو أو وصف حرب أو غير ذلك .

موازنة بين الاستطراد وحسن التخلص :

لقد فرق الاسلاف من البلاغيين بين الاستطراد وحسن التخلص فبينوا أن يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الأول أو قطع الكلام فيكون المستطرد به آخر كلامه والشرطان معدومان في التخلص فإنه لا يرجع إلى الأول ولا يقطع الكلام بل يستمر على ما يتخلص اليه.

مقاييس حسن التخلّص :

وقد عللوا لوجوب التأنق في هذا الموضع من النص الادبي بقولهم: أن السامع مترقب للانتقال من الافتتاح إلى المقصود كيف يكون ، فإذا كان حسناً متلائم الطرفين حرّك من نشاط السامع ، وأعان على اصغاء ما بعده ، وإلاّ فبالعكس.

لقد حاول بعض علماء البديع المتأخرين تقرير مقاييس لتحديد الصور البليغة من المخالص ، فذكروا مقياسين: نص أولهما: على أن الأحسن أن يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح . ويقين أن هذا المقياس يتناقض مع ما أكده جمهور البلاغيين من أن التخلص لا يتقيد بغرض دون غيره ولا يقتصر على معنى دون سواه، وإنما يمتد فئة وشيجة تجمع ما بين الأغراض المختلفة وتشد معنى بمعنى.

أما ثاني المقياسين : فيجزم بأن أحسن التخلصات ما كان في بيت واحد نحو قول زهير بن أبي سلمى :

إنّ البخيـلَ ملومٌ حيثُ كانوا ولكنّ الجـوادَ على علاّته هرمُ

فالشاعر في هذا البيت قد انتقل من ذم البخيل أبداً إلى مدح هرم بن سنان.
ان هذا المقياس بلاشك يرسخ قاعدة التلاؤم الفني بين المتخلص منه والمتخلص اليه كما يؤكد أن هذا التلاؤم يكون على خير وجه إذا ما تم التخلص في بيت واحد، لأنّ البيت الواحد هو وحدة البناء الأساسية في القصيدة العربية القديمة.

المبحث الخامس

حسن الانتهاء

لقد أدار علماء البديع المتأخرون ثلاثة مصطلحات للدلالة على ماينبغي أن تكون عليه خاتمة النص الادبي :

أولها : مصطلح حسن الانتهاء (١) ، وثانيها : حسن القطع ، وثالثها : حسن الخاتمة (٢) ۰

حد حسن الانتهاء :

ويبدو أن مقصدهم من هذه المصطلحات لاخلاف فيه ، ذلك لأنهم حدوه بقولهم : هو أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه الخطيب أو المترسل أو الشاعر مستعذباً حسناً و أحسنه ماأذن بانتهاء الكلام حتى لايبقى النفس تشوقا إلى ما وراثه ؛

بلاغة حسن الانتهاء :

وقد عللوا لوجه بلاغة هذا المحسن اللفظي مقررين : أنه آخر ما يقرع السمع ويرسم في النفس، وربما حُفِظَ لقرب العهد به ، فان كان مختاراً حسناً تلقاه السمع واستلذه حتى جبر ماوقع فيما سبق من التقصير ۰

لقد نبّه علماء البديع على أن سور الذكر الحكيم هي مستنبط مقاييس هذ النوع البديعي ، ذلك لان جميع خواتيم السور كفواتحها ، واردة على أحسن وجوه البلاغة واكملها ، لانها بين ادعية ، ووصايا ، وفرائض ، وتحميد وتهليل ، ومواعظ ووعد ووعيد ، إلى غير ذلك مما يناسب الاختتام (٣) ، ومن المعجز في ذلك قوله تعالى : «إذا زُلزلت الارضُ زلزالها، وأخرجت الارضُ أثقالها ، وقال الانسانُ مالها ، يومئذ تحدّث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها »

---

(١) راجع الايضاح ص٤٣٤ .
(٢) راجع خزانة الادب ص٤٦٠ .
(٣) انوار الربيع ج٦ص٣٢٥ .

يومئذ يَصدُرُ الناسُ أشتاتاً ليُرَوا أعمالهم ، فمن يعملْ مثقالَ ذرّةٍ خيراً يره . ومن يعمل مثقالَ ذرّةٍ شراً يره » (١) فهذه السورة الكريمة ابتدأت بأهوال يوم القيامة واختتمت بقوله تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره.ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . فجاء هذا الختام مثلا سائراً وحكما قاطعا جمع إلى ايجازه البليغ حكما عادلا يستوي قانونا اساسا في المكافأة والمجازاة .

لقد تبارى الأدباء في كل فن من فنون المنثور والمنظوم ليحوزوا قصب السبق بين أرجاء هذا الميدان الفسيح من ميادين البلاغة والفصاحة العربية .

وممن دان لهم علماء البلاغة بالفوز الحريري الذي قال في ختام احدى مقاماته : «ثم دنوت اليه كما يدنو المصافح ، وقلت : أوصني ايها العبد الصالح ، فقال : اجعل الموت نصب عينك ، وهذا فراق بيني وبينك فودعته وعبراتي يتحدّرن من المآقي ، وزفراتي تتصعدن إلى التراقي ، وكانت خاتمة التلاقي» .

وأبو نواس الذي قال في خاتمة قصيدته التي مدح بها الخطيب :

واني جديرٌ اذ بلغتك بالمنى	وأنت بما أمّلتُ منك جديرُ
فان تُولِني منك الجميلَ فأهلُه	وإلاّ فإني عـاذرٌ وشكورُ

وابن هاني المغربي الذي قال في ختام احدى قصائده في المديح :

فتى كل مسعى من مساعيه قبلة	يصلّي اليها كل مجد ونائل
وفي كل يوم فيه للشعر مَذهبٌ	على انه لم يُبْقِ قولاً لقائل

وحدة النص الادبي :

إن الباحث المعاصر حين يقوّم بحث البلاغيين لأوجه الحسن في تلك المواضع من بناء النص الادبي ويحلل شروط الحسن التي قرروها لشواهدهم في ميدان التطبيق لابدّ له من تأكيد حقيقة رئيسة تنص على شروط حسن الابتداءات والتخلصات والخواتم لاينبغي أن تقتصر على موضع دون آخر في فنون المنثور وألوان المنظوم بل ينبغي أن تتجسد في سائر أجزاء النصوص الادبية ، وان صفات القبح فيها يجب

(١) سورة الزلزلة.

أن يتجنبها الأديب في كل منعطف من منعطفات انتاجه الفني ، كما ان مظاهر الحسن في هذا الموضع أو ذاك لايمكن أن تشفع لما تتعثر به المقطوعة الادبية من عيوب وقصور ، ذلك لان ثمار القرائح وحدة متكاملة تتكاتف اجزاؤها وتتعاون أقسامها في تحقيق الحسن الادبي والجمال الفني .

لقد انتبه ابن طباطبا العلوي (- ٣٢٢هـ) إلى الكثير مما تقرره هذه الحقيقة من أحكام نقدية وبلاغية حول بناء النص الادبي فقال :

«وأحسن الشعر ماينتظم القول فيه انتظاماً يتسق به أوله مع آخره فانقدّم بيت على بيت دخله الخلل ، فإن الشعر اذا أسس تأسيس كلمات الحكمة المستقلة بذاتها ، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها ، لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها قبحاً وحسناً ، وفصاحة وجزالة ألفاظ ، ودقة معاني ، وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً ؛ ؛ ؛ ؛ حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة تقتضي كل كلمة مابعدها ويكون مابعدهامتعلقاً بهامفتقراً اليها»(١) .

ولذلك ينبغي أن تدرس الموضوعات الثلاثة : حسن الابتداء وحسن التخلّص وحسن الانتهاء في مبحث واحد يشتمل النص الادبي لتبدو صور الفن الرائع متجانسة يشد بعضها بعضاويأخذ فن بأطراف الفن الآخر ، وقد كانت دراستها في مباحث مستقلة استجابة للمنهج الذي يضع أمامه الجانب التعليمي وتيسير المادة وتقريبها إلى الأذهان :

(١) عيار الشعر ص١٢٦ .

الفصل الخامس
تطبيقات عامة

(١)

مرّ بنا: ان علماء البلاغة قد تباروا في زيادة انواع البديع وسعوا إلى الكشف عن فنونه حتى بلغوا بهذه الفنون وتلك الأنواع إلى ماينوف على ثلاثين ومائة نوع، ورأينا أيضاً ان الخطيب القزويني الذي تقيل منهج السكاكي في قسمة انواع البديع وتصنيفها إلى محسنات معنوية ولفظية قد وضع اليد على اثنين وثلاثين محسناً معنوياً ، وفرز تسعة من المحسنات اللفظية.

كما مرّ بنا ان قصائد البديعيات في نظم المحسنات البديعية ضربان: ضرب أودع ناظمو قصائده كل بيت من أبياتها محسناً لفظياً أو معنوياً بلا ذكر المصطلح الذي سُمي به، وضرب ثبت ناظموها في شطر من بيت أو أكثر اسم المحسن الذي أوردوه في الشطر الأخير من أمثلة بديعيات هذا الضرب بديعية عز الدين الموصلي وبديعية ابن حجة الحموي، ومن شواهد هذه البديعيات بيت: بديعية عزالدين الموصلي في نوع الاستخدام:

والعين قرّت بهم لما بها سمحوا واستخدموها من الاعدا فلم تَنَم

وبيت بديعية ابن حجة الحموي في نوع اللف والنشر:

فالطيّ والنشر والتغيير مع قصر للظهر والعظم والاحوال والهمم

وبيت بديعية الشيخ عزالدين الموصلي في نوع الهزل المراد به الجد:

هزّلْ أريد به جد عتابك لي كما كتمت بياضَ الشيب بالكتم(١)

وبيت بديعية الشيخ عبد القادر الطبري في نوع التفويف:

تجنّ أصبر تدلّل أرض عزّاهن ته احتمل مراطع صل مقوقا أدم

(١) الكتم محركة بالفتح : نبت يخضب به الشعر ويصنع منه مواد الكتابة.

تتبع في أبيات بديعيات هذا الضرب المحسنات المعنوية والمحسنات اللفظية التي أوردها الخطيب القزويني (١).

(٢)

نظر رجل إلى روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب وهو واقف بباب المنصور في الشمس — فقال: قد طال وقوفك في الشمس ؟ فقال روح: ليطول وقوفي في الظل (٢).

اذا اخذنا كلمة «الظل» في هذا النص وأردنا أن لحدد نوعه البياني أو البديعي ربما حار بعضنا بين ان يقول هي من اساليب البيان مجازاً أو استعارة أو كناية وبين أن نقول انها تورية، بيد ان هذه الحيرة تزول اذا ماتذكرنا تعريفات كل أسلوب من أساليب البيان وحدود كل نوع من أنواع البديع.

ومما يتعلق الامر بهذه الحدود وتلك التعريفات هو ان أي اسلوب من اساليب البيان يقوم على اربعة اركان متلازمة:

اولها: المعنى الحقيقي للكلمة، وثانيها: المدلول المقصود المجازي أو المستعار له أو المكني عنه، وثالثها: العلاقة المتوطدة المقررة بين المعنى الحقيقي للكلمة ومدلولها المقصود من استعمالها، ورابعها: القرينة اللفظية أو المعنوية التي ترشد الى ان المعنى الحقيقي للكلمة غير مقصود في النص.

اما التورية التي تسمى ايضا: «الايهام والتوجيه والتخييل والمغالطة»، فان المعنى المورّى عنه مخفي عن قصد، وعليه فان مدلولها غير الظاهر لايرتبط بمعناها الظاهر بعلاقة موطدة مقررة كما أنها تخلو أو تكاد من القرينة التي ترشد اليها وتكشف عن المقصود منها.

---

(١) يعتمد في حل هذا التعليق نصوص التطبيق نصوص البديعيات او كتاب انوار الربيع في انواع البديع حيث ذكر مؤلفه علي صدر الدين المدني في نهاية كل باب أبيات البديعيات التي نظمت المحسن البديعي الذي بحثه.

(٢) راجع الكامل ج١ص١٧٣ .

وفي ضوء هذا كله فان كلمة «الظل» لا يمكن أن تكون تورية لان في النص أكثر من قرينة تدل على مدلولها وتكشف عنها كما ان مدلولها غير الحقيقي يبدو بوضوح في علاقته بمعناها الحقيقي.

١ – عيّن نوع الاسلوب البياني لكلمة «الظل» ثم حلل أركانها.

٢ – تتبع في النصوص الآتية ما فيها من مجازات واستعارات وكنايات وتوريات موازناً فيما بينها وكاشفاً عما يميز كل نوع عن الآخر :

١ – رُوي عن الاصمعي أنه قال : هجم عليّ شهر رمضان وأنا بمكة ، فخرجت إلى الطائف لأصوم بها هرباً من حرّ مكة ، فلقيني أعرابي فقلت له : أين تريد؟ فقال أريد هذا البلد المبارك لأصومَ هذا الشهر المبارك فيه، فقلت له : أما تخاف الحرّ؟ فقال: من الحر أفرّ.

٢ – قال رجل للربيع بن خثيم وقد صلى ليلة حتى أصبح : أتعبت نفسك ، فقال: راحتها أطلب.

٣ – قال عروة بن الورد :

تقول سُليمى لو أقمت بأرضنا ولم تدْرِ أنيّ للمقامِ أطوّفُ
لعلّ الذي خوّفتنا من ورائنا سيدركه من بعدنا المتخلّفُ

٤ – قال سراج الدين الورّاق:

أصون أديم وجهي عن أناس لقاءُ الموت عندهم الأديبُ
وربُّ الشعر عندهم بغيضٌ ولو وافى به لهُم « حبيبُ »

٥ – قال الحماسي :

أنا ابن زيابة إنْ تلقنــــي لا تلقني في النعم العــــازب

٦ – قال الخالي :

ياليلة لي بحوّارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

٧ – قال الرهاوي :

فلما تبينت الذي لم أخله ضربت كمن يسناه كفاً على كف
واني لأبدي في تريضي شكيتي وهذا الذي أبديه بعض الذي أخفي

٨ ـ قال الشاعر :

تسيل على حدّ الظُّبات نفوسنا — وليست على غير الظُّبات تسيل

٩ ـ قال الشاعر :

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرّة — عليَّ يداً أغضي لها حين يغضب

١٠ ـ قال الشاعر رشيد سليم الخوري في عيد الفطر المبارك :

صياماً إلى أن يفطر السيفُ بالدم — وصمتاً إلى أن يصدح الحقُّ بالفم

أفطرٌ وأحرار الحمى في مجاعة — وعيدٌ وأبطالُ الجهاد بمأتم

بلادك قدّمْها على كل ملّة — ومن أجلها أفطرْ ومن أجلها صُمِ

(٣)

قال المتنبي :

بنفسي مايشكوه من راح طرفه — ونرجسه مما دها حسنه ورد

أراقت دمي عمداً محاسن وجهه — فأضحى وفي عينيه آثاره تبدو

تعرض حمرة العين للانسان عن مرض ، وأتى الشاعر بإراقة دمه تعليلا لما في عيني حبيبته من علة . وواضح أن هذا التعليل لايثير في النفس راحة ولايخلق الجو الشعوري الذي يخيم على العاشق الولهان ، كما أنه يصور العاشق قتيلا ويمثل حبيبته عليلة في طرفها ، فأي جمال فني يبرز في هذا التمثيل وذلك التصوير؟!

مما لاريب فيه أن متلقي هذا النص لايمكن أن يقبل بما فيه من تعليل على أنه حسن تعليل . هذا من جهة ومن جهة أخرى :

حكى ابن رشيق قال : كنت اجالس محمد بن حبيب وكان كثيراً مايجالسنا غلام ذو خال تحت حنكه ، فنظر إليَّ ابن حبيب يوماً وأشار إلى الخال ، ففهمت أنه يريد ان يصنع فيه شيئاً ، فصنعت أنا بيتين فلما رفع رأسه قال لي : اسمع ، وأنشدني :

يقولون لي من تحت صفحة خده — تنزل خالٌ كان منزله الخدُّ

فقلت رأى حسن الجمال فهابه — فحطَّ خضوعاً مثل ما يخضع العَبْدُ

فقلت له : أحسنت ، ولكن اسمع :

حبذا الخال كامناً منه بين الـ — خد والجيد رقبةً وحذارا

رام تقبيله اختلاساً ولكن   خاف من سيف لحظه فتوارى
فقال : فضحتني قطع الله لسانك (١).

وهذه المطارحة الشعرية تبين أن موضوع حسن التعليل يتسع للموازنة بين شاعرين إذا ماتناولا معنى بعينه .

قوّم في ضوء ذلك ماجاء من تعليل في النصوص الآتية معتمداً الذوق الادبي والاحساس الفني والخيال المبتكر والموازنة بين المعاني :.

١ – قال ابن المعتز :

قالوا : اشتكت عينه فقلت لهم: من كثرة القتل نالها الوَصَبُ
حمرتُها من دماء مَنْ قَتَلَتْ   والدم في النصل شاهد عَجَبُ

٢ – قال المعري في الرثاء :

وما كُلْفَةُ البدر المنير قديمةً   ولكنّها في وجهه أثرُ اللَّطْمِ

٣ – قال ابن الرومي :

أمّا ذُكاء فلم تصفَرّ إذْ جَنَحَتْ   إلا لفُرقة ذاك المنظرِ الحَسَنِ

٤ – قال المتنبي في المديح :

ما به قَتْلُ أعاديه ولكنْ   يتقي إخلافَ ماترجو الذئابُ

٥ – قال ابن نباته في المديح :

لم يزل جودُه يجور على المال   إلى أن كسا النّضار اصفرارا

٦ – قال شاعر في وصف فرس أدهم ذي غُرّة :

وأدهم كالغراب سواد لون   يطير مع الرياح ولا جناح
كساه الليل شملته وولّى   فقبّل بين عينيه الصباح

٧ – قال الارجاني :

أبدى صنيعك تقصير الزمان ففي   وقت الربيع طلوع الورد منخجل

٨ – قال شاعر يرثي كاتباً :

استشعر الكتّاب فقدك سالفا   وقضت بصحة ذلك الأيام

---

(١) انوار الربيع ج٦ص١٣٧ .

فلذاك سودت الدنوي كــآبــة أسَفا عليك وشقّت الاقسلام

(٤)

لقد أطلق الخطيب القزويني بالطباق شيئين(١) :

الاول : نحو قوله تعالى : «أشداء على الكفار رُحماء بينهم» (٢) فان الرحمة مسببة عن اللين الذي هو ضد الشدة ؛

الثاني : ما يسمى ايهام التضاد كقول دعبل :

لاتعجبي ياسَلْمُ من رَجُلٍ ضحكَ المشيبُ برأسه ، فبكى

إن ضحك المشيب من جهة المعنى ليس ضد «البكاء» لانه استعارة عن كثرة المشيب ، ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة .

وذهب ابن ابي الاصبع إلى أن الطباق على ضربين : حقيقي ومجازي ، وكل من الضربين على قسمين : لفظي ومعنوي ، فما كان منه بألفاظ الحقيقة أبقوا عليه اسم الطباق ، وما كان كله بألفاظ المجاز أوبعضه سموه تكافؤاً (٣)

وبديهي أن أي علم من العلوم يهدف إلى تحديد مفاهيمه دفعاً للخلط والبس، كما يعتمد في كل موضوع من موضوعاته مصطلحاً واحداً تحقيقا للغة العلمية التي من خصائصها المميزة الدقة في الالفاظ والعبارات .

ناقش في ضوء هذه الشواهد النصوص الآتية مستخلصا منها الطباق ومخرجاً ماعداه مما ادخل في هذا الباب وضع له مصطلحاً آخر :

١ ــ قال تعالى : «ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوافيه ، ولتبتغوا من فضله» (٤)؛

٢ ــ قال المتنبي :

لمن تطلب الدنيا اذا لم تُرِدْ بها سرورَ محبٍّ أو اساءة مجرمِ ؟

(١) راجع الايضاح ص٣٤٠ .

(٢) الفتح ٢٩ .

(٣) راجع بديع القرآن ص٣١ .

(٤) القصص ٧٣ .

٣ – قال أبو تمام :

ما إنْ ترى الاحساب بيضاً وضّحا إلاّ بحيث ترى المنايا سُوداً (١)

٤ – قال أبو تمام أيضاً :

وتنظري خبب الركاب ينصّها محيي القريض إلى مميت المالِ (٢)

٥ – قال أدد بن مالك بن زيد بن كهلان في وصيته لولده: «لاتكونوا كالجراد أكل ماوجد وأكله من وجده ».

٦ – وقيل لابن عمر رضي الله عنهما : « ترك فلان مائة ألف. قال: لكنّها لا تتركه»

٧ – قال الحسن البصري : «مارأيت يقيناً لاشكّ فيه أشبه بشك لايقين فيه من الموت».

٨ – وقال أيضاً : « وقد أنكر عليه الافراط في تخويف الناس : ان من خوّفك حتى تبلغ الأمن خير ممن آمنك حتى تبلغ الخوف ».

(٥)

ظهر لنا من بحث المشاكلة والجناس التام أن هذين المصطلحين يلتقي مدلولهما على أن في كل منهما لفظين متفقين في النطق ؛ وعند التماس الفرق بينهما يثبت لدينا أن اللفظ المشاكل لايقصد به مدلوله الحقيقي بخلاف اللفظ المجانس الذي له معناه الخاص به .

ان هذا الفرق لم يمنع بعض علماء البلاغة من الخلط بين المشاكلة والجناس التام؛ فقد حكى ابن حجة الحموي بهذا الصدد قائلا: « قد تقرر أن هذا النوع أعني المشاكلة اللفظية أن يأتي المتكلم في كلامه باسم من الأسماء المشتركة في موضعين فتشاكل احدى الكلمتين اللفظتين الاخرى في الخط واللفظ ومفهومهما مختلف؛ ومن انشادات التبريزي في هذا الباب قول ابي سعيد المخزومي :

---

(١) ان : نافية مؤكدة لـ «ما» ، وضحاً : جمع واضح ، بمعنى جلي بين ؛

(٢) تنظري : انتظري ، خبب الركاب : ضرب من سيرها يعتمد الخطو فيه على احدى الرجلين وما يخالف جهتها من اليدين مرة ثم على الرجل الثانية واليد المخالفة لها مرة اخرى وهكذا على التبادل . ينصها : يحثها ، محيي القريض : الشاعر نفسه. مميت المال : ممدوحه الكريم .

حَـــدَقُ الآجـــالِ آجـــالُ   والهــوى للمــرء قتّـــال

فلفظة « الآجال » الاولى أسراب البقر الوحشية ؛ والثانية منتهى الاعمار وبينهما مشاكلة في اللفظ والخط .

قال الشيخ زكي‌الدين بن أبي الاصبع في كتابه المسمى بتحرير التحبير هذا الشاهد وأمثاله داخل في باب التجنيس: قلت قول الشيخ زكي‌الدين ظاهر ليس في صحته سقم وهذا البيت الذي أنشده التبريزي من أحسن الشواهد على الجناس التام ولو اعتمد البديعيون على المشاكلة المعنوية لخلصوا من هذا الاعتراض» (١):

ميّز في ضوء هذا كله مافي النصوص الآتية من مشاكلة وجناس تام معللاً لما تقرره :

١ – قال تعالى: « ومكروا ومَكرَ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين » (٢)

٢ – قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثْلِ مااعتدى عليكم» (٣)

٣ – حُكي أن فقيراً وقف على بعض الولاة وهو يغرس فسيلا فأنشده :

إنّ الولايـــةَ لاتــدوم لواحــدٍ   إن كنــت تنكره فأين الأولُ

فاغرس مـــن الفعــل الجميل غرائسا   فإذا عُزلْتَ فانها لا تُعْــزَلُ

٤ – قال الشاعر :

مـــن مبلغ أفنـــاء يعــرب كلهـــا   أني بنيت الجار قبــل المنــزلِ

٥ – قال عمرو بن كلثوم :

ألا لايجهلـــن أحــــدٌ علينـــا   فنجهل فوق جهــل الجاهلينــا

(٦)

تحدث ابن أبي الاصبع عن الاستطراد الذي هو خروج من معنًى إلى معنى فقال: « هو قليل الوقوع في الكتاب العزيز ، وسببه ذلك كونه أكثر ماجاء في الشعر دون النثر ، وغالب وقوعه في فنّ الهجاء منه ، ... ولم أظفر منه بشيء في القرآن المجيد إلاّ في موضع واحد ، وهو قوله تعــــالى : «ألا بُعْداً لِمَدْيَنَ كما بَعِدَتْ ثمود » (٤) ..

(١) خزانة الأدب ص٣٥٦.   (٢) آل عمران ٥٤.

(٣) البقرة ١٩٤ .   (٤) هود ٩٥.

وتحدث عن «تأكيد المدح بما يشبه الذم» وقال : «وهذا الباب أيضاً كالذي قبله في عزة وقوعه في هذا الكتاب العزيز ، ولهذا لم أجد منه إلا آية واحدة تحملت على تأويل تدخل به في هذا الباب ، وهي قوله تعالى : {قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ} (١) فإن الاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ على ماعابوا به المؤمنين من الايمان يوهم بأن يأتي بعد الاستثناء مايجب أن ينتقم على فاعله ، مما يذم به ، فلما اتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله كان الكلام متضمنا تأكيد المدح بما يشبه الذم (٢) .

وقد لاحظ البلاغيون أن هناك نوعاً آخر من أساليب الهجو يسمى «الهجاء في معرض المدح» وهو أن يُؤتى بكلام ظاهره مدح وباطنه ذم ، كقول الشاعر :

أبو جعفر رجل عالم بما يصلح المعدة الفاسده
تخوف تخمة أضيافه فعوّدهم أكلة واحده

تتبع أنواع أساليب المدح والهجاء مستكملا ما مر بك في مبحث تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح ثم وازن بين أساليب القرآن الكريم وأساليب الادب العربي في هذا الباب :

(٧)

لقد استخلصنا حدّ الجناس الذي يتفق عليه جمهور البلاغيين وأوردنا أنواعه الرئيسة وقد خرج بعضهم على هذا الحد موسعا في دائرته فألحق بالجناس شيئين (٣):

احدهما : أن يجمع اللفظين الاشتقاق كقوله تعالى {فأقم وجهك للدين القيم} (٤)

والثاني : أن تجمعهما المشابهة وهي ما يشبه الاشتقاق وليس به كقوله تعالى : {وجنى الجنتين دان} (٥) .

---

(١) المائدة ٥٩.
(٢) راجع بديع القرآن ص٤٩ – ٥٠ .
(٣) راجع الايضاح ص٣٨٩ .
(٤) الروم ٤١ .
(٥) الرحمن ٥٤.

وبالنسبة إلى انواع الجناس لم يكتف معظم علماء البديع (١) وبعض الباحثين المعاصرين (٢) بانواع الجناس غير التام التي تقيدنا بها معتمدين خروجه على شرط من شروط الجناس التام الاربعة ، ومن هنا ذكروا انواعا واختلفوا في تسمياتها وابرز هذه الانواع :

الاول : المطلق : وهو ان تختلف الاحرف وتتفق الكلمتان في اصل واحد يجمعهما الاشتقاق ، كقول البحتري :

صدَقَ الغرابُ لقد رأيتُ حمولهم ... بالأمس تغربُ عن جوانبِ غُرَّبِ

فجانس بثلاثة اشياء هي : الغراب ، وتغرب ، وغرب ؟

الثاني : المصحّف : وهو الاتيان بكلمتين متشابهتين خطاً لا لفظاً ، ويقال له : تجنيس الخط ، كقول البحتري :

ولم يكن المغترُّ بالله اذ سرى ... ليعجز والمعتز بالله طالبه

الثالث : المركّب : وهو ما تماثل ركناه وكان احدهما كلمة مفردة والآخر مركباً من كلمتين فصاعداً ، وهو على ثلاثة انواع :

احدها : الجناس المقرون ويسمى المتشابه ، وهو ما اتفق ركناه لفظاً وخطاً ، كقول ابي الفتح البستي :

اذا مَلِكٌ لم يكن ذاهِبَه ... فَدَعْهُ فدولتُهُ ذاهِبَهْ

ثانيها : الجناس المفروق - وهو ما اتفق ركناه لفظا لاخطا ، وخص باسم المفروق لافتراق الركنين في الخط ، نحو قول الحاكم المطوعي :

لاتعرضَنَّ على الرواة قصيدةً ... ما لم تكن بالَغْتَ في تهذيبها
فمتى عرَضْتَ الشعر غيرَ مهذَّبٍ ... عدّوه منك وساوساً تهذي بها

---

(١) خزانة الادب ص٣٠، وانوار الربيع ج١ص٩٧.
(٢) فنون بلاغية ص٢٢٥ .

ثالثها : الجناس المرفو ، وهو ماكان أحد ركنيه مستقلا والآخر مرفوا من كلمة أخرى ، كقول الحريري :

ولا تلْه عن تذكار ذنبك وابكه بدمع يحاكي المزن حال مصابه
ومثل لعينيك الحمام ووقعه وروعة ملقاه ومطعم صابه

الرابع : الملفق، وهوأن يكون كل من ركنيه مركبا من كلمتين فصاعداً كقول الحاكم المطوعي :

أرى مجلس السلطان تفضي عفاته الى روض مجد بالسماح سجود
وكم لجباه الراغبين لديه من مجال سجود في مجالس جود

الخامس : المعنوي ، وهو قسمان : تجنيس اضمار وتجنيس اشارة . فتجنيس الاضمار هو أن يضمر المتكلم ركني الجناس ويظهر في اللفظ مايرادف أحد الركنين ، ليدل على ماأضمره ، فان تعذر المرادف اتي بلفظ فيه اشارة لطيفة تدل على ذلك المضمر ، كقول أبي بكر بن عبدون وقد اصطبح بخمرة وترك بعضها الى الليل فصار خلا :

الا في سبيل اللهو كأس مدامة أتتنا بطعم عهده غير ثابت
حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة وأمست كجسم الشنفري بعد ثابت

بنت بسطام بن قيس اسمها الصهباء ، وقوله : كجسم الشنفرى بعد ثابت ، أشار به الى قول الشنفرى يرثي خاله تأبط شراً واسمه ثابت :

فاسقنيها أيا سواد بن عمرو ان جسمي من بعد خالي لخلّ

والخلّ : النحيف المهزول ، فصح معه جناسان مضمران في صدر البيت وعجزه فالاول في «صهباء وصهباء» والثاني في «خل وخل» .

اما جناس الاشارة فسبب وروده في النظم ان الشاعر يعقد المجانسة في بيته بين الركنين في الجناس فلا يوافقه الوزن على ابرازهما فيضمر الواحد ويعدل الى مرادف فيه كناية لطيفة تدل عليه ، وهذا لايتفق في المنثور ، ومنه قول دعبل في امرأته سلمى :

انـي أُحِبُّـكَ حبَّاً لو تضمنـه   سَلْمَى سميك ذاك الشاهق الراسي

فالكناية في « سميك » لأنها أشعرت أن الركن المضمر في «سلمى» يظهر منه جناس الاشارة بين الركن الظاهر والمضمر في سلمى وسلمى الذي هو الجبل .

١ – ناقش مسألة الملحق بالجناس مما ليس منه حدا وتعريفا ، ومسألة كثرة التفريعات واختلاف البلاغيين في اعتماد المصطلحات الدالة عليها .

٢ – حدّد الجناس وبيّن نوعه في النصوص الآتية معتمداً المصطلحات التي ارتضيناها تسميات لهذه الانواع :

١ – قال أبو جعفر الاسكافي :

فرشت لشيبيي أجلَّ البساط   فلم يستطب مجلساً غير راسي
فقلـت لـنفسـي لا تـنكريـه   فكم للمشيب كراسي كراسي

٢ – قال الحصري :

رُبَّ سهلٍ على فتاتي فتاتي   لترى هل سلا فتاها فتـاهـا
علمتـه جفـونها آي سـحـر   مـا تلاها في حبها مـا تلاهـا

٣ – قال الشاعـر :

تفرق قلبي في هواه فـعنده   فـريق وعندي شعبة وفـريق
اذا ظمأت نفسي أقول له اسقني   وان لـم يكـن ماء لديك فريق

٤ – قال ابو الفتح البستي :

إنْ هزَّ أقلامه يوماً ليعلمها   أنساك كـل كمي هزَّ عـامله
وان أقـرَّ على رقٍّ أنـامـلـه   أقرَّ بالرق كتَّاب الانـام لـه

٥ – قـال الشـاعـر :

كُفَّ عن الناس اذا شئت أن   تسلم من قول جهول سفيه
من قذف النـاس بمـا فيهـم   يقذفـه النـاس بمـا ليس فيـه

٦ – قـال البـاخـرزي :

عاينت طيف الذي أهوى فقلت له   كيف اهتديت وجنح الليل مسبول

فقال أبصرت ناراً من جو انحكم — يضيء منها لدى السارين قنديل
فقلت نار الهوى معنى وليس لها — نور يضيء فماذا القول مقبول
فقال نسبتنا في الامر واحدة — أنا الخيال ونار الشوق تخييل

٧ – قال الشاعر :
ولما نأيتم لم أزل مترقبا — قدومكم في غدوة ومساء
واني اذا كان الفراق معاندي — مطالع فاء من مطال عناء

٨ – قال ابن المشرف الماردني :
هلال في بروج السعد سار — غزال في مروج العز سارح

٩ – قال الخليل بن أحمد :
يا ويح قلبي من دواعي الهوى — اذ رحل الجيران عند الغروب
أتبعتهم طرفي وقد أزمعوا — ودمع عينيّ كفيض الغروب
بانوا وفيهم طفلة حرّة — تفتر عن مثل أقاح الغروب

١٠ – قال ابو فراس بن حمدان :
من بحر جودك أغترف — وبفضل علمك أعترف

١١ – قال المعري :
نهارهم ابن يعفر في ضحاه — وليلة جارهم بنتُ المحاق (١)

(٨)

قال عمر الخيام مفتخراً :
سبقت العالمين إلى المعالي — بصائب فكرة وعلوّ همّه
فلاحَ بحكمتي نور الهدى في — ليال للضلالة مدلهمّه
يريد الجاهلون ليطفئوه — ويأبى الله الا أن يتمّه

يقتبس الشاعر في هذه الابيات من قوله تعالى : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أنْ يتمّ نوره ولو كرِهَ الكافرون » (٢)

---

(١) ابن يعفر هو الاسود بن يعفر ، وبنت المحاق اسمها ليلى .
(٢) التوبة ٣١ .

وواضح انه يبالغ مبالغة غير مقبولة في الفخر بما أتى به في ميدان علم الفلك والحكمة والتفلسف ، اذ يقرن بين ذلك وبين نور الله سبحانه :

قال الصاحب بن عبّاد :

أشكو اليك زماناً ظـلّ يعركني ... عرك الاديم ، ومن يعدو على الزمن
وصاحباً كنت مغبوطاً بصحبته ... دهراً فغادرني فرداً بلا سكن
وباع صفوَ وداد كنت أقصره ... عليه مجتهداً في السرّ والعلن
كأنه كان مطويّاً على إحَـن ... ولـم يكن في قديم الدهر انشدني
« ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن »

فلاحظ ان الشاعر في هذه الابيات يروي تجربته مع صاحب أبدى له صفاء الود وحسن العشرة زمانا ثم تغيّر عليه وهجره .

وهذه التجربة ـ بلا ريب ـ لاتحتاج إلى البيت المقتبس لتستكمل صورتها وتعمق أثرها في السامع والقارىء بل ان البيت المقتبس يتحدث عن مسألة ـ تكاد لاتتصل اتصالا عضوياً بتلك التجربة ذلك لانه يتحدث عن تذكر المرء لاصحابه في حالة تبدل وضعه يساراً بعد فقر فأين هذا من معاناة الشاعر على يدي صاحبه الخؤون ؟ !

ثم ان هذا البيت المقتبس اقتضى اسلوب اقتباسه أن يضحي الشاعر بالبيت الذي قبله ممهداً به لايراد مقتبسه بتصوير صاحبه راوية

كأنه كان مطوياً على إحَـن ... ولم يكن في قديم الدهر انشدني
ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

وعليه فان هذين البيتين يبدوان رقعة رتّق بهما الشاعر سائر أبياته وأقحمهما على تجربته اقحاما شكليا ، فبرزت مقطوعته كلها مهلهلة ضعيفة التماسك بعيدة عن التناسق :

حلل في ضوء هذين المثالين مافي النصوص الآتية من اقتباس وتضمين مبينا الاسلوب الذي سلكه كل نص في ذلك ومنبها على مدى افادته من الفن البديعي الذي اعتمده .

١ - قال عبد المؤمن الاصبهاني في المقالة السادسة والثمانين من رسالته أطباق الذهب : (١) « ذكر الله اشرف الاذكار ، فاذكروه بالعشي والابكار ، ذكره مقدحة الارواح الصدية ، كالصباح وجه الاقاحي الندية ، فاذكر الله ذكراً كثيراً وكبّره تكبيرا. فاذا اخلصت الذكر فاترك الصوت والحرف، وإذا شربت وسكرت فاكسر الطرف، السجود ماجل عن نقرات الجباه، والذكر ماخفي عن حركات الشفاه ، فجهز لطيمة (٢) الاتية إلى حظائر قدسه، واذكر ربك في نفسك يذكرك في نفسه ، وقل لمن يذكر الله بلسانه تورعاً اذكر ربك في نفسك تضرّعاً »(٣)

٢ - قال الاحوص :

إذا رمت عنها سلوةً قال سامع من الحب ميعاد المرور المقابرُ

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا سرائر ود يوم تُبْلَى السرائرُ

٣ - قال ابن نباتة :

وأغيد جارت في القلوب لحاظه واسهرت الاجفان أجفانه الوسنى

أُجيلُ نظراً في حاجبيه وطرفه ترَ السحرَ منه قاب قوسين أو أدنى

٤ - قال ابن عبدالقاهر في معشوقه نسيم :

إذ كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا

فأنا الذي أتلو لهم ياليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

٥ - قال الحريري ، يحكي ماقاله الغلام الذي عرضه (أبو زيد) للبيع

على أني سأنشد عند بيعي «أضاعوني وأي فتى أضاعوا »

٦ - قال ابو جعفر الاندلسي :

لاتُعادِ الناس في أوطانهم قلّما يرعى غريب الوطن

وإذا ما شئت عيشاً بينهم خالق الناس بخلق حسن

(١) هذه الرسالة مائة مقالة عارض بها اطواق الذهب الزمخشري .

(٢) اللطيمة : وعاء المسك .

(٣) الاعراف ٢٠٥ .

(٩)

اقتبس الآيات الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة الآتية مع اجادة الاقتباس واحكامه :

١ ـ قال تعالى : « إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) .
٢ ـ قال تعالى : « ولا يحيق المكْرُ السيءُ إلاّ بأهله »(٢).
٣ ـ قال تعالى : « قل هل يَسْتَوي الذين يعلمون والذين لايعلمون »(٣) .
٤ ـ قال الرسول الكريم : « كل معروف صدقة » .
٥ ـ وقال أيضاً : « إذا لم تَسْتَحِ فاصنع ماشئت » .
٦ ـ وقال أيضاً : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .
٧ ـ وقال أيضاً : « الارواح جنود مجَنّدة » .

(١٠)

ابن رشيق القيرواني من الباحثين القدامى الذين جمعوا بين مباحث حسن الابتداء وحسن التخلص وحسن الانتهاء في مبحث واحد عقد له عنوان « باب المبدأ، والخروج، والنهاية (٤)» وقال فيه من بين ماقال :«قيل لبعض الحذّاق بصناعة الشعر : لقد طار اسمك واشتهر ، فقال : لأني أقللت الحزّ وطبقت المفصل وأصبتُ مقاتل الكلام وقرطست نكت الاغراض بحسن الفواتح ولطف الخروج والخواتم إلى المدح والهجاء ، وقد صدق لان حسن الافتتاح داعية الانشراح ، ومطية النجاح ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السمع ، وألصق بالنفس ، لقرب العهد بها ؛ ... وان الشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يتجنب « ألا » و« خليليّ » و« قد » فلا يستكثر منها في ابتدائه ، فإنها من علاقات الضعف والتكلان ؛ ... وليرغب عن التعقيد في الابتداء فقد حكي أن دعبل بن علي

---

(١) الحجرات ١٣ .
(٢) فاطر ٤٣ .
(٣) الزمر ٩ .
(٤) راجع العمدة ج١ص١٩١ - ٢١٣ .

الخزاعي ورد حمص فقصد دار عبدالسلام بن رغبان ديك الجن ؟؟؟؟ فتناشدا فأنشد ديك الجن ابتداء قصيدته :

كأنَّها ما كأنَّه خلل الـ ـخلة وقف الهلوك إذ بغما

فقال له دعبل : أمسك ، فوالله ماظننتك تمم البيت الا وقد غشي عليك ؟؟؟؛ ولعمري ماظلمه دعبل ، ولقدأبعد مسافة الكلام ، وخالف العادة ، وهذا بيت قبيح من جهات : منها اضمار مالم يذكر قبل ، ولا جرت العادة بمثله فيعذر ، ولا كثر استعماله فيشتهر ، مع احالة تشبيه على تشبيه ، وثقل تجانسه الذي هو حشو فارغ ، ولو طرح من البيت لكان أحزم ، واستدعى قافيته لالشيء الا لفساد المعنى واستحالة التشبيه ، ماالذي يريد بـ (بغامه) في تشبيه الوقف – وهو السوار – ولم كان وقف الهلوك خاصة؟ ومعنى البيت أن عشيقته كأنها في جيدها وعينها الغزال الذي كأنه بين بنات الخلة سوار الجارية الحسنة المشي المتهالكة فيه ، وقيل : الهلوك : البغيُّ الفاجرة ، فما هذا كله ؟ وأي شيء تحته ؟ .... ومن الشعراء من لايجعل لكلامه بسطاً من النسيب ، بل يهجم على مايريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة وذلك عندهم هو : الوثب ، والبتر ، والقطع ، والكسع ، والاقتضاب ، كل ذلك يقال ؟؛ والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء ، وهي التي لايبتدأ فيها بحمد الله عز وجل على عادتهم في الخطب ؟

قال أبو الطيب :

إذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ أكلُّ فصيح قال شعراً متيَّمُ ؟

فأنكر النسيب ، وزعموا أن أول من فتح هذا الباب وفتق هذا المعنى أبونواس بقوله :

لا تبكِ ليلى ، ولا تَطرَبْ إلى هِندِ واشرَبْ على الوردِ من حمراءَ كالوَرْدِ

وقوله وهو عند الحاتمي فيما روى عن بعض اشياخه افضل ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين :

صفة الطلول بلاغة القِدْمِ فاجعل صفاتك لابنة الكَرْمِ

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر، وأخذ عليه أن لايذكرها في شعره قال :

أعر شعرك الاطلال والمنزل‌القفرا فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعاني إلى نعت الطلول مسلّط تضيق ذراعي أن أردّ له أمرا
فسمعا أميـر المؤمنين وطـاعة وان كنت قد جشمتني مركبا وعرا

فجاهر بان وصفه الاطلال والقفر انما هو من خشية الامام ، والاّ فهوعنده فراغ وجهل ؛؛؛؛

أما الخروج فهو عندهم شبيه بالاستطراد ، وليس به لان الخروج انما هوأن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيّل ، ثم تتمادى فيما خرجت‌اليه كقول أبي عبادة البحتري :

سقيت ربابك بكل نـوء عاجل من وبلـه حـقـاً لهـا معلومـا
ولو أنني أعطيت فيهـن المنى لسقيتهنّ بـكـفّ ابـراهيمـا

وأكثر الناس استعمالاً لهذا الفن أبو الطيب ، فانه مايكاد يفلت له ، ولايشذ عنه حتى ربما قبح سقوطه فيه ، نحو قوله :

ها فانظري أو فظنّي بي تري حرقاً من لم يذق طرفاً منها فقد وألا
علّ الامير يرى ذلي فيشفع لي إلى التي تركتني في الهوى مثلا

وليس هذا من قول أبي نواس :

سأشكو إلى الفضل بن يحيى‌بن‌خالد هوانا لعلّ الفضل يجمع بيننا

في شيء، لان أبا نواس قال « يجمع بيننا » ثم أتبع ذلك ذكر المال والسخاء به، فقال :

أميرٌ رأيت المـال في نـعمـائـه مهيناً ذليل النفس بالضيم موقنا

فكأنه أشار إلى أن جمع بينهما بالمال خاصة : يفضل عليه ، ويجزل عطيته، فيتزوجها ؛؛؛؛ أما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر مايبقى منها في الاسماع ، وسبيله أن يكون محكماً : لاتمكن الزيادة عليه، ولايأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه ؛؛؛؛

ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة، وفيها راغبة مشتهية، ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جعله خاتمة، كل ذلك رغبة في أخذ العفو، واسقاط الكلفة، ألا ترى معلقة امرىء القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل عن شدة المطر:

كأن السّباعَ فيه غرقى غديّة   بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات؛

وقد كره الحذّاق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء، لانه من عمل اهل الضعف، الا للملوك، فانهم يشتهون ذلك كما قدمت، مالم يكن من جنس قول ابي الطيب بذكر الخيل لسيف الدولة:

فلا هَجَمَتْ بها إلاّ على ظَفَرٍ   ولاوصلتْ بها الاّ إلى أمَلِ

ادرس في ضوء هذه الملاحظات البلاغية والنقدية ومادعونا اليه من منهج بناء النص الادبي النصوص الشعرية الآتية:

١ – قال أوس بن حجر:

أيتُها النفسُ أجمِلي جزَعا   إنَّ الذي تحذرين قــد وقعا

٢ – قال ابو الطيب المتنبي:

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا   وحَسْبُ المنايا أنْ يكنَّ أمانيا

٣ – قال أبو النجم في مدح هشام بن عبد الملك:

والشمس قد كادت ولما تفعلِ   كأنها في الافق عَيْنُ الأحوَلِ

٤ – قال أبو تمام في المدح:

صُبَّ الفراق علينا صُبَّ من كثبٍ   عليه اسحاق يوم الروع منتقما

سيف الامام الذي سمّته هيبته   لما تخرم أهل الارض مخترما

٥ – قال النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر:

وكفكفت مني عبرةً فرددتها   إلى النحر منها مستهل ودامع

على حين عاتبت المشيب على الصبا   وقلت ألمّا أصْحُ والشيب وازع؟!

٦ ـ قال ابو تمام:

ظلمتك ظالمةُ البريء ظلومُ   والظُلْمُ من ذي قدرةٍ مذمومُ
زعمت هواك عفَا الغداة كما عفت   منها طلولٌ باللّوى ورسومُ
لا، والذي هو عالم أنَّ النوى   أجلٌ وأنَّ أبا الحسين كريمُ
مازُلتُ عن سَنن الودادِ ولاغدَتْ   نفسي على إلْف سواك تحومُ

٧ ـ قال ابو الطيب المتنبي:

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه   بأن تُسْعِدا والدمع أشفاه ساجمه

٨ ـ قال احمد شوقي:

آذار أقبل، قُمْ بنا ياصاحِ   حيِّ الربيعَ حديقةَ الارواح

١٠ ـ قال الرصافي في قصيدته الدهر والحقيقة:

أصوغُ بها حُرَّ الكلام لخزعلٍ   مديحاً كعقد اللؤلؤ المتناسقِ

المصادر والمراجع

١ – الاتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي؛ القاهرة ١٣٦٨هـ
٢ – الأدب الصغير – آثار ابن المقفع ؛عبدالله بن المقفع ؛بيروت؛
٣ – أدب الكاتب: ابن قتيبة .تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،الطبعة الثالثة .القاهرة ١٣٧٧هـ – ١٩٥٨م؛
٤ – أساس البلاغة – جارالله الزمخشري؛ القاهرة؛
٥ – أسرار البلاغة : عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق ريتر ؛ استانبول ١٩٥٤م.
٦ – إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني؛ تحقيق السيد أحمد صقر؛ دار المعارف – القاهرة.
٧ – الاغاني ؛ ابوالفرج الاصفهاني ؛ طبعة دار الكتب المصرية وطبعة القاهرة ١٣٩١هـ – ١٩٧٢م؛ (ج١٩) .
٨ – الاقصى القريب في علم البيان ؛ محمد بن محمدبن عمرو التنوخي ؛القاهرة ١٣٢٧هـ ؛
٩ – الامتاع والمؤانسة ؛ ابو حيان التوحيدي ؛ تحقيق احمد امين واحمدالزين القاهرة ؛
١٠ – أنوار الربيع في أنواع البديع ؛ ابن معصوم المدني ؛ تحقيق شاكر هادي شكر . النجف ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م .
١١ – الايضاح ؛ الخطيب القزويني ؛ (باشراف محمد محيي الدين عبد الحميد) . القاهرة ؛
١٢ – البديع ؛ ابن المعتز ؛ طبعة كراتشكوفسكي . لندن ١٩٣٥م .
١٣ – البديع في نقد الشعر .أسامة بن منقذ ؛ تحقيق الدكتورين احمد أحمدبدوي وحامد عبد المجيد ؛ القاهرة ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م ؛
١٤ – بديع القرآن ؛ ابن ابي الاصبع المصري ؛ تحقيق الدكتور حفني محمد شرف: القاهرة ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧م ؛

١٥ ــ البرهان في علوم القرآن ؛ بدر الدين الزركشي ؛ تحقيق ابو الفضل ابراهيم ؛ القاهرة ١٣٧٦هـ ــ ١٩٥٧م ؛

١٦ ــ البرهان في وجوه البيان ؛ ابن وهب الكاتب . تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ؛ بغداد ١٣٨٧هـ ــ ١٩٦٧م ؛

١٧ ــ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ؛ ابن الزملكاني . تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ؛ بغداد ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م

١٨ ــ البلاغة ؛ المبرد ؛ تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ؛ القاهرة ١٩٦٥م

١٩ ــ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : الدكتور ابراهيم سلامة : الطبعة الثانية القاهرة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م ؛

٢٠ ــ البلاغة تطور وتاريخ . الدكتور شوقي ضيف ؛ القاهرة ١٩٦٥م؛

٢١ ــ البلاغة عند السكاكي . الدكتور احمد مطلوب . بغداد ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م؛

٢٢ ــ البلاغة الواضحة . علي الجارم ومصطفى امين ؛ الطبعة العاشرة . القاهرة ١٣٧٠هـ ــ ١٩٥١م .

٢٣ ــ بيان إعجاز القرآن ؛ الخطابي (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) دار المعارف القاهرة

٢٤ ــ البيان العربي ؛ الدكتور بدوي طبانه ؛ الطبعة الرابعة ــ القاهرة ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م ؛

٢٥ ــ البيان والتبيين: الجاحظ ؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون ؛ القاهرة ١٣٦٧هـ ــ ١٩٤٨م ؛

٢٦ ــ تاريخ النقد الادبي عند العرب ؛ طه احمد ابراهيم؛ الطبعة الثانية ــ بيروت؛

٢٧ ــ التبيان في علم البيان ؛ ابن الزملكاني . تحقيق الدكتور أحمد مطلوب ، والدكتورة خديجة الحديثي ؛ بغداد ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٤م

٢٨ ــ تحرير التحبير ؛ ابن ابي الاصبع المصري. تحقيق الدكتور حفني محمد شرف؛ القاهرة ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٣م ؛

٢٩ - التلخيص : الخطيب القزويني : تحقيق عبد الرحمن البرقوقي؛ الطبعة الثانية القاهرة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢م .
٣٠ - الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور : ضياء الدين بن الاثير تحقيق الدكتور مصطفى جواد وجميل سعيد : بغداد ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م
٣١ - الجامع لأحكام القرآن: القرطبي؛ دار الكتب - القاهرة؛
٣٢ - الجمان في تشبيهات القرآن. ابن ناقيا البغدادي: تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي؛ بغداد ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م؛
٣٣ - جواهر البلاغة. أحمد الهاشمي: الطبعة العاشرة. القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٦٠م؛
٣٤ - حاشية الدسوقي: محمد بن محمد عرفة الدسوقي (شروح التلخيص القاهرة ١٩٣٧م)؛
٣٥ - حدائق السحر في دقائق الشعر: رشيد الدين الوطواط؛ ترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربي - القاهرة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م؛
٣٦ - حسن التوسل إلى صناعة الترسل: شهاب الدين محمود الحلبي؛ تحقيق الدكتور أكرم عثمان: بغداد ١٩٨٠م؛
٣٧ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. جلال الدين السيوطي؛ القاهرة ١٢٩٩هـ.
٣٨ - الحيوان. الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد هارون؛ القاهرة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م؛
٣٩ - خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي؛ القاهرة ١٣٠٤هـ؛
٤٠ - الخصائص: ابن جني؛ تحقيق محمد علي النجار؛ القاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م؛
٤١ - دراسات في علم النفس الأدبي: حامد عبد القادر؛ ١٣٦٧هـ - ١٩٤٩م؛
٤٢ - دروس في البلاغة وتطورها. الدكتور جميل سعيد؛ بغداد ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.

٤٣ ــ دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني: تحقيق محمد رشيد رضا: القاهرة ١٣٧٢هـ.
٤٤ ــ ديوان جرير: القاهرة:
٤٥ ــ ديوان الرصافي. القاهرة. وطبعة وزارة الثقافة والاعلام ببغداد.
٤٦ ــ ديوان الفرزدق. القاهرة:
٤٧ ــ رسائل البلغاء محمد كرد علي: الطبعة الرابعة: القاهرة ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٤م:
٤٨ ــ سر الفصاحة. ابن سنان الخفاجي. تحقيق عبد المتعال الصعيدي القاهرة ١٣٧٢هـ ــ ١٩٥٣م.
٤٩ ــ سيرة ابن هشام (السيرة النبوية) ابن هشام. تحقيق مصطفى السقا وجماعته: القاهرة ١٣٧٥هـ ــ ١٩٥٥م.
٥٠ ــ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: الطبعة الرابعة عشرة. القاهرة ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م:
٥١ ــ الشرح الأطول: الاسفرايني: تركيا ١٢٨٤هـ:
٥٢ ــ الشعر والشعراء. ابن قتيبة. تحقيق احمد محمد شاكر. الطبعة الثانية. القاهرة ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٦م:
٥٣ ــ الصاحبي احمد بن فارس: تحقيق الدكتور مصطفى الشويمي: بيروت ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٤م.
٥٤ ــ طبقات فحول الشعراء. ابن سلاّم الجمحي: تحقيق محمود شاكر: الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٧٤م.
٥٥ ــ الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: يحيى بن حمزة العلوي: القاهرة ١٣٣٢هـ ــ ١٩١٤م:
٥٦ ــ عبد القاهر الجرجاني: بلاغته ونقده: للدكتور أحمد مطلوب: بيروت ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م.
٥٧ ــ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: بهاء الدين السبكي: القاهرة ١٣٧٠هـ.

٥٨ — العمدة. ابن رشيق القيرواني: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ — ١٩٦٣م؛
٥٩ — عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي: تحقيق الدكتور بن طه الحاجري ومحمد زغلول سلام. القاهرة ١٩٥٦م؛
٦٠ — العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي.
٦١ — عيون الأخبار: ابن قتيبة. دار الكتب — القاهرة.
٦٢ — فن التشبيه. علي الجندي. الطبعة الثانية — القاهرة ١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م؛
٦٣ — فن الجناس. علي الجندي: القاهرة ١٩٥٤م؛
٦٤ — فنون بلاغية. الدكتور أحمد مطلوب: بيروت ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م؛
٦٥ — الفوائد (المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) ابن قيم الجوزية: القاهرة ١٣٢٧هـ
٦٦ — الميزان الجديد: الدكتور محمد مندور: القاهرة — الطبعة الثانية:
٦٧ — القاموس المحيط. الفيروز ابادي؛
٦٨ — القزويني وشروح التلخيص. الدكتور أحمد مطلوب: بغداد ١٣٨٧هـ — ١٩٦٧م؛
٦٩ — قواعد الشعر. ثعلب: تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي: القاهرة ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م؛
٧٠ — الكامل: المبرد: تحقيق الدكتور زكي مبارك. القاهرة ١٣٥٥هـ — ١٩٣٦م؛
٧١ — الكتاب. سيبويه: بولاق — القاهرة ١٣١٦هـ وطبعة عبد السلام محمد هارون.
٧٢ — كتاب التمهيد: الباقلاني: تحقيق يوسف مكارثي: بيروت ١٩٥٧ م.
٧٣ — كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري: تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم: القاهرة ١٣٧١هـ — ١٩٥٢م
٧٤ — الكشاف: جار الله الزمخشري. القاهرة ١٣٧٣هـ — ١٩٥٣م؛
٧٥ — اللباب — جميل صدقي الزهاوي: القاهرة؛

٧٦ — لسان العرب ؛ ابن منظور ؛
٧٧ — اللغة الشاعرة ؛ عباس محمود العقاد، القاهرة ؛
٧٨ — المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير ؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد — القاهرة ١٣٥٨هـ — ١٩٣٩م وطبعة الدكتورين أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة ؛
٧٩ — مجاز القرآن ؛ ابو عبيدة ؛ تحقيق الدكتور فؤاد سزكين ؛ القاهرة ١٣٧٤هـ ١٩٥٥ م ؛
٨٠ — المزهر في علوم اللغة وانواعها ؛ جلال الدين السيوطي ؛ تحقيق محمد أحمد جاد المولى وجماعته ؛ القاهرة، — الطبعة الثالثة .
٨١ — المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ؛ بدر الدين بن مالك ؛ القاهرة ١٣٤١ هـ .
٨٢ — مصطلحات بلاغية ؛ الدكتور احمد مطلوب ؛ بغداد ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢م؛
٨٣ — المصون في الادب ؛ أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري ؛ تحقيق عبدالسلام محمد هارون ؛ الكويت ١٩٦٠ م ؛
٨٤ — المطول ، سعد الدين التفتازاني ؛ تركيا ١٣٣٠ هـ
٨٥ — معجم الادباء ، ياقوت الحموي ؛ طبعة مرغليوث وطبعة الرفاعي ، القاهرة .
٨٦ — المغني في ابواب التوحيد والعدل (الجزء السادس عشر) القاضي عبدالجبار الاسد آبادي ؛ تحقيق امين الخولي ؛ القاهرة ١٣٨٠هـ — ١٩٦٠م؛
٨٧ — مغني اللبيب ، ابن هشام الانصاري ؛ تحقيق محيي الدين عبدالحميد؛ القاهرة ؛
٨٨ — مفتاح العلوم ، السكاكي ؛ القاهرة ١٩٥٦ هـ — ١٩٣٧ م ؛
٨٩ — المفردات لغريب القرآن ؛ الراغب الاصفهاني تحقيق محمد سيد كيلاني ؛ القاهرة ١٣٨١ هـ — ١٩٦١م ؛

٩٠ — مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، القاهرة .

٩١ — مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون ، دار الكشاف — بيروت .

٩٢ — مناهج بلاغية ، الدكتور أحمد مطلوب — بيروت ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م .

٩٣ — منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، تونس ١٩٦٦ م .

٩٤ — الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، الآمدي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف — القاهرة .

٩٥ — مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، ابن يعقوب المغربي (شروح التلخيص) — القاهرة ١٩٣٧ م .

٩٦ — الموشح ، المرزباني ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٦٥ م .

٩٧ — نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ، القاهرة ١٣٨٢هـ — ١٩٦٣ م .

٩٨ — نكت الانتصار لنقل القرآن ، الباقلاني ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ، الاسكندرية ١٩٧١ م .

٩٩ — النكت في إعجاز القرآن ، الرماني (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) دار المعارف ، القاهرة .

١٠٠ — نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ، فخر الدين الرازي ، القاهرة ١٣١٧هـ .

١٠١ — النهاية في غريب الحديث والأثر ، أبو السعادات المبارك محمد بن محمد (ابن الأثير الجزري) تحقيق الزاوي الطناحي ، القاهرة ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م .

١٠٢ — الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، الطبعة الثالثة — القاهرة .

الموضوعات

الباب الثاني

علم المعاني

٨٣ — ٢٤٧

الباب الثالث

علم البيان

٢٥١ – ٤٠٧